AL - MARIFA

المعرفة

مجلة ثقافية شهرية

تصدرها وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية

العدد ٥٦٤ - السنة ٤٩ - رمضان ١٤٣١ هـ - أيلول ٢٠١٠م

ترسيم المستقبل
قافلة المعرفة

افتتاحية العدد

الدكتور رياض نعسان آغا
وزير الثقافة

كلمة العدد

المنتدى العربي الصيني

د. علي القيم — رئيس التحرير

الدَّحوار والمدرسة الدحوارية
د. محمد ياسر زكور

أزمات قوم عند قوم فوائد
د. هاري شهرستان

سقراط والتراث الفلسفي الإنساني
د. غالب سمعان

إخراج الميت من الحي
د. فيصل عبد الله

الوحدة الحضارية بين بلاد الشام وتركيا
د. خليل المقداد

ثنائيات في أدب الأطفال
د. ملكة أبيض

الساعة البيولوجية والزمن
المهندس فايز فوق العادة

في الظرف والظرفاء
فايز مقدسي



لحظة مع الذات - علي الكفري

الإبداع

تيارات الفلسفة الشرقية
عرض وتقديم: محمد سليمان حسن

حوار العدد — مع الأديب حسن حميد



المعرفة

AL - MARIFA

مجلة ثقافية شهرية

تصدرها وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية

العدد ٥٦٤ السنة ٤٩ - رمضان ١٤٣١ هـ - أيلول ٢٠١٠ م

دعوة إلى الكتّاب والمثقفين العرب

- ترحب مجلة المعرفة بإسهامات الكتّاب والمفكرين العرب في مجمل قنوات المعرفة الإنسانية
- يفضل أن يتراوح حجم المقال بين ١٥٠٠ - ٤٠٠٠ كلمة وحجم البحث بين ٤٠٠٠ - ٦٠٠٠ كلمة
- يُراعى في الإسهامات أن تكون موثقة بالإشارات المرجعية وفق الترتيب التالي:

اسم المؤلف - عنوان الكتاب - مكان الطباعة وتاريخها - رقم الصفحة مع ذكر اسم المحقق في حال الكتاب محققاً، واسم المترجم في حال الكتاب مترجماً

ترجو المجلة من كتابها أن يقرنوا إسهاماتهم بتعريف موجز لهم

- ترجو المجلة أن تردها الإسهامات منضدة على الحاسوب ومراجعة من قبل كاتبها
- تلتزم المجلة بإعلام الكتّاب عن قبول إسهاماتهم خلال شهر من تاريخ تسلّمها. ولا تُعاد لأصحابها
- يُرجى توجيه المراسلات إلى المجلة على العنوان التالي:

الجمهورية العربية السورية - دمشق - الروضة - رئيس تحرير مجلة المعرفة - تلفاكس ٣٣٣٦٩٦٣

www.moc.gov.sy

سعرُ النسخةِ ٢٥ ل.س أو ما يُعادلها
تُضافُ إليها أجرة البريد خارجَ القطر

الإشراف الطباعي: مطابع وزارة الثقافة

في هذا العدد

كلمة الوزارة

قافلة الحرية ترسم المستقبل

الدكتور رياض نعسان آغا
وزير الثقافة

كلمة العدد

المنتدى العربي الصيني ومهرجان الفنون

د. علي القيم
رئيس التحرير

الدراسات والبحوث

الإبداع

شعر :

قصة :

آفاق المعرفة

حوار العدد

متابعات

كتاب الشهر

آخر الكلام

كلمة الوزارة

الدكتور رياض نعسان آغا
وزير الثقافة

قافلة الحرية ترسم المستقبل

الحصار ليس على غزة وحدها، فقد كشفت جريمة إسرائيل في عدوانها الإجرامي على قافلة الحرية أنها تحاصر العالم كله، وتكبت الضمير الإنساني وتخنقه، وأنها لا تقيم وزناً لأية دولة في العالم، وأن القانون الوحيد الذي يحدد سلوكها هو

البلطجة والقرصنة والقوة التي لا تحدها أخلاق ولا قيم، وهذا كله ليس جديداً علينا، فقد نفذت الحركة الصهيونية مشروعها في الاستيلاء على فلسطين عبر عصابات إرهابية مارست السفك والقتل الجماعي والإبادة للشعب الفلسطيني ومن أشهر هذه العصابات «الهاجانا» و«الآرغون» و«شتيرن» وهي التي تخرج منها كبار قادة إسرائيل من ابن غوريون وموشي دايان ورابين إلى شامير وشارون وأولمرت. وثقافة القتل والإبادة هي التي تربى عليها نتنياهو وباراك وكل القادة الإسرائيليين الذين يعتقدون أنهم فوق البشر، وأن على العالم كله أن يكون في خدمة إسرائيل وضامناً لأمنها، وعليه أن يقر بأنها فوق كل القوانين والشرائع الدولية. وهذه الثقافة يرسخها كبار الحاخامات من أمثال عوفاديا يوسف الذي دعا الله أن يبيد العرب وأن يقطع نسلهم، وأفتى بقتلهم وقصفهم بالصواريخ! ونحمد الله أن هذه الثقافة المريضة لم تنعكس في ثقافتنا العربية الإسلامية والمسيحية في ردّات فعل غوغائية فما نزال وسنبقى ننهل من ثقافة الاعتراف بالآخر، والتفريق بين اليهودي وبين الصهيوني، وبين من يعتدي علينا وبين من يريد العيش معنا بسلام فنضمن نحن له أمنه وسلامته. لكن ثقافة قادة إسرائيل التي يربون عليها أطفالهم وجنودهم هي ثقافة الموت للآخر وعدم الاعتراف بحقوق الآخرين «الغوييم»، إنها ثقافة عنصرية أنانية، حاقدة ومستعلية ومريضة تنافي كل القيم الإنسانية. وهذا ما يفسر سهولة اتخاذ الحكومة الإسرائيلية قراراً بمواجهة قافلة الحرية بالعنف والقتل والعدوان الهمجي على مدنيين عزل. ولأن إسرائيل تعرف أنها ستكون مدانة حتى من قبل بعض أنصارها

الذين سيخجلون من أنفسهم، فقد زعمت أن رجال الفكر والثقافة والأحرار من أصحاب الضمير الحي الذين هبوا لتقديم معونات غذائية ودوائية لشعب يموت أطفاله جوعاً ومرضاً في حصار ظالم، زعمت أنهم يحملون فؤوساً وسكاكين، وأنهم هم الذين اعتدوا على الجنود الإسرائيليين الذين تأهبوا لمهاجمة القافلة من قبل أن تنطلق. وقد كان واضحاً أن إسرائيل تستعد لمواجهة القافلة بعملية إرهابية منذ أن أعلنت قبرص منع النواب الستة والعشرين وبينهم نواب أوروبيون من التوجه إلى غزة عبرها، ويبدو أن بعض الدول الأوروبية ضغطت باتجاه عدم مشاركة نوابها كي لا تواجه حكوماتها حرجاً أمام شعوبها وبرلماناتها لأنها تعلم أن إسرائيل تستعد لمنع القافلة عبر اقتحام إرهابي. ولم يكن ذلك يحتاج إلى تحليل فقد أعلنه وزير الخارجية الإسرائيلي بوضوح حين قال: «لدينا كل العزم والإرادة لمنع هذا التحرش ضدنا، ونحن مستعدون مهما كان الثمن لمنعه»، وقد اعتبر سفن الإعانة والإنقاذ الإنساني تحرشاً لأن ثقافته العدوانية لا توجد في مفرداتها معاني القيم الإنسانية كالإغاثة والنجدة والشهامة.

لقد كان بوسع إسرائيل أن تستقبل السفن وأن ترحب بالقادمين، وأن تأخذ المواد الغذائية والطبية وتعد بإيصالها إلى شعب غزة، كرامة للشعوب والأمم المشاركة في القافلة، ولكن مثل هذا التصرف يحتاج إلى أخلاق ومروءة إنسانية لا يعرفها الإسرائيليون الذين كان أولى بهم أن يقدروا أهمية مكانة تركيا في المنطقة وفي العالم، وهم الذين اشتغلوا قرناً كاملاً لإبعاد تركيا عن العرب منذ أن تسلل يهود الدونمة إلى السلطة العثمانية في أواخر أيامها

ووصل كثير منهم إلى مواقع قيادية في تركيا بعد أن زعموا أنهم دخلوا في الإسلام أو في المسيحية، وحكاياتهم شهيرة في العالم الإسلامي، وكان هدفهم القضاء على الدولة العثمانية وتفتيتها من الداخل، وقد نجحوا ولم يعودوا مضطرين للتستر بدين غير دينهم فقد بات لهم حضور كبير في تركيا الحديثة التي حرصت عبر عقود من القرن العشرين على إقامة علاقات ودية مع إسرائيل، على رغم أن مشاعر أبناء الشعب التركي هي مع أخوتهم وشركائهم العرب ومع أشقائهم الفلسطينيين مثل كل شعوب وأمم العالم الإسلامي التي تقيم حكوماتها علاقات ودية مع إسرائيل، لكن شعوبها لا تستطيع أن تقبل ما ترى من عدوان وظلم. ولقد تحولت تركيا تحولاً تاريخيّاً حين وصلت إلى الحكم عبر الديموقراطية حكومة تمثل بصدق وجدان الشعب التركي، وتحمل مع كل العالم الإسلامي مشاعر مقدسة نحو القدس والمسجد الأقصى وتتعاطف بدوافع إنسانية وليست دينية فحسب مع الشعب الفلسطيني الذي لا يمكن لأحد في العالم أن ينكر حقه في تحرير أرضه وفي إقامة دولته المستقلة. لكن إسرائيل برعونة واستخفاف بكل القيم لم تعرف قدر ومكانة تركيا، بل لم تعرف قدر ومكانة أربعين دولة شارك أبناؤها في سفن الحرية، لقد كشفت بغباء ورعونة واستهتار عن كونها دولة مارقة لا تحترم أحداً، ولا تعرف غير منطق القوة الوحشية التي لم يقبلها بعض الإسرائيليين، فقد قرأت كتابات إسرائيلية كثيرة تنتقد سلوك حكومة إسرائيل وبعضها طالب باراك ونتنياهو بالاستقالة، ليس لأن هؤلاء المنتقدين حزنوا على من قتل أو من جرح من المدنيين، ولكنهم أدركوا أن إسرائيل تعرّت بشكل فاضح جدّاً

أمام المجتمع الدولي، وأنها لن تستطيع تبرير جريمتها التي صارت ضد العالم كله، وهي تحرج الولايات المتحدة التي بدت دولة ضعيفة أمام إسرائيل مضطرة أن تسايرها حتى وهي ترتكب الجرائم. بل إنها تجعل ماقاله أوباما للعرب والمسلمين كلاماً لا معنى له، وهي كذلك تحرج أوروبة وقد بدت بعض حكوماتها شبه مهزومة أخلاقيّاً أمام حقيقة إسرائيل الإجرامية.

وعلى رغم مشاعر الحزن التي تملأ قلوبنا على أشقائنا الأتراك الذين ضحوا بأرواحهم انتصاراً لقضية إنسانية بامتياز، ومع ما يملأ نفوسنا بالأسى المرير لما عاناه الأبطال من جنسيات وأعراق وأديان متعددة، من الذين هبوا لنجدة شعب غزة ولكسر الحصار وهم يعلمون أنهم سيواجهون الإرهاب الإسرائيلي وسيتعرضون للقتل أو الأسر وللمعاملة الوحشية، فإننا نعتقد أن من ضحوا بأرواحهم ومن رماهم الجنود الإسرائيليون في قعر البحر بعد أن قتلوهم لم تذهب دماؤهم هدراً، فما حدث يصح عليه القول العربي الشهير «رب ضارة نافعة» فقد انكسر الحصار النفسي الذي استمر أربع سنوات، وعبر الضمير الإنساني عن كونه ما يزال حيّاً وأنه يرفض ما تقوم به إسرائيل من قهر لشعوب العالم التي لم يعد أحرارها يتحملون العبء الأخلاقي الضاغط على قلوبهم وقيمهم وهم يرون شعباً يتعرض لإبادة جماعية عبر حصار عنصري ظالم وهمجي.

وأتوقع أن تتدفق قوافل الحرية تباعاً على رغم كل العنف الذي ستواجه به إسرائيل أحرار العالم، وسيكشف سلوكها العدواني أنها دولة قراصنة وعصابات إرهابية، وهي التي عاشت قرناً على أكذوبة الاضطهاد الذي تعاني

منه من العرب الذين تأكد المجتمع الدولي من حرصهم على السلام ومن جدية استعدادهم له، مثلما تأكد من كون إسرائيل لا تستطيع أن تعيش في سلام لأنها دولة قامت على العدوان وعلى الحروب، وبات واضحاً أن صراعها مع العرب هو صراع وجود وليس صراع حدود، وأن مشروعها الصهيوني قائم على عقيدة عنصرية غير قادرة على الانسجام مع المجتمع الإنساني، ولقد آن أن يفيق الواهمون من وهم إمكانية أن تقبل إسرائيل بالسلام، وآن للعرب أن يستعدوا لما تخبئه لهم إسرائيل من مآس وفواجع.

كلمة العدد



المنتدى العربي الصيني ومهرجان الفنون

د. علي القيّم
رئيس التحرير

في الفترة الواقعة بين (١٨ و٢٥) حزيران الماضي عقدت في بكين عاصمة الصين الندوة الثقافية العربية الصينية، والدورة الثانية لمهرجان الفنون العربية بمشاركة /١٣/ دولة عربية وجامعة الدول العربية وسبعة وزراء وأربعة نواب وزير، وكان عدد أعضاء الوفود أكثر من (٥٠) شخصية فكرية وثقافية وفنية وإعلامية، وشاركت الصين بوفد ضخم ضمّ شخصيات كبيرة، برئاسة وزير الثقافة الصيني ومعاونته، وكانت الوفود العربية

برئاسة الدكتور رياض نعسان آغا، باعتباره رئيس مجلس الوزراء المسؤولين عن الشؤون الثقافية في الوطن العربي في دورته الحالية..

تأتي هذه الندوة وهذا المهرجان في إطار السعي المتواصل لفتح آفاق رحبة للحوار العربي- الصيني، وكان رئيس الوفد العربي الدكتور نعسان آغا واعياً لهذه المسألة التي تعمّق التواصل بين حضارتنا العربية العريقة وبين الحضارة الصينية الراسخة في وجدان العالم، وكنّا في سورية وفي بلداننا العربية كلها، نتابع تواصلنا مع أصدقائنا الصينيين، عبر ازدياد حجم التبادل التجاري، والتعاون المستمر في عمليات التنمية ، والحضور الثقافي المتصاعد عبر تبادل الأنشطة والفرق الفنية والحوارات والمنتديات التي تعمّق المعرفة بين شعبينا، وقد كبر هذا التواصل واتسعت دائرته من عام ٢٠٠٤ حيث تأسست شراكة جديدة بين الأمة العربية، وبين أمة الصين.. دَعَمها في البداية السفراء العرب في بكين، وسفراء الصين في الدول العربية، وحظيت بدعم كبير من جامعة الدول العربية التي وقّعت على تأسيس منتدى التعاون الصيني- العربي، وكانت اللقاءات التي تمَّت خلال السنوات الماضية، ضمن رؤية هذه الشراكة المتجددة، تعبيراً عن عمق العلاقات التاريخية بين العرب والصين، وهي علاقات ودّية لم تشبها شائبة عبر التاريخ كلّه، ويحق لنا، كما أشار وزير الثقافة في أكثر من مناسبة في الندوة واللقاءات العديدة التي تمّت على هامشها: «أن نفخر نحن -العرب والصينيين- بأن تاريخنا المشترك ناصع عبر آلاف السنين لم يعكّر صفوه أية مشكلات على الإطلاق».

إن هذا التاريخ النقي الثري، وكون العرب منتجي حضارات، ومؤسسي ثقافات، يمنحنا قدرة أكبر على رسم مستقبل نحقق فيه مزيداً من التعاون لتحقيق مصالح شعبينا العربي والصيني، وبوسعنا اليوم، أن نؤكد على أن من أهم أسباب نجاح علاقاتنا المشتركة، ما نراه من ترسيخ للاحترام المتبادل وللمشاعر الودّية الطيّبة التي يحملها كل طرف نحو الآخر.. والتواصل الثقافي يشكّل بيئة خصبة

لمزيد من التفاعل ستكون نتائجه لصالح المجتمع الإنساني كله، فما نقوم به من تواصل وحوار يسهم بشكل كبير في تحقيق ما تسعى إليه البشرية من دعم للتنوع الثقافي، ومن ثراء وغنى للتعددية في الثقافة الإنسانية.

❁ ❁ ❁

لقد زرت الصين ثلاث مرات، الأولى، بدعوة خاصة من وزارة الثقافة الصينية في عام ٢٠٠٤، واستمرت نحو أسبوعين، تعرفت خلالها على معالم مدهشة وساحرة من معالم هذا البلد العريق بحضارته وتاريخه وإنجازاته وفنونه، وشملت الدعوة مدينة شنغهاي، التي لا تشبه إلا نفسها، فهي نموذج لصورة المدن الكبرى في عالم الغد، التي نسجت التقليد والحداثة في لوحة الحداثة، وبالغت في العصرنة من غير أن يفقد الماضي رونقه، وقد جمعت الصخب والهدوء في آن واحد، عمرانها متنوّع مثل طقسها، وهي أكبر مدينة في العالم بملايينها العشرين، وفيها أعلى برج تلفزيوني في العالم، وأطول شارع للتسوق (طوله ٥,٥كم) وأكبر متحف يضم (١٢٠ ألف قطعة فنية وأثرية نادرة) وأكبر عدد من ناطحات السحاب في العالم (أكثر من ستة آلاف)، وهي اليوم تستضيف النسخة الأحدث من المعرض العالمي «الاكسبو» في سنته السابعة والخمسين بعد المئة، بمشاركة (٢٤٢) دولة ومنظمة وهيئة عالمية، ويستمر حتى نهاية شهر تشرين الأول المقبل، ويتوقع أن يشهد أكثر من عشرين ألف نشاط فني وثقافي تحت عنوان «مدينة أفضل، حياة أفضل»..

وشملت الزيارة مدينة بكين، العاصمة التي استضافت في عام ٢٠٠٨، دورة الألعاب الأولمبيّة العالمية، وشاهدت في الزيارة الأولى مدى الاستعدادات التي تمت لاستضافة هذه الدورة ومدى جديتها وحيويتها التي تابعتها عام ٢٠٠٦، وتركت أثرها الواضح على معالم المدينة في عام ٢٠١٠، لقد تغيّرت معالم كثيرة وأضيفت معالم جديدة شاهدة على حجم التطور الذي بلغته هذه الدولة العملاقة، التي انتشلت نفسها في عقود زمنية قليلة من دولة نامية فقيرة، إلى مصاف ثاني أكبر اقتصاد في العالم..

لقد اعترتني الدهشة في الزيارات الثلاث، حيث لاحظت بوضوح حجم التغيير في البنية التحتية ونمط الحياة والانتقال من العادي إلى الحداثة المفرطة.. وكثيراً ما قلت: هذا القرن، هو قرن الصين بلا منازع.. لقد أصبحت الصين مصنع العالم..

الزيارات السياحية، كالعادة، تبدأ بالقصر الإمبراطوري في بكين، الذي يحتل مساحة تقدر بنحو (٧٢٠,٠٠٠)م٢ وتمّت معظم أعمال الإنشاء فيه في عام ١٤٢٠م من قبل إمبراطور أسرة «مينغ» الملكية «جو-دي».

ويصل إجمالي مساحة مباني القصر إلى أكثر من /١٥٠,٠٠٠/م٢ وتضم أكثر من /٨٠٠/ مبنى و(٨٧٠٤) غرفة، ويحيط بالمدينة المحرّمة سور يبلغ ارتفاعه /١٢/م، وطوله /٣٤٠٠/م، ويوجد خارج هذا السور، نهر اصطناعي يبلغ عرضه /٤٢/متراً مما يجعل القصر قلعة حصينة.

في الزيارة الأخيرة أعطونا مسجلة متطورة جداً تشرح باللغة العربية تاريخ القصر الذي تتميز مبانيه بهياكلها الخشبية، والقرميد الأصفر المزجج، والقواعد الصخرية البيضاء والرسوم الذهبية الزاهية، وبوّاباته الأربع الرائعة، ووفقاً للوظائف المختلفة ينقسم القصر الإمبراطوري إلى جزأين وهما: الجزء الأمامي والجزء الداخلي، وكل جزء يختلف عن الآخر من حيث الأساليب العمرانية، وكان الإمبراطور يمارس سلطاته في الجزء الأمامي، ويقيم اجتماعات ومراسيم ضخمة، وتتوسطه ثلاثة أجنحة، وكان الإمبراطور يمارس أعماله اليومية في الجزء الداخلي، وتقيم فيه عائلته، وفيه الحديقة الملكية الرائعة الجمال والتنسيق.

في زيارتنا الأخيرة أراد الأصدقاء الصينيون أن يعرفونا على معلم جديد، في بكين، إنه بناء المسرح الوطني، الذي يقع في وسط المدينة، ويجاور قاعة الشعب الكبرى وميدان «تيان آن مون» وتبلغ مساحته نحو (١١٩,٨) ألف متر مربع، وتبلغ مساحته العمرانية (٧١٧,٥) م٢، ويتميز بشكله العمراني البيضاوي الفريد، الذي

يصل ارتفاعه (٤٦,٦٨) م وعمقه (٣٢,٥٠) م، ومحيطه أكثر من (٦٠٠) م، وصنعت سطوح الهيكل البيضاوي من (١٨٣٩٨) لوحة تيتانيوم، وأكثر من (١٢٢٦) قطعة من زجاج فائق البياض، مما خلق تأثيرات مرئية جميلة، ساحرة، ويحيط بالمسرح بحيرة اصطناعية تصل مساحتها إلى (٣٥,٥) ألف متر مربع، ومساحات كبيرة من الأشجار والأعشاب التي جعلت مناظر المسرح الخارجية تمثل مفهوم الانسجام بين الإنسان والطبيعة، ويضم المسرح ثلاثة مسارح احترافية أهمها: مسرح الأوبرا في الوسط الذي يضم (٢٣٩٨) مقعداً، وقاعة الموسيقا في الشرق التي تضم (٢٠١٩) مقعداً، ومسرح الدراما في الغرب ويضم (١٠٣٥) مقعداً وخصص للدراما والأوبرا الصينية..

❀ ❀ ❀

زيارات الصين أتاحت لي مشاهدة معالم سور الصين العظيم من مناطق متعددة، وفي الزيارة الأخيرة اختاروا لنا منطقة «موتيايو» السياحية التي تقع في جزء عريق وحضارة مشرقة، ووفقاً للوثائق التاريخية، فسور الصين في «موتيايو» تمَّ تشييده على أنقاض سور أسرة «تشي» الشمالية، وذلك بإشراف «شيودا» القائد المهم «لجويوان جانغ» أو إمبراطور لأسرة «مينغ» الملكية، وفي عام ١٩٨٧ تمَّ اختيار وإدراج سور الصين بـ«موتيان يو» إلى قائمة الأماكن السياحية الستة عشر الجديدة في بكين، ويتميّز سور الصين في هذه المنطقة بأساليبه المعمارية الفريدة حيث القلاع الكثيرة والبوابات الاستراتيجية والفتحات العديدة في جانبي السور، وفي جنوبه الشرقي تقع منصة «جنغ قوان» التي تشتهر بجمعها ثلاث قلاع في منصة واحدة وتعد تحفة فنية لا مثيل لها في سور الصين كله، وفي الشمال الغربي، يقع ما يسمّى بـ«ظهر القوس وسقوط الصقر» وقد بني على جبل بارتفاع أكثر من /١٠٠٠/م فوق سطح البحر، ويشتهر بالسور المتعرّج والمناظر الخلابة، حيث بني السور فوق الجبال، ويتأرجح كأنه «تنين طائر».

يمتد سور الصين من قلعة «جيايو يقوان» بمقاطعة «قانسو» غرباً إلى قلعة «شانها يقوان» بمقاطعة «خبي» شرقاً، قاطعاً /٦٣٥٠/كم، ويقول علماء الآثار: «إذاً وصلت كل الأسوار التي تهدمت في مدة ألفي سنة، من القرن السابع قبل الميلاد، إلى القرن السادس عشر الميلادي في كل الأسر الملكية المختلفة لتجاوز طولها الإجمالي خمسين ألف كيلو متر، أي أطول من مدار الكرة الأرضية» ويعد هذا السور رمز الصين بكل ما في هذا المعنى من مدلولات، وثمّة مثل صيني يقول: «الذي لا يصعد سور الصين العظيم ليس من الرجال الأقوياء» والحمد لله صعدنا السور بعزم وحيوية وقوة في الزيارات الثلاث..

بكين، هذه العاصمة المترامية الأطراف، التي يبلغ عدد سكانها -وفق الإحصائيات الأخيرة- نحو عشرين مليون نسمة، وجدناها في الزيارة الأخيرة أكثر اتساعاً وإشراقاً ونظافة وحيوية.. صحيح أن ملامحها العامة مازالت شرقية تحتفظ بكثير من معالمها القديمة المميزة وآثارها المتنوعة، وما زال القصر الإمبراطوري أعظم وأفخم القصور في العالم، وقد أصبحت بوابته الجنوبية رمزاً لبكين التي تطورت كثيراً في المناشط العلمية والثقافية الحديثة، وتعد اليوم أكبر مركز علمي وثقافي في هذه «القارة المترامية الأطراف» حيث تقع فيها أكبر مكتبة بالصين، وأكبر المنشآت الرياضية وأعظم المستشفيات وفيها /١٢٠/ متحفاً جعلت الناس يطلقون عليها اسم «مدينة المتاحف»، وفي بكين نحو /١٠٠/ جامعة، منها جامعة «بكين»، وجامعة «تشينغوا» اللتان تخرج منهما كبار العلماء المتخصصين في العلوم والدراسات الأكاديمية والاجتماعية..

ملامح بكين تغيّرت نوعاً ما، مع تطور الحياة الاقتصادية والاجتماعية، ويلاحظ ازدياد عدد البنايات الضخمة الشاهقة، وتطور الطرق والمواصلات داخل المدينة، وتوسع الحدائق الخضراء الجميلة ما جعلنا نردد القول: «لقد أصبحت بكين أطول وأجمل وأكثر حيوية وإشراقاً».

وحتى تكتمل ملامح الصين وحضارتها لابد من تذوّق طعامها، الذي يعدّ من ثقافتها، وله تاريخ عريق يعود إلى آلاف السنين، فهناك أكثر من /٥٠٠/ طبق سجلت في برامج الأطعمة الصينية الشهيرة، ويوجد لكل مقاطعة أو منطقة قومية أطباقها الخاصة..

ومادام الصينيون يعتبرون تناول الطعام نوعاً من الثقافة، أي ثقافة الأكل، لذلك لا يهتموّن باللون والطعم والرائحة والمنظر وتركيب الأكل فحسب، بل يهتمون ببيئة وجو تناول الطعام إذ لا يمكن أن يتمتع الإنسان بثقافة الطعام الصيني على أكمل وجه إلا بتناوله في مبنى ذي أسلوب معماري صيني مع خدمة صينية الأسلوب.

❁ ❁ ❁

في اليومين الأخيرين من زيارتنا للصين ذهبوا بنا إلى مقاطعة «نينغشيا» وإلى عاصمتها «بيينشوان» التي تقع شمال غرب الصين، وتبلغ مساحتها نحو /٦٤/ ألف كيلومتر مربع وعدد سكانها نحو ستة ملايين نسمة، وتسكنها قومية «هوي» المسلمة التي استقبلنا حكامها وزعماء الحزب والدولة بفرش البساط الأحمر عند سلم الطائرة، وكانت لنا معهم لقاءات مفعمة بالحب والود والتقدير الكبير..

تقول الإحصاءات والدراسات التاريخية إن أبناء «هوي» في الصين هم أحفاد التجار العرب والفرس الذين جاؤوا إلى الصين للتجارة في القرن الثالث عشر الميلادي، وتلاحموا مع قومية «هان» وقومية «الويغور» وقومية «منغوليا» وغيرها، ويتميز أبناء هذه القومية، الذين كانوا يستقبلوننا في أي مكان ذهبنا إليه بـ«السلام عليكم». بمهاراتهم التجارية والإدارية، ويعملون في مناطق زراعية، ويعتمدون على تربية المواشي ومزاولة الحرف اليدوية.. أما سكان المدن منهم فيعملون بالتجارة وصناعة الخدمات، ويهتمون جيداً بأزيائهم التقليدية المميزة،

وهم متأثرون في عاداتهم وتقاليدهم بالدين الإسلامي الحنيف، فهم لا يأكلون لحم الخنزير ولا يشربون الخمر ولا يدخنون، وأعيادهم الرسمية: عيد الفطر السعيد وعيد الأضحى المبارك، ويلاحظ أن أئمة المساجد لايزالون يستخدمون اللغة العربية في الشؤون الدينية، وأن الحريّة الدينية متاحة للجميع..

لقد فتحت المساجد في مختلف المناطق، ورممت الأوابد الإسلامية في المدن والمقاطعات المختلفة وبلغ عدد المساجد المسجّلة في الصين حتى نهاية القرن العشرين نحو /٣٤٠١٤/ مسجداً..

بقي أن نشير إلى الاهتمام الكبير الذي بذلته الصين لحماية آثارها وأوابدها التاريخية، وقد حققت أروع المنجزات في هذا المجال، وشملت إنقاذ وحماية ما يزيد عن /١٠٠٠/ مشروع حماية وترميم وصيانة وتوظيف أثري، وبفضل ذلك استرجع عدد كبير من الآثار القديمة التي أشرفت على الانهيار والتحطم حيويتها، -وحتى الآن- اختارت الجهات المعنية في الآثار والمتاحف /١٠٠/ مدينة ذات شهرة حضارية وتاريخية على المستوى الوطني، وأكثر من /٨٠/ مدينة ذات شهرة حضارية وتاريخية على مستوى المقاطعة، وتضم حماية هذه المدن: حماية معالمها الأثرية ومواقعها التاريخية، وكذلك حماية منظومة تخطيطها العمراني الأصيل وملامحها المتميزة وثقافتها التقليدية، وقد أدرجت الصين -حتى الآن- /٢٨/ موقعاً أثرياً ثقافياً وطبيعياً في قائمة «التراث العالمي» للإنسانية لدى منظمة «اليونسكو» وبذلك احتلت المركز الثالث في العالم.

بكين: ١٨-٢٥ حزيران ٢٠١٠



الدراسات والبحوث



الدراسات والبحوث



سـقراط والتراث الفلسفي الإنساني

❁
د. غالب سمعان

اهتـم الفيلسوف اليونـاني سقـراط Socrates (٤٧٠-٣٩٩ ق.م.) في بدايـة حياته الفلسفيـة، بالابتكارات الفكرية المأثورة عـن المدرسة الأيونية Ionic School التـي اهتـم روَّادهـا طاليـس Thales (٦٢٤-٥٤٧ ق.م.) وأنكسيمانـدر Anaximander (٦١٠-٥٤٦ ق.م.) وأنكسيمنـس Anaximenes (٥٨٨-٥٢٥ ق.م.) بالعـالم المـادي الطبيعي، واجتهدوا في تفسيره، وتعليل ظواهره المتعددة، وردها إلى أصل واحد، فالأول قال بأن الماء

❁❁ كاتب ومترجم سوري.

العمل الفني: الفنان جورج عشي.

أصـــل الأشياء طرًّا، والثاني قال باللامُحدَّد، والثالث قال بالهـــواء. وأيضاً اطلع سقراط على فكــر أنكساجوراســ Anaxagoras (٥٠٠-٤٢٨ ق. م.) الذي أدخل الفلسفة إلى أثينا، وقال بالروح المدبِّرة للعالم، وهو

ما استدعــى تقديرا عاليا من أفلاطون Plato (٤٢٨-٣٤٧ ق. م.) وأرسطــو Aristotle (٣٨٤-٣٢٢ ق. م.). علــى أن الفيلســوف سقراط تخلى عــن دراساته في العلم الطبيعي، وانصرف إلى دراسة السلوك الإنساني القــويم، والوصــول إلى تعريفات كلية للفضائل الأخلاقية المكوَّنة من الحكمة والشجاعة والاعتــدال والعدالة، ويبدو أنه اندفــع في هذا الاتجاه تحت تأثير استعداده الأخلاقي القبلي، وليس باختيار معزول عن استعـــداده، وفي كل الأحـــوال رأى السياسي والكاتب الروماني ماركوس توليوس شيشرون Marcus Tullius Cicero (١٠٦-٤٣ ق. م) أنــه أحدث ثورة في تاريــخ الفلسفة عندما أنزلها من السماء إلى الأرض، وجعلها على صلة وثيقــة بالحياة الإنسانية، بالمعنى الوجودي للكلمة. والواقع أن إرادة الحقيقة حفزته مــن الداخــل إلى القيــام بأفعاله، وإعلان أفــكاره الأخلاقية، وهــو ما يعني أن الحقيقــة التي عناها إنمــا هي حقيقة أخلاقية، وأكثر من هذا فإنه ربط الحقيقة بالخير والأخلاق الفاضلة، وجعل المنطق أداة الأخلاق التي تهــدف إلى الإصلاح والنفع، وكثيرا ما انتقد الشعراء الذين يفتقرون إلى المعرفة الواسعــة، وإلى الإرادة القادرة على إدراك تعريفات الفضائل الأخلاقية، بالمعنى الكلي للكلمة، وأيضاً اتهم السياسيين بأنهم مسؤولون عن انحطاط المدينة، وربما تكون الصلة التي ربطته بالإله أبولُّو Apollo من الأحــوال الهامة في حياتــه، وكثيراً ما أشار في محــاورة (أقريطون) إلى ما دعاه الهاتف الباطني، واستبعد أن يكون قادرا على الخلق، واكتفى بــأن أعلن جهله بالحكمة والحقائق الأخلاقيــة، وسعيــه الدؤوب الهــادف إلى معرفتها، وأخيراً أدرك أن النبوءة التي أعلنت أنــه الأكثر حكمة، نبوءة صادقة تماما، وأما الحقيقة فقد رأى أنها قائمة داخل نفوسنا، وعبر منهاج قائم على معرفة النفس، وتوليد الحقائــق الكامنة فيهــا، استطاع أن يعرف نفسه، وأن يُعرِّف الكثيرين على أنفسهم.

وإنــه لمن الهام الإشـــارة إلى أن إشكالية الهاتــف الباطنــي ذي الطبيعــة الإلهيــة، تعني بطريقــة أو بأخرى، أنه روحي الميول، وأن البحــث في تكوين العــالم المادي، وتبنِّي اعتقــادات ماديــة في هذا السيــاق، ليست مما يتوافق مع تكوينــه الجواني، وبطريقة عقلانية اهتمَّت بالحدس Intuition طوَّر

أفلاطون هــذه النزعة التي تنطوي علــى إمكانيــة الوحــي، أو القدرة على الإنصــات إلى الهاتف الباطني ذي المصــدر العُلــوي، وأنشأ نظرية المُثل الأفلاطونيــة، على أن أرسطو زاوج بــين الواقعية والمثالية، وهناك مــن أثنى علــى البــذور المادية في فكره الفلسفــي وطوَّرها، ومن أثنى على البــذور المثالية وطوَّرها أيضاً. وبشــأن سقــراط وأفلاطون يعترف الجميــع بأنهمــا مــن ذوي الميــول الروحية، وعلى افتراضــ أننا أمام نماذج روحية كاللبناني جبران خليل جبران (١٨٨٣-١٩٣١) وابن الفارض (١١٨١-١٢٣٤) العباســي، فإنه لمن المتوقع أن يفضلا سقراط بالدرجة الأولى، وأفلاطــون بالدرجة الثانية، وأن يهتما بما هو مثالي روحي لدى أرسطو. وسقــراط أكثر أهمية لدى الروحيــين لأنه أنصــت إلى الهاتف الباطني أو الوحي، وانطوى على هذه القدرة، وأما أفلاطون فلعله أقل شأناً في هذه الناحية تحديداً، لأنه اتخذ العقلانية سبيلا للوصول إلى هــذه الكيفيات العُلوية، في الوقت الذي اتخذ فيه سقراط العقلانية سبيلا لتعريف



الفضائل الأخلاقية تعريفات كلية، والتدليل على أنها قابلة للتعليم والتلقين. ومثلما اتكل سقراط على الهاتــف الباطني فإن الشاعر اليوناني القديم هيزيود

(Lived 8th Century BC) Hesiod

اتكل علــى إلهام ربَّات الفنــون اللاتي أقمــن على سفــح جبل هيليكــون، ووهبنه

القــدرة علــى النظــم الشعــري، وأجرين الدر على لسانه، ووفــق الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشة Friedrich Nietzsche (١٨٤٤-١٩٠٠) فإن الاتكال على وحي الإله أبولُّو، أو وحي ربَّات الفنون، إنما هو وسيلة قــادرة على إضفاء الشرعية والقانونية على المضمــون الإبداعــي، فالفيلسوف سقراط اهتم بفضائل الحكمة والشجاعة والاعتدال والعدالة، والشاعــر هيزيود اهتم بالعدالة، وبالفضائــل الأخلاقية بصورة عامة، وفيما يتعلق بالعدالة تحديدا، رفض سقراط الرد على الظلم بظلم يُماثله، في الوقت الذي أيَّد فيه هيزيــود في قصيدته (الأعمال والأيام) الرد على الظلم بطائفة من المظالم. والواقع أن ادعاء الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشة لا يعنــي أبدا أن سقــراط لم يختبر الهاتف الباطنــي، أو أن هيزيود لم يختبر إلهام ربَّات الفنــون، بل يعنــي أننا أمام نمــاذج بشرية تنطــوي على ما هــو روحي تمامــا، وعلى ما يدعو إلى التأمل بشــأن إشكالية الهاتف الباطنــي، والطبيعة الجوهرية التي تربطها بالعقــل أو الروح، وتجعــل منها خبرة ذاتية قبل أي شيء آخر.

علــى أن روّاد الحركــة السفسطائيــة Sophisticism سبقــوا الفيلســوف سقــراط إلى الاهتمــام بالحيــاة البشريــة والسلــوك الإنساني عندما أعلنوا أن البحث الكوزمولوجــي Cosmological في أصل الكون وطبيعته، غير نافع، وفي أيامهم تشعَّبت الاهتمامات لدى عامة الناس، وأصبح السياق الاجتماعــي محكوما بالقوانــين الموضوعة، والأعــراف المتوارثة، ونشأت الحاجة القوية إلى تعلــم الخطابة والبيــان، وهو ما قام به السفسطائيــون الذين اهتمــوا بالكيفيات التي يستطيــع الإنسان استخدامها، وانتزاع حقوقــه ممن يرغــب في مُنازعتــه عليها. وانطلاقا من أنهم اهتمــوا بالدليل البياني القــوي ظاهريا، فإنهــم أغفلوا في كثير من الأحيان، ما إذا كانــت الحقوق مشروعة أم ليست حائزة على الشرعية القانونية، وربما يكــون بروتاغوراســ (٤٨١-٤١١ ق. م.) Protagoras وجورجياســ Georgias (٤٨٣-٣٧٥ ق. م.) أشهــر ممثلــين للحركة السفسطائيــة التي تركــت تأثيرا كبيرا على الفكــر الفلسفي، على الرغم من أنها ليست حركة فلسفية في المقــام الأول، ومما أعلنه بروتاغوراســ أن الإنســان مقياس الأشياء الموجــودة وغــير الموجــودة، وأن المعرفة في أشكالها كافة نسبية وحسية، وفي مقابل هذا الادعاء وقف سقراط موقفا مُناهضا، فأعلن أن المعرفــة ينبغي لهــا أن تكون إطلاقية أو يقينية، وأن تكون قائمة على ركائز عقلانية. وأمــا جورجياس فقد اكتفــى في كتابه (في

الطبيعــة أو في اللاوجــود) بالادعاء بعدم إمكانية المعرفة التامة، فما من شيء موجود، وعلى افتراض أن هناك ما هو موجود، فإن إمكانية إدراكه غير قائمة، وعلى افتراض أن هناك ما هو موجــود، وقابل للإدراك، فإن إمكانية إيصـــال هذه الخبرة إلى الآخر غير واردة، وهــذه الحال علــى تعارض كلي مع الطــرح الذي أدلى بــه أفلاطون في محاورة (الجمهوريــة The Republic)، فالبشــر الذين يعيشون في «الكهف» يختبرون المعرفة الحسيــة، وعندما يغــادره أحدهم بالاتكال علــى قدراته العقليــة والحدسية المتقدِّمة، فإنــه يكتشف المثل الماورائية، أي مثل الخير والحق والجمال، ويرجــع إلى «الكهف» كي يبشر سكانه بالحقائق الكونية اليقينية.

والخطــوات الأفلاطونيــة الثــلاث، لاتتماشى أبــدا مع المقــولات الثلاث التي أدلى بهــا جورجيــاس، وما مــن شك في أن عقلانيــة أفلاطــون الحدسيــة، صوفيــة بطريقة أو بأخرى، وممــا أشار إليه جبران خليل جــبران في كتابه (البدائع والطرائف) وتحــت عنــوان «ابــن الفارضــ» أن هذا الشاعر قادر على تجــاوز الخبرة الحسية، وعلى اكتشاف الحقائــق القصوى، والعودة إلى دنيــا النــاســ، وإخبارهــم بهــا، ولدى تكلمه عن الإمام الغــزالي (١٠٥٩-١١١١)، والقديس أوغسطين Saint Augustine (٣٥٤-٤٣٠)، تحت عنــوان «الغزالي» يقرر أنه الإمام الــذي انتقل من المعرفة الحسية إلى معرفــة المعقــولات، وهو مــا يشير إلى أن إمكانيــة التوفيق بين الديــن والفلسفة قائمة، وهو ما قام به الفلاسفة للتوفيق بين الأديان السماوية، والفلسفتين الأفلاطونية والأرسطوطاليسيــة، كالفيلســوف الفارابي (٨٧٠-٩٥٠)، والقديســ تومــا الأكوينــي Saint Thomas Aquinas (١٢٢٥-١٢٧٤)، وفي كل الأحــوال اتفق الجميع على امتداح سقراط، والإشادة به، ومثلما حرَّكت إرادة الحقيقة هذا الفيلسوف، فإنها حرَّكت القديس أوغسطــين الذي تصدى للطوائف الفكريــة والأخلاقية الموجــودة في حياته. ومما هو لافت بالفعل، أن يقينية وإطلاقية سقراط هاجمــت السفسطائيين المُغالطين، وأن إرادة الحقيقة لدى القديس أوغسطين التي تنطوي على يقينية وإطلاقية، رفضت الشكوكيــة التي انتهى إليهــا رواد أكاديمية أفلاطــون Academy of Plato وفي هــذا السياق يبدو على قدر مــن الأهمية، التأمل في حقيقة انهيار اليقينية والإطلاقية الأفلاطونيــة إلى شكوكيــة، وهــو ما يشير إلى أن شكوكية Skepticism بروتاغوراس قــد بلغت حدودهــا القصــوى، وأصبحت

شكوكية شاملــة. وأيضاً ثمة إشارات إلى أن جورجياســ اهتم بالكفــاح والإرادة والقوة، وهذا كلــه يتعارض مع الفلسفة السقراطية التــي اهتمت بالفضائــل الأخلاقية، وليس بالقوة المعزولــة عنها، وفي الفلسفة الألمانية الحديثة، انطلق الفيلسوفان آرثر شوبنهاور Arthur Schopenhauer (١٧٨٨-١٨٦٠) وفريدريــك نيتشــة Friedrich Nietzsche (١٨٤٤-١٩٠٠) مــن ظاهرة الإرادة، واعتــبرا أنهــا المكــوِّن الجوهــري في الكيــان الإنســاني، والأول منهما، دافع عــن الإرادة الأخلاقيــة الزهدية، في حين دافــع الثــاني عــن الإرادة الأرستقراطيــة الفاعلــة، وبالطبع يبقى جورجياس وأستاذه السفسطائي الآخــر كاليكليس Callicles أقرب إلى فريدريــك نيتشة، وأبعد ما يكون عن آرثــر شوبنهاور الذي تأثــر بأفلاطون وغيره، وهو ما يقرِّبه من سقراط.

وفي كل الأحــوال اهتم سقراط بالإرشاد الأخلاقي، وتوليد المعاني الكامنة في النفس الإنسانية، وتثقيف العقول، وتهذيب الأرواح، وفي بدايــة الدعوة الفلسفيــة المأثورة عنه، يطرح تلميذه شريفون Chaerephon على كاهنة معبد دلفي الناطقة بوحي الإله أبولُّو، استفســارا عمــن هو الأكثر حكمــة، فيأتي الجواب القائل بــأن الفيلسوف سقراط هو الحكيم الأكثر اتصافا بالحكمة، وأمام هذه الحال يحتار في أمر هذه النبوءة، ويبدأ رحلة البحــث الهادفة إلى معرفــة الإنسان الأكثر حكمة، غــير أن استنطاقــه الآخرين، ومن بينهــم السفسطائيين، كشــف له عبر منهج التهكم السقراطي Socratic Irony المأثور عنه، أنهــم غير حكماء، وتدريجيا أدرك أنه الأكثر حكمة بالفعل، وأن الإله أبولُّو أراده أن يكون رجلا إصلاحيا يرتضي الفقر، وحياة التقشــف الزاهدة، من أجــل نفع الآخرين، والأمــة بأكملها. وثمة تغيير كبير طارئ على مفهوم الحكمة فمن ناحية اقترب اليونانيون مــن تحديده اقترابا عظيمــا، عندما ادعى أتبــاع السفسطائيــين بــأن أساتذتهم هم الحكمــاء، وادعى سقراط وأتباعه أيضاً أن أمثالــه هم الحكماء، والهــام هنا أن مفهوم سقراط عن الحكمة قــد انتصر دون ريب، فالحكيم هو الرجل الأخلاقي الذي يتصف بالفضائل الأخلاقية، وينطوي على المعرفية اليقينية والإطلاقيــة القطعية، ولقد توطد هذا المعنى عندمــا قامت الفلسفة الرواقية Stoicism وانتشــرت، وأصبــح زعماؤها الحكمــاء موجودين في الأزمنــة المتعاقبة، والأمكنــة المختلفــة، وأمــام هــذه الحال زالت صفــة «الحكيم» تماما عــن النموذج السفسطائي. وفي كل الأحوال يبدو المفكرون

السفسطائيون من أمثال بروتاغوراس، وجورجياس، وبروديكوس Prodicus of Ceos وهيبياس Hippias of Elis مالكين تماما زمام أنفسهم، بصرف النظر عن تنظيراتهم الفكرية الاعتقادية، والمتعلقة بالسلوك الإنساني، وإشكالية الفضائل المتنوعة. وعندما أشار الشاعر الرومانتيكي الإنكليزي بيرسي شيلي Percy Shelley (١٧٩٢-١٨٢٢) في قصيدته (مقطوعات كُتبت في ساعة حزن قرب نابولي) إلى افتقاده الحكمة، والكاتب الألماني الواقعي الاشتراكي بيرتولت بريخت Bertolt Brecht (١٨٩٨-١٩٥٦) في قصيدته (إلى الذين سوف يجيئون بعدنا) بأنه افتقد الحكمة، فإنهما أرادا الحكمة بالمعنى الذي أقره سقراط وأفلاطون وأرسطو، وكوكبة الرواقيين من أمثال لوشيوس أنايوس سينيكا، وإبكتيتوس، وماركوس أوريليوس.

وثمة نقاط التقاء بين الفكرين المثالي الأفلاطوني، والواقعي الاشتراكي، والمفكر كارل ماركس Karl Marx (١٨١٨-١٨٨٣) ذاته، أثنى كثيرا على ثورية بيرسي شيلي، وعلى جوانب معينة في فكر أفلاطون. والواقع أن حكاية سقراط مع السلطات في زمانه، واتهامه بإفساد الشباب، وإنكار آلهة المدينة، والقول بآلهة أخرى، والحكم عليه بالإعدام، ورفضه الفرار، وتجرُّعه كأس الشوكران السام، احتراما منه لقوانين الدولة، معروفة على نطاق واسع. والأهم من هذا أن اصطدامه بالسفسطائيين، والنزعة الشكوكية، تواصلت نتائجه مع الفيلسوف الشكوكي اليوناني بيرون الأيلي Pyrrho of Elis (٣٦٥-٢٧٥ ق. م.) الذي أعلن ضرورة الكف عن إطلاق الأحكام، والوصول إلى درجة السكينة Ataraxia العقلية أو الروحية، وراحة البال التامة، ونحن هنا أمام شكوكية من نوعية مختلفة عما هو الحال لدى بروتاغوراس وجورجياس، فالشكوكية لدى هذين المفكرين السفسطائيين، ليس لها أبدا أن تتوافق مع السكينة بالمعنى الذي أراده بيرون الأيلي، وربما يكون امتزاج الفكر السقراطي القطعي، بالفكر السفسطائي، مما يؤدي إلى هذه الحال، فالأخلاقية تدفع باتجاه السكينة، وهي تدفع باتجاهات أخرى. واللافت أن شكوكية بيرون التقت مع الشكوكية التي أبداها خلفاء أفلاطون على رأس الأكاديمية، وأن وثوقية أفلاطون القطعية، ومن ورائها توكيدات سقراط الكلية، انهارت بعد قرنين من الزمان، وأصبحت شكوكية من خلال الفيلسوفين أرسيسلاوس Arcesilaus (٣١٦-٢٤١ ق. م.) وكارنيدس السيريني Carneades

of Cyrene (٢١٤-١٢٩ ق. م.) الذيــن تزعَّمــا أكاديمية أفلاطــون. وبالطبع يحيا البشر على الدوام، في أزمنة قديمة وحديثة، دون أن يــدل القديم أو الحديث بالضرورة، علــى ما هو صائب أو غير صائب، وفي هذه الأيــام هناك من هــم أقــرب إلى سقراط وأفلاطون اعتقاديا، ومــن هم أقرب أيضاً إلى أرسيسلاوســس وكارنيدســس السيرينـــي. وسقــراط انتقل من الحال التـــي كان فيها حِرفيًّــا، إلى أحوال أخــرى، فقد شارك في الوقائع الحربية، واعتدل في أدائه الحياتي، وتحرَّى العدالة بنزاهة تامة، واكتسب ميزة الفيلسوف الحكيم، وهو ما يعني أنه انطوى على فضائل الحكمة والشجاعة والاعتدال والعدالة، وهذه الحقيقة تقربه من النماذج الإنسانيــة التي تنطوي على تكوين أخلاقي دينـــي، وترتقـــي من حال إلى حـــال، إلى أن تصل مرتبة الصوفي أو القديس، بكل معنى الكلمة.

ويبقى التأثير الأكــثر أهمية الذي تركه سقراط علــى الفلسفــة اللاحقــة، قائما في تأثــيره الهائــل على تلميــذه أفلاطون، الذي تبنَّى أفــكاره، وأعلنهــا في محاورات (أوطيفــرون) و(الدفــاع) و(أقريطــون)، وغيرها مــن المحــاورات الهامــة، وهو في محاورة (الجمهورية) يتحرَّى فضيلة العدالة في الدولــة والفرد، ويقــرر أن قوى النفس الإنسانية مكوَّنة من القوة العاقلة وفضيلتها الحكمــة، والقــوة الغضبيــة وفضيلتهــا الشجاعة، والقوة الشهوية وفضيلتها العفة أو الاعتدال، وأن تراتبيَّة هذه القوى، وسيطرة الأعلى والأرفع على الأدنى، يؤمِّن التوازن في النفس، ويجعلها تتصف بالعدالة، والحال في الدولة أو «الجمهورية المثالية» يتفق مع حال النفس الفردية، فالطبقة الحاكمة هي طبقة الحكماء، والطبقة الحارسة للجمهورية هي طبقة الجنود، والطبقة التي تقوم بالأعمال الحرفية هي طبقة الحرفيين من المواطنين الأحرار، وأما العدالــة فقائمة على أساس قيام كل طبقة بالوظائف المنوطة بها، وعدم تجاوزهــا حدودها أبدا، وهو مــا يعني أن العدالة سائدة في الجمهورية، وأنها جمهورية مثاليــة. والواقع أننا أمام دولة أرستقراطية مثاليــة قاعدتها العمل العبــودي، على ما يتضح في محاورة (القوانين)، ومما أشار إليه المفكر كارل ماركس أن أفلاطون تمثل نظام الطبقات المغلقة في مصر القديمة، وأنه فهم تماما دور تقسيم العمــل في تكوين الدولة. وفي المحاورات التي تجــاوز فيها أفلاطون أستاذه سقــراط، تبدو الــروح السقراطية موجــودة على الدوام، فالمعرفــة مكوَّنة من المعرفة الظاهرية الحسية الباطلة، والمعرفة

الماورائية اليقينية، أي معرفة المُثل الأخلاقية، وأرفعها أمثلة الخير والحق والجمال، وهذه النتائج التي توصَّل أفلاطون إليها على توافق مــع الجوهر الذي أعلنه سقراط، وبالمقارنة مع بروتاغوراس وجورجياس السفسطائيين، تبدو الفروقات على قدر رفيع من الأهمية، فالمعرفة المتعلقة بالمُثل هي المعرفة المعقولة والواقعية واليقينية وفق أفلاطون، والمعرفة الحسيــة باطلة، في الوقت الــذي أشار فيه بروتاغوراســ إلى أن المعرفــة حسية في كل الأحوال، وفيما يتعلــق بالغيبيَّات أعلن أنه غير قــادر على معرفة مــا إذا كانت الآلهة موجــودة أم غــير موجــودة، انطلاقــا من الغموض الذي يكتنــف المسألة، إضافة إلى قصر الحياة. وأما جورجياس فإنه يتناقض تماما مع أفلاطون، فالشكوكية التامة تصبح يقينية تامــة، وفي أسطورة «الكهف» الواردة في محاورة (الجمهورية)، يعبِّر أفلاطون عن المعرفــة الحسية الباطلة، وعمــن يستطيع التحرر مــن إسارهــا، والانطــلاق باتجاه المعرفة العقلية والحدسيــة، التي تندفع به إلى إدراك أمثلة الخير والحق والجمال، ومن ثم سيكون قادرا على العــودة إلى «الكهف» وإبلاغ سكانــه بالحقائق اليقينية التوكيدية القطعيــة. وبالمقارنة مع هــذه النتائج التي توصَّل إليها أفلاطون، فإن جورجياس أعلن أنــه ما من شــيء موجود، وفي حــال كونه موجودا، لن يكــون هناك من هو قادر على إدراكه، وفي حال وجــوده وإدراكه، لن يكون مُستطاعــا نقل هــذه الخــبرة الفريدة إلى الآخرين.

وفي كل الأحــوال أسَّس أفلاطون المثالية الموضوعيــة Objective Idealism وحــارب بفاعلية التعاليم المادية، ووحَّد بين المُثل والوجــود، وبين المادة والعدم، ورأى أن العالم الحسي نتــاج المثل والمادة، وأن أشياءه باطلــة، ومما يتوقف علــى الزمان والمكان. وبشأن النفس الإنسانيــة أعلن أنها خالدة، وأنها قادرة علــى تذكر المثل الماورائية، قبل حلولهــا في الجسم الفــاني، ويبدو أن فكرة التذكر مأخــوذة عن الفيلســوف سقراط، وأكثر من هذا فإن أفلاطون أقر مبدأ تناسخ النفس التــي تحيا في الجســم، وفي القرن العشرين أقر أيضاً جبران خليل جبران الذي نفر من الفلسفة، المبــدأ المذكور، وفي كتابه (البدائــع والطرائف) وتحت عنــوان «ابن سينا وقصيدته» يقرر أنها القصيدة الأجدر بتقديره، وفيها ترد إشارة الفيلسوف ابن سينا (٩٨٠-١٠٣٧) إلى هبــوط النفس من العالم العُلوي، واتخاذهــا الجسم مقرًّا مؤقتا لها. والمعلوم أيضاً أن الإمام الغزالي كتب (تهافت الفلاسفــة)، وأن القديســ أوغسطين تبنى الأفلاطونية الجديدة New-Platonism

التي أسسها الفيلسوف أفلوطين Plotinus (٢٠٥-٢٧٠) والتـي انبثقـت مـن فلسفة أفلاطون بطريقة أو بأخرى، ووضع أفكارها في خدمة الفكر اللاهوتي الديني، وهو شأن لا يميـل جبران خليل جـبران إلى التعاطف معه، وأمام هذه الحال أبدى تقديره للإمام الغـزالي، واحتفى بـه بأكثر مـن احتفائه بالقديـس أوغسطين، وما من شيء يمنع أن يكون اهتمامـه بقصيدة ابن سينا المذكورة، معزولا عـن فكره الفلسفـي، الذي استلهم تـراث الفيلسوف اليوناني الآخـر أرسطو. ووفق أفلاطون فـإن الجدل الصاعد يرقى إلى معرفـة المثـل الماورائيـة، وأن الجدل الهابط يحتوي المثل، وليس الأشياء الجزئية العلوية، وعندما يقـرر جبران خليل جبران أن ابن الفارض أرفـع شأنا من أبي الطيب المتنبـي (٩١٥-٩٦٥) وأبي العـلاء المعري (٩٧٣-١٠٥٨) فإنه يعـبر عن تكوين صوفي أصيل، وما من اهتمام هنا بالجدل الصاعد أو الهابط، بل بالمعرفة الوجدانية الصوفية التـي يقدر ابـن الفارضـ علـى إدراكها، والانطـواء عليها، أثناء ارتقائـه أو صعوده باتجاه مـا هو سمـاوي عُلـوي، وهو لدى هبوطه ينظم أشعاره، ويقدمها لعامة الناس، دون أن تكـون حاوية على شيء باستثناء ما هو سماوي عُلوي وغير دنيوي أبدا.

وبصـورة عامـة انتهـت الأفلاطونيـة Platonism وأكاديميـة أفلاطـون إلى الشكوكيـة مـع الفيلسوفـين أرسيسلاوس وكارنيدس السيريني، وأصبحت الصلة قائمة من الناحية الفلسفية بـين هذه الشكوكية، والشكوكية التي أبداهـا الفيلسوف بيرون، وخلفـاؤه سكتوسـ إمبيريكوسـ Sectus Empricus (٢٠٠-٢٥٠) وأجريبـا Agrippa، The Skeptic. واللافـت أن الوثوقيـة اليقينيـة الأفلاطونية انتهت إلى شكوكيـة، وأن الشكوكيـة التـي أبداها بروتاغوراسـ انتهـت إلى شكوكية تامة مع جورجياسـ، وانقلبت إلى توكيدات أخلاقية وثوقيـة قطعية مع سقـراط. وما من شيء يمنع أن يكون اندفـاع سقراط وراء البحث المادي في أصل الكـون وتكوينه، ناجما عن كونـه الموضوع الذي استحـوذ على اهتمام الفلاسفة في أيامـه، وانطوائه القبلي على ما هو فاضل وعقـلاني وروحي، وانجرافه في هذا التيـار بكيفية غير واعية، لن يكون لهـا إلا أن تتلاشى، وتؤكـد معرفته بنفسه، وإعلانه ما تنطوي عليه ذاته بقوة واقتدار، ويقـين يتقدم باطـراد إلى الأمام، وهو من هذه الناحية أشبه ما يكون بمن ينطوي على اعتقاد إيماني ينتمي إلى ديانة من الديانات، وبالفضائل التي تدعو إليها، ويتعلق في فترة

من فـترات حياتـه، بفكر مغايـر، كالفكر الواقعي الاشتراكـي في الحقبة التي انتشر فيها هذا الفكر انتشـارا واسعا، ثم يتراجع عن اعتقاداته، ويتبنـى الفضائل الإيمانية التـي تباركها الديانة التي ينتمي إليها، وهو ما يعني أننـا أمام تجربـة إنسانية مألوفة وعاديـة في الحيـاة، دون أن تعنـي هـذه الإشـارة، إسـاءة إلى رواد الفلسفـة الذين بـدؤوا التأمل الفلسفي في الطبيعة والكون، أو إلى رواد الواقعيـة الاشتراكية، والواقعية الاشتراكيـة Socialist Realism ذاتها. والذي يسترعي الاهتمام التام أن ما يحدث مـن الناحيـة الجوانية لدى هـذه النماذج البشريـة، إنما هو توكيدات إيمانية قطعية، على الرغم من الظاهر ذي الطبيعة المغايرة، وربما كان سقـراط من الأمثلة المبكرة على هذه الظاهـرة، فالاندفـاع الواعي باتجاه الدراسـات الماديـة المتعلقة بأصـل الكون وطبيعتـه، ترافق مع اندفاع غير واع باتجاه العقلانيـة والفضيلة والميـل الروحي، وهو مـا اتضحت بشائـره لدى إعـلان النبوءة الصادرة عـن كاهنة معبد دلفـي الناطقة بوحي الإلـه أبولو، والقائلة بأن سقراط هو أحكم الناس، وفي حينه انطوى هذا الإعلان علـى أن حكمة سقـراط أجـدر بالتقدير من حكمـة السفسطائيين المُغالطين، الذين ينبغي طردهم من مملكة الحكمة الحقيقية، التـي شادها سقـراط وأمثاله من الحكماء المتألهين.

وإضافة إلى تأثـيره على أفلاطون ترك سقراط من خـلال أفلاطون ذاتـه، تأثيرا على الفيلسـوف اليوناني الأشهـر أرسطو الـذي زاوج بين الماديـة والمثاليـة، عندما أعلـن أن الجزئيات لا تفـترق عن الكليات، وأن وجـود الكليات مُحايث للجزئيات، وغير مُفـارق لها، على ما أعلنه أستاذه أفلاطون، وإنه لمن المعروف ضخامة التأثير الذي تركه أفلاطـون وأرسطو على الفلسفة الإنسانية، وتحديـدا على الفلسفـة الوسيطية، فأتباع الأديان السماويـة اجتهدوا في التوفيق بين أفلاطـون وأرسطو، وبينهمـا وبين الأديان، وأوجـدوا أساسا فلسفيا متينا لها، على مر الأزمنـة المُتعاقبة. وفيمـا يتعلق بالفضائل أولى أرسطـو فضائـل اليونانيين التقليدية والدنيويـة في الوقـت ذاته، قيمـة كبرى، علـى أنـه وقد اعتقـد بفضائـل الحكمة والشجاعـة والاعتدال والعدالـة، أعلن أن الفضيلـة الحقيقيـة قائمـة بـين طرفين مذمومين، فالشجاعـة ليست في التهور في ميـدان القتال، وليسـت في الجبن والفرار، وهـي في كل الأحوال أقرب إلى التهور منها إلى الجبن، وممـا يتصف بـالأداء الحكيم

العارف، ووفق هذا الاعتبار يبدو أن شجاعة عنترة بن شـــداد العبسي (٥٢٥-٦١٥) الذي اعــترف بأنه يحتكم إلى التدبير والاتزان في اتخاذ القرار بشن الهجوم أو الإحجام، هي الفضيلة بالمقارنة مـــع شجاعة أبي الطيب المتنبي الذي أشـــاد بالجسارة المتهورة، التي تنقضــ علـــى العـــدو، علـــى أن فريدريك نيتشة رفع مـــن شأن هذه الجسارة المتهورة، واعتبرها من ميـــزات النفوس الكبيرة، وهو ليس بصـــدد التعريف بالفضيلة، بل بصدد التمييـــز بين من هـــو أرستقراطي التكوين، ومن ينتمي إلى نوعية بشرية أدنى مقاما، في سيـــاق تنظيراته الفكرية. وكان الكثيرون قد لقبوا أبا شجاع فاتـــكا بالمجنون لأنه اعتاد الانقضاضـــ على العـــدو بتهـــور واندفاع، ويبدو أن أبا الطيـــب المتنبي قد أدرك هذه النوعية الأرفع من الشجاعة، وامتدحها دون تـــردد، وعلى أساسها أنشأ صداقة باقية مع أبي شجاع فاتك:

أمضى الفريقين في أقرانه ظبةً
والبيضُ هاديةٌ والسمرُ ضُلالُ
وقد يلقِّبه المجنونَ حاسدُهُ
إذا اختلطنَ وبعض العقل عُقَّالُ
يرمي بها الجيشَ لا بدٌّ له ولها
من شقِّه ولو أنَّ الجيش أجبالُ
أبو شجاعٍ أبو الشجعان قاطبةً
هولٌ نمتهُ من الهيجاءِ أهوالُ

وأمـــام هذه الحـــال ليس الادعـــاء بأن أرسطـــو لم يتنبَّـــه إلى هـــذه الإمكانية، مما يقلـــل من شـــأن تنظيراته بشـــأن الفضيلة، فهي حالة نادرة على ما يبدو. ولكن عندما يتطرق البحـــث إلى فضيلة «الاعتدال» على سبيل المثـــال، فإن الفضيلة تتمثل في الروية والتدبُّر، وليســـ في الاندفاع وراء الشهوات الحسيـــة اندفاعـــا قويـــا، أو في التزهُّـــد الشامل، وإنه ممـــا يسترعي الاهتمام حقا، أن ينتقـــد الشاعر اللبنـــاني إيليا أبو ماضي (١٨٨٩-١٩٥٧) في قصيدته (العنقاء) هذين الطرفـــين، ويعتبرهما بطريقـــة أو بأخرى، مرفوضين أو هما رذيلتين:

قالوا تورَّع إنها محجوبةٌ
إلا عن الزاهد المتورِّعِ
فوأدتُ أفراحي وطلقتُ المنى
ونسختُ آيات الهوى من أضلعي
وحطَمْتُ أقداحي ولمَّا أرتوِ
وعففتُ عن زادي ولما أشبعِ
وحسبتني أدنو إليها مُسرعا
فوجدتُ أني قد دنوتُ لمصرعي

وإيليا أبو ماضـــي يتحرى السعادة، وهو ما أقرَّه أرسطـــو، فقد اعتبر السعادة الغاية القصوى، وأقام اتحادا بين الفضيلة وبينها، فالسعـــادة قائمة على ركيزة الفضيلة، وهي

مما يتمتع به الفضلاء تحديدا، وإضافة إلى هذا أعلن أن فضيلة التأمل النظري المجرد في الحقيقة القصوى، أي في المُحرِّك الأول، هي أرفع أشكال الفضائل، وهو هنا يتلاقى مع أفلاطون، ويبدو مثاليا حقا. وأيضاً اهتم بالعواطف الإنسانية وعلى رأسها عاطفة «الصداقة» وطالب الأصدقاء أن يتشاركوا في الأفراح والأتراح، وأن يتعاونوا في كل الأشياء. وعلى غرار أكاديمية أفلاطون، أسس أرسطو مدرسة اللقيوم Lyceum التي ظلت قائمة ثمانية قرون، وتولى أمرها بعد أرسطو فلاسفة من أمثال ثيوفراسطوس Theophrastus وأوداموس الروديسي Eudemos of Rhodes. واللافت أن فكر أرسطو انطوى على ما هو مادي وما هو مثالي، وأن المشائين Peripatetics من أمثال ستراتو اللامبساكوسي (٣٠٥-٢٧٠ ق.م) طوروا الاتجاه المادي فيها، وعندما ظهرت الواقعية الاشتراكية المادية أثنت على الجوانب المادية في فلسفة أرسطو، في حين أثنى أتباع الأديان على الجوانب المثالية، ورأوا أنها تعبر عن روح فلسفة أرسطو، بأكثر مما تعبر عنها أية جوانب أخرى.

وإضافة إلى ما سلف ذكره أسس الفيلسوف أريستيبوس Aristippus (٤٣٥-٣٥٥ ق.م) وهو تلميذ سقراط أيضاً المدرسة القورينائية Cyrenaicism ومما أعلنه أن المتعة الحسية هي الخير، واعتقد من ناحية نظرية بالحسية، وأقر أخيرا المتعة العقلية، وقال بأنها أعظم النعم بالمقارنة مع المتعة الحسية، ونحن أمام اندفاع الفلسفة السقراطية باتجاه غير منتظر أبدا، والواقع أنه تخلى عن المتع الدنيوية تماما، وعاش حياة تقشفية زهدية، وما من شيء يمنع أن يكون أريستيبوس قد ارتكس تجاه ما اعتبره نقصا في الفكر السقراطي، فالمتعة شأن قائم، وما من إمكانية لتجاوزه، على أنه طالب بالاعتدال، وادَّعى أن هناك من المتع العقلية ما هو أرفع قيمة من المتع الجسدية المألوفة، والمعلوم أن محاورة (المأدبة) التي أنشأها أفلاطون، تدور حول مسألة الحب، وأن المشاركين فيها يقدمون آراء متنوعة، تطال كل الإمكانيات، وفيها ينبري سقراط للدفاع عن الحب بالمعنى الذي يلتقي فيه مع الفضيلة، ويكون واقعا تحت سيطرتها تماما. ويبدو أن أبيقورس Epicurus (٣٤١-٢٧٠ ق.م) تأثر بأريستيبوس عندما أنشأ فلسفته القائلة بأن المتعة خير، والألم شر، وفيما يتعلق بالاعتقادات الطبيعية تأثر بالفيلسوف اليوناني الآخر ديموقريطس Democritus (٤٦٠-٣٧٠ ق.م) وربما رأى الدارسون أن ربط فلسفة أبيقورس

بفلسفة سقراط غير صائب، على أن التأمل في التطـورات الفكريـة، وقيـام الطاقات الإنسانية المتنوِّعـة بالتعبير عن مكنوناتها، بالاتـكال علـى المفكرين المقتدريـن الذين يتأملون الواقع الإنساني، ويتابعون المشاريع الفلسفيـة التـي اطلعوا عليهـا، ويطورنها باتجاهـات لم تطأها من قبـل، هو الأجدر بالاعتبـار الـذي ينطـوي علـى إمكانيـة قيـام توفيق بين أفـكار أبيقورسـ وأفكار سقراط، على الرغـم من التباين الظاهري الكبـير بينهما، وأبيقورسـ اهتم بالفضائل الأخلاقية، واعتبرها جواريا تسعى في خدمة المتعة، ورأى أن المتـع الحسية أقل شأنا من المتع العقليـة، وأن راحة البال القائمة على اختزال الفاعلية البشرية، يوفر متعة سلبية أجدى من المتعة الإيجابية الحسية، وأكثر من هذا فـإن المتعة الأخيرة مما يجلب الأضرار إلى الكيـان الإنساني في أحيان كثيرة. وفيما يتعلـق بالشهـوة الجنسية تحديـدا، اندفع تلميذ أبيقورس الشاعر الروماني لوكريتيوس Lucretius (٩٩-٥٥ ق.م.) باتجاه الإشادة بها، والتحذير مما قد تؤدي إليه من أضرار إن هي تجاوزت حدودها، والأهم من هذا أن الحب بالمعنى الأفلاطـوني تتراجع أهميته، ويصبـح التركيز على الشهـوة المعزولة عن عاطفة الحـب، والهدف هو راحـة البال، وعدم تكدير النفسـ، وهذا الأداء يبدو من منظور عرفي تقليدي، غير أخلاقي، على أنه مـن منظور براجماتيكي عملـي، يبدو أداء ينطوي على نوعية غريبة من الخير، ما دام لوكريتيوسـ الذي أقره، انتفـع به، وما دام أمثال لوكريتيوسـ موجودين في العالم. وفي كل الأحوال يبدو أن عواطف الحب العنيفة تستنـزف الكائن البشري، وممـا أشار إليه الشاعر الرومانتيكي الإنكليزي الأفلاطوني بيرسي شيلي أن طاقة الحب هي الطاقة التي تستبطـن الكون كله، وهذا الاعتبار يفترض أن عاطفة الحب سابقـة على الشهوة، وفي قصيـدة (أدونيس) يقـرر أن عاطفة الحب تستنـزف الكيان الإنسـاني وتدمره أخيرا، وهو ما تفعله بالكائنات الأخرى أيضاً، على أنـه في قصيدة (عندما يتحطـم المصباح) يقرر بوضوح أن العاطفة تجاوزت حدودها على ما يظهر، وأصبحت غير عقلانية، وما دام كل شـيء في الكيـان الإنساني ينبغي له أن يكون واقعا تحت سيطرة العقلانية، فإن العقل الذكي سوف يستهزئ بعواطف الحب العنيفـة، والقـادرة على استنـزاف الكيان الإنسـاني، والظاهرة ذاتها سيكون بالإمكان رصدها لدى الكاتـب اللبناني جبران خليل جبران في قصيدته (بالأمس):

كان لي بالأمس قلبٌ فقضى
وأراحَ الناسَ منه واستراحْ
ذاك عهدٌ من حياتي قد مضى
بين تشبيبٍ وشكوى ونواحْ
إنما الحبُّ كنجمٍ في الفضا
نوره يُمحى بأنوار الصباحْ
وسرور الحب وهمٌ لا يطولْ
وجمال الحب ظلٌّ لا يُقيمْ
وعهود الحب أحلام تزولْ
عندما يستيقظ العقل السليمْ

وهذا الطرح يتعارض مع ما أعلنه الفيلسوف الألماني آرثر شوبنهاور بشأن عاطفة الحب، فقد اعتبر الشهوة الجنسية أولية، والعواطف ثانوية وناشئة عنها، وهو القائل بالإرادة الكونية العمياء التي تهيمن على الإنسان، وكل شيء في العالم، وإن استشعار بيرسي شيلي، وجبران خليل جبران لما هو غير عقلاني في اندفاعهما العاطفي، يُوحي بأن فكرة آرثر شوبنهاور ليست بسيطة، ومما يستطيع الدارس الاعتراض عليه دون تأمل أصيل. وفي هذا السياق استبعد لوكريتيوس عاطفة الحب، وطالب بالاكتفاء بالمتع الحسية، وأعلن أن هذا الأداء عقلاني، والإشكالية تبرز عندما تتدخل الأخلاق العُرفيَّة في هذا الميدان، وهي القائلة بأولية العاطفة، وثانوية الشهوة، ووفق هذا المعيار فإن بيرسي شيلي وجبران خليل جبران أخلاقيان، وآرثر شوبنهاور ولوكريتيوس غير أخلاقيين، وهذه النتيجة تكشف قصورا في المعيار المذكور. ومما هو لافت في مسرحية (بيت آل روزمر) للكاتب النرويجي هنري إبسن Henrik Ibsen (١٨٢٨-١٩٠٦) ومسرحية (المنبوذة) للكاتب الهندي رابندرانات طاغور Rabindranath Tagore (١٨٦١-١٩٤١) استنكار الشهوة عندما تطغى، وتكون أولية بالقياس إلى عاطفة الحب، والكاتبان يشيران إلى شعور النماذج البشرية في هذه الحال، بأنهم واقعون تحت سيطرة إرادة عمياء، وغير عقلانية، وهذه الحقيقة تجعل من ادعاء آرثر شوبنهاور بأن الإرادة الكونية عمياء، وأن الشهوة قادرة على تخليق عاطفة الحب ادعاء قابلا للفهم، والتأمل في أبعاده. وإذا كان أفلاطون قد قال بالمعرفة الحسية المتغيرة، والمعرفة العقلية الحدسية، وأنه رمز لمن يكتفون بالمعرفة الحسية بالقاطنين في «كهف» ولمن امتلكوا القدرة على التحرر من إسارها، والانطلاق باتجاه المعرفة العقلية الحدسية، وإدراك مثل الخير والحق والجمال، بالشعراء الأنبياء، فإنه أبقى على الصلة بين نوعي المعرفة، أي بين الكهف والمثل الماورائية، فالذين أدركوا هذه المثل،

ينطلقون مــن «الكهف» وهم يعــودون إليه بهدف الإصلاح، أما أبيقورس فقد أعلن أن المتعة هي الخير، وأن فقدان الألم أفضل من انقطاعه، أي إن المتع العقلية أثمن من المتع الحسية، وهو يلتقي مع أريستيبوس في هذه الناحيــة، والواقع أنه تقــدَّم باتجاه زهدي مطرد يأتي على الإمــلاءات الإرادية كلها، وهــذا النهــج يتوافق مــع الأداء الأخلاقي الفاضل الذي يرنو إلى القداسة أو الصوفية بأرقى أشكالها واللافت أن السير في طريق زهدي يؤدي إلى أن قطع الإرادة لدى أبيقورس لا يترافق مــع اختبارات تنتمي إلى القداسة أو الصوفية بأرفع أشكالها.

وفي كل الأحــوال ثمة اختــلاف عظيم بين هــذا الفيلسوف، وزعيم الديانة البوذية غوتاما بوذا Gautama Buddha (٥٦٣-٤٨٣ ق.م.) فالمتعة لدى الأول خير، والسكينة أو انقطاع المعاناة هو الخير الأعظم، وأثناء رحلــة الارتقاء الجــواني تكــون الفضائل جواريا تسعــى في خدمة المتعة، وفي المقابل اختبر غوتاما بــوذا المتع بأنواعها، واكتشف أنــه لم يستطع إدراك السعــادة والخلاص، واستشعــر المعانــاة في كل الأحوال، وهو ما أشار إليه الشاعر والمفكر الإيطالي جياكومو ليوباردي Giacomo Leopardi (١٧٩٨-١٨٣٧) في مؤلفــه (المحاورات) وتحديدا في المحاورة التي حملت عنوان (بين مالامبرونو وفارفاريللو) على أن غوتاما بوذا اتكل أخيرا على الفضائــل الأخلاقيــة، واستنكر المتع الحسية، وأدرك النيرفانا على هذه الأرض، أما أبيقورســ الذي عانى مــن آلام الكلية المُبرِّحة، فإنه أشار إلى وجود الآلهة السعداء في عــوالم غير منظــورة، دون أن تتدخل في شؤون البشر، وهذه الآلهة السعيدة تتماشى تمامــا مع فكرة النيرفانــا البوذية، وما من شيء يمنع أن تكون آلام أبيقورس قد أعاقت تقدمه في الاتجاه الــذي أقره، وأبقت على إحساسه بــالألم، وأملت عليه فكــرة الآلهة السعيــدة الموجودة ما وراء هــذا العالم. وإن الابتــداء بالمتع الحسيــة، والانتهاء بالحياة الزهدية التقشفية، أفضل من التنكر للمتع الحسية، والوقوع في الإغراء الحسي في فترة متأخرة، وما من إشارة إلى أن سقراط اختبر هذه الحال، لكنه عاش حياة تقشفية زاهدة، وتزوج في وقــت متأخر، والبطــل الرواقي هرقل Heraclius في بداية حياته الراشدة، اختار طريــق الفضيلة، ورفضــ السير في طريق المتعة الأيسر منــالا، والأبسط شأنا، وقام بالأعمــال البطولية الفاضلة والجبارة في الوقــت ذاته، وفي هذا إشارة غير واعية، إلى قوة الشر الجبارة، والقوة التي ينبغي أن يتسلح بها الإنسان الخيِّر كي يقدر على قهر

الأشــرار، ومما أشار إليــه الشاعر هيزيود أن الطريــق المؤديــة إلى الفضيلــة وعرة، وفي قصيدتــه التــي أنشأها في مدح محمد بــن حميد الطائي، أشــار الشاعر العباسي أبو تمــام إلى وعورة طبعــه، وانطوائه على الفضيلة، واستعداده الإيثاري الأصيل، على ما هو عليه الحال لدى الفيلسوف سقراط، ولدى أتباع الأديان بصورة عامة:

وما مات حتى مات مضربُ سيفه
من الضربِ واعتلَّتْ عليه القنا السمرُ
وقد كان فوتُ الموت سهلا فردَّهُ
إليه الحفاظ المرُّ والخُلُق الوعرُ
ونفسٌ تعاف العار حتى كأنه
هو الكفرُ يومَ الروع أو دونه الكفرُ
فأثبتَ في مستنقع الموتِ رجلَهُ
وقال لها من تحت أخمصك الحشرُ

على أن البطل هرقل الذي رفض طريق المتعة، انجرف وراءها في ميقات تال، وعادة ما يتم إسقاط هذا الانجــراف واستبعاده، والإبقاء على اتصافه بالفضائل الأخلاقية، والحقيقة أن عودة هرقل إلى المتعة، إنما هي عودة إلى ما اكتنف حياته من نقص. وأيضاً ربمــا تكون الأعمــال الأخلاقيــة الجبارة، ناجمة عــن استبعاد المتعة، ومــا من إشارة إلى أن هرقل سقط أخلاقيا، وأكثر من هذا فإن انجرافه وراء المتعــة يبدو استكمالا لما هو ناقص في كيانه، واستخفافا بهذا النقص الذي لن يكون تجاوزه مما هو واقع في نطاق الإمــكان، وهذا تناقضــن سيطر على الفكر الإنساني مدة أطول من اللازم على ما يبدو، والأدعى للاهتمام أن ينطوي اختيار طريق الفضيلــة على استنكار المتعــة، والوقوع في حبائل الغرام بطريقة تبــدو غير أخلاقية، وهو ما حدث للشاعر هيزيود، على أن أداء سقــراط، وزواجــه في ميقــات متأخر، من امرأة قليلة الشأن، يقربه من البطل هرقل، وهو ما انتبه إليه الرواقيون الذين امتدحوا فضائلــه، وميزاتــه المتنوعــة، ومواقفه في مراحل حياتــه كلها، واتخــذوه إماما لهم، والمثال الأبرز على الظاهــرة المذكورة، هي الشاعر اليوناني القديم هيزيود الذي توخى النفع، وانتقد المتــع بأنواعها، وانطلاقا من موقفه هذا، رفض تــراث الشاعر اليوناني الأقدم هوميروس

(Lived 9th Century BC) Homer

الــذي يتوخــى المتعــة علــى مــا رأى، وكمثلــه وقــف أفلاطون موقفــا سلبيا من هوميروس، وهو الــذي سعى وراء الإصلاح والنفــع وليس وراء المتــع. والأمانة الفكرية تستدعي التأمــل وإدراك الصواب الأكمل، فالأشعار الهيزيودية، والأفكار الأفلاطونية، تعبِّر عن الفضائــل الأخلاقية والماورائيات التي ترتبــط بها ارتباطا وثيقــا، وهيزيود

وأفلاطــون لم يتنكــرا للمتعــة تمامــا، بل جعلاها واقعة تحت سيطرة الفضيلة. ومن ناحية أخرى استهدف هوميروس التعبير عن الأرستقراطية الإرادية، والفضائل المتفرعة عنها، بأكثر مما استهدف المتعة، وما من أحد يستطيع الادعاء على سبيل المثال أن شاعرا كالجاهلي زهير بن أبي سلمى (٥٣٠-٦٢٧) توخى النفع، وأن شاعــرا كالعباسي المتنبي توخى المتعة، وهذه الحقيقة تكشف أننا أمام تحيز أبــداه هيزيود وأفلاطــون، وأكثر من هــذا أمام تناحر بين هيزيود وأفلاطون من ناحيــة، وهوميروس مــن ناحية أخرى. وفي مسرحية (العين بالعــين) للكاتب الإنكليزي وليم شكسبير William Shakespeare (١٥٦٤-١٦١٦)، يحيــا نائــب الدوق أنجلو حيــاة زهديــة فاضلــة شريفــة، ويقع في حبائل الغرام والإغــراء الحسي في ميقات تال، ويفقد مكانتــه، ويشعر بالخزي، وبأن شرفه تلطخ بالإثم. وعندما انتشرت الديانة المسيحيــة في أوروبــة اطلــع روادهــا على الفلسفات الموجودة، ومما أعلنه روبير جولي أنها تمثلت شيئا مــن كل الفلسفات ما عدا فلسفــة أبيقورس، التــي رأت أن المتعة هي الخير، على أن المفكرين الأخلاقيين أدركوا أن المتعة شــأن لا ينبغي إغفاله، وفي القرن السابع عشر امتــدح الأسقف الفرنسي بيير جاسنــدي Pierre Gassendi (١٥٩٢-١٦٥٥) أبيقورس ومــا أدلى به بشأن المتعة. ومن ناحيــة أخرى يتقــدم الأفلاطوني من معرفة حسية إلى معرفة عقلية حدسية، دون أن تكون الصلة بين المعرفتين قد بلغت حدا تنقطع عنــده، وبالمقارنة مع هذه الحقيقة، يتقــدم أبيقورس باتجاه الحيــاة الزهدية، وباتجاه قطع الإرادة ومكنوناتها، وهو الذي أعلــن أن الآلهة تعيش في عــالم خاص بها، دون أن تتدخل في شؤون البشر، وأنها سعيدة في عالمها، وثمة انقطــاع للصلة بين الواقع الذاتي الإنساني، في أقصى درجات تقدمه، وبين حال الآلهة، وثمة إدراك لما تنطوي عليه الحياة من معاناة، وإشارة إلى إمكانية وجود سعــادة لدى آلهة موجــودة في عوالم أخرى، وثمة فارق بين أن تكون الفضائل مما يسيطر على المتع لدى سقراط وأفلاطون، وأن تكون جواريا تسعى في خدمتها لدى أبيقورس.

وإضافــة إلى هــذا أثــر سقــراط على تلميذه أنتيستينس Antisthenes (٤٣٥-٣٧٠ ق. م.) الــذي أســس المدرسة الكلبية Cynicism وانتقــد فكرة المثل أو الكليات الأفلاطونية، واعتقــد بالجزئيات وحدها، واستهزأ بالإنجازات التي تأتي بها الحضارة، وبالترف والبذخ، وطالب الإنسان بأن يكتفي بالمتطلبات الحياتية الضرورية، مع الإصرار

على الفضيلة الأخلاقية، وربما رأى بعضهم أن الكلبية تحدَّرت من السفسطائية، انطلاقا من أنها اكتفت بالجزئيات، وهو شأن يتعارض مع روح الفلسفة السقراطية، والحقيقة أن الكلبية أقرب إلى فلسفة سقراط، وما من رابط جوهري يربطها بالسفسطائية، فالحياة الزهدية والتقشفية، والإصرار على الفضيلة، والاكتفاء بالحد الأدنى من المتطلبات الإنسانية، التي يدعوها بعضهم المتطلبات الحيوانية، لكونها مشتركة بين البشر والكائنات الحية الأخرى، تجعل الصلة بين الكلبية وأفكار سقراط عميقة. والكلبيون أثروا تأثيرا حاسما على الرواقيين، وما من سفسطائي أثر على كوكبة الرواقيين الذين ظهروا على مسرح الحياة الفكرية بقوة واقتدار، والذين تلقوا تأثيرا سقراطيا عبر أفلاطون وأرسطو، وأكثر من هذا فإنهم اعتبروا الفيلسوف سقراط إماما أخلاقيا لهم، لما اتصف به من فضائل الحكمة والشجاعة والاعتدال والعدالة. وأيضاً تلقى الرواقيون تأثيرا من الفيلسوف اليوناني هيراقليطس Heraclitus (٥٤٤-٤٨٣ ق. م.) عندما يتم التطرق إلى اعتقاداتهم بشأن الكون وتكوينه، وهو الفيلسوف الذي اعتقد بالعقل والصيرورة، ووحد بينهما وبين الوجود، وتكلم عن صراع الأضداد، وعن التناغم الكوني، على أنه أبقى على الخير والشر كليهما، واعترف بوجودهما على الدوام، وفي هذا إشارة تبدو تشاؤمية، على خلاف النزعة الرواقية التفاؤلية. وكان الفيلسوف زينون Zeno (٣٣٦-٢٦٤ ق. م.) قد أسس المذهب الرواقي، ومما هو مأثور عنه، حكمته العظيمة التي ترافقت مع قدراته الجبارة على ضبط القوتين الغضبية والشهوية، وعلى الرغم من أن أفلاطون أشار إلى اتصاف مزاج سقراط بالاتزان، فإن هناك من ادعى أنه عانى من انفجارات غضبية غريبة، وأن ضبطه لنفسه انطوى على صراع جواني موصول، وفي الوقت الذي بدت فيها الرواقية مع الفيلسوف كليانتس Cleanthes (٣٣١-٢٣٢ ق. م.) في طور التراجع بعد وفاة مؤسسها زينون، فإنها اكتسبت قوة دافعة أمكنتها من الاستمرارية، واكتساب القدرة على التأثير في الفكر الإنساني، بوساطة الفيلسوف كريسيبوس Chrysippus (٢٨١-٢٠٥ ق. م.) الذي امتلك قدرة هائلة على الجدل. والمعلوم أن الرومان اهتموا بالتيارات الفلسفية اليونانية الكبرى، وهي الشكوكية، والأبيقورية Epicureanism والرواقية Stoicism في الوقت الذي حافظت فيه الأفلاطونية والأرسطوطاليسية Aristotelianism

والأتبـاع المشـاؤون Peripatetics علـى وجودهـم وتأثيرهـم، علـى أن الرومـان انجذبوا أكثر ما انجذبوا إلى الرواقية، ومن أقطابها الأكثر أهمية في الحقبة الرومانية، اليوناني إبكتيتوس Epictetus (٥٠-١٣٨)، والروماني لوشيوس أنايوس سينيكا Lucius Annaeus Seneca (٤ ق. م.-٦٥)، والإمبراطور ماركوس أوريليوس Marcus Aurelius (١٢١-١٨٠)، وهـؤلاء جميعـا أثنـوا على سقراط ثناء عاطـرا، وكثيرا ما تأثـروا أو تتلمذوا على فيلسوف كلبي وآخر رواقي أو أفلاطوني، فالأول أشار باهتمام إلى ديوجين الكلبي Diogenis، The Cynic (٤٠٤-٣٢٣ ق. م.)، والثـاني إلى ديمتريوس Demetrius. وأكـثر مـا هـو مأثور عن إبكتيتوس اعتقاده بـأن الحرية قائمة على الاعتقـاد بالنفس الحرة التـي لا يستطيع أحـد إيذاءها، وبالإرادة الحـرة، والقدرية Fatalism التي تعني الإذعان العقلاني لما تأتي به الأقـدار، والواقع أن مفاهيم القدر والعناية الإلهية والعقل ترتبط ارتباطا وثيقا بالرواقيـة. ومما دعا إليه لوشيوس أنايوس سينيـكا التحـرر الانفعـالي، وإدراك حالة السكينـة التي بشـر بهـا الفيلسوف بيرون الأيلـي في سياق شكوكي، وبصـورة عامة، اهتم الرواقيون جميعهم بالتحرر الانفعالي أو البـلادة وما يُدعـى بالسكينة، بدرجات متفاوتة، وهم قالـوا بالعيش وفق الطبيعة، أي وفـق العقـل الكلي، والموجـود لدى كل إنسـان، ويبدو أن ارتباط كلمة «الفيلسوف» برباطـة الجأشـ، تجلى بأفضـل ما يكون لديهم. وأما ماركوس أوريليوس فقد امتلك الفضائـل التي أشـار إليهـا أرسطو كلها، وأهم مـا في حياتـه أن كونـه إمبراطورا، وقائدا حربيا وسياسيا، لم يؤثر على اتصافه بالحكمـة والشجاعة والاعتـدال والعدالة، إضافة إلى الأريحية والمروءة والحلم، والأهم من هذا وفق أرسطو أنه امتلك القدرة على التأمل العقلي النظـري المجرد، وإدراك ما دعاه بالسعادة المطلقة، التي هي وقف على الفيلسـوف الحقيقـي. ومرة أخـرى تبدو الكلبيـة والسقراطية جنبـا إلى جنب، وهو ما يؤكد علامات التطابق بينهما في جوانب متعددة، ومما يقال عن ديوجين الكلبي تلميذ الفيلسوف أنتيستينس، أنه اندفع باعتقادات أستاذه وأخلاقياته إلى أقصى درجة ممكنة، وأنـه عاش في برميل، وتزهـد تماما، دون أن يترافق تزهـده مع اعتقادات إيمانية، أو اعتراف بالكليات الأفلاطونية. وفي الأحوال جميعها، ترك الفيلسـوف اليوناني سقراط تأثـيرا علـى الشكوكيـة، والأفلاطونيـة، والأرسطوطاليسية، والرواقية، والأبيقورية، وكل هـذه التيارات الفلسفية ما تزال قائمة في العالم بكيفيات متنوعة.

المراجع العربية

١- د. عـادل العوا، المذاهب الفلسفية، سقراط، أناكساجوراس، بيرون، أفلاطون، بروتاجوراس، جورجياس، فريدريك نيتشة، المطبعة الجديدة، دمشق.

٢- مجموعة من المؤلفين، دليل القارئ إلى الأدب العالمي، سقراط، محاورة أقريطون (كريتو)، المأدبة أو الوليمة، أفلاطون، أرسطو، إبكتيتوس، لوشيوس أنايوس سينيكا، ماركوس أوريليوس، ترجمة: محمد الجورا.

٣- ترجمة: سمير كرم، الموسوعة الفلسفية، المدرسة الأيونية، طاليس، أنكسيماندر، أنكسيمين، أكاديمية أفلاطون، اللقيوم، المشاؤون، أفلاطون، السكينة، كارنيدس السيريني، بيرون الأيلي، بيير جاسندي، أفلوطين، القورينائية، الرواقيون، الكلبية، أنتيستينس، دار الطليعة، بيروت.

٤- إعداد: جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، أناكساجوراس، أرسيسلاوس، أريستيبوس، أبيقورس، ديموقريطس، سقراط، هيراقليطوس، ديوجين الكلبي، دار الطليعة، بيروت.

٥- أندريه كريسون، آرثر شوبنهاور، أحمد كوى، بيروت.

٦- حنا الفاخوري، تاريخ الأدب العربي، جبران خليل جبران، ابن الفارض، عنترة بن شداد العبسي، زهير بن أبي سلمى.

٧- د. أحمد فؤاد الأهواني، المحاورات السقراطية، سقراط، تراث الإنسانية.

٨- د. محمد سليم سالم، الأعمال والأيام، هيزيود، تراث الإنسانية.

٩- د. أميرة حلمي مطر، جمهورية أفلاطون، أفلاطون، تراث الإنسانية.

١٠- د. أميرة حلمي مطر، الأخلاق النيقوماخية، أرسطو، تراث الإنسانية.

١١- جبران خليل جبران، المؤلفات الكاملة، البدائع والطرائف، ابن الفارض، الغزالي، ابن سينا وقصيدته، بالأمس، تقديم: ميخائيل نعيمة.

١٢- د. عبد الوهاب المسيري، مختارات من الشعر الرومانتيكي الإنكليزي، بيرسي شيلي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

١٣- د. زكريا إبراهيم، اعترافات القديس أوغسطين، القديس أوغسطين، تراث الإنسانية.

١٤- هنري إبسن، بيت آل روزمر، ترجمة: أحمد النادي، وزارة الإعلام، الكويت.

١٥- رابندرانات طاغور، المنبوذة، ترجمة: حسن عبد المقصود حسن، وزارة الإعلام، الكويت.

١٦- مجموعة من المؤلفين، الموسوعة العربية، سقراط، أفلاطون، أرسطو، غوتاما بوذا.

١٧- الأستاذ علي أدهم، المحاورات، جياكومو ليوباردي، تراث الإنسانية.

١٨- لوشيوس أنايوس سينيكا، هرقل فوق جبل أويتا، ترجمة: د. أحمد عثمان، وزارة الإعلام، الكويت.

١٩- إيليا أبو ماضي، الديوان، العنقاء، دار العودة، بيروت.

٢٠- أبو الطيب المتنبي، الديوان، شرح: عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي.
٢١- د. أحمد عبد الرحيم أبو زيد، عن طبيعة الأشياء، لوكريتيوس، تراث الإنسانية.
٢٢- وليم شكسبير، العين بالعين، ترجمة: زاخر غبريال، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.
٢٣- أبو تمام، شرح ديوان أبي تمام، إيليا الحاوي، دار الكتاب اللبناني، بيروت.
٢٤- مجموعة من المؤلفين، موسوعة المعرفة، التاريخ القديم، إبكتيتوس، لوشيوس أنايوس سينيكا، ماركوس أوريليوس.

English References:

1- Internet, Cleanthes, Chrysippus, Callicles, Prodicus of Ceos, Hippias of Elis, The Symposium, Bertolt Brecht Poems.
2- Encarta encyclopedia, Sophists, Socrates, Plato.
3- Studies on Philosophical Thought, Juliette Ouayshik, Damascus University, Heraclitus, Socrates, Plato, Arthur Schopenhauer.





الوحدة الحضارية بين بلاد الشام وتركيا

❊
د. خليل المقداد

حبـــا الله مناطق بلاد الشـــام وآسيا الصغرى بمقومـــات طبيعية شكلت منهـــا وحدة حضارة ملتصقة مع بعضها البعض ومكملة كل واحدةٍ الأُخرى، وفي هـــذا الخصوص لابد من الرجوع إلى الجغرافية التاريخية التي ارتكزت بدورها على المقومات الجيولوجيـــة والمناخية وغيرها من مرتكزاتٍ طبيعية كانت فـــوق إرادة البشر التـــي تشكلت عبر التاريخ بتلاصـــق والتحام بشري أو وحـــدة دينية منذ العهـــود الوثنية وحتـــى ولادة الديانـــات السماوية، أو

❊❊ باحث في الآثار- سورية.
العمل الفني: الفنان علي الكفري.

وحـــدة قومية نوعا ما منـــذ العهود الحثية والكنعانيـــة والآرامية والفينيقية وصولاً إلى العهد العثماني الحديث.

وقد وهب الله عـــز وجل كلا المنطقتين طبيعـــة جميلة وخصبـــة لم تتوافـــر في أي موقع جغـــرافي آخر وعلـــى رأسها الترابط المشترك بين شرايين الحياة من أنهارٍ دائمة مثـــل نهر الفرات ودجلـــة والعاصي والبليخ والخابـــور وعفرين والكثير من الوديان منها وادي عباس – وادي جغجغ – وادي الأعوج وغيرها الكثير الكثير لدرجـــة أفردت إليها الميثولوجيا القديمة آلهة خاصة للأنهار وإله خاص لكل نهـــر كما كان الإله بوسيدون إله خاص للبحر.

كما شاركت تركيا بلاد الشام في قدسيتها كأرضٍ للأنبياء حيث ولد وعاش على أرضها النبيّ نوح عليـــه السلام في منطقة الجودي التركيـــة والنبـــي إبراهيم عليـــه السلام في حران وأورفا، إضافـــةً إلى ولادة المعتقدات القديمة (الميثولوجيا) حيث الآلهة المشتركة مثل الإلهة جـــي (أتارغاتي) إلهة الخصوبة والزراعة والإله إيون رب الزمان اللامتناهي والإلـــه عشتـــار وغيرهم الكثير مـــن الآلهة العربية من كنعانيـــة وآرامية وفينيقية ومن ثـــم انتقال هذه العبـــادات والآلهة إلى بلاد اليونان عن طريق آسيا الصغرى وبحر إيجة والبحر المتوسط.

وقد تمتعـــت كلا المنطقتـــين باحتضان البحـــر الأبيض المتوســـط وبحر إيجة مما شكل من كليهمـــا مولد حضارة هذه البحار التـــي استمـــرت آلاف السنـــين ومازالـــت مستمرة وسوف تستمر مهما واجهت شعوب هذه البلاد من محن وصراعات حضارية أو عرقية أو إقليمية أو مطامع استعمارية سواء كانت اقتصادية أو سياسية أو استراتيجية.

وبحكـــم دراستـــي وأبحاثـــي في المجال الحضـــاري والتاريخي والأثـــري وزياراتي البحثية المتكررة إلى تركيا كجزء من زياراتي الأخـــرى إلى باقـــي بلدان البحـــر الأبيض المتوســـط التـــي شملتهـــا جميعاً مـــا عدا فلسطـــين المحتلة، وكذلك بحكـــم تدريسي تاريخ وحضارات هذه المناطق في العديد من الجامعات وجدت بالدليل القاطع العديد من الروابط والوحدة الحضارية بين بلاد الشام وآسيـــا الصغرى والتي هـــي بالمحصلة جزء من حضارة البحر الأبيض المتوسط.(١)

ونظـــراً لتعدد هذه الروابـــط ولصعوبة حصرهـــا والحديـــث عنها، أكتفـــي في ذكر أهمها والتي سوف نلاحـــظ مدى التقارب أو الالتصـــاق والالتحـــام لدرجـــة تجعـــل الباحـــث يظن بأن صانع النهضة الحضارية في كلا المنطقتـــين هو شخص واحد تفرعت إبداعاتـــه لتشكل مدرســـة واحدة تمخضت



عنها وحدة دلت على عبقرية هؤلاء الناس وعظمتهم عبر التاريخ وخير دليل على ذلك هــذه الشواهد التي مازالــت حية وقائمة حتى الآن.

ومن هذه الشواهد على سبيــل المثال لا الحصر نأخذ نموذجاً أو أكثر عن كل مرحلة تاريخية أو حضارية من المواقع الحضارية والتاريخيــة والأثرية التي عملت بها والتي بلغت حــوالي خمسة وعشرين موقعاً على الأقــل، وتشمل هذه الأمــور مواقع ما قبل التاريخ ومن ثم بعض المــدن التاريخية، ثم بعضــ الأبنية الأثرية مثل المسارح والمعابد والكنائس والمساجد، (٢) وكذلك الفنون من فسيفساء ورسوم جدارية (فريســكات) ومسكــوكات نقديــة بقدر ما يسمح لنا المجال البحثي ومن جميع المواقع الجغرافيــة مــن كلا البلدين علــى الشكل التالي:

١ - التوافق بين أبنية الكهوف والمدن الجوفية في منطقة كابادوس من تركيا وحوض العاصي وبردى واليرموك ونخص بالذكر مدينة درعا السفلية:

آ - إقليم كابادوس Cappadoce في تركيا:

وهي منطقة وسط تركيا المعروفة باسم هضبة الأناضول (أناتولي)الممتدة بين البحر

الأسود ومناطق كيليكيا Cilicia المحاذية إلى سهل أضنه من الشمال وتخترقها أنهار جيحان وسيحان ومنطقة كوماجين Commagene، أي منطقة الفرات الأعلى، وهي على شكل هضبة مرتفعة غنية بالبحيرات الكبرى المالحة ونصف المجففة وتروى هذه الهضبة بوساطة الأنهار الكبرى التي ذكرناها وهي الفرات وسيحان وجيحان. وفي هذه المنطقة ازدهرت الحضارة الحثية لدرجة أن الكتاب والمؤرخين الإغريق القدامى كانوا يظنون أن أهل كابادوس كانوا السوريين أنفسهم.

وفي الحقيقة فقد شكل سكان المنطقة عبر التاريخ وخاصة في فترة ما قبل وقبيل التاريخ مزيجاً من الشعوب ومنهم: الشعوب الهندو/ أوروبية والحثييون الفرجينيون والفرس ومن ثم شعوب وقبائل إغريقية إضافة إلى قبائل عربية، وقد شكّلت المنطقة في العهد الهللينستي إقليماً شبه مستقل ثم مملكة مستقلة في نهاية هذا العهد وتحت إدارة حكام من أصل فارسي (إيراني).

وفي بداية العهد الروماني ضمت المنطقة إلى الإمبراطورية الرومانية في عام ١٧ ق.م، وشكلت ولاية من الولايات الرومانية يحكمها والٍ بمرتبة قنصل (بروكوراتور) استمرت حتى العهد الإمبراطوري المتأخر حيث قسمت إلى ولايتين منفصلتين سميت كابادوسيا الأولى وكابادوسيا الثانية، وكانت أكثر علاقاتها تواصلاً وارتباطاً مع سورية.[٣]

وعندما ننظر إلى هذا الإقليم بمواصفاته الجغرافية والتاريخية نجده يتوافق كلياً مع بعض مناطق بلاد الشام، وخاصة المنطقة الجنوبية وبكامل التفاصيل للصيرورة التاريخية في العهد الروماني عندما تم تقسيم المنطقة الوسطى والساحلية إلى سورية الساحلية أو الفينيقية وسورية الداخلية، وتقسيم منطقة فلسطين إلى ثلاثة أقسام الأولى والثانية والثالثة وهكذا.[٤]

كما تشابهت معها منطقة جنوب بلاد الشام بتوافر البحيرات مثل البحر الميت وبحيرة طبرية وبحيرة الحوله وبحيرة المزيريب، ومنها البحيرات الحلوة والمالحة، كما تميزت جنوب سورية بكونها على شكل هضبة متدرجة في الارتفاع يخترقها نهر اليرموك والأردن وتفرعاته المشكلة من العديد من الوديان[٥]. وزاد في المواقع تشابهاً امتلاكها إلى الكهوف والمغاور الطبيعية والمصنعة أو المهيّأة من قبل إنسان ما قبل التاريخ لتكون مساكن لهم.[٦]

وقد دخلت منطقة كابادوس في التاريخ المشترك مع بلاد الشام من خلال الحملة

التي قام بهــا الأكاديون السوريــون بقيادة نارام سين في بداية القرن الثالث والعشرين قبــل الميــلاد. وخلال القرنــين الأوّلين من الألف الثاني ق.م شكل الأشوريون السوريون مراكز تجارية وعلاقــات نشطة مع العديد مــن مدن منطقة كابادوســ وأهمها مدينة خولتيب Kültepe.

وتشتهــر المنطقة بتنوع إنتاجها الزراعي الخصب والمتنــوع كما هو الحال في منطقة حوران وكذلك علاقاتهــا التجارية النشطة على مستوى كبير بــين مختلف مناطق أسيا الصغرى وخاصةً القسم الغربي وبلاد الشام وبــلاد النهرين ومناطــق أرمينيــا والبحر الأسود.

وازدهرت المنطقــة أيضاً بتصدير مادة الرصاص الذي كان معدناً هاماً في صناعة المسكــوكات المعدنية ومنهــا الأسلحة ومن ثم في صناعة المسكــوكات النقدية. وخلال الألــف الثاني ق.م هيمنت منطقة كابادوس على مركز الإمبراطورية الحثية قبل أن تقع في أيــدي الفرجينيين، وفي العهد البيزنطي أصبحت مركزاً لمنطقة مزدهرة عرفت خلال هذا العصر كثافة سكانية وعمرانية ودينية كما هو الحال في منطقة الحوض الكلسي أو حوض العاصي في سورية.

وكمــا شهــدت سورية في هــذه الفترة النشاط العمراني في الأبنية الدينية من كنائس وأديرة وبازيليكات وكاتدرائيات غطت كامل المنطقــة كذلــك الأمــر حدث مــا يشابهه ويناظــره في المنطقة التركيــة، وأهم ما في الأمر المناهج السكنية التي اتخذت في جوف الصخــور وخاصةً في العهد الحثي من مدن ومغاور وكهوف طبيعية ومصطنعة تشابهت مع المناطق الكلسية في سورية وأهمها موقع درعا والتي سوف نتكلم عنها.

ب - درعا- حوران جنوب سورية:

لا نريد التوسع في وصف المنطقة جغرافياً وتاريخيــاً وحضاريــاً وإنمــا نــود الإشارة إلى التشابــه الكبير بــين كلا المنطقتين كما ذكرت قبل قليل، وسوف نعرض فقط بعض المواصفات السكنية في جوف الأرض والتي تشابهــت في كلا المنطقتين وخاصةً الكهوف والمدن السفلية، ولا بد من التذكير والإشارة إلى منطقة الجبل الأخضر في ليبيا (منطقة قورينــا أو برقة سابقاً) والمتشابهة أيضاً مع هذه الميزات الجغرافية والعمرانية،ونحصر الموضوع في مدينة درعا السفلية:

مدينة درعا السفلية:

تميزت مدينــة درعا الواقعة في جنوب سوريــة الحالية وعلى الحــدود المباشرة مع حــدود الأردن حيث تبعد عن كل من مدينة دمشق وعمان مئة كيلومتر بالتساوي، بمعنى

أنهـا تقع في منتصف الطريق بين مدينتي عمان ودمشق بالضبط. وتمتاز هذه المدينة بموقعها على حافة وادي الزيدي، وهو من الفروع الرئيسة لنهر اليرموك. ويقسم هـذا الـوادي المحيط بالمدينة على شكل حـذوة حصان إلى ضفتين الجنوبية ذات طبقة كلسية لدنة متعمقة، والشمالية ذات طبقة بازلتية قاسية جداً. وبينهما مجرى الوادي العميق بما يعادل ١٠٠م عن مستوى أكروبول المدينة والذي يرتفع عن سطح البحر ٥٤٠م.(٧)

وقد بلغ امتداد المدينة البيضوي والتي شهدت ثلاثة عشر مرحلة تاريخية شرق غـرب ألف متر وشمال جنوب ثمانمئة أيضاً، وتحت هذا الحيز العمراني والبالغ ثمانمئة ألف متر مربع حفر أهل درعا في الألف الثالث ق.م تقريباً مدينة سفلية على شكل شوارع وطرقات متفرعة في جميع الاتجاهات المنتهية عند حدود المدينة المشرفة على الـوادي الذي كان مبلّطاً بكتل حجرية ينتهي من الأعلى بسور شاقولي بلغ ارتفاعه عشرة أمتار.(٨)

وقـد سبق ذلك في الألف الخامس عشر تهيأت مساكن جماعية محفورة في جوف الصخور على امتداد الضفة الجنوبية للوادي وعلى امتداد عدة كيلومترات غرباً ومقسمة تقسيماً متساوياً ليحوي كل موقع حوالي عشرة أسر أو أكثر. وكل تجمع سكني له مدخل واحد. وقد قسم كل موقع تقسيماً عادلاً بوضع ستائر بين الركائز المنحوتة من ضمن الصخر الطبيعي والتي نحتت وهذبت كل واحدة لتصبح قاعدة ارتكاز على شكل قمع الفطر.

أمـا بخصوص المدينة السفلية فهي مطمورة حالياً ولم تتوافر الظروف حتى الآن للكشف عنها على الرغم من وجود بوابتها الوحيدة والفريدة تحت مستوى الأرض الحالية بحوالي أربعة أمتار، وقد كان سكان المدينة حتى سنوات الخمسينيات من القرن الماضي يستعملون بعض أقسامها السفلية كمخازن للحبوب وأعلاف الحيوانات.

إلا أن الوصف الحقيقي لهذه المدينة فقد جاء من قبل كل من الرحالة الألمان وتزتن ووليم فون بترس وشوماخير الذين دخلوا المدينة، وجاء وصفهم للمدينة على الشكل التالي(٩): (مدينة تقع تحت الأرض حفرت في الصخر الكلسي، ومدخلها عبارة عن باب تتقدمه حفرة صغيرة بشكلٍ مائل. وبعد العبور من الباب بحوالي ٦ إلى ٨ خطوات نجد أنفسنا أمام مساكن ومخازن تتشعب وتتضاعف كلما تعمقنا في الدخول.

وزودت هـذه المدينة بفتحات «روازن،

جمع روزنة» لتأمين الحاجة من الهواء والإنارة. أما بالنسبة لتأمين المياه للمدينة فقد حفر في وسط الحجرات والمخازن آبار لتخزين المياه. وقد زودت المدينة بمخرجين يغلقان ويفتحان بوساطة أبواب حجرية.

وتعتبر هذه المدينة أمام الأعداء عبارة عن قلعة حصينة، وعندما يسمع المراقب صوت الحراس الموجودين على مرتفعات الرصد المتقدمة من جهات المدينة المختلفة وكما يقال محلياً «دب الصايح» في البلاد يسرع سكان المدينة العلوية مع أدواتهم الزراعية وحيواناتهم إلى داخل المدينة السفلية وتغلق الأبواب ويصبح الجميع في أمان.

وبالطبع وبما أن الأعداء لا يعرفون الموقع جيداً فإنهم يجتازون المدينة دون أن يشعر بهم أحد، ولكن الخطر يكمن في حال معرفة الموقع جيداً ومحاصرته لمدة زمنية طويلة. ولهذا فكانت المداخل والمخارج موجودة في أماكن سرية وبمنتهى السرية. ووجد ما يشابه هذا الموقع في الأماكن المحيطة بدرعا مثل مدينة إربد القريبة من بحيرة طبرية.

أما عن الوصف الداخلي للمدينة فهي عبارة عن ممرات طويلة وعريضة ومحاطة من كلا الجانبين بمساكن ومحال تجارية على شكل حوانيت ذات أبعاد وارتفاعات جيدة مدعمة سقوفها بأعمدة وتيجان ودعامات حجرية ولها أبواب تفتح وتغلق حسب الحاجة.

ومن المؤكد أن المدينة كانت مهيأة لإيواء سكان المدينة العلوية في وقت الخطر، ولهذا فكان السكان دائماً مجهزين أنفسهم وخاصةً في وقت الحصار، لذلك تملأ مخازنهم بالطعام والأحواض بالماء. وللمزيد في معرفة التفاصيل التوضيحية مع المخططات يمكن الرجوع إلى كتابنا: (درعا مدينة المدائن- مدينة الديكابولس).

٢ - التوافق بين المسارح في كلا البلدين:

تعتبر كل من أسيا الصغرى وبلاد الشام (سوريا الكبرى) من أغنى دول العالم في المسارح الأثرية، وأن نسبة المسارح التي بنيت في كليهما تتجاوز الخمسين بالمئة من مسارح العالم، فمن بين ١٥٠ مسرحاً أثرياً معروفاً حتى الآن يوجد منها خمسون مسرحاً في سورية الكبرى، وثلاثون مسرحاً في أسيا الصغرى تقريباً، وهذا الأمر لا ينطبق على المسارح فقط وإنما ينطبق على جميع الأبنية الأثرية من قصور وحمامات وكنائس وقلاع ومعابد ومدن مجملة بالشوارع المعمدة وغيرها.

أما بخصوص المسارح فهي عبارة عن المعيار الثقافي والتحضر والمدنية للشعوب

عبر التاريخ. ولا بد من التذكير في هذا الصدد أن المسارح كانت تبنى في المدن الصغرى والكبرى بحيث تمتلك المدن الكبرى أكثر من مسرح ومنها قاعة طرب ومسرح دائري أنفتياتر.(١٠)

ونشير في هذا الصدد وبعجالة إلى المسارح المعروفة والموثقة في المدن السورية التالية: أنطاكيا (أكثر من مسرح) اللاذقية- جبلة- عمريت- أفاميا- النبي حورس (سيروس) الصالحية (دورا أوروبوس) تدمر- دمشق (أكثر من مسرح) قنوات- سيع- سحر- شهبا- بصرى (أكثر من مسرح) -درعا - الحمة- الأشعري- السويداء (أكثر من مسرح) إضافةً إلى مسارح لبنان وفلسطين والأردن.(١١)

أما في تركيا فهناك مسارح مدن: أسوس- إيفيسوس- ميليتوس- أفروديسياس- هييروبولس- فازيليس- تيرميسوس- ميرا- إكسانتوس- بيرن- ليميرا- أولومبيوس- أسبندوس سيدا- بيرجة- ساقالاسوس- عيشة- كنيدوس وغيرها.(١٢)

والمتبصر في دراسة الإرث الحضاري العالمي يجد أن الإغريق نقلوا الحضارة والتنظيم المعماري من بلاد الشام عبر تركيا أو عبر البحر الأبيض المتوسط وجزره واعتمدوه ونقلوه بدورهم إلى الرومان، والأمثلة على ذلك كثيرة(١٣). ولو استعرضنا المسارح بأصنافها المعروفة في العالم الإغريقية والهللينستية والرومانية وقارناها مع المسارح العربية نجدها جميعاً تتوافق مع بعضها البعض جزئياً وتختلف مع بعضها الآخر كلياً مما يدل على انتفاء الصفة الإقليمية أو الهوية العرقية والقومية لأي مبنى من المباني الأثرية. ويمكن تلخيص الأساليب المعمارية لها ضمن المنهجية التالية:

١- مسرح مبني من طبقة واحدة سفلية ومستند كلياً على مرتفع طبيعي، ومثال ذلك مسرح سوسة (أبولونيا) في منطقة الجبل الأخضر- ليبيا ومسرح فازيليس- منطقة أنتاليا- تركيا.

٢- مسرح مبني من طبقة واحدة ولكن غير مستند كلياً وإنما جاء بناؤه من القاعدة إلى القمة، وهو بناء ينقسم إلى شقين:

- الشق الأول: يكون جدار أماكن المتفرجين الخلفي معمّياً كلياً ومن دون نوافذ وأبواب وتقتصر المنافذ على واجهة المنصة، مثل مسرح الإسكندرية في مصر (حالة فريدة).

- الشق الثاني: يكون جدار أماكن

المتفرجين مزوّداً بنوافذ إما جانبية أو خلفية. مثال ذلك مسرح سحر - منطقة اللجاة جنوب سورية. (حالة فريدة)

٣- مسرح مبني من قسمين السفلي منه مستند والعلوي مبني كلياً. مثال ذلك مسرح درعا ومسرح شهبا.

٤- مسرح مبني من قسمين ومستند كلياً. مثال ذلك مسرح ليميرا ومسرح ميرا في تركيا ومسرح جميلة في الجزائر.

٥- مسرح مبني من قسمين ومستند كلياً، ولكن الرواق العلوي مبني كلياً. مثال ذلك مسرح اسباندوس - منطقة أنتاليا - تركيا.

٦- مسرح مبني من قسمين: القسم الأوسط يستند على مرتفع طبيعي والأطراف الجانبية تمَّ بناؤها بوساطة جدران استنادية. مثال ذلك مسرح تيرميسوس ومسرح سيدا ومسرح اسباندوس ومسرح أيفسوس - وجميعها في تركيا - منطقة أنتاليا.

٧- مسرح مبني من قسمين ومن دون رواق علوي. مثل مسرح اكسانتوس ومسرح سيدا -منطقة أنتاليا - تركيا.

٨- مسرح مبني من قسمين مع رواق علوي مثل مسرح اسباندوس - تركيا. ومسرح بيرقام - اليونان. ومسرح شهبا - جنوب سورية.

٩- مسرح مبني من ثلاثة أقسام ومن دون رواق علوي. مثال ذلك مسرح البتراء - ومسرح جبلة.[١٤]

١٠- مسرح مبني من ثلاثة أقسام مع رواق علوي القسم السفلي منه مستند والأقسام العلوية مبنية.

١١- مسرح مبني من ثلاثة أقسام مع رواق علوي ومبني من القاعدة إلى القمة. مثال ذلك مسرح أورانج - فرنسا. ومسرح بصرى - جنوب سورية.

ومن خلال ذلك نجد أن المسارح في سورية وتركيا حوت على منهجية تمازجت بها جميع النماذج المعمارية.

أما بخصوص ميزات المسرح الإغريقي وتميزها عن المسرح الهللينستي أو الروماني فهي على الشكل التالي:

آ - ميزات المسرح الإغريقي:

١- الربط بين بناء المسرح وبناء المعبد. ومثال ذلك مسرح سحر منطقة اللجا ومسرح سيع بالقرب من مدينة قنوات ومسرح دوقا في تونس ومسرح عمان- الأردن.

٢- ربط بناء المسرح مع الموقع الطبيعي بإسناد أماكن المتفرجين على المنحدر الطبيعي، مثال ذلك مسرح جميلة في الجزائر.[١٥]

٣- كشف المداخل الجانبية التي كانت عبارة عن ممرات تقتصر على الحيز الخارجي ومن دون عوائق.

٤- فصل مبنى المنصة عن مبنى أماكن المتفرجين.

٥- عدم الربط بين المسرح ومخطط المدينة.

٦- عدم الربط بين المسرح والأبنية العامة الأخرى في المدينة.

٧- إعطاء الدور الهام والأساسي لساحة الأوركسترا مع تهميش دور المنصة.

ب - ميزات المسرح الهللينستي والروماني:

١- الاستعارة من المسرح الإغريقي، المرتكزات الأولية للوظائف والتخلي عن كثير من المرتكزات الهندسية والمعمارية والاعتماد على قانون فيتروف للعمارة الرومانية ومنها نظام بناء المسرح.(١٦)

٢- بروز دور أماكن التحكيم.

٣- ارتكاز البناء على أساس ازدواجية البناء في المنصة وأماكن المتفرجين والربط بينهما.

٤- أصبح دور ساحة الأوركسترا كحيز مكاني يربط بين المنصة وأماكن المتفرجين، ولم يعد لها الدور الهام كما في المسرح الإغريقي.

ومن خلال ذلك نجد أن المسارح في كل من سورية وتركيا أخذت النماذج الأكمل من بين جميع نماذج الأبنية المسرحية في العالم وليس على نموذج المسرح الإغريقي أو المسرح الروماني مع لفت النظر إلى أن بناء معظم المسارح في تركيا جاء مستنداً على مرتفعات طبيعية، وكانت الغاية الاستفادة من هذه المنحدرات كناحية اقتصادية في توفير نفقات البناء.

وبالطبع فإن الأبنية المسرحية تعبر تعبيراً صادقاً عن العبقرية الفذة والرقي الحضاري لما تتمتع به من البراعة الهندسية والقدرة على التنفيذ بدقة متناهية تضع لكل جزء من الأجزاء وظيفة يؤديها من الناحية الهندسية والوظيفية. ومن هذا المنطلق أنتهز الفرصة لأبين بعض الخصوصيات التي تمتع بها مسرح مدينة بصرى كبرهان على ما تم ذكره:

١- يعتبر المسرح من أفضل المسارح محافظة على بنائه والأكثر إثارة للانتباه، ومدرسة لفن الهندسة المعمارية لبناء المسارح والأبنية الترفيهية، ومن بين الأبنية النادرة التي استطاعت الاحتفاظ بكامل عناصرها. وزاد في أهمية المسرح التزاوج بين القلعة العربية الإسلامية التي بنيت في القرن الثاني عشر مع الاستمرار والمحافظة على

كلا البناءين مع بعضهما البعض طيلة ثمانية قرون متواصلة داخل المسرح نفسه ومحيطة به من الخارج والتي أعطت بدورها نموذجاً ومدرسة للهندسة المعمارية العسكرية.(١٧)

٢- جاء المسرح في بنائه مخالفاً للاعتبارات التقليدية التي عرفتها الكثير من المسارح اليونانية والهللينستية والرومانية، وجاء المسرح مبنياً على قاعدة منبسطة نفذ عليها كامل البناء.

٣- جاء المسرح على شكل كتلة معمارية تجاوزت الشكل النصف دائري لبناء قوي ومرتفع ويحوي بين جنباته الكافيئا (أماكن جلوس المتفرجين) والجدران المستقيمة التي تحتضن الأروقة والأدراج التي تخفف من حجم وسماكة هذه الجدران وتعطي للمسرح خلخلة للتهوية والإضاءة وتوافر الخدمات واختراق المسرح من الداخل والخارج ومن كل الاتجاهات بوساطة ممرات مقببة وأدراج مجهزة لتكون منافذ سهلة ومباشرة وتفتح على كامل الاتجاهات والأقسام.

٤- جاءت عناصر الزينة من أعمدة ومكرنشات وأقواس ومداخل في منتهى الإتقان. ويعزى ذلك إلى الأهمية الكبرى التي حظيت بها بصرى في إشهار الألعاب التي كانت تقام على شرف إله المدينة ذي الشرا والقيام بدورها كعاصمة للولاية العربية.

٥- ينتمي مخطط المسرح إلى أعلى مراتب الكمال المعماري ويتجلى ذلك في عملية الترابط بين المنصة الممتدة بشكل مستطيل مع كسوتها العظيمة والجميلة والكافيئا (أماكن جلوس المتفرجين) بأقسامها الثلاثة على شكل مخروطي يستمر بشكل مقوس ويتوجها الرواق العلوي. وهذه العناصر مجتمعة تشكل عملاً موحداً تتصل بجدران الاحتضان الجانبية والتي تشكل جزءاً من كل عنصر، ومجموع العمل ينتهي مرتفعاً بمجموعه بنفس مستوى الارتفاع.

٦- جاءت الأدراج الشعاعية والمماشي الفاصلة تتشابه في توزيعها وتقسيمها بحيث تشمل كامل أقسام المدرج بشكل متساوٍ وبدقة متناهية لتسهل عملية المرور.

٧- تجاوزت الممرات والمداخل والأدراج الداخلية في أعدادها في المسرح جميع مسارح العالم.

٨- جاء العرض موفقاً في بناء الأروقة الجانبية وتسلسلها الطابقي من الأسفل والأعلى وفي الوسط خلف أماكن التحكيم مكونة مناطق ارتكاز والتحام وصلة وصل بين مبنى الكافيئا والمنصة، كما أصبحت خاصية فريدة انفرد بها مسرح بصرى لتكون أماكن مخصصة للشخصيات المرموقة وللخلوات العائلية.

٩- توافق الأروقــة الجانبية مع ردهات الاستقبال والاستراحات الجانبية.

١٠- جــاءت عملية الربــط بين الألواح والكواليســ الطبقيــة بطريقــة فنية رائعة بحيــث تمَّ استغلال الزوايا لتكــون أقفاصاً لــلأدراج لكلا المجموعتين، مــع تخصيص الألواح بمداخل خاصة وإضافية أيضاً.

١١- ظهــرت خصوصية المســرح بعدم تراجــع المنصة على حســاب الكافيئا وإنما أخذت المنصة حجمها الطبيعي كما أخذت الكافيئا امتدادها الطبيعي وكل عنصر أخذ مكانه وحجمه وموقعة بدقة وإتقان.

١٢- تميز المسرح بوجــود ابتكارات في تنوع الهندسة المسرحية التي جاءت من إنتاج محلي تجلــى في الاهتمــام بالزخرفة على الحجر البازلتي القاســي والمكلف، وكذلك الاهتمــام في التنظيم والتركيب من الداخل والخــارج وإعطائهــا مايلزمهــا مــن أجل إخراجها بمظهر لائــق وعلى رأسها المظهر الجمالي للرواق العلوي.

١٣- تميز المسرح بعــدم وجود فواصل بــين الكافيئــا والمنصة وحركــة الجمهور؛ وهــذا يعني أنــه كان للمســرح استعمالات أخــرى إضافة إلى العروضــ المسرحية بين حــين وأخر، ومما يؤكد ذلــك اتساع ساحة الأوركسترا وشكلها واتصالها مع المنصة ومع الأروقة الجانبية مما يدعو للظن بوجود دكة كانــت توضع بشكل مؤقت أو موسمي يوضع فوقها هيكل مقدســ وتمثال إله المدينة ذى الشرا والذي كانت تقوم على شرفة الألعاب والعروضــ على مسرح بصــرى والتي كانت تعــرف باسم ألعاب دوساريســ وتطوف به المواكب أثناء الاحتفــالات في مواسم أعياد هذا الإله التي برزت تماثيله في مدن المنطقة وقراها كافة.

١٤- ومن خصوصيــات المسرح المظهر الجمــالي حيــث لم تنعزل جماليــة الديكور وغنــاه في المسرح وخاصة المنصة عن المنهج المتبع في المسارح العملاقة في العالم وخاصة الإكســاءات الرخامية وتزيينهــا بالأعمدة ومختلــف عناصرها التي جاءت على النمط الكورنثــي. وزاد في جمــال المنصــة أيضاً إحياء الواجهة نفسها بالمنحنيات والبروزات والتقسيمات والتعرجات وتزيينها بالمحاريب وتزويدها بالتماثيل المتعددة.

١٥- ولا بد من الإشارة إلى توافر الرؤيا الجيدة وتهيئة المنصة لانعكاس الصوت من أجل الإصغاء العــالي وتوفير وسائل إيصال الصــوت وتأمين خدمات الممثلــين وأماكن إيواء الجمهــور في أماكن تؤويهم في حالات الطوارئ والعوامل الجوية.

وفي الختـام لابد من التذكير بأن المسرح بنـي في منطقـة مـن أغنى مناطـق العالم بالمسارح مثل منطقة الساحل السوري وحوض العاصـي في بلاد الشام كمـا هو الحال في منطقـة أنتاليا وساحل بحر إيجة في تركيا، وصقلية والساحل الأدرياتيكي في إيطاليا، والجبـل الأخضر في ليبيـا ومنطقة أورانج في بلاد الغال (فرنسـا) وجزر البليونيز في اليونان... إلخ.

ومع ذلك تربع مسرح بصرى على عرشها جميعاً. وإن تشابهـت المسارح في هندستها المعمارية ودورها الوظيفي، إلا أن لكل مسرح هويته وشخصيته الخاصة به. ويبقى مسرح بصرى لـه هويته وشخصيته الخاصة وفوق ذلك يبقى ملك المسارح الأثرية في العالم.

بعض المقاييس في المسارح السورية:

المسرح	الموقع	القطر	كافيئا	ط- أولى	ط- ثانية	ط- ثالثة	الأوركسترا
Aphame أفاميا	مستند	١٤٠	٣				٢٥
Bosra بصرى	غير مستند	١٠٢	٣	١٤	١٨	٥	٢٠
Canatha قنوات	مستند	٤٩		٩			
Cyrrhusسيروس	مستند			٢٣			٢٤
Dera درعا	مستند	٦٢	٢	١٣			
Dora-Europos	غير مستند	١٤	١	٨			
Gabala جبلة	مستند	٩٠	٣	١٣	١٢	٥	١٥،٥
١Gadaraأم قيس	مستند	٥٠،٢٢	٢	١٣	٩		
٢Gadaraأم قيس	مستند		٣				
Gerasaجرش	مستند						
Gerasaجرش	مستند						
٢Gadara أم قيس	مستند	٧٦					
Himmehالحمة	مستند						
Laodicee اللاذقية sur mer	مستند	١٠٠					
Palmyre تدمر	غير مستند	٩٠	٢	١٢			٢٠
Petraالبتراء							٢٤،٥
Philadelphieعمان	غير مستند	٣٨	٣	١٤	١٤	١٦	٢٦،٥
Philadelphie عمان	مستند	١٠٢					٨،٥
Sahar سحر	غير مستند	٢٠	١	٧			٢٠

بعض المقاييس في المسارح التركية:

المسرح	الموقع	القطر	كافينا	ط- أولى	ط- ثانية	ط- ثالثة	الأوركسترا
Assos أسوس	مستند كليا	٧٠ م	٣	١٤	١٥	٤	٢١
Efesusإيفيسوس	مستند كليا	١٠٦	٣	١٩	٢١	٢٠	٢٦
Miletosميليتوس	مستند	١٠٠		١٩	١٩		٢٦
Afrodisiasأفروديسياس	مستند كليا	٩٠ م		٢٥			
Hieropolis هيروبولس	مستند كليا		٢	٢٢	٢٥	-	٢٠
Phasilis فازيليس	مستند		١	٢١			١٧،٥
Termessos تيرميسوس	مبني		٢	١٩	٩	-	
Myra ميرا	مستند كليا	٨٠	٢	٢٩	٧		٢٦
Xantos إكسانتوس	مستند	٦٥		١٦			
Limyra ليميرا	مستند كليا	٦٤		١٨			٢٥
Olympois أولومبيوس	مستند كليا	٤٣		١٧			
Aspendos أسبندوس	مستند كليا	٩٠ م	٢	٢٠	٢٠	-	٢٥
Side سيدا	مستند	٧٥	٢	٢٢	٢٧	-	٢٥
Perge بيرجة	مستند كليا		٢	٢٩	١٧	-	٢٥
Sagalassos ساقالاسوس	مستند كليا		٢	٢٤	١٧	-	٢٠
Ayas عيشة	مستند كليا		١				
Knidos كنيدوس							٢٥
Pierne بييرن							

التوافق بين الأبنية الكنسية ونأخذ منها بعض النماذج مثل:

آ - كاتدرائيـــة القديســـة أيا صوفيا (أو كنيسة الحكمة المقدسة) في مدينة استانبول (القسطنطينية):

جـاء الموقع علـى مرتفع يشـرف على المضيق البحـري فوق أنقاض بناء قديم، ثـم بنيت كنيســة في الموقع نفســه، ثم بناء الكاتدرائيــة، وأخــيراً تحويــل الموقــع إلى مسجــد مع بعضــ الإضافـات والتوسعة، ولهــذا السبب أطلــق عليها اســم الكنيسة الكــبرى، كما اعتــبرت من أوضــح وأجمل النماذج للعمارة البيزنطية في أوج ازدهارها في عهد الإمبراطــور جوستنيان. وقد امتاز

البنـــاء بصفـــات معماريـــة مميـــزة بعد أن أُلبست حلية زخرفية رائعة الفخامة والدقة، ولذلك أصبحت فريدة زمانها وفاتحة عصرٍ جديد للبناء الكنسي وبلوغ ذروة مجدٍ للطراز المعماري البيزنطي.

وكان السبـب المباشـر في بنائهـا حرق الكنيسـة القديمـة التـي بنيت مـن قبل الإمبراطـور قسطنطـين وكرسهـا للحكمة المقدسة علـى أثـر الاضطرابات الخطيرة التـي حدثت عام ٥٣٢م، وقد انطلقت فكرة الإمبراطور جستنيان من إعادة بناء الكنيسة بشكل لم يسبق له مثيل، ولهذا الغرض أحضر جميع المهندسـين والمعماريين والفنيين من جميع أنحاء الإمبراطورية، كما أمر بإحضار جميـع المـواد المعماريـة اللازمـة من كل أنحـاء العالم، لذلـك تمَّ جلب أجمل وأعظم العناصـر المعمارية الأثريـة والمواد الأخرى مـن المعابد القديمة من جميع الأقاليم إلى القسطنطينية.

وكانت أهم وأجمـل العناصر من معابد مـدن أثينا وروما وبعلبـك السورية وغيرها من الآثـار التاريخية التي أعيد استخدامها بمهـارة ودقة فائقة.بعد عمليـة الدمج مع العناصر المعماريـة الحديثة وخاصة عملية الدمج بين عناصر الرخـام شديدة البياض القديمـة وأنـواع الرخام متعـدد الألوان، وكانت النتائـج ذات توفيق ناجح في الجمع بين كل الألوان المتباينة حيث استخدم مواد الذهب والفضة والعـاج والأحجار الكريمة بسخاءٍ كامل لتزيد من فخامة البناء وروعته وبهائه.

ولتحقيـق الغرضـ مـن البنـاء عهد الإمبراطـور جوستنيان بالأمر إلى مهندسين من منطقـة ليديا في أسيـا الصغرى وهم أنتيميوسـAnthemios [١٨]، وإيزيـدور Isodorus، حيـث أثبتا قدرتهما على حل أزمة المشاكل المعمارية وتوصلا إلى تنفيذها وتقدم العمـل بها تحـت إشرافهما بسرعةٍ فائقة. وقـد اشتغل في البنـاء عشرة آلاف عامـل. وكان جستنيان يراقـب العمل عن كثب، كما كان يصرف في سبيل تنفيذه أموالاً طائلـة، لذلك انتهى بنـاء الكنيسة في مدة خمسة أعـوام، وافتتحها الإمبراطور رسمياً في ٢٧كانون الأول /ديسمبر عام ٥٣٧م.

الصفات الهندسية:

جاء تصميم صحـن الكنيسة على شكل بيضاوي بمقياس ٨٠× ٣٥م، ويتكون المسقط الأفقـي للصالـة الكبرى مـن مربع ضخم طول ضلعـه ٣٥م ارتكزت في أركانه الأربعة أعمـدة ضخمة القطاع كانـت تستخدم في معبد بعلبك لتحمل الأروقة والقبة المركزية الكبرى والتي يبلـغ قطرها ٣٥م، وارتفاعها

عن سطح الأرض ٥٨م. وبنظرةٍ فاحصة إلى الموقع من الداخل تظهر عظمة وروعة هذه القبــة حيث تظهر وكأنها معلقة بسلسلة من السماء.

وقد كسيت جميع جدران الكنيسة بجميع أنــواع الرخام المتعــدد الألــوان والمستورد مــن أقطار مختلفــة ومتعــددة، إضافة إلى جــدران القبة المركزية والقبــاب الفرعية. وكذلك فرشت الأرضيات بالفسيفساء الملون وبأشكال وبواعث نباتية وهندسية وجمالية مختلفة. أما بالنسبــة إلى العقود والقبوات فقد كسيت جميعها بالفسيفساء والموزاييك الزجاجــي الملــون إضافــة إلى تلوين زجاج النوافذ المتعددة.

وقــد أظهــرت اللوحــات الفسيفسائية التي نسجت على شكل أيقونات عدداً كبيراً من الملائكــة والقديسين وصــور وأيقونات مستنبطة من الديانة والمعتقدات النصرانية في صورٍ بديعة علــى أرضية مذهبة. ولكن بعد أن تحولــت هذه الكنيســة إلى مسجد غطيــت جميع التماثيــل والأشكال والصور وحل محلها آيات قرآنية.

وقد حــوى هذا البناء الكنسي/ المسجد كمــا ذكرنــا مئة وسبعــة أعمــدة معظمها منقولة من معابد قديمة ومتعددة من سورية وخاصةً معبد كبير الآلهة العربية إله الشمس بعل (زيوس/ جوبيتير) نقلــت براً أو بحراً، ومنها ٤٠ عمــوداً بالطابق الأرضي والباقي استخدم في الأروقة المحيطة بالصحن المكون مــن طابقين. وفي العهــد العثماني أضيفت المآذن الأربع بعد تحويل البناء إلى مسجد.

الواجهات الخارجية:

نلاحــظ أن الواجهــات الخارجيــة جاءت متميــزة بالضخامة وعــدم المبالغة في الجماليــة، وبالقدر الذي نجــده مبالغاً فيــه من الداخــل من الجماليــات البنائية والزخرفة بقدر ما نشاهد الضخامة وعدم التمــوج والتضليع وخلخلة الواجهات بسبب المباني الضخمة التــي أضيفت في الفترات المتتالية للتدعيــم والملحقات وتحميل القبة المركزيــة والقباب الإضافية مما جعل القبة أقل انخفاضــاً وأكثر ثقلاً ممــا كان الأمر عليــه في الأصل، ومع ذلك بلغ ارتفاع المبنى ٥٨ متراً.

ولعب دوراً في عــدم جمالية الواجهات الخارجيــة استعمال الطوب الأحمر في بناء الجدران مما جعــل مظهرها مملاً ويطغى على مظهر الإبــداع والابتكارات الداخلية، عكــس ما تمَّ تنفيــذه في الأبنية المماثلة في سورية حيث نجــد الإبداع في خلق واجهات متحركة مــن الداخل والخــارج بشبكة من النوافــذ والكــوات والمحاريــب والمنحنيات

نفذت جميعها بترابط وتنسيق خلق جمالية إبداعية متناسقة بين الجدران والواجهات الداخلية والخارجية.

المسقط الأفقي:

وقد أشيدت الكنيسة السابقة في عهد الإمبراطور قسطنطين فوق أرضية مستطيلة بلغت أبعادها ٧٧م، بعرض ٧١،٧٠م. وفي وسط هذا الحيز المكاني بنيت الكاتدرائية الجديدة التي توسطها صحن كبير تعلوه قبة هائلة وضخمة بلغ قطرها ٤١م. ويحيط بالكنيسة فناء واسع في وسطه مصطبة رخامية كبيرة. وترتكز القبة على أربعة عقود ترتكز بدورها على أربعة أكتاف ضخمة، ويحيط بالعقدين الشمالي والجنوبي جدران فتحت فيها سلسلة من النوافذ بينما يحمل هذا التنظيم في الطابق السفلي طابقين من الأعمدة.

أما العقدين الشرقي والغربي فيرتكزان على أنصاف قباب تدعم القبة الوسطى، وتستند كل منهما على قباب محيطية أصغر، ولهذا أصبحت جوانب وأطراف الكنيسة على شكل عقود تعلوها منابر مسقوفة بعقود مستديرة تحيط بالكنيسة. وكانت هذه الردهات المرتفعة مخصصة للسيدات حيث تقصدها الإمبراطورة تيودورا لحضور الصلوات محاطة بالحاشية من السيدات.

كما كانت في بعض الأحيان تستقبل فيها زوارها في الأعياد والمناسبات الرسمية والدينية.

خصوصيات بناء كاتدرائية أياصوفيا:

تعتبر هذه الكاتدرائية التحفة المعمارية في ذلك العهد وإحدى الانتصارات العظيمة المبتكرة والخالدة لأي عصر. وبعد الفتح العثماني تحولت إلى مسجد إسلامي حيث أضيفت إليها المآذن مما جعلها تعبر عن منهجين ونظامين ووظيفتين ونموذج لحضارتين في بناءٍ واحد يعبر عن تلاحم الأديان ولقائها في حيز بنائي مشترك.

ويوضح تصميم الكنيسة مدى ارتباط الكثير من العناصر المعمارية الهامة، فنجد مثلاً ذلك المحور الطولاني للبازيليك في فجر المسيحية (مثل بناء البازيليك في القسطنطينية، والأبنية الكنسية في مدينة بصرى وكنيسة أزرع في سورية أو كنيسة مدينة جرش أو كنيسة القديس فيتال في مدينة رافينا جميعها ارتكزت على الجزء الأوسط من الصحن المربع المتوج بالقبة المركزية، وعلى الجانبين مستطيل مسقوف بأنصاف قباب.

وبذلك التكوين البديع يصبح الصحن كله بيضاوي الشكل وملحق بأنصاف القباب

المتسلسلة من كل الجوانب، بينما ترتكز القبة على أربعة عقود موزعة أحمالها على الأكتاف التي في أركان المربع ومن ثم الانتقال من المربع المتكون من هذه العقود إلى الحلقات الدائرية للقبة بوساطة المثلثات الكروية على شكل المعلقات.

ولذلك يمكن القول بأن هذا التخطيط الهندسي والتكوين والوحدة المتكاملة للقبة المركزية المبنية على المعلقات سمح في التحكم في ارتفاع القبة واتساعها بالشكل المطلوب مع التخفيف من الأوزان والثقل على الجوانب والاقتصاد في التكاليف بدلاً من الطرق القديمة التي كانت تستعمل في المعابد والأبنية الكبرى.

خصوصيات مواد البناء:

١- المواد المستخدمة في بناء القباب المركزية والفرعية:

كان بناء القبة المعلقة هو الشغل الشاغل للمهندسين منذ العهود السابقة، وقد تم التوصل إلى إنشاء هذه القباب في سورية باستخدام مواد معمارية صلبة وخفيفة الوزن. وهذه المواد عبارة عن الصخور البركانية المحروقة والناتجة عن الثورات البركانية مما أعطاها صفات خارقة لم يستطع الإنسان أن ينتجها لتميزها بصفات هامة منها:

- تكوينها الخارجي والداخلي على شكل الفقاعات المجوفة مما يجعلها مناسبة لدخول الخلطات اللاصقة من الملاط الكلسي الذي يكسبها صلابة غير قابلة للتشققات والتصدعات، كما يكسبها المرونة في تحمل الهزات الأرضية والزلازل والعوامل الجوية الأخرى إضافة إلى التكيف في تشكيلها ومدها بسهولةٍ مطلقة وتحملها الثقل العلوي.

- الخفة: وجاءت خفتها بسبب الصهر نتيجة الحرارة البركانية داخل الفوهات البركانية مما أفقدها عناصر الثقل المعهودة في الحجر البازلتي.

وقد تم استخدام هذه المادة مخلوطة مع جبلة من الحجر الكلسي المهروس واللدن والمرق، حيث كانت تفرش المقذوفات البركانية على القوالب الخشبية السفلى ثم تسكب الخلطة الكلسية وتترك لتجف ثم تتم إزالة القوالب (الكوفراج) وبعد التأكد من الجفاف المطلق والتماسك تتم عملية الطلاء وترصيع الزينة من المواد المرغوب بها سواءً من الزجاج أو الطينة البيضاء أو الفسيفساء أو الألواح الرصاصية كما تم تنفيذه في كنيسة أيا صوفيا وهكذا.

وقد تم استعمال ذلك في جميع صالات الأبنية الكبرى في سورية وخاصةً المنطقة

الجنوبية أو ما تعرف باسم منطقة الحوض البازلتي بسبب توفر هذه المادة بكثرة. ومن بين هذه الأبنية التي أشيدت منذ العهد النبطي في القرن الثاني ق.م الحمامات مثل حمامات مدن بصرى وعمان وجرش وشهبا ودرعا وشعارا، وكذلك الأسواق العامة والكنائس والبازيليكات والكاتدرائيات بما فيها سقوف الأروقة الكبرى في المسارح وغيرها.

وقد نقلت هذه التقنية من سورية إلى عاصمة الإمبراطورية روما منذ وقتٍ مبكر ثم طور استخدامها وتوسع في تطوير مدينة روما من قبل المهندس السوري أبولودور الدمشقي في عهد الإمبراطور تراجان والتي مازالت ماثلة في مبنى الكولسيوم والفوروم وغيرها، وبعد ذلك شاع استعمالها في معظم الأبنية الضخمة في العالم الروماني والبيزنطي.

وقد استخدمت هذه المنهجية في القباب البسيطة ذات الشكل الكروي والمركبة والقباب المرتكزة على الطبلة ذات الارتفاع الجملوني والمرتكزة على طبلة دائرية ثم تمتد على المعلقات، وهذا المنهج سمح في تسقيف المساحات الكبيرة من دون حاجة إلى بناء أعمدة أو مرتكزات خاصة في الوسط مما يعطي المنظر الداخلي والخارجي لهذه القباب جمالاً وتنسيقاً.

والشيء الهام في هذا العمل سهولة فتح سلاسل من النوافذ المربعة والمستطيلة والدائرية أو بأشكال هندسية مختلفة من مثلثات ومعينات ومضلعات في أسفل انحناء القبة أو في وسطه أو في الأعلى وحسب المخطط المرسوم، وأكثر ما كان يستعمل ذلك في القبة المرتكزة على الطبلة.

٢- الزخارف والأعمدة والفتحات:

وقد سمحت الأروقة والشرفات المقامة فوق المماشي الجانبية الكبرى والمحملة على الأعمدة المرتفعة بين الدعامات الأساسية التي تحمل القبة إلى المبالغة في إظهار الجمالية المتنوعة في العالم الداخلي للبناء. كما زادت الجمالية بالفتحات المتسلسلة والمتكررة على شكل نوافذ أو فتحات إضاءة. ثم هناك البواكي والمحاريب ذات العقود النصف دائرية أو على شكل صناديق مفتوحة.

إضافة إلى استعمال العقود المستقيمة أو على شكل حذوة الحصان أو المدببة وغيرها والتي كثر استخدامها في سورية وخاصةً في بناء القصور مثل قصر ابن وردان في وسط سورية إلى الشرق من مدينة حماة وبنفس الفترة التاريخية لبناء الكنائس في عهد

الإمبراطور جستنيان حيث كان يتم التكيف في هندسة النوافذ وعددها وأبعادها بشكل يتناسب مع العوامل الجوية.

وقد ساعد هذا الأسلوب بتوفير مسطحات داخلية في كاتدرائية أيا صوفيا لرسم الصور المناسبة بالفسيفساء الملون وأنواع الرخام المتعدد التي أضفت على المبنى من الداخل رونقاً وبهاءً مكملاً لزخارف العقود والأقبية والقباب المكسية بالفسيفساء المزجج واللامع فوق الأرضيات الذهبية.

وزاد من جمالية المنظر أن كل عمود من الأعمدة يتكون من قطعةٍ واحدة من الرخام المختلف الألوان إضافة إلى التيجان البيضاء وفوقها منهج التعميد الثلاثي الأعلى الغني بالحليات النحتية فائقة الجودة فوق الأعمدة الكورنثية أو الإيوانية المركبة. ثم يأتي الفرش الأرضي بالسجاد الفسيفسائي الرائع بتشكيلات متنوعة وجميلة خلق جواً داخلياً منسجماً كلياً وكأن المرء داخل إحدى الغرف التي وصفت في الجنة.

ب - الكاتدرائية المركزية في مدينة بصرى:

بنيت الكاتدرائية في موقع تجمع أبنية دينية منذ العهد النبطي حيث يوجد مبنى دير الراهب بحيرا من الشمال ومبنى الأسقفية من الشرق ومسجد فاطمة في الزاوية الشمالية الغربية، وجميع هذه الأبنية تقع في القسم الشمالي الشرقي من المدينة.

ويعتبر هذا البناء من أكبر الأبنية الكنسية في بلاد الشام، وواحد من الأبنية الكبرى في العالم(١٩)، وكان دوره الوظيفي يتناسب مع حجم بنائه، ومن هنا جاء مخططه العمراني فريداً من نوعه في المنطقة، إلا أنه وللأسف لم يستمر طويلاً في المحافظة على بنيانه الأصلي فتهدمت قبته المركزية نتيجة التصدعات في الأجزاء العلوية مما أدى إلى تحول البناء تدريجياً من كاتدرائية إلى دير (بازيليك) ومن ثم كنيسة صغيرة، وكان هذا التحول يتناسب مع عدد رواد المبنى.[٢٠]

ويعود تاريخ البناء إلى فترة الازدهار الديني والعمراني في المدينة. وبفضل نص كتابي نقش باللغة الإغريقية كان موجوداً فوق ساكف المدخل الرئيس تمت قراءته من قبل الباحثين الذين زاروا المدينة قبل فقدان الساكف، وعلى رأس هؤلاء العالم وادنقتون. وقد جاء في النص أن البناء شيد في عام ٤٠٧ من تاريخ بصرى. وهذا التاريخ يتوافق بين شهر أيلول من عام ٥١٢م أو شهر آذار من عام ٥١٣م وذلك في عهد الأرشفك جوليان.

وقد كرس البناء على شرف القديسين سيرج وباخوس وليونيس.[٢١]

وبعد بضع سنوات من الانتهاء من البناء أمر الإمبراطور جوستينيان ببناء كاتدرائية في العاصمة القسطنطينية مكرسة على شرف القديسين أنفسهم وعلى نمط البناء نفسه في بصرى. وسميت الكاتدرائية هناك باسم القديسة صوفية. كما تمَّ بناء كنيسة فيتال على المنهج نفسه في مدينة رافينا في إيطاليا وكنيسة القديس جورج في مدينة أزرع مع تحاشي الأخطاء التي تمَّ ارتكابها في بصرى والتي أدت إلى سقوط القبة بعد فترة وجيزة من بنائها، والسبب في ذلك ثقل القبة أو اختلال في الحسابات بين ثقل هذه القبة وقواعد الارتكاز. ولهذا تمَّ تعويض وتبديل الدائرة الاهليليجية بدائرة مستديرة أقل ثقلاً، ولهذا استمرت حتى بداية القرن العشرين.

ونود أن نشير في هذه المناسبة إلى تلك الكنائس التي بنيت على النمط الهندسي نفسه الذي تمَّ تطبيقه في كاتدرائية بصرى:

١- كنيسة القديس جورج في أزرع جاء مخطط البناء متطابقاً كلياً مع مخطط البناء في بصرى، إلا أن المقاييس كانت مقسومة على اثنين.

٢- كنيسة القديسة صوفيا في القسطنطينية بنيت بين أعوام ٥٣٢ و٥٣٧م، إلا أن هناك ثمة فوارق جوهرية بين المبنيين؛ فقد جاء صحن الكنيسة هناك على شكل بيضاوي ٨٠ م×٣٥م تتوسطه قبة ذات قطر يبلغ ٣٥م وارتفاع ٥٨م. والجدران مكسية بجميع أنواع الرخام المتعدد الألوان، وفرشت الأرضيات بالفسيفساء الملون أما العقود والقباب فكسيت بالفسيفساء الزجاجي الملون وبأشكال هندسية رائعة وتتمثل فيها صور الملائكة والقديسين في صور بديعة على أرضية مذهبة. وقد استعمل في الزينة والديكور الذهب والفضة والعاج والأحجار الكريمة بسخاء.

٣- كنيسة القديس فيتال في مدينة رافينا التي كانت مركز الإشعاع الفني البيزنطي وعاصمة الإمبراطورية الرومانية الغربية منذ عام ٤٢٠م وحتى نهاية القرن الخامس. وبنيت فيها الكنيسة بين أعوام ٥٢٦ و٥٤٧ م. وتمَّ اشتقاق مخططها من كاتدرائية بصرى والقسطنطينية وجاء وجه الشبه في المسقط الأفقي المثمن والقبة المركزية. كما جاء مخطط الجدران الخارجية على شكل مثمن الزوايا يحيط به مثمن آخر من الخارج.

ومن ميزات القبة أنها ترتكز على معلقات مكونة من عقود صغيرة، وبنيت من أواني فخارية داخل الجدران بحيث وضعت الأواني العليا على شكل أفقي مما جعل جسم القبة خفيف الوزن، وبذلك لم تكن هناك حاجة إلى عقود أو جدران ساندة كما هو الحال في بصرى والقسطنطينية. أما الرسومات الجدارية فجميعها من الفسيفساء وتظهر مشاهد مختلفة أهمها مشهد يمثل الإمبراطور جوستنيان وحاشيته، والآخر للإمبراطورة تيودور وحاشيتها.

وجاء المخطط العام للمبنى في بصرى على شكل رباعي؛ الضلع الكبير امتداد ٤٩,٤٥م (شرق- غرب) × ٣٧,٣٢م (شمال جنوب) وبمساحة ١٨٤٨,٨م٢. وتأخذ جدران المبنى الجنوبي ٩١ْدرجة والشمالي ٩٣ْ درجة محور شمال/ جنوب. والجدار الغربي ٩١ْ درجة والشرقي ٩١ْ درجة محور شرق/غرب. وهذا المخطط ينقسم إلى قسمين[٢٢]:

١- الشرقي منه ويتكون من صدر الكنيسة أو الهيكل المضلع ١٢× ١٠م طولاً وعرضاً ويحف به من الجانبين الشمالي والجنوبي إيوانان مستطيلان ١٠×٥م طولاً وعرضاً يتلوهما من الشرق إيوانان مستطيلان أيضاً ١٥×٦م طولاً وعرضاً وينتهيان بصدر منحني على شكل نصف دائرة.

٢- القسم الغربي وهو على شكل مربع يحيط بعدة دوائر مستديرة، المركزية منها ذات قطر ١٢,٥م فرشت أرضيتها بالفسيفساء وتحيط بها أربع ركائز بحيث تتقدم كل اثنتين منهما نصف دائرة. وجميعها تشكل أربعة أنصاف دوائر على شكل شعاعي بحيث يبلغ قطر كل واحدة منهما ٦م. ثم تأتي الدائرة الثانية والتي يكون محيطها على شكل مماس لأنصاف الدوائر المذكورة ثم البهو الفاصل بينها وبين الجدار الخارجي من الداخل.

أما الجدار الخارجي فيبدو مفرغاً من الداخل والخارج للتخفيف من السماكة الكبيرة للجدار وإعطائه منظراً جمالياً من الداخل والخارج أيضاً ولهذا فقد أفرغ من الزوايا الداخلية ونفذ فيها حنيات ركنية مقببة تساندها وتجاورها من الخارج أيضاً حنيات مقببة. إضافة إلى ست حنيات صغيرة من الداخل تجاور وتحتضن المداخل.

وهذا التدبير الهندسي جعل من الجدران الخارجية مضلعات بلغ عددها ١٦ ضلعاً، كما أن مجموع الأعمدة التي ترتكز على أنصاف الدوائر يبلغ عددها ١٦ عموداً من الطراز الكورنثي لتحمل جسم القبة إضافة إلى

الركائز الأربـع. وبذلك نلاحظ أن التقسيم العام الداخلي ثلاثي المنهج بحيث يقسم كل امتداد على ثلاثة أقسام، كما جاء بناء القبة على شكل طابقي بحيث أفرغ القسم السفلي منها من أجل فتح نوافذ تحيط بالقبة بشكل كامـل. كما زود البنـاء بالعديد من النوافذ التي تفتح على جميع الجهات وكذلك الأبواب التي تفتح على جميـع الجهات أيضاً والتي بلغ عددها ثلاثة في كل من الجهة الشمالية والجنوبية أما الواجهة الرئيسة الغربية فقد نفذ بها خمسة مداخل أكبرها المدخل الرئيس الأوسط.

أما تزيـين المبنى حسب مـا هو ظاهر حتى الآن فهو فقير جداً بالمقارنة مع الأبنية المثيلة لـه والتي ذكرناها سابقا، ومن خلال معاينة عناصر الزينة فقد اقتصرت على فرش الأرضيـة بالفسيفساء الفقـير بالرسومات وعدم الدقـة والنعومة. إضافـة إلى نقش الصلبان علـى الأعمدة وبعضـ العناصر، كمـا تمـت الإكسـاءات الرخاميـة لبعض الجـدران والعناصر إضافـة إلى المنحوتات البازلتية على العديد من الحجارة البازلتية والرسومات الجدارية فوق طبقة من الملاط الكلسي حيث أظهر جزء من إحدى اللوحات وهي الوحيدة المتبقية في مبنى السيدة مريم العذراء.

ولابد مـن الإشارة إلى أن المبنى بكامله بنـي بالحجـر البازلتي. والـذي توافق مع العديد مـن الأبنية الأثرية في المدينة ومنها علـى سبيل المثـال قوس النصـر والسقايا الشرقية والغربية. وقد نقلت معظم العناصر وتم استعمالها في الأبنية الحديثة في المدينة، كما نقل قسم أخر حديثاً إلى خارج المدينة.

وفي الفـترة التي حول فيهـا المبنى إلى بازيليك تمـت الاستفادة من صـدر المبنى وبعض الأعمـدة التي ترتكـز عليها القبة وهيّئ المكان لهذه الوظيفة بحيث جاء طوله ٢٠م (شمـال شرق) وعرضـه ٩,٧م وارتكز سطح البازيليك فوق ثمانية أقواس، وأخيراً استعمل المبنى ككنيسة من قبل النصارى في المدينة في القرن التاسع عشر وكذلك مقبرة أيضاً.[٢٣]

ج - الكاتدرائية الشرقية في مدينة بصرى:

يقع البناء في الحي الشرقي من المدينة ووسط الحي النبطي وجنـوب الكاتدرائية الأولى بمسافـة ١٥٠م، ويتشكل هذا البناء من تركيب أبنية دينية نبطية حيث كان مبنى البانتيـون النبطي الرئيسـ للآلهة النبطية الثلاثة اللات والعزا وذا الشرا، ومن ثم معبد وثنـي في عهد الولاية لم يعـرف اسمه حتى الآن وأخـيراً مبنى كاتدرائيـة. وقد كشفت

الدراسات الحديثة أن هــذا البناء الكنسي هو الكاتدرائيــة الأم الكبرى للمدينة والتي تم التأكــد من بنائها مــن خلال نص كتابي يحدد من جهة تاريخ البناء ومن جهة أخرى التكريس لهذا البناء.(٢٤)

وقــد حوى هــذا الصـرح بــين طياته مجموعة متكاملة من الأبنية الدينية المتسعة والتــي حـوت في داخلها تنظيمــاً هندسياً صمم انطلاقاً من شكل مستدير يبلغ قطره ٣٠م داخــل مخطط معمــاري مربع الشكل ٤٠×٤٠م تقريبــاً. يضــاف لذلــك الصدر الشرقــي المستديــر والمتسع والــذي يأخذ امتداد ٢٠×١٥م تقريباً ويحاذيه إيوان تبلغ مقاييســه نصف مقاييســ الصدر. وكذلك الصدر المستدير الجنوبي والذي يبلغ امتداده ٢٠×٢٠م تقريباً مع ملحقاته الجانبية.

وأصبح المخطط المركزي للبناء مع واجهته المنتظمــة والتي تكلمنا عنهــا سابقاً والتي تحــوي كوات هندسيــة منسجمة ومتناسقة إضافــة إلى المحاريب المنفذة في زوايا المربع وصــف الأعمدة والمندمجــة والمنتصبة فوق ركائز ضخمــة والموزعة فوق منهج معماري على شــكل دائري سمح لوجود رواق معمد. وكل ذلك أعطى هذا المجمع امتداداً رباعياً كبــيراً بلغ تقريبــاً ٨٠×٨٠م فوق أرض تبلغ مساحتها حوالي ٦٤٠٠م٢.

وقــد كان المبنى غنياً بالزينــة المتنوعة ومنها الإكساءات الرخامية والمعدنية والتي كانت تثبت في الجدران بعد تهيئة الحجارة بشقوق متعــددة تأخذ الأشــكال العمودية والمقسمــة إلى شطرين حوت بــين جنباتها مفاصل برونزيــة خصصت لتثبيت صفائح الإكســاءات وخاصة الإكســاءات المعدنية، وكذلك مــن أجــل تثبيت تزيينــات تحوي على زخارف هندسيــة متعددة. إضافة إلى الإكساءات الرخامية التي صفحت بها بعض أقسام الجدران وكذلــك الأقواس والهيكل، وكذلــك تزيــين بعضــ الأقسام بمــا فيها الأرضيات باللوحات الفسيفسائية والمصنوعة في قسم منها بالمكعبــات الزجاجية المذهبة وكذلك العديد من التزيينات المفقودة.

وبذلــك نرى أن المقاييس العامة في هذا البناء متقاربة أو متطابقة في بعض الأحيان مــع بناء كاتدرائيــة القسطنطينية ٨٠×٨٠ +٢٠م طــولاً، وكذلك التفاصيــل المعمارية التي ذكرت ولا حاجة للعودة إليها ثانيةً.

وبذلك نكــون قد عرضنا بعض النماذج القليلة والمعبرة عــن الوحدة الحضارية بين بلاد الشام وتركيا وبالقــدر الذي سمح لنا به البحث، ولكــن سيكون لنا متابعة لعرض ودراســة الكثير من الأمور الأخرى والتي في الحقيقــة لا تحصى، والتي تؤكــد أن المرء يتجول في كلا البلديــن وكأنه في بلدٍ واحد وفي أحضان شعبٍ واحد وحضارةٍ واحدة.

الهوامش

١- كانت زياراتي للمواقع الأثرية التركية تتكرر كلما تناولت بحثاً من الأبحاث الأثرية والحضارية، وقد زرتها في فترات متقطعة من أعوام الثمانينيات عندما كنت أقوم في بحث عن التنظيم العمراني للمدن الأثرية القديمة، وعام ١٩٩٨ عندما كنت أقوم في بحث عن المسارح الأثرية حيث استمرت هذه الزيارة أكثر من شهرين شملت خمسة وعشرين موقعاً ومدينة أثرية، ثم زرتها في عام ٢٠٠٨ عندما كنت أقوم في بحث عن الفسيفساء والميثولوجيا القديمة، وكانت الزيارة الأخيرة هذا العام من خلال المشاركة في مؤتمر تحت عنوان الأتراك في عيونٍ عربية.

2- Arthur. h.j. Roma theater, temples, Princeton, Princeton university,press. 1959

3- Guy Rachet. Dictionnaire de l,archeologie. Paris 1983.p, 193.

4- Abel.F. M. L,Histoire de la Palestine depuis la conquite d,Alexandre a l,invasion arabe. Paris 1952.

5- Abel.F. M. Geographiede la Palestine. Paris 1967.

٦- خليل المقداد- حوران عبر التاريخ.

٧- خليل المقداد- حوران عبر التاريخ- دمشق- ١٩٩٦.

٨- خليل المقداد— درعا مدينة المدائن— مدينة الديكابولس— دمشق- ١٩٩٨.

9- Schumacher. Across The Jordan. London, 1984 pp 125 – 153.

١٠- خليل المقداد- مسرح بصرى الأثري- دمشق- ٢٠٠١.

11- Mukdad. kh. Le theatre antique de Bosra (Syrie) Damas 2001

12- Bernardi. Ferrero. d.oc. Teatri classici in Asia minore. u. vols. Rome. 1966 -1974.

١٣- خليل المقداد- الفسيفساء السورية والمعتقدات القديمة (ميثولوجيا)— دمشق ٢٠٠٨.

١٤- خليل المقداد- مسرح جبلة الأثري— مجلة الباحثون — دمشق - العدد ١-كانون الأول ٢٠٠٨.

15- Ballu. a. Le theatre et le forum de Timgad. Paris. 1902.

16- Douglas.r. Periode style for the theatre. London. 1980.

١٧- سليم عادل عبد الحق: مسرح بصرى والقلعة— الحوليات الأثرية السورية— ١٩٦٤- ص ٥ — ٢٢.

١٨- أنتيميوس Anthemios من مدينة تراليان الليدية Tralles –Lydien، وهو مهندس وعالم رياضيات في القرن السادس للميلاد. وقد خصص وصمم المخطط الجديد لكاتدرائية أيا صوفيا - Sainte Sophie في القسطنطينية.

19-Lassus, J. Sanctuaire chretiens de Syrie. Paris 1944.

20-Gualandi, G. Bosra: La seconda campagna di scavi nella chiesa dei Ss. Sergio, Bacco e Leonzio, FR, 115, 1678, p. 65124-.

21-Waddington. W.H. L. L. 2124.

22-Mukdad, kh. L,urbanisme de Bosra a l,epoque romaie. Paris I 1984. p 272284-.

٢٣- خليل المقداد- بصرى عاصمة الأنباط.

24-DENTZER (J-M), Les sondages de l, arc Babateen et l,urbanisme de Bosra. Academie Des Inscription et Belles - Lettres. janvier-mars 1986. p 6287-.

المصادر

- خليل المقداد- حوران عبر التاريخ.
- خليل المقداد- حوران عبر التاريخ- دمشق- ١٩٩٦.
- خليل المقداد- درعا مدينة المدائن- مدينة الديكابولس- دمشق- ١٩٩٨.
- خليل المقداد- مسرح بصرى الأثري- دمشق- ٢٠٠١.
- خليل المقداد- الفسيفساء السورية والمعتقدات القديمة (ميثولوجيا)- دمشق ٢٠٠٨.
- خليل المقداد- مسرح جبلة الأثري- مجلة الباحثون- دمشق- العدد ١ كانون الأول ٢٠٠٨.
- سليم عادل عبد الحق: مسرح بصرى والقلعة- الحوليات الأثرية السورية- ١٩٦٤ ص ٥- ٢٢.

- Abel.F. M. L,Histoire de la Palestine depuis la conquite d,Alexandre a l,invasion arabe. Paris 1952.
- Abel.F. M. Geographiede la Palestine. Paris 1967.
- Arthur. h.j. Roma theater. temples, Princeton, Princeton university,press. 1959.
- Bernardi. Ferrero. d. oc. Teatri classici in Asia minore. u. vols. Rome. 1966 -1974.
- Ballu. a. Le theatre et le forum de Timgad. Paris. 1902.
- Douglas.r. Periode style for the theatre. London. 1980.
- Gualandi, G. Bosra: La seconda campagna di scavi nella chiesa dei Ss. Sergio, Bacco e Leonzio, FR, 115, 1678, p. 65124-.

- Lassus, J. Sanctuaire chretiens de Syrie. Paris 1944.
- Guy Rachet. Dictionnaire de l,archeologie. Paris 1983.p. 193.
- Mukdad, kh. L,urbanisme de Bosra a l,epoque romaie. Paris I 1984. p 272284-.
- Schumacher. Across The Jordan. London. 1984 pp 125 – 153.
- Waddington. W.H. L. L. 2124.

الدراسات والبحوث



ظواهــر لغــويّة

د. سمر روحي الفيصل ❀

يستطيع المرء الذي ينعم النظر في حال اللّغة العربيّة في العصر الحديث ملاحظة أمر ندر الحديث عنه، هو تقويم لغة أنصار العربيّة الفصيحة، سواء أكانوا مدرِّسين أم كُتَّاباً أم موظَّفين أم مسؤولين. فهؤلاء الأنصار يحبون اللّغة العربيّة، ويدركون أهميّة الحفاظ عليها وخدمتها وتذليل صعوبات استعمالها نطقاً وكتابةً، ولكنّهم يكثرون من الخطأ في نُطْقهم وكتابتهم حتى يصبح هذا الخطأ ظاهــرة لغوية تحتاج إلى رفقٍ في التنبيه والتحليل؛ لأن أصحاب هذه

❀❀ أديب وناقد سوري مقيم في الإمارات العربية المتحدة.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

الظاهــرة ذوو نيّات حسنــة، وسلوك لغويّ إيجابــيّ، وليسوا أناســاً يستحقون التقريع واللّوم. لقد أهمل الدّارسون هؤلاء الأنصار؛ لأن شدّة الأعداء وكثرتهم حجبتا رؤية الخلل في الأصدقــاء. ولذلــك شاعــت في الحياة العربيّة ظواهر لغويّة

كثـيرة، منهــا الاعتقــاد أن لغة طلاب الثانويــة العامــة سيئة، ولا بــدَّ من تيسير المناهــج اللّغويّة الجامعيّــة لتلائم مستوى الطلاب الوافدين إليها من المرحلة الثّانويّة. والاعتقــاد، أيضــاً، أنّ التّدريس الجامعيّ باللّغــات الأجنبيّة واجب (عصــريّ) وليس ترفاً. والاعتقاد، أخيراً، أن انتشار العاميّات في الفضائيّات العربية مجرد اختيار لوسيلة سهلة في الاتّصال بالمشاهدين.

سأكتفي، هنــا، بظاهرتين من الظواهر اللغوية، اعتقدتُ أنهمــا خطيرتان ولكنهما قابلتان في الوقــت نفسه للتعديل والتبديل. ومــن واجبي الإشــارة إلى أن الذين تصدق عليهم هاتــان الظاهرتان أنصــارٌ للعربيّة، محبُّــون لها، مدافعون عنها، مستعملون لها، ولكنهم يقفون على أواخر الكلمات بالساكن حــين ينطقون بهــا، ويهملــون التدقيق في علامات الترقيــم، وفي استعمــال ما سُمِّي بالأخطــاء الشائعة. ومن ثَمَّ كانوا في حاجة إلى حوار ودّيّ كالذي يجري بين الأصدقاء، ومناقشــة هادئــة كالتي يعرفهــا الأنصار والمحبُّــون وعشّــاق اللّغة. ولســوف أنطلق في حــواري وتحليلي من الدعــوة إلى إنعام النظر في الظاهرتين المذكورتين، لعلّ بعض سماتهمــا تتوافر في لغــة أحدنا وكتابته، أو في لغة مَنْ نعــرف وكتابته، فيصبح الحوار في هذه الحــال حافزاً مقبــولاً إلى أيّ حلٍّ مرتجى.

١- نُطْقُ اللّغة العربيّة:

أصبــح الوقــوف بالسّاكن علــى أواخر الكلمات في أثناء نُطْق الجُمَل وقراءة النصوص ظاهرة عربيّة عامّة غير مقصورة على طلبة العلم وشداة اللغة. فأنتَ تلاحظ لجوء كثير من المدرِّســين والمحاضريــن والمتكلّمين في المحافل العامــة والخاصة إليه، سواء أكانوا اختصاصيــين باللغــة العربيــة وآدابها أم كانوا اختصاصيــين بحقول معرفيّة أخرى. وهؤلاء، في رأيي، هــم أتباع هذه الظاهرة، وهــؤلاء الأتباع متشابهــون أو متقاربون في أثناء حديثهــم الشَّفويّ وقراءتهم النصوص المكتوبة؛ إذ يحوِّلــون الحركة إلى سكون في غير أغراض الوقف ومواضعه وضروراته.



والمعــروف أن هــذه الظاهــرة ليســت جديدة، فقد دعا إليهــا في القرن العشرين عددٌ من رجالات الثقافــة لا يشكُّ أحدٌ في نيّاتهم ومستوياتهم اللغويّة. وقد عبَّر هؤلاء المثقفون صراحةً عن أنهم دعوا إلى الوقوف على الساكن تخلُّصاً من الإعراب، واستندوا في ذلــك إلى أن هذا الإعــراب صعب يعوق تعليم اللغــة العربية واستعمالهــا وإتقانها. من هــؤلاء عبد العزيز فهمي الذي دعا إلى التخلُّص مــن الإعراب في الاقــتراح الذي قدَّمه إلى مجمــع فــؤاد الأول في القاهرة، في ١٩٤٤/١/٢٤(١). ومنهــم أحمــد أمــين أيضاً الذي دعــا إلى التخلُّص من الإعراب ضمن دعوته إلى (اللغــة الشعبية)، مستنداً في ذلــك إلى أن الإعــراب صعب، حال دون إتقان العرب لغتهم. قال أحمد أمين: (كثيراً مــا شغلتْ ذهني مشكلــةُ العلاقة بين اللغة الفصحــى واللغة العامية، وأن صعوبة اللغة الفصحــى- لاسيّما من ناحيــة الإعراب- تحول دون انتشارها في جمهور الشعب. وإذا أردنا تعميم التعليم باللغة الفصحى المُعْرَبة احتجنــا إلى زمن طويل ولم نتمكن من إجادة ذلك كما لم نتمكن إلى اليوم من إجادة تعليم المثقفين إيّاها. فطلبة المدارس يقضون تسع سنين في التعليــم الابتدائي والثانوي، وأربع ســنــين في الجامعــة، ثم لا يُحســن أكثرُهم

القراءة والكتابة، وكثيراً ما يلحنون في الإعراب. ومن أجل هذا اقترحتُ أن نبحث عن وسيلة للتقريب، واقترحتُ أن تكون لنا لغة شعبية ننقيها من حرافيش الكلمات ونلتزم في أواخر الكلمات الوقف من غير إعراب)[٢].

لقد أنعمتُ النظر في الأسباب التي ذكرها الداعون إلى الوقوف على الساكن في أواخر الكلمات، فرأيتها تقتصر عندهم على صعوبة الإعراب في اللغة العربية. ثم سألتُ عدداً من الاختصاصيين باللغة العربية من العاملين في الحقل التربويّ، فقدّموا لي أسباباً أخرى، أبرزها:

١- التخلُّص من الإعراب؛ لأنه يحتاج إلى إعمال الفكر في اكتشاف العلاقة بين الكلمات في الجمل.

٢- مَيْل العربيّ عموماً إلى السهولة والتيسير بدلاً من الغوص في مشكلات النحو ومسائله.

٣- العادة اللغوية التي رُبِّي عليها الطفل، واعتادها لسانه.

٤- الاقتداء بأتباع الوقوف على الساكن، وهم كثر، لا يشكُّ أحد في إخلاصهم للغة العربية، فضلاً عن الخِدْمات المعروفة التي قدّمها بعضهم لهذه اللغة.

٥- الخوف من الخطأ، ومن ثَمَّ اللجوء إلى القاعدة السلبية: (سكِّنْ تَسْلَمْ).

٦- النظرة الاجتماعية العربية السلبيّة للناطق باللغة العربية الفصيحة.

٧- الرغبة في الوصول إلى المعنى، والانتهاء من الكلام، بسرعة أو بأقلّ قدر من الزمن.

٨- الاعتقاد أن المعنى يمكن أن يصل إلى السامع دون حاجة إلى التقيُّد بالإعراب.

٩- الازدواجيّة بين ما يجب أن يُتَعلَّم، وما يُطبَّق في الواقع التعليميّ.

١٠- الجهل بالنحو، أو الضعف فيه.

١١- العودة إلى الأصل، فليس في اللّغات الساميّة الآن إعراب.

١٢- محاكاة اللغات المتفرِّعة من اللاتينيّة، وهي لغات تخلّت عن الإعراب ما عدا الألمانيّة.

١٣- أثر العاميّات في الناطق بالفصيحة.

١٤- محاكاة قراءة أبي عمرو بن العلاء، ففيها تسكين بعض الكلمات المتحرّكة.

تلك الأسباب الأربعة عشر مفيدة في تعرُّف مسوِّغات الوقوف على أواخر الكلمات بالساكن، ويمكنني أن أضيف إليها

سبعة أسباب أخــرى، تُرسِّخ في رأيي وعينا هذه الظاهرة اللغويّة، وتساعدنا على تقديم اقتراحات للحدّ منها. هذه الأسباب هي:

١- عدم احترام بعض العرب لغتهم.

٢- الضعــف العربــي العــامّ في وعــي العلاقة بين الهوية واللغة.

٣- عدم مساءلــة مدرِّسي اللغة العربية عن طبيعة نطقهم داخل قاعات الدَّرس.

٤- ضعف الوازع اللُّغويّ والتربويّ.

٥- قصور الخِدْمات القرائيّة عن الوفاء بحاجات الناطقين باللغة العربية.

٦- عــدم الإفــادة من قواعــد تجويد القرآن الكريم في النطق والقراءة.

٧- ضعــف الاهتمــام، داخــل المدارس والجامعات، بحفــظ النصوص البليغة، من القــرآن والسُّنَّة والأدب القــديم والحديث شعره ونثره.

لا أشــكُّ في أن ظاهــرة الوقــوف على أواخــر الكلمــات بالساكن ظاهــرة مركَّبة وليست بسيطة، تداخلت أسبابها وتضافرت عواملهــا الفرديّــة، حتى بات مــن العسير نسبتها لــدى كلِّ مستَعْمِل مــن مستعمليها إلى سبــب واحد محدَّد. كمــا أن أتباعها لا يشتركون في الأسبــاب كلّها، والكثرة الكاثرة منهم ترفض الاعتراف بــأن هذه الظاهرة اللغوية ظاهرة سلبيّة، نتج عنها إلغاء بعض الضوابط اللُّغويّة والنَّحْويّة، وأبرزها:

١- اختفــاء التقــاء الساكنــين في أثناء النُّطق الشّفويّ والقراءة، فصار الانتقال من الساكن الأوّل إلى الثاني انتقالاً من ساكن إلى ساكن، بدلاً من تجسيــد الضوابط اللغوية العربية الخاصة بالتخلُّص من التقاء هذين الساكنــين. وقد انعكــس ذلك في النصوص المدرسيّة المكتوبة، فبــدت حائرة في ضبط الساكن الأول: هل تضبطه ساكناً أو متحرِّكاً بالكســرة؟. الواضح أن بعضــ هذه الكتب المدرسيّة أهمل ضبط الساكن الأول ليهرب من المشكلة دون أن يحلّها، وأن بعضها الآخر ضبط الساكن الأول بالكسرة، فربح التطابق بين النطــق والكتابة، وخســر تعليم الأصل الساكــن ومعرفة الطالــب التقاء الساكنين، وقاعدة التخلُّص من التقائهما.

٢- اختفــاء الشَّــدَّة من آخــر الكلمة، فصار الحرفــان الساكن والمتحــرِّك حرفاً واحداً ساكناً، أو بقي هناك حرفان ولكنهما أصبحــا حرفين ساكنين على خلاف الأصل في النطق العربي.

٣- اختفــاء استعمــال بعضــ ضوابط

الوقوف على أواخر الكلمات اكتفاءً بالسكون. ومـــن أبرز ما اختفى ألف تنوين النصب من آخر الكلمـــة المنوَّنة تنوين نصب، والهاء من آخر الكلمة المنتهية بتاء مربوطة.

٤- اختفـــاء الممنوع من الصرف، وضياع صيغتـــه الصرفيّة وشكله النَّحْـــويّ في أثناء الوقوف على أواخـــر الكلمات التي توافرت فيها أسباب المنع من الصرف.

٥- اختفاء الحركات من أواخر الكلمات، وضياع دلالاتها على المعاني في الجمل.

ومن المعروف أنّ هناك ردوداً على بعض الضَّوابـــط التي اختفت مـــن النُّطْق نتيجة الوقوف على أواخر الكلمات بالساكن، ولكنّ هذه الردود التي تبدو مقنعة أحياناً لا تُؤخَذ مفردةً؛ لأن ضوابـــط النُّطْق والقراءة تُؤخَذ مجملـــةً، بحيث يحتاج النَّاطـــق والقارئ إلى التقيُّـــد بها كلِّها إذا رغب في مراعاة قواعد اللّغـــة العربية. ثـــم إنّ القضية ههنا ليست قضية رغبات فرديّة، بـــل هي قضيّةٌ اتَّسع خَرْقُهـــا علـــى الوّاقع، وباتـــت ظاهرة شبه عامة، لا ينفـــع في القضاء عليها تقريع ولا لـــوم ولا تذكير بأسبابهـــا ونتائجها. ذلك أن مدرِّســـ اللغة العربية هو المسؤول الأول عن ترسيـــخ هـــذه الظّاهرة أو القضـــاء عليها.

وهـــذا المدرِّســـ لا تنقصه المعرفـــة اللُّغويّة والنَّحْويـــة، بل ينقصه الإيمـــان بأن النطق السليم عادة لغوية مكتسبة وليست فطرية. إنها عادة يكتسبهـــا المدرِّس إذا قرّر إعطاء الحروف حقَّهـــا من الحركـــة والسكون في أثنـــاء نطقه وقراءته لهـــا. وسيكتشف هذا المدرِّس، إذا درَّب نفســـه على الاستماع إلى نطقـــه، أنه يخطئ كثـــيراً، ولكـــن أخطاءه ستبـــدأ تقلُّ، ثمّ تبدأ تتلاشـــى شيئاً فشيئاً؛ لأن فرص النطـــق والقراءة وافرة في عمله؛ ولأنه مصمِّم على التخلُّص من الوقوف على أواخر الكلمات بالساكن. كما أنه سيكتشف أن إتقـــان قواعد النحو قضية معرفيّة، وأن إتقان النطق السليم قضية مهاريّة، تُكْتَسَب بالرَّيْث والأنـــاة والتدريب والتَّعزيز فتصبح مهارة لغويـــة تُنَفَّذ تلقائيّاً دون تفكير مباشر بقواعد النَّحْو الضَّابطة لصحّتها.

ومن المفيد هنا التذكير بأمر أراه جوهريّاً، هـــو أن تقيُّد مدرِّس اللغـــة العربية بالنطق السليم يجعل طلابه يؤمنون بأن اللغة العربية قابلـــة للتطبيـــق، وليست معلومـــات نحوية تُسْرَد وتُحْفَظ ويُعاد إنتاجها في الامتحانات. ويرسِّخ هذا الإيمان في نفوسهم ملاحظتهم إصـــرار مدرِّسهـــم على النطـــق السليم في

حالات الدَّرْس كلّها، شرحـاً ومناقشة، وفي حالات العلاقة بهـم داخل القاعة الدَّرْسيّة وخارجهـا. وسيرافق هـذا الإيمان نموٌّ في ذائقتهم اللغويـة، إذ يسمعون النطق السليم مـرّة بعد أخـرى فتتكـوَّن في آذانهم مهارة التمييز بين النطق السليم وغيره. فإذا عُني هـذا المدرِّس بتدريب طلابـه على النطق السليم، وبصَّرهم بمواضع الوصل والوقف، زادت أسماعهـم رهافـةً، ورسخـت مهارة النطق السليم على ألسنتهم، وصارت آذانهم تهتزُّ طرباً حين تسمع النطق السليم، وتهتزُّ إزعاجاً حين تسمع الخطأ النَّحْويّ، وتنفر من الوقوف على أواخر الكلمات بالساكن؛ لأنه نقيض ما رُبِّيت عليه واعتادت سماعه.

وليس مدرِّس اللغـة العربيـة وحده مسؤولاً عـن القضاء على هـذه الظاهرة، إذ إن مدرِّسـي المـوادّ الأخـرى مسؤولون عنها أيضاً. فهم مطالبـون بالنطق السليم مادامـوا يستعملون اللغة العربية في إيصال معلوماتهم وأفكارهم إلى طلابهم، وماداموا يُربّون طالبهم على القيم الأصيلة، الأخلاقيّة والدّينيّـة والاجتماعيّـة واللّغويّـة، قبل أن يعلِّمـوه المعـارف التاريخيّـة والجغرافيّة والرِّياضيّـة والفيزيائيّـة وغيرها. فالتربية كلٌّ واحـد لا تنفصـل أجـزاؤه، والطالـب الـذي يسمع النطق السليم من مدرِّس اللغة العربيـة، ثم يسمع مدرِّسي المـوادّ الأخرى يقفون علـى أواخر الكلمـات بالساكن، أو يشرحون دروسهـم بالعاميّة، يعتقد أن اللغة مهمّة مدرِّس اللغة العربية وحده، ولا أهمية لها في الموادّ الأخرى وهي أكثر عدداً واتساعاً وصلة بالحيـاة. ولا ينفع هنا التعليل القائل إن الكثرة الكاثرة من هؤلاء المدرِّسين لا تتقن مهارة النطق السليـم، فكيف تستعمل شيئاً لا تملـك مهاراته؟. أليست هناك حاجة إلى تعليم المدرِّسين قبل طلابهم النطق السليم؟. أقول: لستُ ميّالاً إلى هـذا التعليل وأمثاله لسببين:

أوّلهما: إن معالجـة ظاهـرة النُّطْـق خصوصـاً، والظاهـرة اللغويـة العربيـة عموماً، تحتاج إلى ثورة تربويّة تبدأ برياض الأطفـال، بحيـث ينشأ الطفـل على حبِّ اللغة العربية، وعلى السَّماع السليم لنطقها وقراءتها واستعمالهـا في حاجاته التعبيريّة كلّهـا. وسيصبح بعض الأطفال في المستقبل مدرِّسين قادرين على استعمال اللغة العربية استعمـالاً سليماً وإنْ لم يكونوا مدرِّسين لها. وهذا يعنـي أن مدرِّسينا، في زمننا الرّاهن،

غير قادريــن على النهوضــ بمهمة النطق السليــم، ولا يستطيع أحــد إجبارهم على ذلك؛ لأن تربيتهــم اللغوية وظروف حياتهم وعملهــم لا تعينهم على ذلــك، فضلاً عن الحرية التي يجب أن يتمتّعوا بها في اختيار قيمهم اللغوية.

وثانيهمـا: إن الثـورة التربويــة ليست ثــورة وزارات التربية العربيــة، بل هي ثورة المجتمــع العربي كله. وتشمل هــذه الثورة، في حــدود النطــق السليــم، المحاضرين في المنتديــات والمراكز الثقافيــة، والمذيعين في وسائــل الإعــلام المنطوقــة، والخطباء في المناسبــات العامــة والخاصــة، والمسؤولين في أثنــاء اجتماعاتهــم بمرؤوسيهــم، وغير هــؤلاء ممن يستعملــون اللغــة العربية في غير الحاجات الوظيفيّــة اليوميّة. ونحن لا نملــك هذه الثورة، ولا نفكّــر فيها، ومن ثَمَّ نفتقــر إلى قيم احترام اللغة، والاعتزاز بها، والمباهاة بجمال نطقها وانسيابيّة حروفها، ومتعــة أدبها، وقدرتها علــى أداء المعنويات وتحديــد الفــروق بــين الكلمــات، فضلاً عــن تراثها الأدبــيّ والفلسفــيّ والتاريخيّ والجغــرافيّ والعلميّ. وليس مــن المفيد أن ننتظــر (الحــلَّ المجتمعيَّ) لقضيــة النطق السليم خصوصاً، والقضية اللغوية عموماً؛ لأنه حلٌّ مؤجَّل لقضايانــا العربية الأخرى كلّها، الاجتماعيــة والاقتصادية والتربوية. ذلك أن ربــط معالجة قضية النطق بالثورة التربوية الشاملة في المجتمــع العربي يضمُّ إيحاءً بتأجيل هــذه المعالجة مادام المجتمع العربي ينحدر بدلاً مــن أن يرتقي، ويتدنّى مستوى أجياله جيــلاً بعد جيل بدلاً من أن يفوق الجيلُ سابقَه، ويبدو أشدَّ منه ارتباطاً بتراث أمته وحاضرها، وأكثر قدرة على بناء مستقبلها.

إنّ قَــرْنَ قضيّة النطــق بقضية الثورة التربويــة العربيــة الشاملة يوحــي بتأجيل معالجــة هــذه القضية تبعــاً لافتقارنا إلى الأســس الممهِّدة لهذه الثورة، وما يسبق هذه الأسس من قسوة الاعتراف بتدهورنا وتدنّي مستويــات احترامنا للغتنــا العربية. وعلى الرّغم من ذلــك فإنّ التّأجيــل والإيحاء لا يمنعان من اللجوء إلى أعمال بحثية أساسية في معالجة قضية القراءة، وهي أعمال بحثيّة تنطلق من الإفادة مــن قواعد التَّجويد(٣) والنَّحو، وتسعى إلى توظيف هذين العِلْمين في التدريب على مهارات القراءة السليمة التي تراعي مخارج الحــروف وصفاتها، وتحضُّ

القارئين العــرب على التخلُّص من الوقوف على أواخــر الكلمات بالساكن. ولا أشكُّ في أن قضيــة القراءة السليمة ستبقى، من قبلُ ومن بعدُ، مرتبطة برغبة القارئ العربي في اكتساب مهارة ضبــط أواخر الكلمات؛ لأن هــذه الرغبة ستدفعه إلى تطبيق معارفه في أثناء قراءته، وإلا فإن المعارف المستمدّة من النحو والصَّرّف والتجويد ستبقى في الذاكرة ولن تنتقل إلى اللسان.

٢- المستوى اللُّغويُّ للنّصّ العربيّ:

يستطيع أيُّ متتبّع للنصّ العربي المكتوب أن يلاحــظ ظاهرة لغويــة أصبحت شائعة سائــدة، هي تبــدُّل المستوى اللّغــويّ لهذا النصّ في العقود الثّلاثة الأخيرة، من المتانة وقــوّة النَّسج إلى البساطة ورِقّة النَّسج، ومن الألفــاظ المنتقاة ذات الجرس الموسيقيّ إلى الألفاظ المتداولة الشائعة الدّالة على المعاني مــن أقرب سبيــل، ومن الاهتمــام بالصُّوَر والتراكيب المجازيّــة إلى التشبُّث بالعبارات المباشــرة والتراكيب الحقيقيّة. وهذا التَّبدُّل في المستوى اللغوي للنّصّ المكتوب واضح في أية مقارنة بــين نصوص الرّوّاد في النصف الأول من القــرن العشرين ونصوص الكُتَّاب المعاصريــن لنا في العقــود الثلاثة الأخيرة.

وعلــى الرّغم من أن هــذا (التبدُّل) نسبيّ، يختلف تفسيره بحسب مفهوم النّاقد المحلِّل للغــة النّصّ المكتوب، فإنّني ميّال إلى وصفه (بالانحــدار)، وجَعْله مقترناً به وإنْ لم يخرج هذا النص المكتوب عن سَنَن العربية في بناء الجملة عند الروّاد والمعاصرين معاً.

فالكُتَّــاب الرّوّاد ابتداءً مــن ثلاثينيّات القــرن العشريــن كانوا يتبــارون في تجويد نصوصهــم، ويحرصون علــى أن يصبحوا بوساطتها من أصحاب الأساليب. أما الكُتَّاب المعاصرون فقد شُغِلوا بدلالة نصوصهم على المعاني التــي رغبوا في إيصالهــا للمتلقين، وفهمــوا الأسلوب على أنــه الوسيلة اللغوية التــي تُحقِّق هــذا الهــدف دون زيــادة أو نقصان، ومــن ثَمَّ تشبَّثــوا باللغة الواضحة المحدَّدة التي تختلف بــين الأجناس الأدبيّة الحديثــة، كالقصــة والرِّوايــة والمسرحيّة والمقالــة والخاطرة، في طبيعــة الاستعمال وتوجيه المعنى، ولكنها لا تختلف في اعتماد لغة واضحــة تُشكِّل المستوى اللغوي العامّ ذا الدِّلالات المباشرة والأسلوب البسيط البعيد عن التداخل والتعقيد. والمعروف أن المتلقي العربــي كان قادراً بوساطــة الأسلوب على تمييــز نصٍّ لمحمد كرد علي أو أحمد حسن

الزّيّات من نصٍّ لإبراهيم عبد القادر المازني أو لأحمــد زكــي، وإنْ لم تكــن أسماء هؤلاء الروّاد مدوَّنة على نصوصهم. ولكن المتلقي نفسه لم يبــق قادراً على تمييز صاحب نصٍّ معاصــر من صاحب نصٍّ آخر معاصر من أسلوب هذين النصين؛ لأنّ أساليبنا الحديثة، عموماً، تشابهــت في البساطــة والوضوح، وافتقرت إلى الخصوصيــة، وأصبح قارئها يلاحــظ فَقْرَ معجمها اللغــوي ومحدوديّته، فضــلاً عن أنه معجم معاصــر لا أثر كبيراً للمفردات التراثيّة فيه.

أعتقد أن ذلك كلّــه يعني أن لكلّ عصر بلاغتــه، وأننــا في العصر الحديــث مررنا ببلاغتــين، بلاغــة الأساليــب التي غربت شمسها وآذنــت بالأفول، وبلاغــة المباشرة التــي سطــع ضَوْءُها وصلبــت أرضها وكثر أتباعهــا. وإذا كان البكاء علــى أفول نجم بلاغة الأسلوب غير مُجْدٍ، فإن من المفيد أن ننعــم النظر قليلاً في بعض ظواهر البلاغة الثانية، بلاغــة المباشرة والانحدار. ذلك أن التبدُّل في المستوى اللغــوي تجسَّد في أمورٍ عدّة، منها:

١- الأغلاط الشّائعة:

لا أقصد هنا مناقشة الأغلاط الشّائعة في النصوصــ العربيّة المكتوبــة والمنطوقة، فهــذه المناقشة تحتــاج إلى دراسة مستقلّة، بل أقصد طرح سؤال يخصُّ هذه الأغلاط. وهذا السؤال ينطلق من أن إقبال العرب على معالجــة الأغلاط قديم يرجــع إلى بدايات الفتوحــات العربية. فقد قِيــل إنّ الكسائيّ المتوفَّى عام ١٨٩ هـ هو أوّل مَنْ خصَّص للحن بمعنى الخطأ في اللغة العربية كتاباً سمّاه (ما تلحن فيه العامّة)، ثم تبعه الحريصون على تنقية العربية مــن الأغلاط في تأليف كتبٍ خاصّة باللحــن، أو في تخصيص جانب من كتبهم للحن العامة والخاصّة. ولم يخل قَرْنٌ، ابتداءً من القرن الثاني للهجرة، من كتاب أو أكثر في هذا الموضوع، حتى أصبحت المكتبة العربيــة في نهايــة العقــد الأوّل من القرن الحادي والعشرين تملك قدراً كبيراً من كتب التصويب اللغوي(٤)، حملت عناوين متقاربة في الدّلالــة، من نحو: ما تلحن فيه العامّة- إصــلاح المنطق- لحــن الخاصّــة- التّنبيه على غلــط الجاهل والنَّبيه- مغالط الكُتّاب ومناهج الصّــواب- إصلاح الفاسد من لغة الجرائد- قُلْ ولا تَقُلْ- الكتابة الصحيحة-

لغـــة الجرائد... ولم يقتصـــر اهتمام العرب بمعالجة الأغـــلاط الشائعة على الكتب، بل ألّفوا معاجم في هذا الموضوع مرتَّبة بحسب الحرف الأوّل من الغلــط، كمعجمي محمد العدنــاني (معجــم الأخطــاء الشائعة)[٥] و(معجــم الأغــلاط اللغوية المعاصــرة)[٦]، ومعجــم اميــل يعقــوب (معجــم الخطــأ والصَّواب). كمــا راحت الصُّحف تُخصِّص لغرض المعالجة نفســه زوايا يوميّة، كزاوية (الصَّحيح في الــكلام الفصيح) التي بقيت صحيفة الخليــج (الشارقة) سنوات تنشرها يوميـــاً. وقد جُمِعتْ بعض هـــذه الزوايا في كتب بعد ذلـــك، كما فعل الدكتـــور رضوان الدّاية في زواياه التي جمعها في كتاب (لسان العـــرب)، والدّكتور مسعـــود بوبو في (نافذة علـــى اللغة)، وصلاح الدّيـــن الزّعبلاوي في (لغـــة العرب). فقد كانت كتبهم، أوّل الأمر، زوايـــا لغويّة نُشــرتْ منجَّمـــةً في الصُّحف السّوريّة (البعث والثّورة وتشرين)، ثمّ جُمِعتْ في الكتب المذكورة.

إن هذه المعالجة للأغلاط الشائعة التي استمـــرّت قرونـــاً تثير الســـؤال الآتي: لماذا بقيت هذه الأغلاط حيّةً على ألسنة العرب وفي كتاباتهم؟. يُخيَّـــل إليَّ، في أثناء الإجابة عـــن هـــذا الســـؤال، أن الأغـــلاط اللغويّة والنَّحْويّة والإملائيّـــة ظاهرة لغوية لا تخلو لغة منها، وكلما كانـــت اللغة قديمة عريقة واسعة المتن زادت نسبة الأغلاط الشائعة في أثناء استعمالها. ويُخيَّل إليَّ أيضاً أن ظاهرة الأغلاط لا علاقة لهـــا بصعوبة اللغة؛ لأنه ليســـت هنـــاك لغة سهلـــة وأخـــرى صعبة، فاللغـــات كلّهـــا صعبة، يحتـــاج الإنسان إلى الجهد والوقت والصبر ليتمكّن من إتقانها. وإذا كان القيدان السابقان مقبولين فالظّنّ أن الأغلاط الشائعة في اللغة العربية ترجع إلى أنّنـــا لا نخدم لغتنـــا، بل نترك الأغلاط الشائعة تستشـــري فيها، وتترسَّخ في كتابات أبنائهـــا ونطقهـــم. وهذان مثـــالان يُعلِّلان عزوفنا عن خدمة لغتنا:

المثال الأوّل:

إذا أخطـــأ الطالـــب في قاعة الدَّرْس في نطـــق كلمـــة (حَنْجَـــرة)، أو استعمل (سوف لـــن ينجح) بدلاً من (لن ينجـــح)، أو وصف الحديـــث بأنه (شَيِّق) بدلاً مـــن (شائق)، أو أخفق في تطبيق قاعدة إسناد الفعل إلى واو الجماعـــة، فنطق (أعطُوا) بضمِّ الطاء بدلاً مـــن فتحها، وهو يعتقد أنهـــا مثل (عاشُوا)، غافلاً عن أن الفعـــل الأول مقصور والثاني

صحيــح الآخر، فإن مدرِّســـه قد يُصوِّب له الغلط، وينقلــه إلى الصواب، ولكنه لا يتابع نُطْقَ الطّالــب وكتاباته بعد ذلك ليتأكّد من رسوخ هــذا الصــواب في سلوكــه اللغويّ. وعدمُ متابعة المدرِّســ عمله يرجع في رأيي إلى سببين أساسيين بعيدين عن عدم توافر الوقت لديه، هما:

أ- شعوره بأن انتقــال طالبه من الغلط اللغوي إلى الصواب اللغوي ليس انتقالاً إلى شيء مهمّ شبيــه بانتقاله إلى معرفة إحدى القواعــد النَّحْويّــة أو إلى حفظــه إحــدى القصائد الشعرية المقــرَّرة في المنهج. ولعلَّ هــذا المدرِّســ في قرارة نفســه يشعر بعدم جــدوى تصويــب أغلاط طالبــه ذي اللغة المتدنّيــة السيّئــة العصية علــى الإصلاح، تبعاً لافتقار صاحبهــا إلى الحدِّ الأدنى من قيمة احــترام اللغة. وشعور المدرِّس في هذه الحال سلبيٌّ أيضاً؛ لأنه ردُّ فعلٍ على الحال اللغوية للطالب؛ ولأنه قَرَنَ التصويب وعَدَمَه بضعف الطالب وقوّته، والصواب أن يجعله عمــلاً لغويّاً قائماً بذاته، شأنه في ذلك شأن فروع اللغــة الأخرى التي تُدرَّســ مستقلّةً، ولكنّ تدريسها يقود إلى النمو اللغوي السليم للغة الطالب.

ب- السبــب الثــاني الكامــن وراء عزوف المدرِّســ عن متابعــة التصويب في لغــة الطالب، هــو يقينه بأنــه لا يملك أية وسيلة تحفز طالبــه إلى التشبُّث بالصواب. والطالــب نفسه يعرف هــذا الأمر ويُحْسن التملُّص من تنفيــذ التصويب استناداً إليه. ذلك أن درجات الطالب لن تنقص ولن تزيد في الحالين معــاً، وسواء لديه أَنَطَقَ الخطأ: (اشتريــتُ عصاتــين)، أم نَطَــقَ الصواب: (اشتريتُ عصوين). ذلك أنه ليس للغلط أو للصواب نتيجة سلبية أو إيجابية ملموسة في واقعه الماديّ والمعنويّ، فلْيترك مدرِّسه الذي يحضُّه على الصواب يقول كلاماً جميلاً، لا ينفع ولا يضرُّ.

المثال الثاني:

ليست حال مؤسســات الطِّباعة والنَّشْر أفضــل أحياناً من حــال الطالب والمدرِّس. فقُــرّاء الكتب المخطوطــة المقدَّمة للطباعة يشــيرون إلى وجــوب تصويــب الأغــلاط في المخطوطــة قبل طباعتهــا، ولكنّ بعض أصحــاب دور النَّشْــر لا يُكلِّفــون أنفسهم، أحيانــاً، عناء تنفيــذ التصويــب؛ لأنهم لا يملكون قيمة احترام اللغة العربية، ولا قيمة احترام القارئ. وقد تلاشــى التقليد الذي

كان الناشـر يعتذر فيه مـن القارئ في آخر صفحات الكتاب عـن ورود أغلاط يسمّيها (مطبعيّة)، ويسرد قائمة بها ليصوّبها القارئ قبل قراءة الكتاب. لقد تلاشى هذا التقليد، وبقيـت الأغـلاط داخل الكتـاب محكومة بالمستوى اللغوي للمؤلِّف، وبسعيه إلى تنقية كتابه قبل طباعته وتوزيعه. مثل هذا الناشر لا يقبـل، غالباً، مبـدأ تقديم مبلغ من المال لمدقِّق لغـويّ يراجع الكتـاب، ويُخلِّصه من الأغلاط، ويرتقي بمستواه، ويُسهم في تنمية لغة الذين يقرؤونه. فهو يشعر أنه قدَّم مالاً في أمـر لا ضرر منـه، ولا فائـدة ملموسة لـه. كما أنه يعزف عن تعيـين مدقِّق لغويّ لمراجعـة مطبوعاته؛ لأنه ليـس هناك مَنْ يثيبـه أو يعاقبه على المستوى اللغوي لكتبه. وهناك، في مقابل ذلك، صحف يوميّة عربيّة كثيرة تحترم لغتهـا وقارئها، فتجعل موادّها خاضعـة للمراجعة اللغويـة لتخلو من هذه الأغلاط، ولترتقي بلغة الصحيفة ومستواها في الوقت نفسه.

إن المثالين السابقين يُعلِّلان عزوفنا عن خدمة لغتنا العربية بعدم احترامها. فالغلط الذي صوَّبتـه الكتب والمعاجـم والصُّحف والإذاعة، وبقي شائعاً في النصوص المكتوبة والمنطوقـة، لا يشير إلى مسؤوليـة الكتَّاب وأصحاب دور النشر والمدرِّسين وحدهم، بل يشير إلى عدم إنفاقنـا المال، وبذلنا الجهد والوقت، في ابتـداع المشروعات التي تُرسِّخ الصـواب بدلاً مـن الغلط في لغـة الطفل والفتـى قبـل أن تعتاد ألسنتهـم وأقلامهم استعمال الغلط، فترسـخ في نفوسهم قيمة اللغة، بحيـث تهتـزُّ آذانهـم إذا أخطؤوا، ويعاقبون أنفسهم إذا لم يبحثوا عن الصواب، وإذا لم يبـادروا إلى تنقية نصوصهم منه قبل أن يطلب أحدٌ منهم ذلك الأمر.

٢- استعمال علامات التّرقيم:

ابتدع العرب علامـات للفصل والوصل وبدايات الـكلام ونهاياتـه، استعملوها في مصنّفاتهـم، وتحدّثـوا عنهـا في كتبهم[٧]، وجسّدهـا النُّسّـاخ في المخطوطات العربيّة التـي وصلت إلينا[٨] ليوضِّحـوا (البدايات والنهايات والزيـادة والسقط، أو الصحة أو الغلط أو توافر بياضـ في النص)[٩]، وغير ذلـك مما يعرفـه المتصلـون بالمخطوطات العربية. من هذه العلامات:

(- صـح: تـدل هذه العلامـة على ما أُلحق بالنص من الأسقاط.

– ث: تُوضَــع فــوق الحـــرف المثلّــث الحركة.

– ضــ: تُوضَع هذه العلامـــة في وسط الكلام على أن في الأصل المنقول بياضاً.

– عــ: تدل هـــذه العلامة علـــى (لعله هكذا).

– ك: توضــع هذه العلامـــة للدلالة على (كذا في الأصل).

– اهـ: توضــع في نهايــة النصوص المقتبسة.

– الــخ: لعلها تقــوم مقــام علامة الحذف)[10].

بيـــد أن المعاصريـــن أهملـــوا العلامات العربيّة التراثيّة كلّها تقريباً، واستعملوا بدلاً منها علامات الترقيـــم الأجنبيّة، كالفاصلة والفاصلـــة المنقوطة والشَّرْطـــة والنُّقطتين الرأسيّتين، انطلاقاً من أنها البديل الكتابيّ السهـــل للفصـــل والوصل وبدايـــات الكلام وأجزائـــه ونهاياته. وقد أشار النص العربي الحديث إلى أن استعمال (علامات الترقيم) في الكتابة لم يكـــن دقيقاً بحيث تصبح هذه العلامات فيه أجـــزاء من المعنى تُعوِّض عن الأجزاء التي ترافق النطق عادةً، وخصوصاً النَّـــبْر وحركات الوجه واليدين. ومن ثَمَّ كان استعمالها شكلياً في الغالب الأعمّ. فمواضع استعمـــال الفاصلـــة اختلطـــت بمواضـــع استعمـــال الفاصلـــة المنقوطـــة، وعلامات الحـــذف الرباعيـــة (....) والخماسيـــة (.....) اختفـــت مـــن الاستعمـــال اكتفاءً بالثلاثية[11]. كما تداخل استعمال القوسين باستعمال علامتـــي التَّنصيصـــ، ولم يُكْتَب للفاصلـــة المنقوطـــة بنقطتـــين الذيوع على الرّغم من أن أحمد زكي باشا الذي اقترحها حدَّد موضعها بـــين الجمل المسجوعة(١٢)، وهو موضع عربي صرف يسمح بها، ويحتاج إليها للتمييز بين الجمل العاديّة[[[المتصلة المعنى، والجمل المسجوعـــة المتصلة المعنى. ولعلّنا نتذكّـــر هنا الحاجة إلى تحديد دقيق لعبارة (انتهاء المعنى) اللازمة لوضع النقطة في غـــير نهايـــات الفقـــرات والنصوص من المواضع الملتبســـة بالفاصلة دون غيرها من علامات الترقيـــم. ويُخيَّـــل إليَّ، أخيراً، أن هناك حاجةً إلى توحيـــد تسميات علامات الترقيـــم؛ لأن للعلامـــة الواحـــدة مسمّيات عربيّة عدّة أحياناً:

فالقوســـان: [ ] يُسمّيـــان حاصرتـــين ومعقوفتـــين ومقفّين ومركّنـــين وعاضدتين وعلامتي حصر.

والنقطة:.   تُسمَّـــى نقطـــة ووقفـــة وقاطعة.

والفاصلة:،   تُسمَّـــى فاصلـــة وفصلة وشولة.

وعلامة التعجُّب: !   تُسمَّـــى علامة تعجُّب وانفعال وتأثُّر.

ولا أبالغ في القـــول إنّ هناك حاجةً إلى دراسة العلاقة بين علامات التّرقيم وأجزاء المعنى التي ترافق النُّطق؛ لأنّ هناك قصوراً في إدراك أثـــر علامات الترقيـــم في النّصّ المكتوب، وهو جزء مـــن قصور المكتوب عن ترجمة المنطوق في اللّغة العربيّة.

❁ ❁ ❁

مهمـــا يكن أمـــر الوقوف علـــى السّاكن والمستوى اللُّغويّ للنّصـّ العربيّ فإن هناك حاجـــة إلى ترسيـــخ قيمـــة احـــترام اللّغة العربيّة، ثم ابتـــداع الوسائل النّاجعة للرُّقيّ بهذا المستوى، ســـواء أكانت الوسائل خاصّة بالتَّخلُّـــص من الوقوف على أواخر الكلمات بالسكون، أم باستعمال الأغلاط الشّائعة، أم بالتَّدرُّب على إدراك أثر علامات التّرقيم في النّصوص المكتوبة.

الإحالات

١- د. سمـــر روحـــي الفيصل: قضايـــا اللغة العربية في العصر الحديـــث، وزارة الثقافة، الهيئة العامـــة السورية للكتاب، دمشق، ٢٠١٠، ص ٥٢ وما بعد.

٢- د. إبراهيم الكيلاني: شخصيات وصور، دار طلاس، دمشق، ١٩٩٣، ص ١٢٤.

٣- هناك رأي يقول إن الدراسات الصوتية العربية لم تستفد كثيراً من كتب التجويد. انظر تفصيلات هذا الرأي في: د. غـــانم قدوري الحمد: الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، دار عمّار، عمّان، ط٣، ٢٠٠٣ (صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب عام ١٩٨٤).

٤- انظر قائمة بكتب التّصويب اللغوي في الصفحات ٢٥-٣٢ من: د. اميل يعقوب: معجم الخطأ والصواب، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٣.

٥- مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٣.

٦- مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٩.

٧- تحدَّث القلقشندي عن مراعاة فواصل الكلام وأثرها في المعنى، وحضَّ ابن السيد البطليوسي على مراعاة الفصول. انظر:

٨- القلقشنـــدي (أحمـــد بن علي): صبـــح الأعشى في صناعة الإنشـــا، وزارة الثقافة، القاهـــرة، ط مصورة، ٣/١٤٥-١٤٦.

٩- ابـن السيـد البطليوسي (عبد الله بن محمد): الاقتضاب في شرح أدب الكُتّـاب، تح: مصطفى السقا وحامد عبد المجيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨١، ١/١٣٨.

١٠- جمـع العلامـة عبد السلام هـارون ما تفرَّق في المخطوطـات العربية من هذه العلامات، ونشرهـا في كتابه: تحقيق النصوص ونشرها، القاهرة، ١٩٧٧، ص ٥١.

١١- د. عبد الفتاح أحمد الحموز: فن الترقيم في العربية، أصوله وعلاماته، دار عمّار، عمَّان، ١٩٩١، ص ١٧.

١٢- المرجع السابق، ص ١٧-١٨.

١٣- قيل إن النقاط الثلاث تعني الحذف القليل، والنقاط الأربع الحذف المتوسط، والنقاط الخمس الحذف الكثير.

١٤- أحمد زكي باشا: الترقيم وعلاماته في اللغة العربية، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩١٢، ص ٣٠.





إخراج الميت من الحي في فلسفة كتابة التاريخ «وكتابة التاريخ القديم منه»

د. فيصل عبد الله ❀

– اكتشاف ابن طفيل:

كانــت تجربة[1] ابــن طفيل في كتابه الشهير «حي بــن يقظان» وما تزال تحــير العقول، لما تحمله مــن أهداف ومعانٍ تخفي وراءهــا عبقرية المؤلف الفــذة، وتحديه واقع زمانه المتدهور، بعد صعود، بعد أن كان النقد والمنطق والعقــل يغلب على الفكر والمنهج العربــي. كان حي بن يقظان تجربة علمية وعقليــة خالصة، تثبت أن الإنسان، ولكونــه عاقلاً وناطقاً ومفكراً بالخلق،

❀❀ أستاذ التاريخ القديم في جامعة دمشق.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

فإنه يمكنه بمفرده من تأسيس وخلق العلوم والإبداع فيها. وهو كأنه يريد القول. يمكن للجاهــل أن يصبح عالمــاً بالخبرة والتجربة والملاحظــة. لأن بطل كتابه واسمه «حي بن يقظان» الذي ربته ذئبــة الغابة استطاع أن يكون ملاحظــات علمية تجريبية من خلال مراقبته وتسجيــل المظاهر المحيطة به مثل العيش والمرض والموت والنمو..إلخ.

وكأن ابــن طفيل اكتشــف منهج تأسيس العلــم في عصــره وتحــدى زمنــه[٢]، قبل ظهــور أي بادرة نهضــة أوروبية. ولكن كما أسلفنــا توقف الاجتهاد والفكر النقدي، في عالمنا العربــي منذ نهاية القرن الثاني عشر الميلادي، وانتقــل كما تنتقل الرياح الممطرة إلى الجــوار الأوروبي ليفعــل فعله، ولتظهر من جديد عوامل نهضة أوروبة التي ستعيد ســيرة ابن يقظان بصــورة أخرى. فهذا هو الحــي قد أخرج الميت وبحــث في مكوناته. وقــام عصر الإحياء الأوروبي بنبش ماضي آلاف السنــين وأعاد لهــا الحياة من خلال الاستقــراء والتقصــي والتسجيل والنقد والنشــر. ولكــن جراحي الماضــي لم يكونوا ليتوانوا عن تمزيق جثــث الأموات «لنتذكر أسطورة المومياء المصرية»، وتدميرها أحياناً بهدف الوصول بأسرع وقت ممكن إلى نتائج حاسمــة على المستوى التجــاري أو العلمي ولذا سرقت وشوهت ودمرت كثير من شواهد الماضي، وخرج الحي مــن الميت، وقد شابه الكثير من الجروح والقروح والكسور.

٢- النهضة التاريخية:

لقد كانت النهضة الأوروبية وحضارتها وما تزال، منبع ثورة التاريخ الحديث. وتمكن فلاسفتها ومؤرخوها من جعل التاريخ علماً يستند على منطق وفلسفة متطورة بين قابلية للتكيف والتبدل وفق رؤى وطموح المؤرخين وشعوبهم. فكل مؤرخ أو متفلسف في التاريخ يريــد التغيــير في محيطه وعالمــه، حتى أن ماركــس انتقد هذا مفضــلاً الحفاظ عليه بــدل أن هذا الكم الهائل مــن آراء ومناهج وفلسفــة المؤرخين ولعل جمهرة معاصرةً من المؤرخــين الأوروبيــين والأمريكان المجربين الذين فلسفــوا لنا اليوم وجهات نظرهم في مئات الكتب.

والأبحاث تعكس لنا مدى حرية التفكير والكتابــة والتفلسف، التي وصل بعضها حد السفسطة والإسفاف.

إلا أن المؤسسات ومراكز الأبحاث الرصينة، وأولئك الأساتذة الكبار يبقون ملاذاً آمناً للتاريخ وكتابته. وهذه عشرات الأبحاث والكتب التي تلقى رواجاً في أنحاء العالم نظراً لما تحمله من تجربة عميقة وعلمية في كتابة التاريخ. وليس هنا من مجال لذكر وتعداد هؤلاء العلماء الأوروبيين إلا أن موجزاً عن أفكارهم يتلخص فيما يلي:

١- محاولة أودو مركارد O. Marquard في كتابه «مصاعب فلسفة التاريخ» المترجم من الألمانية إلى الفرنسية:

Odo Marquard, des difficultés avec la Philosophie de l' histoire, Paris, 2002, P. Lss.

التي يستعرض فيها تجربة هيجل وماركس في نقد وفلسفة التاريخ مقارباً بين الميتافيزيفية والمادية، فانتهى إلى أن الشك والحوار أو (الجدل) هما أساس عمل المؤرخ Scepticisme et de la dialectique.



ولكن سرعان ما أن تنبه أن الشك والحوار لايمكن أن يكونا وحدهما نهاية عمل المؤرخ.

أما بول فاليري الذي قال ارفعوا أيديكم عن التاريخ فذكرنا بابن خلدون الذي حذر من المتطفلين عليه.

فالتاريخ هو كل شيء وكل شيء هو تاريخ، فهو غير موجود وموجود ويمكن لأي كائن حتى جامع القمامة أن يقول كلمته في التاريخ فلا وقائع ولا مقاييس بل تعقيدات

وحبائـل وركام لأنـه ينفث بـكل الروائح! فالفضولي يمكن أن يغـرق فيه والمفكر قد يعجز عن حمايـة نفسه وتفكيره. ويغرق في المنطق والسببية والأسلوب.

٣- رد فعل شخصي:

لا يمكن أن نستنطق التاريخ وفق مفاهيمنا التـي نعيش، هذا موقف بول فاليري وإليكم المزيد يقـول: علينـا أن نتفاهم ويجب أن نبحـث عن العلمية في التاريـخ. ولكن أين؟ وكيف؟ ومَنْ؟ إنهـا معضلة دفعت ببعضهم إلى القول مجـرد كلمة علم «وأنا شخصياً لم أعد أطيق أن يكـون التاريخ علماً إنسانياً». يجـب علـى الإنسان أن يفهـم، لا أن يضع مقاييس تبعده عن ذاتـه وأمراضها، فيلجأ إلى التمويه بعلمية التاريخ !.

وهاكم ما يصرخ به أهل التاريخ وفلسفته الحديثـة في الغرب. وهناك عشرات ومئات الكتـب التي تصـدر يومياً ولكـن أحدهم يقول أين «أنا» من كل ذلك، وأقول أنا ليس مـن باب التفـرد. بل من بـاب أن لا أشمل جماعة المؤرخين من المحيـط الذي أعيش فيـه بمشكلتـي وخاصيتي. فأنـا والتاريخ أعيش تاريخاً معذباً منكوباً.. أما كاتب هذه السطور فيقول عن تجربته:

«فأنا أشرح ما لا يشرح وأفهم ما لا يفهم الآخرون، ولكن لا شرحي مسموع، ولا فهمي مفهـوم والعكس صحيح وبـدل أن أكون في نقاشـ دائم حـول ما يُستمد مـن الماضي، أراني بأحكام ما يسمونه علم وقواعد ومنهج مبطنة بجهـل عقائدي. وأخطـر من هذا وذاك، حديثهـم عن النظريـات البائدة في التاريخ. وما أن تقول نظرية حتى يتسابقون بلفـظ عبـارات وأسماء أغرب مـن أسماء السنسكريتية. فالتعـاون مفقود ونستعيض عنـه بالغموض المنهجي والنظـري. فهم يكتبـون ما يعتقدون، لا ما يعنيه التاريخ ولا تجاربـه، يعيشون مع الماضـي[٣]، ويخلطون أفكارهم ومواقفهم على غرائزهم ودوافعهم الشعوريـة واللاشعوريـة، ويمتطون صهوة التاريخ أمام جمهور أمي..

وهم يكررون الماضي وأحداثه، والتاريخ لا يكرر، ولا يعيد تجربة كالأخرى، فهو ليس فيزياء ولا كيمياء وهو ليس بعلم. إنه تاريخ وحسب، ويجب أن يفصل عن الحاضر، وأن لا يخرج من المخابر إلا كدرس واع ومفيد.

٤- وعي تقديري ورؤية أملية:

أصبح الإنسان يدرك بوعيه المعاصر قيمة وضرورة التاريخ ولكن يتفاوت هذا الإدراك بين البشر اليوم. ونلاحظ أن أكثر المشتغلين والمستفيدين من الماضي هم الأوروبيون والأمريكيون وقد بدأ اهتمامهم واشتغالهم به منذ القرن السادس عشر ولنقل منذ بداية الحروب الصليبية وانحسار حضارة العرب عن الأندلس والمتوسط عامة.

إلا أن التاريخ وصناعته في عصرنا، لايمكن أن يُنسب إلى مؤسسات وأفراد، كما لا يمكن أن ينسب إلى الغرب وحده. فلا بد من مراجعة لتاريخ التاريخ وتاريخ الحضارة، ولنقل باختصار لا بد من مراجعة نصوص وكتابة الإنسان عامة وخاصة، تلك النصوص المؤسسة للفكر الإنساني، تلك النصوص التي تحولت إلى قوانين أو شرائع ذات قواعد وتطبيقات دامت دهوراً، وبعضها ما يزال قائماً وسيبقى دهوراً أخرى.

٥- النص المؤسس للتاريخ:

ليس مدهشاً بالنسبة للمؤرخ المعاصر أن يستنتج أن النصوص الدينية هي المؤسس للفكر الإنساني وثقافته. ولكنه سوف يسجل ويلاحظ أن الإنسان قد ثار على قواعد الفكر والفن والتعبير التقليدية، كما سيلاحظ أن الحرف أو الكلمة ليست هي الأصل أو البدء، بل كان الرقم والعدد والإحصاء في البدء. أي إن الحساب علم اكتشفه الإنسان قبل الكلمة. وعبر عنه قبل أن يعبر عن فكرة الألوهية.

وهكذا يجد المؤرخ المعاصر نفسه محاصراً بين نزاعات فكرية لا حدود لها. وهو ملزم بالبحث عن مخارج لكل المعضلات التي تواجهه، وإن كان لا يستطيع الإفصاح عن كل نتائج أبحاثه الفكرية، فهو يكون قد اكتشف ولنفسه على الأقل بعض الأجوبة على بعض الأسئلة المقلقة التي تهدده بالفناء.[٤]

٦- تراكب التاريخ:

نستطيع أن نقول مما تقدم أن علم التاريخ الحديث والمعاصر، هو علم متراكم ومتراكب من حيث الكم والنوع. فهو طبقات أثرية غير ناطقة ولكنها ناطقة بالنسبة للمؤرخ المتخصص. ومثلها مثل لغة غير مقروءة وتحتاج إلى فك رموزها.. ولا أحد يستطيع فك رموزها إلا مؤرخ لغوي شديد المراس واسع المعرفة، فعلم التاريخ الحديث الأوروبي هيأ لنا المؤرخ[٥] المتخصص الذي

تمكن من فك رموز الماضي اللغوية والفكرية والفنيـة. ولكـي يتمكن المـؤرخ المبتدئ من ممارسة تخصصـه، فيبدأ غالبـاً بدراسة تاريخ التاريخ. أو تاريخ بناء المعرفة، ويستطيع بفضـل أدوات البحث العلمي المتوفرة لديه، أن يدخـل مخبر التاريخ ويجـد مكاناً يعمل فيه وفق رغباته وميولـه وحاجاته الفكرية والنفسية.. وسيكتشف المؤرخ المبتدئ أنه لو تخصص بأحدث الفروع أو الميادين البحثية المعاصرة، فإنـه لا يستطيع الإحاطة بأعلى قدر بموضوعه إذا لم يكـن يدرك أن جذور مشـكلات المستقبل قبل الحاضر، تكمن في التاريخ الأقـدم للبشرية، وليس في العصور القريبـة أو الوسطـى، ولعـل تركيز بعض الباحثـين والمفكريـن على علـم الاجتماع الإنسـان، Sociologie أو علـم دراسـة أصـول الإنسـان Anthropologie أو أعراقه Etĥnologie، قد حَمَّس بعضهم إلى درجـة ابتعـدوا فيها عن فعـل التاريخ المتشعـب والممسك بتلك العلـوم الفرعية، الآنفة الذكر، وأن التاريخ هو تاريخ الإنسان بفكره ومظاهره المادية، وهو حاضر وساكن في أجيالـه وآثاره، ولعـل الالتصاق الشديد اللاواعـي بالماضـي قد دفـع بعضهم إلى الابتعـاد عنـه، وخلـق تجـارب شخصية وميدانيـة توحـي بأنها هـي أساس تطور التاريخ. وتحول النقاش من نقاش يستخدم الإرث العالمي وخاصة القديم، إلى نقاش عن دور تلـك التجارب في صناعـة المجتمعات، وظـن بعضهم أن دراسـة مجتمع بدائي في قلـب الأمـازون أو قلب أفريقيـا، أهم من دراسة مواقـع أثرية في المشرق، تعود لآلاف السنـين، واعتقد بعضهـم أن دراسة تاريخ اللغات الأوروبية الحديثة، يجب أن يبدأ من القارة الأوروبية والهندية وحسب..

٧- تنافسية الغرب:

أريد أن أفصح عن وجود فكرة تنافسية أو إهمالية تسكن عالم المفكرين الغربيين عبر عنها مكسيم رودنسون في أعماله عن تاريخ الإسلام وسحر الإسلام كما سماه في دراسته الصغيرة Facsimation de L'Islame، هذه التنافسية والإهمالية نفهمها أكثر عند نقل وانتقال العلـوم العربية إلى أوروبة، مع إهمال متعمد أحياناً وغير واعٍ أحياناً ونعني استخـدام أمهات الكتـب العلمية والمعارف العربيـة دون الإشارة إلى مصادرها العربية

أو الإسلامية، أو تحوير لفظ أسمائها بصورة تضيع فيها هويـــة أصحابها، أو إعادة أصل أصحابها إلى جذور أو أصول غير عربية أو وغـــير إسلامية أو التركيـــز على عامل دون آخر في انتقال معارف العصور الوسطى إلى الحديثة وهكذا.

إن هـــذه التنافسية والإهمالية الأوروبية قد تجلت بصـــورة رئيسية علـــى مستويين بحثيين:

الأول لغـــوي، والثـــاني عرقـــي. فعلى المستوى اللغوي بدأت حملة بحث عن جذور اللغات الأوروبية كما أسلفنا، انتهت بربطها بالعائلة اللغوية الهندو أوروبية.

أمـــا على الصعيد العرقـــي، فقد قادت الأبحـــاث الأنتربولوجيـــة الحديثـــة إلى أن إنســـان نيادرتـــال Neandertal قد خرج من أفريقيا، وليســ له نظير في مكان آخر واستوطن في المشرق وأوروبة فيما بعد.

لقد نشأ هـــذان التياران البحثيان وكونا ثقافة حديثة عن أصـــول اللغات والأعراق. وبـــدء الحضارة، أما ما يتعلق بنتائج أبحاث التيـــار الأول ونستطيـــع الاستشهـــاد بـــ: دومنزيـــل وكتابـــه عن الأسطـــورة الحديثة وأصولها: La mythologie de xxème siècle الذي يربط ما بين اللغات الأوروبية الحديثة والهندية دون الصينية أو الآسيوية أو الشرق عربيـــة أو الأفريقية وذكر أن لغة أهل التبت مثلاً تشترك بعشرات التعابير مع الإيرلندية والإنجليزية، وأن الإيرانية- الآرية لهـــا جذوراً لغوية أقـــدم للأوروبيات اليوم. واستعرض هذا البحـــث الأساطير المشتركة التـــي تجمع بـــين الأمم الهنـــد والأوروبية، وغيرهـــا مـــن أمم المشرق والمغـــرب العربي والأفريقي الخ.

٨- تيار آخر:

أما تيار البحوث الإنسانية وجذورها ما قبل التاريخية:

فنعلم أن القرن العشرين عامر بنظريات الأعـــراق وألوانها وصفاتهـــا التي ولا شك، ورثت بداياتها من عصور القرون الوسطى والحديثـــة، إن لم نقـــل أن بداياتها يمكن أن تعـــود إلى عصور الإغريق والرومان، وأبعد من ذلك إلى حضارات المشرق القديمة.

وللأسف أن أكثر ما أثر في سلوك الإنسان المتحضـــر الأوروبي هو تلك الفوقية القائمة على العصبيـــة العرقية أكثر مما هي قائمة

على رابط أخلاقي أو ثقافي أو إنساني(٦). ونعلم عن آثار التدمير والحروب، التي نشبت في القرن العشرين الأوروبي الأمريكي ودمرت عشرات الملايين من أوروبة أولاً وآسيا ثانياً. وللأسف أيضاً، أنه لا يوجد مثال في تاريخ حضارة الإنسانية أشد عنفاً وتدميراً من أمثلة العصر الحديث التي بلغت فيها العلوم الإنسانية من تاريخ وفلسفة واجتماع شأواً بعيداً. وظن بعض البشر أن قوة الوعي المعاصر لماضيه قد تنقذه من شر الحرب والتدمير، ولكن عبثاً.

كما استحوذت أعمال ليفي ستراوس بين شعوب أفريقيا وأمريكا البدائية الطبيعية، اهتمامات خاصة.. وبدا الأمر وكأن علماء الإنسان وماضيه الفكري الحضاري، قد صُدموا بنتائج تطوره الحضاري التدميري في القرن العشرين، فراحوا يبحثون عن عوامل ومظاهر إنسانية لدى قبائل تعيش اليوم كما عاش الإنسان في عصور ما قبل التاريخ، لا بل في العصور الحجرية ذلك أن بعض تلك الشعوب لم يعرف النحاس ولا البرونز ولا الفخار، وهذه كانت معروفة في المشرق منذ ما قبل التاريخ.

إن استحضار بحثنا لأعمال وبحوث القرن العشرين اللغوية والعرقية والإنسانية وخاصة الستراوسية الأكثر شهرة يهدف إلى إيضاح النقاط الآتية:

١- دلت اكتشافات المحفوظات المسمارية في إيبلا ماري وأوجاريت وآلالاخ على وجود جذور لغوية حثية وحورية ومن الثابت أن الحثيين جاؤوا قبل الاسكندر المقدوني بألف وخمسمئة سنة على الطريق نفسه. أي بدءاً من البلقان ومحيط البحر الأسود حتى الأناضول وسورية. وينطبق هذا الأمر على الحوريين الذين جاؤوا من شمال شرق الأناضول وهضبة أرمينيا والقوقاز وجنوب سهول روسيا وآسيا الوسطى وهم من أدخل الحصان إلى سورية وعرفنا كلمة ساس وسائس وسياسة الخيل منذ القرن الثامن عشر ق.م في آلالاخ.. ولسنا متأكدين من أصل جذر ساس: أكان حورياً أو أكادياً. إلا أن المهم أنه جذر عربي اليوم. ولا نجد نظيراً له في لغة معاصرة.

٢- كان هذا أول اكتشاف لاحتكاك الغرب الأوروبي والشمال الروسي بالوسط الحضاري السوري العراقي. واقتبس هؤلاء

جميـــع أنظمة الكتابة والتعبير وما يلي ذلك من اقتباسات حضارية دينية وفنية، هي ولا شـــك وراء حضارتي مينوســـ وكنوسوس في كريـــت التي تعد قاعدة الهلينية/ الإغريقية اللاحقة..

فهنـــاك استشـــراق للقـــديم وآخـــر للإسلامي.

٣- إن الآثاريـــين الأوروبيـــين هم الذين اكتشفوا وخلقوا علم اللغات القديم المقارن وعلم الآثـــار والتاريخ القديم وهم من غير المهتمين بالدراسات العربية الإسلامية فيما يعـــرف بالاستشراق الذي رافـــق الاحتلال الأوروبي المباشر للبلاد العربية.

ولهذا ينقصـــ هؤلاء الاتصـــال اللغوي والأثر النفسي الإنســـاني السالب والموجب الذي خلـــق مشكلات الاستشـــراق والجدل القائم حوله حتى الآن. ولم يتنبه المتجادلون مـــن الطرفين، أن جـــذوراً أكـــثر عمقاً قد كشفتهـــا معامل العلمـــاء الآثاريين وقبلهم كبـــار المغامريـــن وأمـــراء النهـــب الأثـــري والفكري زمـــن الاحتلال المباشـــر.. الذين عملـــوا بصمـــت مطبـــق، واحتجبـــوا عن مجتمعاتهـــم وأوساطهـــم الفكريـــة، حتى لا يثـــيروا ضجة حول مسروقاتهـــم من الكنوز ولم يشعر بهم وبأعمالهم التخريبية الفكرية والمادية الوسط الثقافي الأوروبي ولا العربي والإسلامـــي إلا مؤخراً. أي عندما امتلأت متاحف أوروبة وأمريكا بمعظم الآثار الفنية والمعمارية من مصر والعراق وسورية بصورة خاصة وأقل منها من إيران، والأناضول.

ولا أدل علـــى ذلـــك من تمثـــال ونصب حمورابي الذي نقش عليـــه شريعته الأقدم وتاريخ البشرية، والذي عثر عليه الفرنسيون في إيران في تنقيبات سوزا في بدايات القرن العشريـــن الماضي، وكان قـــد نهب من بابل عاصمـــة حمورابي على يد العيلاميين، في القرن الثالث عشر ق.م وبقي مطموراً بعد خـــراب سوزا، حتى عثر عليـــه الفرنسيون. والجـــدل القائم إلى من يعود هذا الكنز غير محدود القيمة! هل للفرنسيين الذين عثروا عليه، أم للإيرانيين العيلاميين الذين اغتنموه في الحـــرب منذ ثلاثة آلاف وثلاثمائة سنة، أم إلى العراقيين أحفاد حمورابي وورثة بابل الذين صنعـــوا النصب، وأبدعوا أول شريعة في الكون، ما نزال نعمل بموجبها وتسكن في عمق الفكر الديني الغربي- والشرقي؟

٤- كمـا نهب المعاصـرون الأوائل كنوز الحضـارات القديمـة في العـراق وسورية ومصر وأودعوها متاحفهم فقد محوا وبقوة، بل منعـوا بجدار مـن الفصـل العنصري الفكري كل مقاربة حضارية بين ما اكتشفوه من الماضي، وما يمكن ربطه والاستفادة منه للورثة الذين يعيشون دون انقطاع فوق أرض أسلافهـم أقصـد العـرب وكراهية الغرب التلقائيـة لهـم، ولم ينل هـؤلاء العرب من اكتشافات ماضيهم العتيق، سوى أن سمح لهم بالعمل كعمال حفر وخدم وأجراء بسطاء في الاكتشاف. وتطور هذا الأمر إلى مشاركات اسمية بل وهمية بعد عهود الاستقلال، وبتنا نسمـع عن بعثات مشتركـة سورية.. كذا أو مصريـة أو عراقية.. ولكـن آثارها العلمية متواضعة وتختفي نهائياً في مراكز البحوث والمتاحـف الأوروبية والأمريكيـة، وترتفع أسماء البحاثة من منقبين ولغويين في سماء الشهـرة العلمية في أوروبة، ثـم تعود إلينا مـن أخبار الصحف العالمية، فنتباهى بأنهم يتكلمـون عن بلادنا ونكتفـي بهذا القدر. وأحدث مثال عن ذلك هو ما نشرته صحف أوروبة وأمريكا وخاصـة صحيفة نيويورك تايمـز NewYork Times منـذ أيـام تحت عنوان اكتشافـات أثرية في تل زيدان في شمـال حلب وتناقلتـه الصحف العربية بإسهـاب وبعضهـا باختصـار. أن أثاريين سوريين وأمريكيين اكتشفوا موقعاً أثرياً في تل زيدان يمكن له أن يغير كثيراً من المفاهيم المتعلقة بحضارة الألـف الرابع قبل الميلاد ونقـراً فيما بعـد أن العـالم الأمريكي من جامعة شيكاغو هو من يقوم بالحفر والنشر، ولم يذكر المقال أية كلمة لمدير الآثار السوري المحلي أي في مكان الاكتشاف. بالطبع ليس سهـواً أو قلـة أمانة بـل لأن الأمريكي هو الممـول للحفرية وهو ولاشك صاحب الحق وفق قواعـد الحفر السوريـة بنشر النتائج ويمكن للسـوري أن ينشر هذا بالعربية على المستوى المحلي فقط.

٥- نخلصـ من جـراء النقـاط الأربع السابقة، أن الغرب الحديث، استثمر الماضي الإنسـاني بطريقته العلمية البحتة، لتحقيق أهدافه القومية والاجتماعية.

وظهر هـذا الاستثمار في إنتـاج تاريخ وحضارة الوطن العربي وجواره وفصله عن حاضـره، وعن حضارة العـرب الإسلامية،

أولاً، ثـم اتجـه نحو المجتمعـات البدائية الخالصـة المتبقيـة في الأمـازون ووسـط أفريقيـا ليستكشف خصائصهـا ويستلهم منهـا بعض القيم التي تفيد في فهم المزيد من حقائق الإنسان الأفريقي.

وهكذا نجـد أن التطور الذي حدث في بلادنا بعد الاستقـلال لم يؤد إلى استقلالنا التام في إنتـاج تاريخنا القديم فبدل النهب السابـق أصبحنا نستطيـع أن نؤجر ونعير معظـم كنوزنا الأثريـة إلى كبريات المتاحف الأوروبيـة، وبـدل أن نقـوم بنشـر تراثنا والتنقيب عنه فإننا نؤجـر البعثات الأثرية الأجنبيـة، مواقع تاريخنا فتمول هي أعمال التنقيـب، والترميـم، كما تمتلـك حق نشر النصوص والكتابات التي تعثر عليها وهكذا نجد أن أكبر مواقع الحضارات القديمة في العـراق وسورية تحمل أسمـاء مكتشفيها مـن الأجانب.. ونكتفي نحـن بمختصرات إعلاميـة، تعمـي الحقائق عـن الجمهور والمسؤولـين، بحيـث نستطيـع أن نشبـه مئات البعثات الأثريـة العاملة في أقطارنا، بمستوطنات علمية أوروبية أمريكية لا أكثر ولا أقل.

إذا ما تركنا حركـة التاريخ والاكتشاف الغربية في بلادنا: لنتوقف عند أوضاعها في مؤسساتنا ومؤرخينا، فإننا سنصطدم بواقع أشد إيلاماً مما نتصور. ويمكن لي أن ألخص حركتنـا التاريخيـة المتعلقـة بالحضارات القديمة كالآتي:

١- **الدهشـة والصدمـة:** عندمـا بدأت تخـرج الكنوز الفنيـة التشكيليـة وغيرها مـن بواطن أراضينا، وقفـت العامة موقف المتفـرج المندهشـ الخائـف. فمـن جهة لاتسمـح ثقافتهـا ومعارفهـا بتحديد أي موقـف من هذه الكنـوز ولا معرفة قيمتها العلمية أو التجارية- السياحية والاقتنائية. أما المسـؤول والحاكم فيجـب التذكير بأن العثمانيـين حتى خروجهـم من هذه البلاد وقفوا موقف المتفرج من أعمال النهب، التي ملأت خزائـن أوروبة ومتاحفها، وقامت في مراحل متأخرة باقتناء بعض اللقى وخاصة الإسلامية، وأودعتها متاحفها.

٢ - كان المثقفون العرب في أواخر القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين لا يختلفون كثيراً عن موقف العامة من دهشة أو صدمـة ذلك أن ثقافة العصور الوسطى

العربية الإسلامية، لم يكن لها موقف إيجابي من بقايا وأطلال الماضي. وخاصة ما يتعلق بالفن التشكيلي، ولم يهتم العرب بعلم اللغات القديم رغم براعتهم الشعرية واللغوية العربية ورغم أنهم احتكوا ببقايا أسلافهم أي أقليات الشعوب القديمة التي كانت وما تزال تتكلم لغات عريقة كالسريانية والآشورية والقبطية..إلخ. وما تزال برأي مواقف ثقافة العصور الوسطى هي السائدة في أعماق مثقفينا.

٣- سارعت المؤسسات الجامعية والثقافية في معظم الوزارات في سورية منذ الاستقلال بإيفاد طلاب لدراسة التاريخ والحضارة واللغات القديمة منذ الاستقلال، إلا أن العدد الذي أوفد بين الخمسينيات حتى مطلع الثمانينيات كان قليلاً أولاً، ثم إن الطلاب اختاروا اختصاصات في التاريخ واللغات القديمة، لا علاقة لها بالكم الأكبر من النصوص المكتشفة خلال المئتي سنة الأخيرة أعني النصوص المسمارية. وتوزع المختصون العائدون ضمن هذه الفترة بالاختصاصات الآتية:

١- علم الآثار والتنقيب.

٢- اللغات اليونانية واللاتينية والآرامية والعبرية وقليلاً السريانية.

- أما الآثاريون فلم يكونوا ليتجاوزوا عدد أصابع اليد الواحدة، ولكن أحداً منهم لم يسجل اكتشافاً مهماً. كالذي فعله الأجانب، واقتصر عملهم على الإدارة والتعليم النظري، ومرافقة البعثات الأجنبية وإدارة اسمية مشتركة.

- أما اختصاص اللغات القديمة فلم يختر أحد من الموفدين السومرية أو الأكادية المكتوبة بالمسمارية، كلغة موضوع أطروحة دكتوراه وكان أول موفدين جامعة دمشق يختار الدراسات المسمارية موضوعاً له في عام ١٩٧٨.

وعاد عام ١٩٨٥ بعد أن قدم أول أطروحة عن نصوص ماري في جامعة السوربون- باريس وبدأ في العام الدراسي التالي بتعليم الكتابة المسمارية واللغة الأكادية بجامعة دمشق.

أما جامعة حلب فقد افتتحت شهادة عليا-دبلوم لمدة سنتين لتعليم الكتابة المسمارية واللغة الأكادية واعتمدت في البدء على أحد الأساتذة الأمريكيين

ثم بعد سنوات من الثمانينيات قام ذات الموفد من جامعة دمشق بتدريس المادة في جامعة حلب. وتتالت إيفادات الجامعات السورية وازداد عدد الموفدين الذين اختاروا موضوعات تاريخية ولغوية أكادية، ولكن لم يتجاوز العدد أصابع اليد الواحدة. ولا يوجد أي تنسيق أو عمل جماعي بينهم. كما لا تتوافر جميع المصادر أو أدوات العمل باختصاص الدراسات المسمارية.

أدوات البحث في الدراسات المسمارية:

لا شك بأن لكل اختصاص في الدراسات الإنسانية مصادره أو أدوات عمله التي تتلخص بالنسبة للدراسات المسمارية بالآتي:

١- لا بد من قاعة مكتبة تضم الدراسات المسمارية منذ اكتشاف ونشر الأبحاث في القرن الثامن عشر حتى اليوم. وهي موزعة بين دوريات عدة يمكن بسهولة الحصول عليها.

٢- ظهرت عدة معاجم وموسوعات لغوية وتاريخية وجغرافية تتعلق بالدراسات المسمارية واللغات القديمة الأخرى. فلا بد من تأمينها في تلك القاعة لأنها تشكل مفاتيح العمل في النصوص المسمارية.

وهناك لا بد من الإشارة إلى وجود المعهد الفرنسي للدراسات الأثرية وهو كما نلاحظ يختص بالآثار، دون الدراسات المسمارية، وكانت معظم مقتنياته في البدء تتعلق بالدراسات الكلاسيكية أي الإغريقية الرومانية ولكن وجود بعض الدوريات والمعاجم يجعل منه المركز الوحيد الأقرب إلى المسماريات ويجب الإشارة إلى وجود مكتبة ضخمة في متحف دمشق إلا أنها تفتقر إلى التنظيم، والحفظ الإلكتروني. كما أنها تحتاج إلى ترميم نواقصها من أدوات البحث الخاص بالدراسات المسمارية. وأن يشرف عليها أستاذ مختص يضع أسس تنظيمها كمركز للدراسات المسمارية والأثرية.

التأليف والكتابة في التاريخ القديم:

إن مراجعة سريعة للكتب المتوفرة باللغة العربية عن التاريخ القديم يمكن أن تفيدنا بما يلي:

١- لا يوجد أي مركز متخصص بالدراسات المسمارية، وبذلك لا وجود لناشر متخصص بهذا المجال.

٢- لا بد من ذكر حوليات المديرية العامة للآثار التي نشرت أبحاثاً أثرية وترجمات متنوعة بعضها يتعلق بالمسماريات.

٣- اقتصرت المنشورات المتخصصة في التاريخ والآثار بمعظمها على ترجمات أعمال الآثاريين واللغويين الأجانب الذين يمتلكون حق النشر كما أسلفنا أي حق الاستيطان الفكري.

٤- اقتصرت الكتب الجامعة على أعمال تأليفية مترجمة ومعربة وبعض الأبحاث المتخصصة التي لا تخرج عن النطاق السابق.

٥- أما المنشورات على نطاق القطاع الخاص، فقد اقتصرت على الترجمة دون التعريب وبما أن المترجمين لا يتقنون لغة الاختصاص جاءت الترجمات مشوهة أحياناً.

أما التأليف فقد ظهر ببعض الكتب التي لا تخرج عن نطاق الرواية الخاصة التاريخية. وهي لا تقدم نفعاً أدبياً ولا تاريخياً، لأن أصحابها ممتلئون بالجهل ويسبحون في نهر لا علاقة له بعلم التاريخ ولا بالأدب والرواية الرفيعة وكان لبعض هؤلاء المتطفلين الذين حذر منهم ابن خلدون قبل أربعمئة سنة، أثر كبير على النطاق الإعلامي في تشويه مفاهيم علم التاريخ وتشويه معارفه المكتسبة من المصادر المكتشفة حديثاً، مما أثر وما يزال يؤثر على الجمهور غير المسلح بأي معرفة تساعده على التمييز بين رواية خاصة ومفروضة، وبين إنتاج المؤسسات الرسمية الثقافية في سورية، التي تبقى رغم ضآلة وتواضع إنتاجها- المصدر الأكثر مصداقية لمعارف الجمهور عبر التاريخ والحضارة القديمين.

الخلاصة

يبدو أن محور فلسفة كتابة التاريخ يقوم على الشك والحوار والاستنتاج. وإن الكتابة في التاريخ في وقتنا الحاضر يجب أن تمارس من قبل مختصين ويجب أن تعتمد في البدء على التعريب لأدوات العمل الأساسية، كي يتمكن الباحث الناشئ من الوصول إلى المصادر الأساسية.

تكمن خطورة الكتابة والنشر في التاريخ القديم في أن الجمهور القارئ غير مسلح بأي معرفة سابقة. كما أن المنشورات السابقة على سنوات الثمانينيات لم تعد صالحة اليوم. وتحتاج إلى تصنيف، وتجديد بالمؤلفات والأدوات الحديثة.

إن فلسفة كتابة التاريخ القديم. لا

تختلف عما هي في بقية الميادين أي الوسطى والحديثة. إلا أن بعض الفروق في الأدوات والمنهج، وبعده الزماني والمكاني يجعلان منه معضلة، ومجالاً للإفساد والتشويه. وخاصة لجمهور القراء، ومشاهدي ومستمعي وسائط الإعلام الحديثة، إن علمنة ومنهجة التاريخ والحضارة القديمين ليست منفصلة عن بقية المجالات، ولذا لا بد من تقوية المؤسسات الرسمية الثقافية بالمتخصصين وتدارك النقص الكبير في مصادر مناهج كتابة التاريخ وفلسفاته وهي تشكو من غشاوة سميكة حتى في عقول بعض المختصين، فما بالكم بالمتطفلين.(٧)

وخلاصة الخلاصة(٨): ذلك المثل العامي البسيط أو التافه إذا سمعتم الذي يقول: البلاش لاش.. أي الـ: بلا شيء لا شيء.. والتاريخ الذي نكتبه بلا شيء.. ذلك أن لا قيمة مادية له، فإن كنت من ذوي الدخل المحدود فإنك وعملك التاريخي محدود بقيمته، وإن كان لك بعض عزٍ وكرامة، فأنت مسخر بالمجال، فالكل يدعوك لإلقاء المحاضرات والكتابة والترجمة، ويقولون لك انشر وأنشط وترجم، ويقولون لماذا يبقى التاريخ بين أيدي الأجانب.. والأجانب يقولون خذوا التاريخ من أيدينا.. وإن قلنا أن البعثات الأثرية المعاصرة، هي بعثات للاستيطان الفكري، ولاستكمال النقص في النهب الأثري السابق. فلا أحد يؤيدنا ويحزن علينا مواطننا ومسؤولينا وكذلك زملاؤنا العلماء الأوروبيون، وكأن ألمنا غير مقبول. وكأن المؤرخ والتاريخ قيمة بلا قيمة، وعمل بلا ثمن والمؤرخ والتاريخ دراويش على أرصفة المعابد القديمة وأبواب المتاحف الحديثة وهوامش تقارير البعثات الأثرية الأوروبية.

الهوامش

• هذا البحث هو جزء من مشاركة في ندوة حول «هل هناك اتجاهات جديدة في كتابة التاريخ العربي، التي عقدت في المعهد الفرنسي IFPO للدراسات العربية بدمشق في نيسان ٢٠١٠م.

١- حول شرعية ومعنى التاريخ وتجربة الإنسان:

Homs Blumenberg. La Légitimité des Temps modernes, Gallimard, 1999;

أما العمل الشهير لـ: لوفيت Karl Löwith بعنوان: Weltgeschichte and Heilsgeschen

فلم يترجم إلى الفرنسية إلا مؤخراً، وكان قد ترجم إلى الإنجليزية تحت عنوان:

Meaning in History. The Theological Implications of the Philosophig of History 1949.

علماً بأن تاريخ النسخة الألمانية منذ عام ١٩٥٣. وقد نشرت في المجلد الأول لـ: كارل لوفيت بعنوان:

Sämtliche Werke, Stuttgart, J. B Metzlersche Verlagsbuchhandlung, 1983

أما الترجمة الفرنسية فقد ظهرت بعنوان:

Histoir et salut, avec une presentation de Jeam – F. Kervégar.

أما ترجمات العربية فلم نسمع بها حتى يومنا.

٢- حول الزمن والتاريخ والمحيط:

H. Rickert, kulturwisserschaft and Naturwissenschaft, 1898!; N. Hartmann, Das Problem des geistigen, 1933; 1949. M. Heidegger, Sein und Zeit, 1927. J. Burckhahndt, Weltgeschichtliche Betrachtangen, 1808 S.

نهايــة القرن الثامن عشر، تمثل بدء التفكير الجدي بالتجربة الزمنية والتجريبية الطبيعية. وهو ما سبق ولاحظه ابن طفيل منذ القرن الثاني عشر الميلادي.. ويمكن الإشارة إلى قدرته على معارضة زمنه، وإمكانية خلق زمن جديد من خلال بطله «حي بن يقظان».

٣- إن فرضيــة أو مشكلة الزمن المعاصــر وكبواته وإمكانية تجديده، كما حاول ابن طفيل قد تجلت لدى فلاسفة التاريخ المعاصرين مثل:

R. Koselleck, «Historia magistra vitae» in: id, Vergangene zakunft, Framkfort – sur – le Main, 1979, PP. 38 - 66.

وفرضية قائمة على أن الأزمان المعاصرة وحدها قادرة على تجاوز فشل الأزمنة المعاصرة أو معاكسة الزمن المعاصر!.

٤- لا يفنى الإنسان والأشياء لأنه يحمل الفناء، بل لأنه محكوم به، والنهاية هي الكون بلا حياة أنظر حول ذلك:

Odo Marqurd, Des difficultés avec la Philosophie de l'histoire, Paris, 2002, P. 39.

حيــث يبين أن الحرية تتماشــى ونسبة التطور المعاصر. وهي ليست ضرورة في الماضي القديم، وأن هذا ما عبر عنه هيجل عندما احتج على فلسفة التاريخ الإبداعية.

وأن البراهــين العقلانية وحدها تشكل أساس الممارسة العمليــة لدى هيجل في Aufklaraung أي من أجل البعث والنهضة. ولهذا فإن «حق تقرير المصير» لم يكن ضرورياً أو مفهوماً إلا بعد قيام «الثورة الفرنسية».

٥- المؤرخ هو نبي مقلوب إلى الوراء وفق شليفل Sehlegel: إنه يعمل في «علم المستقبل» Futurologue، ووجهه العتيق متوجه نحو الأمام. أنظر Marqard ص ٨٥.

- لدينا بعض النصوص الدينية الحثية المتعارضة مع نظيرها المستمد من العراق وسورية. كما ينعكس هذا في الدراسات الأوروبية المعاصرة عن التاريخ القديم. مثال أسماء العلم ودلالاته.

٦- أخلاق وجمال، وأفكار حول فلسفة التاريخ قد طرحت منذ ١٧٧٠ في ألمانيا:

J.G. Herder, Über der Ursprung der Sprache; Ideen zur philosophie der Geschichte der Menschheit, 1784 sq.

- لا ننســى الإيرانيــين الذيــن يختلطون ويقتبسون من العراقيين ديانتهم وأنظمــة كتابتهم منذ جوتي وعيلام في الألف الثالث والثاني ق.م حتى عصر الفرس والساسانيين والعرب، ولكن لا تنقصهم النظرة الفوقية.

٧- إن مصير الإنسان وفق هيدرجر M. Heidegger محدد من خلال تاريخه وتحليل وجوده. في كتابه المذكور أعلاه Sein and Zeit. ومــكان الإنســان هو في قلب فلسفة التاريخ. وكما قال بعــده G.Lukács أن تكون ثورياً / جذريــاً هــي أن تمسك بالأشياء من جذورها! فجذر الإنسان هو تاريخه القديم، وهو الإنسان بعينه، كما تحدث عنه ماركس فيما بعد ومحاولته حول العلوم الوصفية Objectivation:

Geschichte und klassenbew usstsein, 1923. P. 94.

وأن الإنسان هو مقياس الأشياء وليس العكس. ونعلم أن هيدجر قد كتب عن كانت Kant ومشكلة الماوراء في:

M. Heidegger, Kant und das Problem det Mehaphysik, 1929, zed 1951, P. 193.

وتحليل الوجود والزمن بالنسبة لعلم الإنسان: Anthropologie

٨- مــن أجل مجموعة كتب حديثة عن التاريخ وكتابته ومنهجــه وفلسفته بالفرنسية ومترجمة عن غيرها يمكنني تقديم اللائحة الآتية:

1- Fernand BRAUDEL, Écrits sur L'Histoire, 1969.

ويحمل والجزء الثاني ذات العنوان لعام: ١٩٩٤، وكتابه الثالث بعنوان:

Les ambitions de l'histoire, Paris, 1997

2- Poul VEYNE, Comment on écrit l'histoire, Paris, 1978.

3- Odo MARQARD, Des difficultés avec la Philosophie de l'histoire, Paris 2002.

4- G. W. HEGEL, La Philosophie de l'histoire, Paris 2009.

5- Gérard NOIRIEL, Sur la «crise» de l'histoire. Paris, 1996.

6- Antoine PROST, Douze leçons Sur l'histoire, Paris, 1996.

7- Michel de CERTEAU, L'écriture de l'histoire, Paris, 1975.

8- François HARTOG, Evidence de l'histoire, Paris, 2005.



يوسف كرم التوماوي الأرسطي

د. عزت السيد أحمد ❁

يوسف كرم أحد أبرز مؤسّسي الدِّراسات الفلسفيَّة في الفكر العربي الحديث، ينعته بعضهم بالفيلسوف ويستحقُّ ذلك. ولكنَّهُ من غير جدلٍ أحد أبرز مؤرِّخي الفلسفة رُبَّما في العالم وليس في العالم العربي وحده، وإن كان قد أغفل المرحلة العربيَّة كلها من تاريخه. وعندما رثاه وصفه صديقه وتلميذه الدكتور مراد وهبة وصفاً مختصراً مكثَّفاً بقوله: «مات يوسف كرم بعد أن فتح أمام العقليَّة المصريَّة أبواب الفلسفة، وأمام العقليَّة الإلحاديَّة أبواب الإيمان، وأمام طلاب العلم قلبه الكبير».

❁❁ باحث وأستاذ جامعي سوري.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

ولــد يوسف كرم بمدينــة طنطا بمصر في الثَّامن من أيلــول عام ١٨٨٦م من أبوين مسيحيــين هاجــرا من لبنــان واستقرا في مصر.

في عام ١٨٩٣م بدأ دراسته الابتدائيَّة في مدرسة سان جورج بطنطا ثُمَّ الإعداديَّة في المدرسة ذاتها.

في عام ١٩٠٢م التحق بمدرسة القديس لويس بطنطا وأكمل دراسته الثانويَّة فيها.

ولأنَّــهُ من أسرةٍ فقــيرة فقد اضطر بعد حصولــه على الشهــادة الثَّانويَّــة أن يعمل لمساعــدة أسرته فعمــل موظَّفــاً في البنك الأهلي بطنطا ليساعد أسرته.

مع أوائــل الحرب العالميــة الأولى ترك الوظيفــة وسافر إلى باريــس وهناك درس الفلسفــة، وحصــل على دبلــوم الدراسات العليا في عام ١٩١٧م من جامعة السوربون. ثُمَّ التحق بالجامعة الكاثوليكيَّة ونال شهادة الدكتوراه.

في عــام ١٩١٩م عــاد إلى مصر وقضى فترة في عزلة تامــة، وقيل فور عودته دعاه طه حسين للتدريــس في الجامعة قائلاً له: إنَّ الجامعة بحاجة إلى أمثاله. ولكنَّهُ انتقل بعد فترة إلى جامعة الإسكندريَّة وظلَّ أستاذاً فيها حَتَّى التقاعد في عام ١٩٤٦م.

ذهــب بعضهم إلى تشبيــه حياة يوسف كرم بحياة الفيلسوف الألماني كانت فهو مثله لم يتــزوج، ومثله عاش حياة منتظمة، متخذاً مع أخته من بيته صومعته للبحث والتأليف، خاصَّــة بعدما داهمــه مرضــ أقعده عام ١٩٥٤م، وكانت نفسه أبيَّة ترفض الإشفاق، وعندمــا علم صــلاح البيطــار، الوزير في حكومة الوحدة، بحاله حــاول أن يساعده، ولكن المــوت كان أسرع إذ تــوفي في الثامن والعشرين مــن أيار عام ١٩٥٩م كانت وفاته عــن ٧٣ عاماً. وقد قال الأب جورج شحادة قنواتــي في وفاته: «انتقل يوســف كرم إلى رحمة الله في هدوء بمدينة طنطا بعد مرض طويل.. وقبل ذلك بعشــرة أيام كنا كالمعتاد قــد ذهبنا نــزوره في بيته الهــادئ. ولو أنَّهُ كان متعباً، ولكــن لم يكن بادياً عليه ما ينبئ بنهايةٍ سريعــةٍ على هذا النحو. كان يواصل على المهــل وصعوبــة مؤلفــه الخاص عن الأخلاق... ومستسلماً في تواضع إلى الإرادة الإلهيَّة، وقابلا مسبَّقاً بدافع عن حب عميق ما قدره الله له».

آثــــاره

تــوفي يوسف كرم في عــام ١٩٥٩م بعد معانــاة سنوات من المرض الــذي أقعده إلا عن الكتابة التي لم يتوقف عنها إلا مع توقف الحياة في عروقه، فترك لنا عدداً من الآثار

المهمة والمتميزة التي نثبتها حسب ترتيبها الهجائي.

- الأحكام التَّقويميَّة صدر عام ١٩٢٩م، وهو ترجمة محاضرات ألقاها الفيلسوف الفرنسي أندريه لالاند في جامعة الملك فؤاد الأول، الجامعة المصرية أو جامعة القاهرة الآن.

- الأخلاق. فقدت أصول هذا الكتاب بَيْنَ أنقاض منزله الذي تهدم. ولكن جزءاً من فلسفته الأخلاقية متضمن في كتابيه: الطبيعة وما بعد الطبيعة، والعقل والوجود، ثُمَّ في الأخرى.

- تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط صدر عام ١٩٤٦م، ويتناول الرواد من القرن الرابع إلى القرن التاسع الميلادي.

- تاريخ الفلسفة الحديثة صدر عام ١٩٤٩م تحدث فيه عن بعض الفلاسفة المحدثين الذين تأثروا بأفلاطون أو بابن رشد. وعرض لأمهات المذاهب الفلسفية الحديثة وفلاسفة القرن الثامن عشر في انجلترا وألمانيا، ثم فلاسفة النصف الأول من القرن التاسع عشر.

- تاريخ الفلسفة اليونانية صدر عام



١٩٣٦م وهي فلسفة الشرق الأدنى منذ فتوح الإسكندر، وفلسفة العرب منذ أن استولى الرومان على بلاد اليونان في منتصف القرن الثاني قبل الميلاد.

- ثلاثة دروس في ديكارت صدر عام ١٩٣٧م، وهي محاضرات ألقاها المفكر الفرنسي الكسندر كواريه في مصر.

- دروس في تاريخ الفلسفة صدر عام ١٩٤٦م بالاشتراك مع الدكتور إبراهيم مدكور.

- الطبيعة وما بعد الطبيعة؛ المادة،

الحيـاة، اللّه. وقد صدر هـذا الكتاب يوم وفاته الخميس ٢٨ أيار عام ١٩٥٩م.

- العقـل والوجود صدر عـام ١٩٥٦م، وهو أول كتاب له عن أفكاره هو لا عن أفكار الفلاسفة الذين اشتغل بهم من قبل.

- المعجـم الفلسفـي- بالاشـتراك مع الدكتور إبراهيم بيومي مدكور.

وقد نشرت المجلات العربية والفرنسية حينها عدداً من الأبحاث المهمة الأخرى مثل: مفهوم الفلسفة المسيحية، القلق الإنساني في الفكر اليوناني، مشكلة الشر، فكرة الفلسفة عنـد القديس تومـا الأكوينـي، المذهب التومـاوي، موقف الغزالي مـن الفلاسفة، ومنطق أرسطو، والمنطق الإسلامي، المدينة الفاضلة للفارابي، محاضرات لالاند، الآراء الفلسفية لإخوان الصفا وغيرها.

المؤرخ الفيلسوف

انشغل يوسف كـرم بالتأليف طيلة فترة وجوده في الجامعة أستاذاً، واستمرَّ في ذلك حَتَّى أدركه المرض، وقد انهار عليه بيته وكاد يقضي لـولا العناية الإلهيَّـة، ولكنَّ مكتبته ضاعت حَتَّى بعضـ مخطوطاته ومنها آخر كتاب وضعه وهو الأخلاق.

تنقسم مؤلَّفات كرم إلى قسمين أساسيين أولهما تأريخ الفلسفة وثانيهما فلسفته. وقد اتَّسم في كليهما بالدِّقَّة والأمانة مزيناً إياهما بأخلاقه الرفيعة التي توّجها بالتواضع.

في القسـم الأول نجد كتابـه الموسوعي تاريخ الفلسفة الذي انقسم إلى ثلاثة أجزاء هي تاريخ الفلسفة اليونانيَّة، وتاريخ الفلسفة الأوروبيَّة في العصر الوسيط، وتاريخ الفلسفة الحديثة. وعلى الرَّغْم من أنَّ يوسف كرم قد أغفل المرحلة العربية الإسلامية إغفالاً تامًّا إلا أننا لا نستطيع إلا القول إنَّ هذا الكتاب في تاريـخ الفلسفـة أحد أبـرز كتب تاريخ الفلسفة من جهة دقَّته وموضوعيَّته وقدرته على التكثيف والضبط وتقديم كلِّ فيلسوف تقديمـاً كافياً مـن خلال متابعتـه الجادة والمسؤولـة وإلمامه بما يحتـاج إليه بحثه في هذا الفيلسـوف أو ذاك. وإقـراراً بأهميَّة يوسف كرم مؤرخـاً للفلسفة وفيلسوفاً فقد أصدر المجلس الأعلى للثقافة في مصر كتاباً تذكاريًّا ضخماً عنه حمل عنوان يوسف كرم مفكراً عربيًّا ومؤرِّخاً للفلسفة.

أن يكـون مؤرِّخ الفلسفة فيلسوفاً مسألة فيها نظر، على الأقل في هذا الزَّمان العجيب الذي نحيا فيه، ولكن هذه المسألة مطروحة منذ زمن بعيـد، وكان شبه الإجماع على أنَّ مؤرخ الفلسفة فيلسـوف خاصَّة أنَّ النخبة هم الذين أرخـوا الفلسفة، وكانوا كلهم إلى مـا قبل عقود قليلـة من الفلاسفـة. بدءاً مـن فلاسفة اليونان الـذي أرخوا لبعضهم

بطرائق مختلفة مـروراً بمقاصد الفلاسفة للغـزالي وصولاً إلى إميل برهيه وبوخنسكي ويوسف كرم.

يوسف كرم آمن بهـذه الفكرة، فكرة أنَّ مؤرِّخ الفلسفـة فيلسوف. ولكن يوسف كرم يستحـق لقـب الفيلسوف بكتبـه الأخرى غـير كتب تاريخ الفلسفـة، أي إنَّهُ فيلسوف من الجهتين، ولا يعيبـه ألا يعترف به غيره فيلسوفـاً، ولا يقلـل مثل ذلك مـن شأنه. وبهـذا المعنى قال الدكتـور إبراهيم مدكور في كلمته في الكتـاب التذكاري التي حملت عنـوان يوسف كرم مـؤرخ الفلسفة: «لم يكن يوسف كرم مؤرِّخاً فحسب، بل كان فيلسوفاً قبل أن يضطلع بالتَّأريخ للفلسفة، وفي كتبه التَّاريخيَّـة درسٌ عميقٌ وفلسفةٌ دقيقةٌ، وقد عالـج في استقلال قضايـا فلسفية أخرى وهـذان البحثان يعالجان الأساس الحقيقي للفكر الفلسفي».

وهـو علـى أي حـال بمنأى عـن هذا الجحود على الأقل في عالمنا العربي فعثمان أمـين مثلاً كتب عنه دراسـة حملت عنوان يوسف كـرم الفيلسوف، ووصفه مراد وهبة بالفيلسـوف وكذلك فعـل صديقه إبراهيم مدكور وغيرهم كثير.

وإلى جانـب هـذا التَّاريـخ كان هناك الكتاب الـذي وضعه بالاشتراك مع الدكتور إبراهيم مدكور تحت عنوان: دروس في تاريخ الفلسفـة، ويكاد يكون هـذا الكتاب صدى لتاريخه الكبير. ويمكن أن يندرج تحت هذا البـاب الكتاب الذي وضعـه بالاشتراك مع مـراد وهبة وهو: المعجـم الفلسفي. وميزة هذا الكتـاب الأساسيَّة هي أنَّـهُ الأوَّل من نوعه في العـالم العربي. وقد استغرق إنجاز هذا الكتاب المهم في قيمته العلمية وأسبقيته التأسيسيَّة نحو أربعين عاماً، ولكن وإن كان الفضـل في فكرته يرجع إلى الدكتور يوسف كرم إلا أنَّ الأمانة تقتضي القول بأنَّ الجهد الأساس والأكبر هو للدكتور مراد وهبة.

أمَّـا القسم الثَّاني الذي يتضمَّن فلسفته فقد حـواه كتابان على الأقـلِّ هما: العقل والوجود، والطَّبيعة وما بعد الطبيعة؛ المادة، الحيـاة، الله. وحَتَّى كتابه تاريـخ الفلسفة بأجزائـه الثَّلاثـة لا يعدو كونـه صدى من أصداء فلسفته.

في فلسفته

وُصف يوسف كـرم منسوباً إلى فلسفته بأنَّهُ أرسطيٌّ، ووصفه فريقٌ آخر بأنَّه تومائي (نسبة إلى القدِّيس توما الأكويني)، ووصفه فريـق ثالث بأنَّهُ تومائي أرسطي. والحقيقة أنَّ الأوصـاف الثَّلاثة صحيحة لأنَّ الفلسفة التُّومائيَّـة غـير منفصلـةٍ في الأساس عن

الفلسفة الأرسطيَّة، ويوسف كرم جمع بينهما معاً كما فعل كثيرون غيره أيضاً.

رُبَّما تكون نقطة انطلاق مذهب يوسف كـرم الفلسفي هي إعلانه في كتاب الطبيعة ومـا بعـد الطبيعـة أنَّ «الإنسـان حيوان متدين»، وعلـى هذا الأساس بنى مذهبه الفلسفي الذي يقـوم على اليقين والإيمان، ومـن دونهما لا حياة لإنسان بما هو إنسان. ولذلك وصفه صديقه الدكتور محمد يوسف موسى بقوله: «يتطلَّع من صميم ذاته للعودة إلى الله خالقـه.. وكل الفلسفات التي تتنكر لهذا يراها مصابةً بالعقم الذي كان مصيرها على مرِّ الأجيال».

وبعـد توضيح ذلك ينطلـق في القسم الثاني من الكتاب إلى تقديم بعض البراهين على وجود الله وبطلان الإلحاديَّة.

تابع التأسيس لمذهبه الفلسفي في كتابه العقـل والوجود الذي تنـاول فيه مشكلات الشك واليقين والعقـل ووجود العقل ونقد العقـل والحـق والباطل وما بعـد الطبيعة والمقارنـة بـين المعنى والصُّـورة، وفي هذا السيـاق رفض يوسف كرم مـا ذهب إليه الحسيون من إنكار وجود المعاني والاقتصار على الحسيات، ثُمَّ عكف على مناقشة حجج الريبيين بدءاً من اليوناني وصولاً إلى عصرنا الحاضر بانياً مناقشته على أنَّ وجود الخطأ دليل على وجـود الحقيقة لا على انتفائها، وبذلـك لا يجوز عدُّ وجـود الخطأ مسوغاً للريبية.

من هذا البـاب، واستنـاداً إلى قناعته المتسمة بالإيمان واليقين، شنَّ هجومه على كثير من الفلسفات الحديثـة التي رأى أنها عقيمة كونهـا خالية من الإيمان، خالية من العقل، خالية من الروح، ولذلك وهذا ما عبر عنه عاطف العراقي بقوله عن يوسف كرم: «لقد حارب ظلام العدم بنور الوجود».

أمـا في مسألة البرهـان على وجود الله فقد ناقش كرم في كتابـه الطبيعة وما بعد الطبيعة ثلاثة براهين عامَّة وخمسة براهين خاصَّـة. وقد بدأ بعرض إجمالي للبراهين العامة قائلاً:

لقـد «جعلوا من البرهنة على وجود الله معضلـة كبرى، وهـي في الحقيقة من أيسر البرهنات، خلافـاً لما ظن باسكال وأضرابه، بل لعلَّهَا أيسرها، لدورانها على معانٍ غايةً في البساطة، كمعنى الفعل والقوَّة، وعلى مبادئ غايـةً في البيان، كتقدم الفعـل على القوَّة. فما إن نتأمَّل معنى الفعل حَتَّىٰ ندرك تقدُّمه علـى القوَّة. وما إن ننظـر في شواهد القوَّة حَتَّىٰ نـدرك بساطتها وبيانهـا وخضوعها لهذا المبـدأ خضوعاً مطلقاً لا يحتمل أدنى تردُّدٍ، بل يقودنا رأساً إلى اليقين النَّاصع».

ويتابع موضحاً بأنَّ هــذه الشَّواهد هي «التركيــب، والتغير، والحــدوث، والتناهي. أربعــة وجــوه: يتبين منهــا نقصــ العالم، واحتياجه إلى موجودٍ كاملٍ يفسِّره. وهذا هو الأصل في اشتغال العقل بالفحص عن وجود الله وماهيته».

ويتابع على الفور مبينا المقصود من هذه الوجوه الأربعة فيقول:

- المركب تابع لأجزائه لاحقٌ عليها، وليس التَّابع اللاحق مفسِّراً بنفسه، بل بأجزائه، وبالعلَّة المركبة.

- والمتغير لا يتغير بذاته من الوجه الذي هو فيه بالقوَّة، فليس للسَّاكن أن يتحرَّك إلاَّ بمحرِّكٍ حاصلٍ على قدرة التَّحريك بنفسه، أو متحــركٍ بآخر، حَتَّىَ نصــل إلى محرِّكٍ بنفسه.

- والحادث، أي الموجود بعد لا وجود، لا يوجد ذاته، وإلا كان سابقاً على ذاته، وهذا بيِّنُ البطلان في كلِّ ما لا يوجد بنفسه.

- والموجــود المتناهــي المحدود محصور في ماهيَّــة معيَّنة، وفي مكانٍ وزمانٍ معينين، وينقصه ما خلا ذلك مــن ماهيات وأمكنة وأزمنــة، فلا يكون مبدأً أوَّلاً مفسراً بنفسه. وغير صحيحٍ أنَّ فكــرة اللامتناهي الكامل سابقة في عقلنا على فكرة المتناهي الناقص. ولأجــل أن نعلم أن موجــوداً ما هو ناقص، فــلا حاجة إلى مقارنتــه بالكامل، بل تكفي مقارنته بموجود أقل نقصاً منه.

يخلص كرم بعد ذلك إلى نتيجة يقررها قائلاً: «هــذا إجمالٌ للبراهــين على وجود الله. قد يقنع به المتأملُ في معانيها ومبادئها برؤيةٍ بريئةٍ من تقليــد المنكرين وإغرابهم. ولكن المنكرين قد أسرفوا حقًّا في الاعتراض والتَّخريــج والإغراب، فلابــدَّ من استئناف النَّظر في تلك البراهين لزيادة جلائها، ودفع الشُّبهات عنها، ودحض الاعتراضات عليها، كي تخرج جليَّةً ناصعةً شارحةً للصُّدور. ولم نشأ أن نجمع كلَّ ما أسمي برهاناً أو دليلاً، فإنَّ منها الضَّعيف الحقيق بالإبطال، وأخص من الإبطال الإغفال، والنَّتيجة واحدةٌ».

ولذلــك لم يعرضــ لكثير مــن البراهين وإنَّمــا اقتصر على ثلاثة براهين عامة، «أي شاملة للموجود بما هو موجود أعني لجميع الموجودات»، وهذه البراهين هي: برهان من الحركة إلى محرِّكٍ ثابتٍ، وبرهان من النِّظام إلى منظِّم، وبرهان مــن الممكن الوجود إلى الواجب الوجود.

هــذه البراهــين كما يقــول يوسف كرم «عامَّــةٌ أي شاملــةٌ لــكلِّ موجــودٍ طبيعيٍّ. وهــي يقينيَّة لأوَّل وهلــةٍ إذا خلَّصنا اليقين مــن الشَّوائب التي غشوه بهــا. تستند على يقينيات كالمشاهدات التَّجريبيَّة ومبدأ العلَّة

الفاعليَّة، ومبدأ العلَّــة الغائيَّة، بحيث تبدو أنَّها وفطرة العقل شيءٌ واحدٌ».

البرهان الأول: الحركة والثبات

يسمِّــي يوسف كرم هذا البرهان برهان: من الحركة إلى محــرك ثابت، وفيه يرى أنَّ كلَّ موجــودٍ طبيعيٍّ فهو متحرِّكٌ إمَّا بالنقلة من مكانٍ إلى آخــر، أو من حالٍ إلى غيرها، أو من مقدارٍ إلى أكثر منه أو أقل. فالحركة ظاهرةٌ عامَّةٌ في الطَّبيعة.

ويتابع بــأنَّ مبدأ البرهان هــو أنَّهُ ليس يمكــن أن يكون شيءٌ بعينه محــرِّكاً لنفسه، وإلا لــزم وجــوده قبل نفســه، وهذا محال، حَتَّىَ الكائن الحي الــذي نقول إنَّهُ متحرِّكٌ من ذاته. فإنَّهُ منتظم من قوى، ومن أعضاء يحرك أحدهــا الآخر. فكلُّ متحرِّك هو في الحقيقة متحرِّكٌ من غيره.

وهذا ما يحتاج إلى تبيان كما يرى يوسف كــرم، فلكلِّ متحــرِّكٍ محرِّكٌ سابــقٌ عليه. ولذلــك يتابع قائلاً: لا يجــوز التَّداعي إلى غير نهايةٍ في سلسلــة العلل المحرِّكة، ولا بدَّ من الانتهاء إلى محرِّكٍ أول غير متحركٍ.

الحركة هنا ليست الحركة الماديَّة الآليَّة بالمعنى الشائــع أو المعروف كمــا يرى كرم والفلاسفة، وإنَّمَا هي كلُّ تغيُّر أو خروج من القــوَّة إلى الفعل، كخــروج الإرادة التي هي قوَّة روحيَّة. فنصــل إلى محرِّك كليٍّ يحرِّك كلَّ موجودٍ مباشــرةً لا بالوساطة، فإنَّ العلَّة الأولى تفعل في كلِّ فاعلٍ لأنَّها علَّةُ كلِّ وجودٍ، والفعل وجودٌ، لكن بحيث يكون لكلِّ موجودٍ أيضاً فعل خاصٌّ.

هنا جاء مــن يعترض على هذا البرهان أو ينقضه بأنَّ ذلك يعني الوصول إلى نقطة بدأت فيها علية العلَّة الأولى أو اللّه، ولذلك يــرد يوسف كرم قائلاً: ليســ المقصود هنا الرُّجــوع إلى لحظةٍ أولى بــدأت فيها عليَّة اللّه، كمــا يتوهَّــم كثيرون، بــل الصُّعود في الآن الحاضــر وفي كلِّ آنٍ إلى علَّــةٍ أولى، بغضِّ النَّظــر عن قدم العالم وحدوثه. وهذا يعنــي أنَّ البرهان يعتمد بالــذَّات على علل مقتضاه بالذات للمعلول ومرتبة فيما بينها، فهــي متناهية العــدد حتمــاً وإلا لم يوجد هــذا المعلول. والفارق بَيْنَ هــذا التَّرتيب أو التَّسلسل بالــذَّات وبَيْنَ التَّسلسل الزَّماني أو بالعرض أنَّهُ ليســ يستحيل أن يتولَّد إنسان من إنسان إلى غير نهايــة إذا افترضنا قدم العالم، وهذا تسلســل بالعرض، بينما يمتنع التَّسلسل إن كان توليــد إنسان متوقفاً على إنســان، وعلــى العناصر الطبيعيــة، وعلى الشَّمس. وهكذا إلى ما لا يتناهى.

ويختم كــرم البرهان بقولــه: إنَّ امتناع التسلسل في العلــل يعني عدم الوصول أبداً إلى علَّــةٍ أولى، أو عــدم وصــول العلية إلى

المعلــول، فيظــلُّ المعلول الــذي نطلب علته معلقاً بلا علَّــة، ويبطل مبــدأ العليَّة، وهو بديهــيٌّ لا يمكــن إبطاله. وليس معناه أنَّ لــكلِّ موجودٍ علَّةً، كما ظنَّ كانت، بل إنَّ لكلِّ معلــولٍ علَّةً، أي لكلِّ ما يظهر للوجود ويدلُّ بهذا الظهور على افتقــاره، وإلا لأدَّى مبدأ العليَّة إلى إنــكار العليَّة، كمــا تقدَّم، وهذا خلف. وتتضــح ضرورة الوقــوف عند علَّةٍ أولى إذا عكسنــا السَّــير وحاولنا التأدِّي من العلَّة إلى المعلول، فإنَّنا نرى حينئذ استحالة هــذه المحاولة أيضاً، من حيث إنَّنا افترضنا مسافةً غير متناهيــةٍ بَيْنَ الحدين، والمعلول مع ذلك ماثلٌ أمامنا. فهل هناك برهان أبين من هذا؟

البرهان الثاني: النظام والمنظم

يسمــي يوسف كرم هذا البرهان برهان: من النظام إلى المنظم، ويرى أنَّ هذا البرهان يمضــي من النِّظام البــادي في الأشياء وفي علاقاتهــا بعضهــا ببعض، حَتَّــىَ العاطلة عن المعرفــة، فإنَّها جميعــاً توجد في هيئةٍ مخصوصــةٍ متناسقــةٍ، وتفعــل دائماً أو في الأكــثر على سياق مطرد، إذا لم يعقها عائق، كما يَبِيْنُ من تجربتنا اليوميَّة ومن القوانين العلميَّة، فتصون وجودها وتصون النِّظام في العــالم، مما يقطع بأنَّهــا لا تبلغ إلى غاياتها مصادفةً، بل قصــداً، والمصادفة لا تجري على نظام، ولا ترمي إلى نظام.

يتابــعً يوســف كــرم بأنَّــهُ إذا افترضنا المستحيــل وسلمنا جدلاً أنَّهــا قد تؤدِّي إلى النِّظــام مرَّةً، فليس يعقل أن تكون هي سبب تحقيــق النِّظام في جميــع الكائنات، وسبب استمــراره واطرادهــن ومبــدأ البرهان أنَّ الكائن الخالي عن المعرفة، لا يتَّجه إلى غاية ما لم يوجه إليها من عــارف، وأنَّ المتباينات لا تتَّسق بعضها مع بعض ما لم يطبعها طابعٌ على الاتِّساق.

ويخلص من ذلك إلى أنَّهُ لابدَّ من موجودٍ عارفٍ صنع الكائنات، ورتَّب لكلٍّ منها هذين النَّوعين من النِّظام؛ واحدٌ له في ذاته، وآخر له مع غيره. ولكنَّهُ يتابــع بأنَّه ثَمَّةَ ما تجب ملاحظته هنا وهي أنَّ هذا البرهان، في حد ذاته، لا يقتضي إثبات نظامٍ شاملٍ في العالم أجمع، بل حَتَّىَ لــو أربت جملة الاضطراب علــى جملة النِّظام، وهــذا محالٌ، يبقى من المتعــين الفحصــ على علَّة النِّظــام حيثما وجد. والعلامة المميَّزة للمصادفة، والمفرِّقة بَيْنَها وبَيْنَ الغائيَّة، هي عدم الاطراد وعدم النِّظــام، بينما النِّظام السَّائد في العالم ثابتٌ كلَّ الثَّبــات، مطردٌ بلا تخلــف على تعقده، تحكمه قوانين نتوقع معلولاتها توقُّعاً يقينيًّا: فكيف يدَّعــى أنَّ مثل هــذا النِّظام المطرد

نـــاتجُ مصادفةٍ، أي من عـــدم النِّظام وعدم الاطراد؟

هذا الكلام هو ما يدعيه منكرو الغائيَّة مثلما يبين يوسف كرم، وهم يؤيدون دعواهم بقولهم: «إنَّ جميـــع الذَّرَّات المركبة للأشياء قـــد تحققت تركيباتها مرَّةً أو أخرى ضرورةً في غضون أزمنةٍ متطاولة».

ويردُّ كرم على ذلك بأنَّ «من الممكن جداً بل من الرَّاجح جدًّا أن تكون أبسط المركبات هـــي التي تحقَّقت، وهي التـــي تعود إلى ما لا نهايـــة لقلَّة ذرَّاتها وسهولة اجتماعها، ولا تكون عادت المركبات المعقدة».

ويتابـــع الفيلســـوف متسائـــلاً، وموجِّهاً السُّؤال إلى منكـــري الغائيَّة تحديداً: «ماذا تفيـــد المركبـــات المعقدة لو عـــادت ملايين المـــرات؟ كيـــف نسلِّم بـــأنَّ الحيـــاة والفكر ينتجان عـــن اجتمـــاع ذرَّاتٍ ماديَّة، أي عن قوى عمياء؟ إحـــدى اثنتين: إما أنَّ موجوداً عاقـــلاً صنع العالم المادِّيَّ، أو أنَّ العالم الماديَّ صَنَعَ العقل والعاقل، ولا وسط بَيْنَ الطَّرفين، ولا ريب في أنَّ الطَّـــرف الأوَّل أكثر رجحاناً وأيسر قبولاً».

مناقشة الاعتراضات على البرهان

هذا البرهان، شأنه شأن البرهان الأول، قديم وقد قال به كثير من الفلاسفة، وكما قال به كثير من الفلاسفة فقد اعترض عليه أيضاً كثير من الفلاسفـــة، ورد على الاعتراضات كثير من الفلاسفة منهـــم يوسف كرم الذي ناقش بعض أبـــرز هذه الاعتراضات. ويبدأ المناقشـــة بأنَّ هذا البرهـــان على درجة من القـــوَّة والحظوة على مرِّ العصور، ولكنه مع ذلك لقي بعض الاعتراضات.

الاعتراض الأول: الاعتراضـــ الأول هو أهمُّ اعتراض كما يرى يوسف كرم، وهو القـــول بأنَّ العالم متناه، ولأنـــه متناه فإنَّهُ لا يقتضي سوى منظِّم متناه، وأنَّ الانتقال من المنظم المتناهـــي إلى منظِّمٍ غير متناهٍ، غلطٌ منطقيٌّ هـــو أشبه شيءٍ بغلط دليل القديس أنسلم إذ ينتقل من الموجود الكامل المتصوَّر في الذِّهن إلى موجودٍ كاملٍ في الحقيقة.

ويرد على هـــذا الاعتراضـــ بقوله: إنَّ هذا القـــول كان يصـــحُّ لو أنَّ نظـــام العالم ترتيب أشيـــاء جاهزةٍ واستخـــدام علاقاتٍ خارجيَّـــةٍ على ما يصنع صانـــع السَّاعة، أو أي آلـــةٍ من آلاتنا. حينئذ كان يمكن أن يقال إنَّ هذا البرهـــان يؤدِّي إلى مهندسٍ متناهي الـــذَّات ليس غير، ولكن نظام العالم ناتجٌ من تجهيز الأشيـــاء أنفسها بإيجادها على نحوٍ معيَّنٍ متجمد الأجـــزاء ثابت التركيب باقي الخصائـــص، فهو صنع صانع الأشياء، مادَّةً وصـــورةً. ثُمَّ إنَّ هذا الصَّانـــع: إمَّا أن يكون وجـــوده بذاته، فلا يعـــود للاعتراض وجهٌ،

إذ يكون هو الإله اللامتناهي الذي نفحص عن وجوده. وإمَّا ألا يكون بذاته، فيصبح هو موضوع سؤالٍ ومطلوب برهانٍ، حَتَّى نصل إلى العلَّة الأُولى اللامتناهية. وأخيراً فلا جدوى من هذا الاعتراض لأنَّنا نصل على كلِّ حالٍ إلى علَّة أرفع منا، وإذا سلمنا بها، أي بمهندس للكون، فما الذي يمنع من التَّسليم بإلهٍ خالقٍ غير متناهٍ؟

الاعتراض الثاني: هو اعتراض هنري برجسون الذي ذهب مذهباً في الهجوم لم يَخْطِرْ لأحد من قبل، فقال: «إنَّ النِّظام على نوعين، أحدهما آلي، والآخر إرادي، والنِّظام ضروريٌّ دائماً على إحدى هاتين الصورتين، وما يسمَّى عدم نظام تعبير منَّا عن حالة لم نكن نتوقعها أو لا نريدها، كما إذا قلنا عن غرفة إنَّها غير منظَّمةٍ، فمعنى هذا أنَّنا كنَّا نتوقَّع أن نرى فيها نظاماً إراديًّا، وإذا بنا أمام نظام آلي. ومن هنا نرى أنَّ فكرة عدم النِّظام فكرةٌ زائفةٌ، وأنَّ من العبث التَّساؤل عن سبب النِّظام فهذه مسألة يجب محوها.

ويرد يوسف كرم على برجسون بقوله: إنَّ التَّسليم بهذين النظامين لا يمنع من تصوُّر عدمهما جميعاً، فمن الضَّروري التَّساؤل عن سبب النِّظام متى وجد، لأنَّ كلَّ نظامٍ فهو معلولٌ، وليست الآليَّة مصدر نظام، وعلى ذلك فليس يوجدُ نظامٌ آليٌّ إلا بافتراض منظِّم للعلل الفاعليَّة، فيرجع النِّظام الآليُّ إلى الإرادي. هذا من جهة، ومن جهة أخرى أنَّ انتظام الموجودات كلّ في ذاته وكلِّها فيما بينها، يوجدان في الوقت نفسه، فإنَّ النِّظام العام يعني أنَّ الموجودات مختارة لهذا الغرض من بَيْنَ الممكنات. وأخيراً أنَّ النِّظام نسبة الوسائل إلى الغاية، والنِّسبة أثر من آثار العقل، وعدم النِّظام أثر عدم العقل، والعلل الفاعليَّة لا تشرع في العمل إلا إذا كانت موجهة إلى غاية، لذا كانت الغاية علَّة العلل. فمتى وجد النِّظام وجدت له علَّة، وهي علَّةٌ عاقلة أو مرتبة من عاقل.

الاعتراض الثالث: يفترض يوسف كرم اعتراضاً ثالثاً فيقول: من الطَّبيعي أن يَخْطِرَ اعتراضٌ آخر، فيقال: كيف يمكن أن تؤثِّر الغاية غير الموجودة بعد، وأن يؤثر المستقبل في الحاضر، ما ليس موجوداً فيما هو موجود؟

ويجيب على هذا الاعتراض بقوله: إنَّ الغاية علَّة حقة بما هي متصوَّرةٌ ومرادة، فيسبق لها وجودٌ في فكر الفاعل، وأمَّا بما هي مرتسمة في طبيعة الفاعل، دافعة به إلى العمل، كما نشاهده في تطوُّر الجنين، إذ تنبت أعضاء مخصَّصة في تتالٍ مخصَّصٍ، من دون أن يكون لها شأن بحاضره، وإنَّما هي تهيئةٌ لمستقبله. وجميع الطَّبائع الجماديَّة

والنَّباتيَّة والحيوانيَّة فاعلة على هذا النَّسق، موجهة إلى بقاء الموجود وخيره بكليته. وليس يمكن أن ينتج مثل هذا الانسجام آلي، ولكن ينتج من سبق تدبيرٍ طبيعيٍّ. وقد نخطئ إذا ظننا أنَّ غاية الخراف توفير حاجتنا من الصُّوف، وغاية البنجر توفير حاجتنا من السُّكر، والغاية من صياح الدِّيك منعنا من الاسترسال في النَّوم، وأنَّ الشَّمَّام رسمت فيه الطَّبيعة قطعاً كي يؤكل في الأسرة... هذه غاياتٌ ظاهرةٌ تجيز لخصوم الغائيَّة أن يتندروا بها وبأمثالها. ولكنَّا لا نخطئ إذا توخينا الغايات الباطنيَّة، واعتقدنا أنَّ الغاية من صوفِ الخراف إمدادها بالحرارة اللازمة لحياتها، وأنَّ الطَّبيعة وفرت وسائل أخرى للمحرومين من الصُّوف.

ويتابع يوسف كرم مناقشته لهذا الاعتراض قائلاً: «وعلى أيِّ حالٍ فليس احتجاج خصوم الغاية بحاسم، فقد تكون الغاية هدفاً يقصد إليه، كما ندّعي نحن، وفي الوقت نفسه نهاية أفعال طلية من دون قصد كما يقولون. أجل إنَّ الطَّير يطير لأنَّ له جناحين، وإنَّ السَّاعة تسجل الوقت لأنَّ أجزاءها متناسقةٌ، ولكنَّ أجزاء الطَّير وأجزاء السَّاعة اتَّسقت للطيران ولتسجيل الوقت، لا لشيء آخر، ولولا هذا الاتِّساق لتعطَّل الطَّير وتعطَّلت السَّاعة حتماً. فإنكار وجود صانع صنع السَّاعة عن قصدٍ وعقلٍ غلط ليس له أدنى مسوِّغٍ. كذلك الطَّيران هو العلَّة الغائيَّة للجناحين، وهو الملحوظ في تركيب الطَّير هذا التَّركيب المعيَّن. وإنَّما يبدو القصد والعقل من النِّسب المتنافسة والوسائل الكفيلة بإنتاج نتائج جميلة نافعة. والعالم مصنوع تسطع فيه أعجب الأنظمة وأدق الوسائل للغايات المنشودة. فهو إذاً صنع علَّةٍ عاقلةٍ. ثُمَّ إنَّ للإنسان عقلاً، وليس هو صانع نفسه، فكيف لا يكون صانعه عاقلاً؟

ويختم مناقشته هذا الاعتراض بمناقشة ابن رشد له بعد أن يمهِّد بقوله: «قد كان خليقاً بالمتندرين أن يحذوا حذو أصحاب الغائيَّة، ويمتحنوا شواهدها التي لا تحصى كي يروا إن كانت متَّفقةً مع المنهج العلميِّ». وذلك ما فعله ابن رشد في صفحةٍ نريد أن نثبتها هنا مثالاً للاستدلال السَّليم، قال: «إنَّ الشَّمس لو كانت أعظم جرماً وأقرب مكاناً لهلكت أنواع النَّبات والحيوان من شدَّة الحرِّ. وكذلك لو كانت أصغر أو أبعد لهلكت من شدَّةِ البرد. وتظهر العناية في أنَّهُ لولا فلكها المايل لما كان هنا صيف ولا شتاء ولا ربيع ولا خريف. وهذه الأزمان ضروريَّة في وجود أنواع النَّبات والحيوان. ولولا الحركة اليوميَّة لم يكن ليلٌ ولا نهارٌ، وكانت تكون نصف السَّنة نهاراً، والنِّصف الأخير ليلاً،

وكانــت الأشياء تهلك من الحــرِّ في النَّهار، ومــن البرد في الليل. وأمَّــا القمر فأثره بَيِّنٌ في تكــوُّن الأمطــار، وإنضــاج الفواكه، ولو كان أعظــم أو أصغر أو أبعد أو أقرب، أو لم يكــن نوره مستفاداً من الشَّمس، لما كان هذا الفعــل، وأيضاً لو لم يكن لــه فلك مايل، لما كان يفعل أفعــالاً مختلفة في أزمان مختلفة، ولذلك تسخن به الليالي في زمن البرد، وتبرد في زمــن الحر: أمَّــا سخونتها في زمن البرد فــلأنَّ وضعه منا يكون كوضــع الشَّمس في زمن الحرِّ، بأن يكون أقرب إلى سمت رؤوسنا إذ كان فلكــه أكثر ميلاً. وأما في زمان الحر فيكون الأمر بالعكس إذ كان أبداً، إنَّما يظهر في الجهة المقابلة للشمس.. وليس ينبغي أن يتوهم أن ذلك لغير العناية بما هاهنا. وعلى مثال ما قلنا في الشمســ والقمر ينبغي أن يعتقد الأمر في سائر الكواكب».

البرهان الثالث: الممكن والواجب

يسمــي يوسف كرم هذا البرهان برهان: مــن الممكن الوجــود إلى الواجــب الوجود، ويعرضه بقوله: إنَّ الكائنات المختلفة تتكوَّن وتفســد، تظهر وتــزول، فهي قبــل التكوُّن والظُّهور ممكنةٌ، قــد توجد، وقد لا توجد، وليست معيَّنة بذاتها وطبيعتها لأحد هذين الطَّرفين، فلا توجد إلا لأمرٍ مرجَّح، بعكس الممتنع لذاته وطبيعته، فإنَّهُ لا يوجد أصلاً، كالدَّائــرة المربَّعــة، وبعكــس الواجب لذاته وطبيعتــه، فإنَّهُ موجودٌ ضــرورةً، كاللّه، فلو لم يكــن هناك موجودٌ واجــبٌ، وكانت جميع الكائنــات ممكنةٌ وقتــاً ما، لمــا كان يوجد شيءٌ الآن، ولن يوجد شيءٌ أبداً. والممكنات الموجودة كثــيرةٌ جــدًّا، وإذن يوجد موجودٌ واجبٌ.

ويتابــع كرم بأنَّ هذا الموجود ليس يمكن أن يكون مجمــوع الكائنات، فإنَّهــا متغيِّرةٌ، والمجمــوع متغيِّرٌ مثلها: إنَّهُ مــزاجٌ من فعلٍ وقوَّةٍ، ومن ثَمَّةَ غير موجــودٍ بذاته، والتَّغيُّر في عمومه يقتضي علَّــةً منَزَّهَةً عن التَّغيُّر، كما بيَّنا في برهان الحركة. ومحالٌ التَّداعي إلى غير نهايةٍ في سلسلة الممكنات، كما أثبتنا آنفــاً. وحَتَّىَ لو كانت هــذه السِّلسلة أزليَّةً، فإنَّهَا عاجزةٌ عن توفــير علَّةٍ كافيةٍ للوجود موجودةٍ بذاتها. وإذن يوجد موجودٌ ضروريٌّ لذات ماهيَّته.

ويتابع معارضاً الغزالي في قوله في هذا البرهــان في مسألة القــدم والحدوث: «ولا نقولــن مع الغزالي إنَّ مــن التَّناقض إثبات صانــعٍ للعالم مع الاعتقاد بقــدم العالم، كما فعــل الفلاسفة إذ ليس الصُّنع متعلِّقاً بسبق العدم، وإنَّمــا هو لازمٌ لإيجاد الممكن في أيِّ

زمانٍ كان، ثُمَّ إنَّ حفظ الله للمخلوقات يقتضي أنَّ المخلوق مفتقر إلى الله في كلِّ آن».

ويعرج من ناحية أخرى على مناقشة كانت لهذا البرهان فيقول: «ويدَّعي كانت أنَّ هذا البرهان مركَّبٌ على غرار دليل القديس أنسلم المدعو بالدَّليل الأنطولوجي الذي يستنتج من فكرة الموجود الضَّروري فكرة وجود موجودٍ كليِّ الكمال، وهذه نتيجة إذا عكسناها عادت «الموجود الكلي الكمال موجود ضروري، أي يوجد ضرورة»، ولكن برهاننا يمضي من الوجود الواقعيِّ لموجوداتٍ ممكنةٍ لاستنتاج وجود واقعيٍّ تقتضيه.

البراهين الخمسة

بعد أن يعرض البراهين الثَّلاثة عرضاً محكماً وافياً ينتقل إلى البراهين الخمسة الخاصَّة، وهي خاصَّةٌ لأنَّها كما يقول «مأخوذةٌ من موجودات معيَّنةٍ أو وجهات معيَّنةٍ للموجودات، لا تقلُّ عن تلك إحكاماً وضرورة ويقيناً». وهذه البراهين باختصار هي:

الأول: موضوعه تضاؤل الطاقة في الطبيعة: فقد كان المعتقد أنَّ الطَّاقة ثابتةٌ للمادَّة، لا تخلق ولا تندثر، وأنَّ المادَّة تخلق ولا تندثر، ثُمَّ تبيَّن أنَّ الطَّاقة تنتظم من قسمين: قسم عامل يتحوَّل إلى كيفيَّة من الكيفيَّات الطَّبيعيَّة كالحرارة مثلاً، أو كالحركة. وقسم ساكن عديم الأثر كأنه معدوم، وأنَّ القسم العامل تتضاءل كميته باستمرار، فدلَّ ذلك على أمور مهمَّة للغاية. أمرٌ أوَّل أنَّ الطَّاقة وخاصَّةً الطَّاقة العاملة، ليست للمادَّة بماهيتها، كما اعتقد كثيرون في مقدِّمتهم المادِّيُّون، فهي إذاً آتيةٌ من علَّةٍ مغايرةٍ لها، وأنَّ لوجود المادَّة نفسها علة. أمرٌ ثانٍ أنَّ العالم ليس أزليًّا، لأنَّ تضاؤل الطَّاقة العاملة يعني أنَّها متناهية ذاهبة إلى النَّفاد، فلو كانت الطَّاقة أزليَّة لنفدت حتماً. أمرٌ ثالثٌ أنَّ العالم ليس أبديًّا ما دامت الطَّاقة متروكة لشأنها، وهي زائلةٌ، فإذا بقي العالم كان بقاؤه بفضل علَّة متمايزة منه.

الثاني: برهانٌ مأخوذٌ من علم الحياة. مؤدَّاه أنَّهُ يمتنع تفسير الحياة بالعناصر المادِّيَّة وحدها، فلابدَّ من خالقٍ لها، على ما هو مبيَّن في مبحث الحياة النَّامية.

الثالث: برهان مستمد من غرائز الحيوان، وهي جزء من كيانه لا يتجزأ، وهي وكيانه أعجب ما يكون من بَيْنَ الغائبات تنوعاً ودقَّةً.

الرابع: برهان أو براهين لا تحصى مستمدَّةٌ من وجهات تبدو فيها استحالة

تعليل أي شيءٍ كان من دون الله. وهي براهين خُلف تعدل البراهين المستقيمة قوةً ودلالةً.

الخامس: برهان متَّخذٌ من النَّفس الإنسانيَّة وما تشعر به من اشتهاء السَّعادة اشتهاءً ضروريًّا، وتجربتها أنَّ الخيرات الجزئيَّة لا توفِّر لها إلا سعادات جزئيَّة زائلة قد يكون جُلُّها زائفاً خادعاً، وعلمها بأنَّ السَّعادة لا تتحقَّق إلا بالخير بالذَّات البريء من كلِّ شائبةٍ، وإن من المستحيل ذهاب النُّزوع الطَّبيعي عبثاً، إذ إنَّهُ يكون حينئذٍ من دون غاية ومن دون علَّة. وما كان هكذا فهو متناقضٌ معدومٌ، فإنَّ للنُّزوع الطَّبيعي نسبة إلى غاية وميلاً إليها، فتحكم النَّفس بوجود موجدٍ وهو الخير بالذَّات الذي يرضي ذلك الميل تمام الرِّضى. وما لمبدأ الغائيَّة من قيمةٍ مطلقةٍ يعطي هذا البرهان قيمة مطلقة. وإذا اعتبر كلُّ إنسان هذا الميل الأساسي والتزم به، اتَّجه إلى الفضيلة وانحلَّت المشكلة الخلقيَّة، إن توقان النَّفس إلى الخير والكمال، ولو مرَّةً واحدةً، لهو الدَّليل الأقوى على وجود الله.

خاتمة

الحقيقة أنَّ فلسفة يوسف كرم وقيمته لا تتوقف عند هذا العرض لجانب من جوانب مذهبه الفلسفي أو رؤيته الفلسفية وإنَّما تتجاوزها إلى أبعد من ذلك وأوسع مساحةً وميداناً، فهو يستحق أكثر من وقفة في أكثر من موضوع وميدان، فنحن آثرنا عرض وجه من أوجه يوسف كرم إلى جانب التَّعريف به واحداً من أبرز أعلام الفلسفة العربيَّة في القرن العشرين، كانت له الجهود الجليلة في إحياء الفلسفة في العالم العربي من خلال جهوده وآثاره التي تَمَّت الإشارة إليها إشارة سريعة تستحق كلها مزيداً من البحث والعناية نأمل أن يوجد من يتابعها.

الدراسات والبحوث



الدَّخــوار والمدرسة الدَّخــوارية

د. محمد ياسر زكور *

إن طلبــة الطــب في العصور القديمة كانــوا يتلقون علومهــم على أيدِ أساتذتهــم في البيمارستانــات، إذ كانت تهيأ لهــم الإيوانات الخاصة المعدة والمجهــزة بالآلات والكتب أحسن تجهيز، فيقعدون بين يدي معلمهم، بعد أن يتفقدوا المرضى وينتهوا من علاجهم.

وإن بعضــاً من مشايخ الطب وكبار رؤسائهــم كان يجعل له مجلساً عاماً لتدريــس صناعة الطــب للمشتغلين عليه، في منزلــه أو في مدارس خاصة،

** طبيب وباحث في تاريخ العلوم.

تسمى مجالس التعليم الطبي. فمثلاً الرازي كان يجلس في مجلسه ودونه التلاميذ ودونهم تلاميذهم، ودونهم تلاميذ أُخر، وكان يجيء الرجل فيصف ما يجد لأول من يلقاه، فإن أصابوا أصابوا، وإلا تكلم الرازي في ذلك.

ومن هذه المدارس كانت جامعة القرويين بالمغرب، والمدرسة المستنصرية ببغداد، والمدرسة الدخوارية، والمدرسة الدنيسرية، والمدرسة اللبودية النجمية بدمشق.



أحد مجالس التعليم الطبي

دور العلم والمدارس الطبية هذه كانت لتدريس الأمور النظرية؛ لأن الطب من العلوم التجريبية، لذلك كان لابد من الدراسة العملية، وهذه المدارس الطبية كانت رديفة للتطبيقات العملية في البيمارستانات حيث تتوافر فيها الحالات المرضية وطرق العلاج، فهي أشبه ما تكون الآن بكليات الطب والصيدلة، تقدم فيها الدروس النظرية، مدعومة بالتطبيقات العملية على المرضى الموجودين في البيمارستانات، وغير موجودين في المدارس الطبية، ومن البيمارستانات كانت تمنح إجازات الطب.

ونورد فيما يلي بعضاً مما جاء في إحدى إجازات الطب التي منحت في القرن الحادي عشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، ذكرها أحمد عيسى في كتابه تاريخ البيمارستانات، صادرة من رئيس الجراحين بدار الشفاء المنصوري (قلاوون):

«صورة ما كتبه الفقير على ذلك: بسم الله الرحمن الرحيم، من ممد الكون أستمد العون، الحمد لله الذي جعل لهذه الأمة بالطب المحمدي شفا،...... وبعد، فقد وقفت على هذه الرسالة العظيمة، والمقالة الكريمة، الموسومة «ببرء الآلام في صناعة الفصد والحجام» نظم لوذعي زمانه، وألمعي عصره وأوانه؛ الشمس شمس الدين محمد القيم شهرة، الجراح صنعة ومهرة، التي أصلها للشيخ الفاضل حاوي الفضائل الشيخ شمس الدين محمد الشربيني الجراح، ما زالت شآبيب الرحمة والرضوان على قبره غادية رائحة، وشذى العبهري والريحان من مرقده فائحة، الموسومة «بغاية المقاصد

فيما يجب على المفصود والفاصد»، إذ هي في هــذا الفن أسمى المقاصــد. وقد قرأها عليه قــراءة إتقان وإمعــان، وحل لمشكلات الألفــاظ والمعان، فلم يرَ بداً من أن يبسطها ليتيسر حفظ تلــك الفوائد، ولتسهل ضبط تلك القواعد، فجــاءت بجملة أبهى من نور الأنحــار، وأضوأ مــن نور الأسمــار،...... فلمــا ظهــرت نتيجة الانتخــاب في المسألة والجواب، وتغذى ناظم سلكها بالخاص من اللبــاب، وصارت الخناصر عليها تعقد، وإن كان لساعد الأنصاري رسالة (هو محمد بن إبراهيــم بن ساعد الأنصاري المعروف بابن الأكفاني المتوفى سنة ٧٤٩هـ، والرسالة تسمى «نهاية القصد في صناعة الفصد»)، فشتّان ما بين رسالته ورسالــة محمد. وكانت عين المقصود، ورقمت «فيما يجب على الفاصد والمفصود»، استحق راقم وشيها وناسج بردها أن يتــوّج بتاج الإجازة، فاستخرت الله تعالى وأجزت له أن يتعاطــى من صناعة الجراح ما أتقن معرفته ليحصل له النجاح والفلاح، وهو أن يعالــج الجراحات التي تبرأ بالبط، ويقلع من السنان ما ظهر له من غير شرط، وأن يفصــد من الأوردة ويبتر الشرايين، وأن يقلع مــن الأسنان الفاســدة المسوسين، وأن يلم ما بَعُدَ من تفرق الاتصال، بِقِطان وغير ذلــك، وطهارة الأطفال. هــذا مع مراجعته وخدمته لرؤساء هذا الفن المتبحرين، والمهرة الأساتذة العارفين، مــع تقوى الله والنصح في الصناعــة، ولا يخشى مع ذلك من كساد البضاعة. ونسأل الله أن يوفقنا...... رقمه بقلمــه.... علي بن محمد بن محمد بن علي الجراح خادم الفقراء الضعفاء بدار الشفاء بمصر المحروسة ومصلياً ومسلماً... بتاريخ صفر الخير مــن شهور سنــة إحدى عشرة وألف مــن الهجرة النبويــة (١٦٠٢م) على صاحبها أفضل الصــلاة والسلام والحمد لله وحده».

مؤسس المدرسة الدخوارية

مهذب الدين عبد الرحيم بن علي الدَّخوار

كانــت دار الدخــوار في بدايــة عملــه التدريسي عبارة عن مجلس لتدريس صناعة الطــب، إلا أن داره هذه التــي كان يسكنها انقلبــت إلى مدرســة للطــب بعــد وفاته، واستحقــت اسم «مدرسة طبيــة»، ذلك أن الدخــوار، وهو الطبيب العالم الذي لم يخلف أولاداً، كان قــد وقــف داره الكائنــة عنــد الصاغــة العتيقــة شرقي ســوق المناخليين بدمشق لتكون مدرســة يجري فيها تدريس صناعة الطب من بعده. فمن هو الدخوار؟

هــو عبد الرحيــم بن علي بــن حامد الدمشقي المعــروف بالدَّخوار(١) (٥٦٥هـ/ ١١٦٩م- ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م):

مدحه العمري في كتاب مسالك الأبصار بقوله: «طبيب نهض به طيب العناصر، ونهى علمه أن تعقد على غيره الخناصر، كان في الحكماء علماً، وفي إثبات الحكم قلماً عز وجوده، وقلما فاض إناؤه، وآض[٢] اجتناؤه، وكان لفروع الطب شجرة يكاد زيتها يضيء، ويقال في ظلها ويفيء، كأنما جالس أرسطوطاليس، وجال مع تلك الجماعة في تقرير تلك النواميس، ولهذا اشتهر، وملأ العيون وبهر، وكان ممن يستصح برأيه، ويستصبح بذكائه، هذا إلى خط أوتيه، وحظ كان يواتيه.

وترجمه تلميذه ابن أبي أصيبعة بقوله: «هو شيخنا الإمام الصدر الكبير، العالم الفاضل مهذب الدين أبو محمد عبد الرحيم ابن علي بن حامد، ويعرف بالدخوار. وكان -رحمه الله- أوحد عصره، وفريد دهره، وعلاّمة زمانه، وإليه انتهت رئاسة صناعة الطب ومعرفتها على ما ينبغي، وتحقيق كلياتها وجزئياتها، ولم يكن في اجتهاده من يجاريه، ولا في علمه من يماثله، أتعب نفسه في الاشتغال، وكدّ خاطره في تحصيل العلم حتى فاق أهل زمانه في صناعة الطب، وحظي عند الملوك، ونال من جهتهم من المال والجاه ما لم ينله غيره من الأطباء إلى أن توفي.

وكان مولده ومنشؤه بدمشق، وكان أبوه علي بن حامد كحالاً مشهوراً، وكذلك كان أخوه وهو حامد بن علي كحالاً. وكان الحكيم مهذب الدين أيضاً في مبدأ أمره يكحل، وهو مع ذلك مواظب على الاشتغال والنسخ، وكان خطه منسوباً[٣]، وكتب كتباً كثيرة بخطه، قال ابن أبي أصيبعة: وقد رأيت منها نحو مئة مجلد أو أكثر في الطب وغيره. ولم يزل مجتهداً في تحصيل العلوم وملازمة القراءة والحفظ حتى في أوقات خدمته وهو في سن الكهولة.

وكان إذا فرغت الجماعة من القراءة يعود إلى نفسه فيأكل شيئاً ثم يشرع بقية نهاره في الحفظ والدرس والمطالعة يسهر أكثر الليل في الاشتغال.

ثم عرض له ثقل في لسانه واسترخاء، فبقي لا يسترسل في الكلام سنة ٦٢٦هـ، ثم زاد به ثقل لسانه حتى بقي إذا حاول الكلام لا يفهم ذلك منه إلا بعسر، وكانت الجماعة تبحث قدامه فإذا استعصى معنى يجيب عنه بأيسر لفظ يدل على كثير من المعنى، وفي أوقات يعسر عليه الكلام فيكتبه في لوح وتنظره الجماعة. ثم اجتهد في مداواة نفسه، واستفرغ بدنه بعدة أدوية مسهلة، وكان يتناول كثيراً من الأدوية والمعاجين الحارة ويغتذي بمثلها فعرضت له حمى وتزايدت به حتى ضعفت قوته وتوالت عليه أمراض كثيرة، ولما جاء الأجل بطل العمل،

فكانــت وفاته -رحمه الله- صبيحة الاثنين ١٥ صفــر سنة ٦٢٨هـ ودفن بجبل قاسيون، ولم يخلف ولداً.

شيوخه

والده علي بن حامد الكحّال:

أخذ الدخــوار الطب بدايــة عن والده كحال دمشق علي بن حامد.

رضي الدين الرحبي (الرخّي):(٤)

رضــي الدين الرحبــي (أو الرخّي)، أبو الحجاج يوسف بن حيدرة، (٥٣٤-٦٣١هـ)، قــدم دمشق مع أبيه حيدرة الكحال في سنة ٥٥٠هـ، ولازم الاشتغال على المهذب بن النقاش (أبــو الحسن علي بن عيســى بن هبة الله) ونوه باسمه ونبه على محل علمه، وصار من أطباء صلاح الديــن، وحياته امتدت وصار أطبــاء البلــد تلامذته حتــى إن من جملة أصحابه المهذب الدخوار حيث كان من أجلّ من قرأ عليه في أول أمره قبل ملازمته لابن المطــران، وعاش سبعــاً وتسعين سنة ممتعاً بالسمع والبصر. من أهم مؤلفاته: اختصار كتاب المسائل لحنين.

موفق الدين بن المطران:

لازم الدخــوارُ الموفقَ بن المطران، أسعد ابن إلياســ بن جرجس (توفي سنة ٥٨٧هـ)، وتتلمذ له واشتغــل عليه بصناعة الطب ولم يــزل ملازماً له في أسفــاره وحضره إلى أن تميّز ومهر.

ومما حــكاه المهذب الدخــوار قال: إن أســد الدين شيركوه صاحــب حمص طلب ابن المطران فتوجه وأنا معه، فبينا نحن في بعض الطريق وإذا رجل مجذوم قد استقبله وكان المرضــ قد قوي به حتى تغيرت خلقته وتشوهت صورته، فاستوصف منه ما يتناوله ومــا يتداوى به، فبقي كالمتبرم من رؤيته، ثم قال له: كلْ لحوم الأفاعي، فعاود في المسألة، فقــال: كلْ لحــوم الأفاعي فإنــك تبرأ. ثم مضينا إلى حمص وأقمنا بها نعالج المريض الــذي طلب لأجلــه إلى أن صلح، ثم رجعنا، فلما كنا في الطريق، وإذ بشاب حسن الصورة كامل الصحة قد سلّم عليه وقبّل يده، فقال له: من أنت؟ فقال: أنا صاحب ذلك المرض الذي كنت شكوت إليك، وإنني استعملت ما وصفتــه لي فصلحت من غير أن أحتاج معه إلى دواء آخر. توفي ابن المطران سنة ٥٩٠هـ بدمشق. من مؤلفاته: بستان الأطباء وروضة الألباء.. وغيره.

فخر الدين المارديني:

ثم أخــذ عن الفخر المارديني، محمد بن عبد الســلام بن عبد الرحمــن (توفي سنة ٥٩٤هــ)، لما قــدم دمشق سنــة ٥٧٩هـ في أيام صلاح الديــن، واشتغل عليه بشيء من القانون لابن سينا. وبقي حتى سنة ٥٨٩هـ، ولما عزم على السفر أتاه الشيخ مهذب الدين وسأله إن كان يمكنــه أن يقيم بدمشق ليتم

عليه قــراءة كتاب القانون، وأن يكون يوصل إلى وكيلــه برسم النفقة في كل شهر ثلاثمئة درهم ناصرية فلم يفعل، وقال: العلم لا يباع أصلاً، بـل من كان معي فإننــي أشغله أين كنت، ولم يمكن مهذب الدين التوجه معه.

تاج الدين الكندي:

أخــذ الأدب والعربيــة عــن الشيخ تاج الديــن الكندي أبــي اليمن. وهــو زيد بن الحســن بن زيد بن سعيد الحميري، من ذي رعين، أبو اليمن، تاج الدين الكندي (٥٢٠-٦١٣هــ/١١٢٦-١٢١٧م)، أديب من الكتاب الشعراء العلماء، ولــد ونشأ ببغداد، وسافر إلى حلب سنة ٥٦٣هـ، وسكن دمشق، قصده الناس يقرؤون عليه، وتوفي بدمشق. له كتاب شيوخــه على حروف المعجــم، وشرح ديوان المتنبي، وديوان شعر.

سـيف الـديـن الآمـــدي (٥٥١-٦٣١هـ/١١٥٦-١٢٣٣م):

وكان أيضاً في ذلك الزمان يجتمع بالشيخ سيف الدين علي بن أبي علي الآمدي، وكان يعرفــه قديمــاً فلازمه في الاشتغــال عليه بالعلــوم الحكمية، وحفظ شيئــاً من كتبه، وحصــل معظم مصنفاتــه ليشتغل بها مثل كتاب دقائــق الحقائق، وكتاب رموز الكنوز، وكتاب كشف التمويهات في شرح التنبيهات، وكتاب أبكار الأفكار، وغير ذلك من مصنفات سيف الدين.

ثم بعد ذلك نظر في علم الهيئة والنجوم، واشتغل بها على يد أبي الفضل الإسرائيلي المنجم، واقتنى من آلات النحاس التي يحتاج إليها في هذا الفن، ما لم يكن عند غيره، ومن الكتب شيئاً كثيراً.

منزلته العلمية ومآثره

- كان الدخوار من كبار الأطباء البارزين في البيمارستان النــوري الكبير الذي أنشأه الملــك العــادل نور الدين محمــود بن زنكي بدمشق سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م، فقد كان يقوم فيه بتدريس الأطباء وتعليمهم بالإضافة إلى تطبيب نزلاء البيمارستان من المرضى.(٥)

ثم في سنــة ٦٠٤هـ أصبــح مع الحكيم موفــق الديــن عبــد العزيز برســم خدمة العسكر والــتردد عليهــم في أمراضهم، ثم بعد شهر حل محــل الحكيم عبد العزيز في البيمارستان بعــد وفاته، واستمر في خدمة الملــك العادل مــن ذلك الوقت، ثــم لم تزل تسمو منزلته عنده وتترقى أحواله حتى صار جليسه وأنيسه وصاحب مشورته.

- وكان طــلاب الدخوار يجتمعون حوله في البيمارســتــان حــين كان يتفقد المرضى فيعلمهــم ويشرح لهم الحالــة المرضية التي أمامه، ومن مآثره في ذلك ما رواه تلميذه ابن أبي أصيبعة، فقــال: «ورأيته يوماً في قاعة المحمومين وقد وقفنا عند مريض، وجسّت الأطباء نبضه فقالــوا عنده ضعف ليعطى

مرقة الفـــروج للتقوية، فنظر إليه وقال: إن كلامه ونظر عينيه يقتضيـــان الضعف، ثم جس نبض يده اليمنى وجس الأخرى وقال: جسوا نبضـــ يده اليســرى، فوجدناه قوياً، فقال: انظروا نبض يـــده اليمنى وكيف هو من قريب كوعه قـــد انفرق العرق الضارب شعبتين، فواحدة بقيت التي تجس والأخرى طلعـــت في أعلى الزند وامتـــدت إلى ناحية الأصابــع فوجدنـــاه حقاً، ثم قـــال: إن من الناس، وهو نادر من يكون النبض فيه هكذا، ويشتبه علـــى كثير من الأطباء ويعتقدون أن النبضــ ضعيـــف، وإنما يكـــون جسم لتلك الشعبـــة التي هي نصف العـــرق فيعتقدون أن النبضـــ ضعيـــف». ولعل الدخـــوار هنا يكـــون أول من وضع هذا الشذوذ التشريحي الطبيعي غير المرضي، وهو ما ندعوه حالياً Anomaly.(٦)

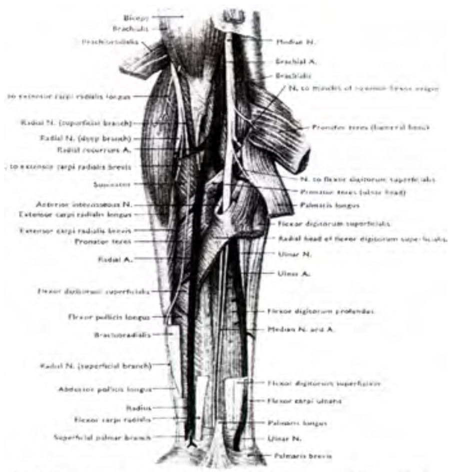


FIG. 53 Deep dissection of muscles, and nerves of front of forearm. The division of the brachial artery is slightly lower than usual.

- ونال من الملك العادل الإكرام الجزيل على معالجته له سنـــة ٦١٠هـ، وكذلك ابنه الملـــك الكامل لمّا مرضـــ في الديار المصرية سنة ٦١٢هـ. وفي مصر ولاه السلطان الكبير رئاسة أطباء ديار مصر بأسرها وأطباء الشام. يقول ابن أبي أصيبعة: «وكنت في ذلك الوقت مع أبي وهو في خدمة الملك العادل، ففوض إليه النظـــر في أمر الكحّالـــين واعتبارهم، وأن من يصلـــح منهم لمعالجة أمراض العين ويرتضيه يكتب له خطاً بما يعرفه منه ففعل ذلـــك، ولمّا استقر ملـــك المعظم بالشام، بعد وفاة أبيه الملك العادل سنة ٦١٥هـ، استخدم جماعة عدة ممن كانوا في خدمة أبيه الملك العادل، وانتظم في خدمته منهم من الحكماء الحكيم رشيد الدين بن الصوري وأبي، وأما الحكيم مهذب الدين فإنه أطلق له جامكية (رواتـــب ديوانية) وجراية، ورســـم أنه يقيم بدمشق، وأن يـــتردد إلى البيمارستان الكبير الذي أنشأه الملك العادل نور الدين بن زنكي ويعالج المرضى به».

- تميّز الدخـــوار في عصره وظهرت له نوادر في تقدمة المعرفة؛ وهي ما ندعوه حالياً (الإنذار prognosis) فالطبيب ينبغي أن يخـــبَر بما تقدم، ويعْلَم ما هو حاضر، وينذر بمـــا هو كائن. وأفضـــل الأطباء من علم ما سيحدث بالمريض فاستعدّ له قبل ذلك بمدة

طويلــة، وتأهب وهيأ ما يحتــاج إليه لشيء مما يحدث. وقد ألّف أبقراط كتاباً في ذلك باسم «كتاب تقدمة المعرفة»، شرحه الدخوار أيضاً.

مــن هذه الأمــور أن الملــك العادل كان قد مرض ولازمــه أعيان الأطبــاء، فأشار مهذب الدين عليــه بالفصد فلم يستصوب ذلك الأطباء الذين كانوا معه، فقال والله لم نخرج له دماً إلا خــرج الدم بغير اختيارنا. ولم يوافقوه في قوله فما كان بعد ذلك بأيسر وقــت إلا والسلطان قد رعــف رعافاً كثيراً وصلح فعرف أن ما في الجماعة مثله.

ومن ذلك أيضــاً أنه كان يوماً على باب دار السلطان ومعه جماعة من أطباء الدور، فخرج خــادم ومعه قارورة جارية يستوصف لها من شيء يؤلمهــا (يبدو أنها كانت سائدة عادة وصــف الدواء على القارورة، وهذا ما نهــى عنه الكثير من الأطباء في ذلك العصر أيضــاً دون مشاهدة المريضــ)، فلما رآها الأطبــاء وصفوا لها مــا حضرهم، وعندما عاينها الحكيم مهــذب الدين قال: إن هذا الألم الذي تشكوه لم يوجب هذا الصبغ الذي للقارورة، يوشك أن يكــون الصبغ من حنّاء قــد اختضبت به (الجلد يمتصــ الأصبغة إلى الــدم وتطرح عن طريق البول)، فأعلمه الخــادم بذلــك وتعجب منــه، وأخبر الملك العادل فتزيّد حسن اعتقاده فيه.

– ومما قيل في الدخوار:

أنعم ولذ بأقدار تواتيكا
حتى تنال بها أقصى أمانيكا
مهذب الدين يا عبد الرحيم لقد
شأوت يا ابن علي من يباريكا
فازت قداحك في حفظ الدروس
بأيام سلفن وما خابت لياليكا

زملاء الدخوار ومعاصروه

عــمــران بــن صــدقــة (٥٦١-٦٣٧هـ/١١٦٥-١٢٣٩م):

هــو الحكيم أوحــد الدين عمــران بن صدقــة، مولــده بدمشق، وكان أبــوه أيضاً طبيبــاً مشهوراً، واشتغل عمران على الشيخ رضي الدين الرحبي بصناعة الطب، وتميز في علمها وعملها. وكان الدخوار من الأطباء الذيــن يحبون التعاون فيمــا بينهم لمعالجة المرضــى؛ فمن ذلك ما ذكره عنــه ابن أبي أصيبعة بأنه كان معه في البيمارستان لمعالجة المرضــى الحكيم عمــران وهو مــن أعيان الأطبــاء وأكابرهم في المداواة والتصرف في أنــواع العلاج فتضاعفــت الفوائد المقتبسة من اجتماعهما، ومما كان يجري بينهما من الــكلام في الأمراضــ ومداواتها ومما كانا يصفاه للمرضى، وكان يظهر في اجتماعهما كل فضيلــة، ويتهيأ للمرضى من المداواة كل خير، ويقول ابن أبي أصيبعة: وكنت في ذلك الوقت أتدرب معهما في أعمال الطب.

رضي الدين الرحبي (الرخّي):

وكان في ذلك الوقت أيضاً في البيمارستان الشيخ رضي الدين الرحبي (الرخّي)، وهو من أقدم الأطباء سناً وأعظمهم قدراً وأشهرهم ذكراً، ولم يجتمع في البيمارستان منذ بني وإلى ما بعده من الزمان من مشايخ الأطباء كما اجتمع فيه في ذلك الوقت من هؤلاء المشايخ الثلاثة وبقوا كذلك مدة.

موفق الدين يعقوب بن سقلاب (توفي ٦٢٥هـ/١٢٢٧م):

خدم الملك المعظم عيسى بن أبي بكر الأيوبي سنة ٦٢٤هـ، كان شديد الاستقصاء والتعمق في دراسة أعراض المرضى، ودقيق التوثيق من الكتب. قال عنه ابن أبي أصيبعة: وكان في أوقات كثيرة لما أقام بدمشق يجتمع هو والشيخ مهذب الدين عبد الرحيم بن علي في الموضع الذي يجلس فيه الأطباء عند دار السلطان ويتباحثان في أشياء من الطب، فكان الشيخ مهذب الدين أفصح عبارة وأقوى براعة وأحسن بحثاً، وكان الحكيم يعقوب أكثر سكينة وأبين قولاً وأوسع نقلاً.

ومن زملائه المعاصرين: مهذب الدين علي بن أحمد بن هبل (مقبل) الموصلي، شيخ الحديث، وكان أعلم أهل زمانه بالطب وله فيه تصنيف حسن، وكان كثير الصدقة حسن الأخلاق. من مؤلفاته كتاب «المختارات في الطب»، توفي سنة ٦١٠هـ.

تلاميذه

كان الشيخ مهذب الدين -رحمه الله- إذا تفرغ من البيمارستان، وافتقد المرضى من أعيان الدولة وأكابرها وغيرهم، يأتي إلى داره ثم يشرع في القراءة والدرس والمطالعة، ولا بد مع ذلك من نسخ، فإذا فرغ منه أذن للجماعة فيدخلون إليه ويأتي قوم بعد قوم من الأطباء والمشتغلين. وكان يقرئ كل واحد منهم درسه، ويبحث معه فيه، ويفهمه إياه بقدر طاقته، ويبحث في ذلك مع المتميزين منهم إن كان الموضع يحتاج إلى فضل بحث، أو فيه إشكال يحتاج إلى تحرير. وكان لا يقرئ أحداً إلا وبيده نسخة من ذلك الكتاب يقرأه ذلك التلميذ، ينظر فيه ويقابل به، فإن كان في نسخة الذي يقرأ غلط أمره بإصلاحه، وكانت نسخ الشيخ مهذب الدين التي تقرأ عليه في غاية الصحة، وكان أكثرها بخطه.

ومن تلاميذه كان:

- **موفق الدين أبو العباس، أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي، المعروف بابن أبي أصيبعة**، توفي سنة ٦٦٨هـ، قال: ولما أقام الشيخ مهذب الدين بدمشق

شرع في تدريس صناعة الطب، واجتمع إليه خلق كثير من أعين الأطباء وغيرهم يقرؤون عليه، وأقمت أنا بدمشق لأجل القراءة عليه، وأما أولاً فكنت أشتغل عليه في المعسكر لما كان أبي والحكيم مهذب الدين في خدمة السلطان الكبير فبقيت أتردد إليه مع الجماعة. لازمته أيضاً في وقت معالجته للمرضى بالبيمارستان فتدربت معه في ذلك وباشرت أعمال صناعة الطب. وقال: كنت بعدما يفرغ الحكيم مهذب الدين والحكيم عمران من معالجة المرضى المقيمين بالبيمارستان وأنا معهم أجلس مع الشيخ رضي الدين الرحبي فأعاين كيفية استدلاله على الأمراض، وجملة ما يصفه للمرضى وما يكتب لهم وأبحث معه في كثير من الأمراض ومداواتها.

- **بدر الدين بن قاضي بعلبك**، المظفر بدر الدين بن عبد الرحمن بن إبراهيم البعلبكي (توفي سنة ٦٧٥هـ/ ١٢٧٦م): قرأ صناعة الطب على مهذب الدين عبد الرحيم بن علي وأتقنها في أسرع الأوقات. قال ابن أبي أصيبعة: إن الشيخ مهذب الدين عبد الرحيم بن علي كان قد صنف مقالة في الاستفراغ، وقرأها عليه كل واحد من تلامذته، وأما هو (المظفر) فإنه شرع في حفظها، وقرأها عليه من خاطره غائباً من أولها إلى آخرها، فأعجب الشيخ مهذب الدين ذلك منه، وكان ملازماً له مواظباً على القراءة والدرس. ورافقه حينما توجه لخدمة الأشرف موسى ابن الملك العادل سنة ٦٢٢هـ ولم يقطع الاشتغال عليه. خدم في بيمارستان الرقة، ودرّس بالدخوارية. من كتبه: مقالة في مزاج الرقة وفي أحوال أهويتها وأطبائها، مفرج النفس، وكتاب الملَح في الطب، وغيرها....

- **عز الدين السويدي** (٦٠٠-٦٩٠هـ): السويدي ابن الحكيم العلاّمة شيخ الأطباء عز الدين أبو إسحق، إبراهيم بن محمد ابن علي بن طرخان الأنصاري الدمشقي الشافعي، من ولد سعد بن معاذ رضي الله عنه، أخذ الطب عن أكابر الحكماء كالمهذب عبد الرحيم الدخوار، وغيره، برع في الطب، وصنف فيه «الباهر في الجواهر» و«التذكرة في الطب». درّس بالدخوارية، وخدم السلطان والمارستان.

- **علاء الدين علي بن أبي الحزم ابن النفيس الدمشقي**، صاحب «شرح تشريح القانون» وغيره، نشأ بدمشق، وكان اشتغاله على المهذب الدخوار، توفي بمصر سنة ٦٨٧هـ.

- **كمال الدين محمد بن عبد الرحيم بن مسلم بن كمال الدين**،

طبيب، شيخ قديم عارف بالطب بصير بأصوله ومفرداته، درس الطب بالدخوارية بدمشق، وكان فيه صلاح وخير لفقراء المرضى، توفي عن عمر مديد عام ٦٩٧هـ.

- **الصاحب نجم الدين بن اللبودي،** (٦٠٧-٦٦٦هـ) يحيى بن محمد بن عبدان ابن عبد الواحد، الصاحب نجم الدين أبو زكرياء: ولد بحلب سنة ٦٠٧هـ، وأتى دمشق وقرأ على المهذب عبد الرحيم، وخدم المنصور إبراهيم صاحب حمص. له العشرات من المؤلفات، منها: مختصر الكليات من القانون، ومختصر المسائل لحنين، وغيرها.

- **محمد الكلي شمس الدين أبو عبد الله** (كان حياً سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٨م): محمد بن إبراهيم بن أبي المحاسن المعروف بالكلي لإتقانه حفظ (الكليات في الطب من القانون لابن سينا)، طبيب مغربي الأصل، كان أبوه أندلسياً ثم أتى إلى دمشق، ونشأ شمس الدين بدمشق وأخذ الطب على عبد الرحيم بن علي الدخوار، ودخل في خدمة الملك الأشرف موسى بن العادل الأيوبي، ثم خدم بعد ذلك في البيمارستان الكبير النوري.

- **موفق الدين عبد السلام** (كان حيّاً سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م): أصله من حماة، وأقام بدمشق، واشتغل على الحكيم مهذب الدين عبد الرحيم بن علي، وعلى غيره، ثم سافر إلى حلب وتزيد في العلم، وخدم الملك الناصر يوسف بن محمد بن غازي صاحب حلب، ثم صحبه إلى دمشق، ثم توجه إلى مصر، ثم إلى حماة حيث خدم الملك المنصور صاحب حماة.

- **نجم الدين بن المنفاخ** (٥٩٣-٦٥٢هـ): أبو العباس أحمد بن أبي الفضل أسعد بن حلوان، ويعرف بابن العالمة، أبوه أسعد بن حلوان أصله من المعرة، اشتغل على الحكيم مهذب الدين عبد الرحيم ابن علي بصناعة الطب حتى أتقنها، خدم بصناعة الطب الملك المسعود صاحب آمد، ثم الملك الأشرف ابن الملك المنصور صاحب حمص. له من الكتب: التدقيق في الجمع والتفريق، هتك الأستار في تمويه الدخوار، وغيرها....

- **شرف الدين بن الرحبي** (٥٨٣-٦٦٧هـ/١١٨٧-١٢٦٨م): شرف الدين أبو الحسن علي بن يوسف بن حيدرة بن الحسن الرحبي، ولد بدمشق واشتغل بصناعة الطب على الدخوار وعبد اللطيف البغدادي وغيرهما، وخدم مدة في البيمارستان الكبير النوري، ودرّس بالمدرسة الدخوارية.

- زين الدين الحافظي سليمان بن علي (٦٦٢هـ/١٢٦٣م): سليمان بن المؤيد علي بن عامر العُقرُباني، ابن خطيب عقرباء في غوطة دمشق، خدم الملك الحافظ نور الدين أرسلان شاه بن أبي بكر بن أيوب صاحب قلعة جعبر قرب الرقة على الفرات. قال ابن أبي أصيبعة: اشتغل بصناعة الطب على شيخنا مهذب الدين عبد الرحيم بن علي -رحمه الله- فحصل علمها وعملها، وأتقن فصولها وجملها.

- رشيد الدين أبو حُليقة (٥٩١-٦٦٠هـ/١١٩٤-١٢٦١م): رشيد الدين بن الفارس بن أبي الخير بن داود بن أبي المنى بن أبي فانة، المعروف بأبي حليقة، طبيب حكيم شاعر، ولد بقلعة جعبر في الرقة، وعاش في الرهاء في الجزيرة السورية، ثم انتقل إلى دمشق، درس الطب في أول أمره على عمه مهذب الدين أبي سعيد محمد أبي حليقة بدمشق، واشتغل بعد ذلك في الديار المصرية، وقرأ أيضاً على مهذب الدين عبد الرحيم بن علي. من كتبه مقالة في ضرورة الموت.

- رشيد الدين أبو سعيد القدسي (٦٤٦هـ/١٢٤٨م): هو الحكيم الأجل العالم، أبو سعيد بن موفق الدين يعقوب من نصارى القدس، اشتغل بعلم الطب على رشيد الدين علي بن خليفة، لما كان في خدمة الملك المعظم، واشتغل أيضاً على الشيخ الحكيم مهذب الدين عبد الرحيم بن علي الدخوار. وكان في خدمة الملك الكامل، ثم الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل. من كتبه: عيون الطب.

مؤلفات الدخوار

- كتاب الجنينة في الطب (وقيل الحسبة، وقيل الجنين).

- اختصار كتاب الحاوي في الطب لأبي بكر الرازي.

- مقالة في الاستفراغ، ألّفها بدمشق سنة ٦٢٢هـ.

- اختصار كتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني.

- تعاليق ومسائل في الطب وشكوك طبية وردّ أجوبتها.

- كتاب الردّ على شرح ابن صادق لمسائل حنين بن إسحق.

- مقالة يردّ فيها على رسالة أبي الحجاج يوسف الإسرائيلي في ترتيب الأغذية اللطيفة والكثيفة في تناولها.

- ما يقع في الأدوية المفردة من التصحيف: في إستانبول - حكيم أوغلي برقم (٥٧٤) بخط مأمون بن محمد بن مأمون الأسطبهاني الإيجي، من عام ٦٩٨هـ.

- شرح تقدمة المعرفة لأبقراط:

صنفه لتلميذه كمال الدين محمد بن عبد الرحيم بن مسلم، أتم نسخه مأمون بن محمد بن مأمون الأسطبهاني الإيجي سنة ٦٩٨هـ في مدينة حماة، نسخه الخطية في: الإسكندرية- البلدية برقم (٣٤٢٠/ ج-ف/٣٣٠) مصورة بمعهد التراث بحلب برقم (٩٧٥). إستانبول- حكيم أوغلي برقم (٥٧٤). أكسفورد- بودليان برقم (١/٥٣٣/٢) وثانية برقم (٢/١٩١). الرقم الجديد:
MS. Thurston 10, MS.Bodl.Or.231.

ولكتاب تقدمة المعرفة عدة شروحات أيضاً، غير شرح الدخوار، هي: شرح ابن أبي صادق النيسابوري. أرجوزة قدمها ابن البذوخ (٥٧٦هـ) يشرح فيها كتاب تقدمة المعرفة لأبقراط. شرح موفق الدين عبد اللطيف البغدادي. شرح عماد الدين الدنيسري. شرح ابن النفيس.

أما نسبة هذا الكتاب إلى الدخوار، فقد أوردها بروكلمان في كتاب تاريخ الأدب العربي ج٤ص١١٢، وماهر عبد القادر في كتابه دراسات وشخصيات في تاريخ الأدب العربي ص٢٩٠، وما أورده الزركلي في الأعلام، وكحالة في معجم المؤلفين، فأثبتا هذا الكتاب للدخوار، فهي مبنية على ما جاء في صفحة غلاف المخطوط، وفي مقدمته.

ففي صفحة الغلاف نرى: «كتاب فيه شرح تقدمة المعرفة لمهذب الدين عبد الرحيم (بالأصل عبد الرحمن) بن علي ابن الدخوار عفا الله عنه وكتبه مظفر بدر الدين بن قاضي بعلبك لكمال الدين محمد ابن عبد الرحمن بن مسلم الطبيب الدمشقي رحمهما الله».



صفحة غلاف مخطوط شرح تقدمة المعرفة للدخوار نسخة بودليان MS. Thurston 10

أما المقدمة فقد جاء فيها:

«بسم الله الرحمن الرحيم، وما توفيقي

إلا باللّه عليه توكلت وإليه أنيب. يقول العبد الفقير إلى رحمة ربه الكريم، الشيخ الإمام العالم العامل الصدر الكبير الكامل الرئيس بدر الدين مظفر بن قاضي بعلبك الطبيب، بلغه اللّه آماله في الدنيا والآخرة: إنني لما قرأت على الشيخ الإمام العالم مهذب الدين عبد الرحيم (بالأصل عبد الرحمن) بن علي الطبيب رحمه اللّه تعالى كتاب تقدمة المعرفة لبقراط، اجتهد علي غاية الاجتهاد من فرط اجتهادي ومحبتي لهذا العلم أن يعرفني جميع ما علمه وحققه، أو أكثر ما اطلع عليه من كلام جالينوس وغيره، وشرح لي ذلك فصلاً فصلاً، وأورد جميع ما عرفه من الأقاويل التي وردت على معاني كل فصل منها وبينه بياناً شافياً متقناً، ثم إنه -رحمه اللّه- ألزمني بعد ذكره لذلك وعلمه بفهمي له أن أعلقه خوفاً من النسيان وشفقة منه على المعاني التي تعب على تحصيلها بنفسه ومما اكتسبه من شيخه ابن المطران ولتبقى محفوظة ينتفع بها على ممر الزمان، وعاهدني أن لا أذيع هذا الشرح ولا أدفعه لمن لا يعرف قدره، فلما أعان اللّه ورزقني الإقراء بالمدرسة التي أنشأها لقراءة الطب بدمشق المحروسة، وقع بها من الطلبة المستحقين لهذا الشرح والانتفاع به ووجدت عنده من الاجتهاد والذكاء ما يوجب لي أن أخصه وأمنحه بهذا الشرح العظيم الحسن الجليل، وهو الحكيم الأجل الإمام العالم العامل كمال الدين محمد بن عبد الرحمن بن مسلم الطبيب وفقه اللّه تعالى، واستخرت اللّه تعالى وأودعته هذا الشرح رجاء أن يذكرني بخير عند مطالعته له إن شاء اللّه تعالى. وهذا ابتداء الشرح وباللّه التوفيق».

فهو شرح أملاه عليه أستاذه الدخوار، وقد عمل بدر الدين بوصية أستاذه وفاء له وحفظاً للعلم.

مقتطفات من كتاب شرح تقدمة المعرفة:

يفتتح الدخوار كتابه بما قاله أبقراط عن فضائل تقدمة المعرفة؛ والتي هي علم الطبيب بإنذار المرض ومسبباته ومسيرة المرض وما سيؤول إليه من أعراض وعلامات، ومدة شفاء المرض، إلى غير ذلك من الأمور التي تهم المريض والطبيب معاً كي يطمئن المريض لما يجري له من الأعراض، وكذا الطبيب ليكون حسن سير علاجه على أتم وجه. وفي ذلك يقول أبقراط:

«**إني أرى أنه من أفضل الأمور أن يستعمل الطبيب سابق النظر، وذلك إنه إذا سبق فعلم، وتقدم فأنذر المرضى بالشيء الحاضر مما بهم، وما مضى،**

وما يستأنف، وعبر عن ذلك المريض ما قصر عن صفته، كان حرياً بأن يوثق منه بأنه قادر على أن يعلم جميع أمور المرضى، حتى يدعو ذلك المرضى إلى الثقة والاستسلام في يدي الطبيب، وكان علاجه لهم على أفضل الوجوه، إذ كان يتقدم فيعلم من أمور العلل الحاضرة ما تؤول إليه، وذلك أنه ليس يمكن الطبيب أن يبرئ جميع المرضى، ولو كان يمكنه ذلك لكان أفضل أن يتقدم فيعلم ما سيكون من أمورهم».

يعقب هنا مهذب الدين الدخوار على كلام أبقراط بأنه لم يقل إن الأفضل للطبيب أن يكون ملماً بتقدمة المعرفة، بل قال إني أرى؛ أي برأيه الخاص أن يكون الطبيب كذا، لأنه كان هناك بعض من اعتبر ذلك من عمل الكهنة وليس من عمل الطبيب، ولكن الطبيب الماهر المتمكن الذي تعلم الطب بأصوله، يمكنه معرفة سير المرض وكل ما يتعلق به حتى في زمننا هذا، بل برأينا يجب على الطبيب أن يكون ملماً بذلك، وهنا يقول الدخوار:

«إن أبقراط إنما استفتح قوله بأن قال إني أرى، ولم يقل إن أفضل الأمور أن يستعمل الطبيب سابق النظر والإنذار، وذلك لأن جماعة من الأطباء في زمانه عاندوه، وقالوا إن الطب عبارة عن حفظ الصحة، وردها إذا زالت، وأما أن الطبيب يتقدم ويخبر بما كان وبما هو حاضر وبما هو آت فهذا من فعل المتكهنين والمنجمين وغيرهم، ولم يوافقوه على هذا، فقال إني أرى على ما عندي أن يتقدم الطبيب ويعمل بهذا القول، فإنه إذا فعله حصل له ثلاثة أمور؛ الأول إنه كمل بما حصل عنده من تحرير علم الطب، الثاني إن أهل المريض والمرضى يعتقدون في حسن مداواته ومداراته، الثالث أنهم لا يعتقدون فيه التقصير إذا وقع أمر مؤلم؛ كما عرض لبعض الأطباء الجهال، لما رأى مريضاً قد سكنت حرارة حمّاه، وبرد بدنه، وكان ذلك عن ضعف الحرارة الغريزية، اعتقد بجهله أنه قد صلح، فوصف له الحمّام، فلما دخل ضعفت قوته، فعرق عرقاً كثيراً، ففرح الطبيب بجهله، واعتقد أن مطلق العرق دالاً على البرء والسلامة، قال لأهل المريض: إنه قد عرق وقد صلح صلاحاً تاماً، فلما سقطت القوة ومات المريض، فلحق الطبيبَ من أهل المريض شرٌّ كثير. واعلم أن العرق الدال على الموت له علامات، والدال على البرء له علامات، فإذا تقدمت خبرة الطبيب

وتحريره، ومعرفته لجميع أجزاء صناعته، كان واثقاً قادراً على أن يخبر بما يكون منها».

وفي الكتاب نرى أن الدخوار قد قسم تقدمة معرفة إلى أربعة أقسام؛ الأول تقدمة المعرفة: وهي أن يعلم الطبيب كل شيء عن الطب، وليس بجزء منه فقط، وهذا ما هو كائن حالياً، فالطبيب يدرس الطب العام أولاً قبل أن يختص في جزء منه. والثاني تقدمة الإنذار: وهي أن يخبر بما يعلم عن إنذار هذا المرض ومستقبله وتطور أعراضه. والثالث هو سابق العلم: أي أن يعلم الطبيب كل الأمور الطبيعية بجزئياتها، وهو ما ندعوه علم الفيزيولوجيا الطبيعية والمرضية. والرابع هو سابق النظر وهو مماثل لسابق العلم بأسباب الأمراض وخاصة منها الوبائية، وهي التي تسمى قديماً بالسماوية. وعن هذا التقسيم قال الدخوار:

«واعلم أن تقدمة المعرفة، وتقدمة الإنذار، وسابق النظر، وسابق العلم، كل واحد منها من هذه الأربعة له معنى؛ أما تقدمة المعرفة: فهي عبارة عن أن يتقدم إحاطة الطبيب بجميع جزئيات الطب، لأن المعرفة مخصوصة بإدراك الجزئيات. وتقدمة الإنذار: أخص منها، لأنه ما ينذر إلا ببعض ما علمه منها، فتقدمة المعرفة أعم. وأما سابق العلم: فهو تقدم إدراك الأمور الكلية وتحصيلها، وذلك لا يجدي المريض ولا الطبيب، فإن أهل صناعة العلم الطبيعي يعرفون صناعة الطب على وجه كلي، مثلاً إن معالجة الحار بالبارد، وهذا لا يجدي المرضى فإنهم لا ينتفعون إلا بمعالجة الأمور الجزئية. وأما سابق النظر: فهو مطابق لسابق العلم؛ إذ اسم النظر والعلم يطلقان على إدراك الأمر الكلي، فهما من الأسماء المشتركة».

ويضرب هنا الدخوار مثلاً في قول أبقراط عن ضرورة أن يكون الطبيب عنده خبرة في الأمراض السماوية، أي الوبائية، فيكون سابق النظر فيها، فيقول:

«قال أبقراط: ولما كان بعض المرضى قد يموت قبل أن يدعا له الطبيب، من صعوبة أمراضهم، وبعضهم لا يلبث حين يدعوه أن يموت، فلا يبقى إلا يوماً واحداً أو أكثر من ذلك، قبل أن يستعد الطبيب بصناعته، فيقاوم بها كل واحد من الأمراض، فقد ينبغي لك أن تعرف طبائع تلك الأمراض، التي هي مجاورة لقوة تلك الابدان، وإن كان أيضاً مع ذلك في الأمراض شيء سماوي،

فقد ينبغي للطبيب أن يكون بسابق النظر فيه خبيراً».

ثم نرى أن الدخوار قد قسم الأمراض، بحسب خطورتها، إلى قسمين رئيسين؛ أحدهما الأمراض القتالة، والأخرى السليمة، وتحدث في الأمراض القتالة عن دور الطبيب المحصور فقط في معرفة إنذار هذا المرض وبما يؤول إليه حال المريض، وهو لكي يعلم بخبرته وفضله. وأما السليمة فيكون دور الطبيب فيها أكثر من حيث المعالجة وطول فترة المرض، وهنا يركز على الأسباب السماوية التي قد تكون مشاركة في الأسباب المرضية، ونرى كيف أوضح معناها السماوي بأنه الوباء وانتقاله بالهواء، فقال:

«اعلم أن الأمراض تنقسم قسمة حشمة إلى قسمين؛ أحدهما القتالة، والآخر السليمة. وأما القتالة: فما للطبيب الفاضل فيها إلا الإنذار بما يؤول إليه، ليعلم فضله، وخبرته بما يخبر به. وأما السليمة: فيعالجها بعد أن تتقدم، ويخبر بما يؤول إليه من الطول والقصر فقط، ثم ينظر بعد ذلك إن كان معها شيء سماوي. وقد اختلفوا في الأمر السماوي هنا على وجوه كثيرة؛ فالذي وقع الاتفاق من جالينوس وشيعته، أنه الهواء المحيط بالأبدان، وإنما كان سماوياً لأن هبوبه لا علم للإنسان بوقته، ولا بما يصحبه مما يكون فيه من الكيفيات الردية الوبائية، بخلاف معرفة الأبدان فإن أمزجتها ثابتة لها».

ثم يقسم مهذب الدين الدخوار الأمراض، بحسب أسبابها، وبناء على رأي أبقراط، إلى ثلاثة أنواع، فقال:

«اعلم إن الأمراض على ما ذكره أبقراط في كتاب إبيذيميا تنقسم إلى ثلاثة أجناس؛ أمراض بادية كالقروح الحروبية مثلاً والعرق المديني(٧)، وأمراض خلطية أو ذي كيفية ردية كالحميات وغيرها، وأمراض حادثة عن الهواء وهي السماوية وهي التي سماها أبقراط بالوافدة، فافهمه».

تأسيس المدرسة الدخوارية

في سنة (٦٢٢هـ/١٢٢٥م) أوقف مهذب الدين عبد الرحيم بن علي بن حامد المعروف بالدَّخوار، شيخ الأطباء ورئيسهم، داره بدمشق (المدرسة الدخوارية)(٨) بدرب العجل، شرقي سوق المناخليين عند الصاغة العتيقة بقرب الخضراء قبلي الجامع الأموي، وجعلها مدرسة يدرّس فيها من بعده صناعة الطب، ووقف لها ضياعاً وعدة أماكن ستغلّ

منها ويتصرف في مصالحها وفي جامكية المدرسين وجامكية المشتغلين بها.

افتتاح المدرسة الدخوارية(٩)

لما كان في يوم الإثنين الثاني عشر من شهر ربيع الآخر سنة ٦٢٨هـ (٢٨/ شباط سنة ١٢٣١م) حضر الحكيم سعد الدين إبراهيم بن الحكيم موفق الدين عبد العزيز، والقاضي شمس الدين الخوئي، والقاضي جمال الدين الحَرَسْتاني(١٠)، والقاضي عز الدين السِنْجاري، وجماعة من الفقهاء والحكماء، وشرع الحكيم شرف الدين أبو الحسن علي بن يوسف بن حيدرة الرخّي في تدريس الطب فيها، واستمر على ذلك وبقي سنين عدة.

الأطباء الذين درّسوا في المدرسة الدخوارية

إن أول من درّس في هذه المدرسة، واقفها مهذب الدين الدخوار سنة ٦٢١هـ/١٢٢٤م.

- ثم درّس فيها عن وصية واقفها، كما ذكرنا، **شرف الدين الرخّي (الرحبي)**، (٥٨٣-٦٦٧هـ/ ١١٨٧ -١٢٦٨م).

- ثم صار المدرس فيما بعد **الحكيم بدر الدين محمد (المظفر)** ابن قاضي بعلبك، وذلك أنه لما ملك دمشق الملك الجواد مظفر الدين يونس بن شمس الدين مودود ابن الملك العادل الأيوبي، كتب للحكيم بدر الدين ابن قاضي بعلبك، منشوراً برئاسته على سائر الحكماء في صناعة الطب، وأن يكون مدرساً للطب في مدرسة الحكيم مهذب الدين عبد الرحيم بن علي المعروف بالدخوار. وتولى ذلك في يوم الأربعاء رابع صفر سنة ٦٣٧هـ،

- ثم درّس بعده **عماد الدين الدُنَيْسَري**، قال عز الدين بن شداد (٦١٣-٦٨٤هـ) في «الأعلاق الخطيرة»: وهو بها إلى الآن.

- والجمال المحقق أحمد بن عبد الله بن الحسين الدمشقي، كان فاضلاً في الطب، وقد ولّي مشيخة الدخوارية لتقدمه في صناعة الطب على غيره، وعاد المرضى بالبيمارستان النوري على قاعدة الأطباء، وكان معيداً بعدة مدارس. توفي سنة ٦٩٤هـ (١٢٩٤م).

- **كمال الدين الطبيب**: محمد بن عبد الرحيم بن مسلم كمال الدين الطبيب، شيخ قديم عارف بالطب بصير باصوله ومفرداته، درّس بالدخوارية، وطال عمره، توفى سنة ٦٩٧هـ (١٢٩٧م).

- **عز الدين السويدي** (٦٠٠-٦٩٠هـ): كان له جامكية في أربع جهات؛ في البيمارستان النوري، وفي بيمارستان باب البريد في دمشق، ولتردده على قلعة دمشق، ولتدريسه في مدرسة الدخوارية.

- **بدر الدين السويدي** (٦٣٥-٧١١هـ): الشيخ الرئيس بدر الدين محمد ابن رئيس الأطباء أبي إسحق إبراهيم بن محمد بن طرخان الأنصاري من سلالة سعد ابن معاذ رضي الله تعالى عنه، وهو السويدي أي من سويداء حوران، سمع الحديث وبرع في الطب، وتوفي في شهر ربيع الأول ببستانه بقرب الشبلية، ودفن بتربة له في قبة عن سبعين سنة. ذكره النعيمي في كتاب الدارس في تاريخ المدارس، بين الأطباء الذين درّسوا في المدرسة الدخواريّة.

- **وأمين الدين سليمان بن داود الدمشقي** (٦٦٥هـ- ٧٣٢هـ/١٣٣١) مات في دمشق بالقبيبات، فيها درّس بالدخوارية، كان رئيس الأطباء بدمشق ومدرسهم مدة، ثم عزل بجمال الدين محمد بن الشهاب أحمد الكحال مدة قبل موته لأمر تعصب عليه فيه نائب السلطنة. وكان شيخه بالطب عماد الدين الدنيسري.

- **وجمال الدين محمد بن شهاب الدين أحمد الكحال** المتوفى سنة ٧١٧هـ/١٣١٧م: درّس بالدخوارية، ورتب في رئاسة الطب عوضاً عن أمين الدين سليمان الطبيب، بمرسوم نائب السلطنة دنكز واختياره لذلك.

يقول النعيمي في «الدارس في تاريخ المدارس»: (تنبيه) الدخوارية هذه بالراء (المهملة) قبل الياء المثناة (من) تحت ووجدت قائمة فيها وقف المدارس، وفيها أيضاً في سنة عشرين وثمانمئة قال: الدخوارية عمر بعضها الناظر برسم رئيس الأطباء العمالة له، كذا وجد».

(يقول كمال شحادة: من المؤسف أننا حتى الآن لا نعرف إلى متى استمرت هذه المدرسة في مهماتها التعليمية قبل توقفها الكامل عن العمل).

الهوامش

١- دخ: فارسية تعني فوج أو صف. وار: فارسية بمعنى صاحب، شبه، لائق. (التونجي: المعجم الذهبي). وقد فسرها د. ماهر عبد القادر في كتابه دراسات وشخصيات في تاريخ الطب العربي، في حاشية ص٢٢٥: بقوله دُخ تعني الشهاب أو النجم الساطع في السماء، والمقطع وار أداة تشبيه مثل يشبه، عن برهان قاطع، وبذلك تكون الكلمة مجملة تعني إما صاحب الصف، حسب التفسير الأول، أو الشهابي أو شبه النجم الساطع في السماء، والله أعلم.

٢- آض: (صار)

٣- الخط المنسوب هو الخط المبني على القواعد التي وضعها ابن مقلة المتوفى سنة ٣٢٨هـ (حاجي خليفة: كشف الظنون ج١ ص٥٤٦).

٤- في عيون الأنباء وأكثر المراجع (الرحبي) نسبة إلى الرحبة؛ وهي مدينة أسسها مالك التغلبي على الفرات الأوسط في خلافة المأمون وهي اليوم أطلال وآثار تعرف برحبة مالك، ويقول ابن أبي أصيبعة أن مولده كان بجزيرة ابن عمر ونشأ بها وأقام أيضاً بنصيبين، ما بين النهرين، وبالرحبة سنين. وما أثبتناه (الرخّي) من النعيمي: «الدارس في تاريخ المدارس» والذهبي: «العبر في خبر من غبر»، نسبة إلى رخ ناحية بنيسابور.

٥- قامت المديرية العامة للآثار والمتاحف بترميم البيمارستان النوري وجهزته ليكون مقراً لمتحف الطب والعلوم عند العرب.

٦- ذكرت كتب الطب الحديث هذا الشذوذ التشريحي الطبيعي، غير المرضي، ونبهت إليه أيضاً، وعلى سبيل المثال نورد ما ذكر في الكتابين التاليين حول هذا الموضوع.

If the pulse cannot be felt , try the other wrist; occasionally an anomaly of the radial artery makes even a full pulse difficult or impossible to feel.

(Hamilton Bailey's Demonstrations of physical signs in clinical surgery. Bristol John Wright & sons 1967.P8.). & Kiss Franciscus, Sentagothai Johannes: Atlas Anatomiae coporis Humani, Akademiai Kiado, Budapest 1973. Tomus III, p: 125. Cunningham>s Manual Of Practical Anatomy, Oxford University Press , Volum1 1 p: 82.

It is modified by vasomotor tone and local condition such as a sclerotic or anatomically small artery.

(Davidson Stanley, Macleod John: The principle and Practice of Medicine. Churchill Livingstone Edinburgh and London 1972. P: 242.).

٧- مرض تسببه دودة تسمى دودة المدينة Dracanculus Medinencis، وهي عبارة عن دودة تحت الجلد. (ي.ز).

٨- يقول جعفر الحسني محقق كتاب «الدارس في تاريخ المدارس» سنة ١٩٥١م: هذه المدرسة درست وضاعت معالمها. بينما يقول محمود الأرناؤوط محقق كتاب شذرات الذهب سنة ١٩٩١م: وقد تحولت مدرسته في هذه الأيام إلى متحف للطب العربي الإسلامي القديم، وتقام فيها على فترات متباعدة بعض الندوات العلمية، وتلقى فيها المحاضرات في الأمسيات الصيفية غالباً، ومن جملة من حاضر فيها محاضرة علمية إسلامية الشكل والمضمون قبل ثلاث سنوات، العالم الجزائري الفاضل الدكتور أحمد عروة، تحدث فيها عن خلق الإنسان في القرآن الكريم، وقد تنادى إلى حضورها أهل العلم والثقافة والأدب في دمشق في حينه. بينما كما ذكرنا سابقاً بأنها قد درست معالمها، وأن المتحف هو في البيمارستان النوري الكبير، والله أعلم.

٩- عن مخطوط كتاب تنبيه الطالب وإرشاد الدارس عما كان في دمشق من المدارس. وهو ذاته «الدارس في تاريخ

المدارس» والاسم الأول أطلقه عليه المؤلف وهو ما يزال في مسوداته. واختصره عبد الباسط العلموي (٩٠٧-٩٨١هـ).

١٠- الحرستاني: في عيون الأنباء؛ الخرستاني.

المصادر والمراجع

- النديم، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب: الفهرست، دار الكتب العلمية- بيروت ٢٠٠٢م. ص٣٥٦.
- التونجي، محمد: المعجم الذهبي، المستشارية الثقافية الإيرانية بدمشق ١٩٩٣م.
- حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله القسطنطيني الرومي الحنفي الشهير بالملا كاتب الحلبي والمعروف بحاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ٦ مجلدات، دار الفكر، بيروت- لبنان ١٩٩٢م. المجلدان الثالث والرابع هما (إيضاح المكنون للبغدادي)، والمجلدان الخامس والسادس هما (هدية العارفين أسماء المؤلفين للبغدادي). ج١ص٣٩٤، ٥٤٦. ج٣ص٨٠. ج٥ص٤٥٣.
- حميدان، زهير: أعلام الحضارة العربية الإسلامية في العلوم الأساسية والتطبيقية، وزارة الثقافة دمشق ١٩٩٦، ج٣ص٣٣، ٢٣٣، ٢٣٨، ٢٦٠. ج٤ ص٢٥-٢٦، ٢٨،،١٦٥، ١٩٤، ١٩٥، ٢٤٦، ٤٢٤، ٥٠٤.
- الدخوار، عبد الرحيم بن علي: مخطوط شرح تقدمة المعرفة لأبقراط، نسخة بودليان MS. Thurston ١٠.
- ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي (المتوفى سنة ١٠٨٩هـ): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار ابن كثير، دمشق بيروت، ١٩٩٣م. تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، (١١ مجلداً). ج٧ص٢٢٤، ج٩ص١٧٣. ج١٠ص٢١٠.
- الخزرجي، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي المعروف بابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق نزار رضا، مكتبة الحياة بيروت. ص٥٤، ٤٠٢، ٥٩٠، ٥٩٩، ٦٦٨، ٦٧٢، ٦٧٣، ٦٩٦، ٦٩٨، ٧٢٨-٧٥١،٧٣٦، ٧٥٥، ٧٥٨،
- الزركلي، خير الدين: الأعلام، الطبعة الرابعة عشرة ١٩٩٩م، دار العلم للملايين بيروت. ٩ مجلدات. ج٣ص٥٧، ٢٧٠، ٣٤٧. ج٤ص٤٣.
- شحادة، محمد كمال: تاريخ التعليم الطبي في البلاد العربية، معهد التراث بجامعة حلب ٢٠٠٠م، ص٣٦.
- الشهابي، قتيبة: معجم ألقاب أرباب السلطان في الدول الإسلامية من العصر الراشدي حتى بدايات القرن العشرين، وزارة الثقافة دمشق ١٩٩٥م، ص٢٤٧.
- ابن طولون الصالحي، محمد (٩٥٣هـ): القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، تحقيق محمد أحمد دهمان، مكتب

الدراسات الإسلامية بدمشق سنة ١٩٤٩م. ج١ص٢٣١.
- عبد القادر محمد، ماهر: دراسات وشخصيات في تاريخ الطب العربي، دار المعرفة الجامعية- الإسكندرية ١٩٩١م. ص٢٢٥، ٢٨٩، ٢٩٠.
- العمــري، ابن فضــل الله، شهاب الدين أبو العباســ أحمد بن يحيى، مسالك الأبصــار في ممالك الأمصار، تحقيق محمد عبد القادر خريسات وعصام مصطفى عقلة ويوسف أحمد بني ياسين، مركز زايد للتراث والتاريخ، ٢٠٠١م. ج٩ص٣٨٦، ٣٨٧، ٣٩٠، ٣٩٤، ٤٠٩-٤١٥،٤١٢، ٤٢٠، ٥٠١.
- عيســى، أحمد: تاريخ البيمارستانات في الإســلام، المطبعة الهاشمية دمشق ١٩٣٩م. ص ٢٩، ٣٢، ٣٩. ٤٢-٤٨، ٢٠٦، ٢٢١.
- عيسى، أحمد: معجم الأطباء، دار الرائد العربيـ بيروت ١٩٨٢م ص٤٠٥.
- كحالة: معجم المؤلفين. ج١، ص١١٨،٧٣٩. ج٢، ص٤١، ١٣٣، ١٩٦، ٤٧٩.
- قطاية، سلمان، ومغاربة، وحيد، شخصيات الطب العربي في لوحات، ١٩٨٣م.
- النعيمــي، عبد القادر بن محمد الدمشقي المتوفى سنــة ٩٢٧هـ، الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق جعفر الحسني، المجمع العلمي العربي، مطبعة الترقي دمشق ١٩٥١م، ج٢ ص١٢٧-١٣٣.
- الرهاوي، إسحق بن علي (توفي في الربع الأول من القرن الرابع الهجري تقديراً): أدب الطبيب، تحقيق مريزن سعيد العسيري، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ١٩٩٢م. ص١٨٤
- Bailey's, Hamilton, Demonstrations of physical Signs, edited by Allan Clain, Bristol: John wright & Sons LTD. 1967. p8.
- Davidson, Sir Stainley & Macleod, John: The principles & practice of medicine, Churchill Livingstone Edinburg & London 1972. p242.
- Kiss Franciscus , Sentagothai Johannes: Atlas Anatomiae coporis Humani , Akademiai Kiado ,Budapest 1973. Tomus III, p: 125.
- Cunningham' s Manual Of Practical Anatomy, London Oxford University Press , New York Bombay 1967 Volum1 1 p: 82.



الدراسات والبحوث



أزمات قوم عند قوم فوائد؟

❁
د. ماري شهرستان

شهـد القرن العشرون رسـوخ الميل العام إلى الإحاطـة بالثروات الكبيرة وبالتـالي عودة الأغنياء[1] الذين شهدوا خـلال الثلاثين سنة الأخيرة ازدياداً في أرباحهـم وفق إيقاع سريع، علاوات فاحشة للتجار، رواتب مدهشة لمدراء المنشآت الكبيرة...، أصبحت العائدات الكبيرة منذ بضع سنوات تغمر أصحابها وترضيهم. ويبـدو أن أزمة عام ٢٠٠٨ لم تعد سوى ذكرى من الماضي البعيد بالنسبة إلى أغنى أغنيـاء الكرة الأرضية. فرغم السياق الاقتصادي الذي لم

❁❁ مترجمة وباحثة.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

يستقر بعد، استطاع أصحاب الملايين إعادة ترميــم أرصدتهــم عــام ٢٠٠٩ وفوق ذلك ازدادت أرباحهم المالية بمقدار ١٨،٩٪ وفق تقرير ميريل[٢] بفضل عــودة ارتفاع أسواق البورصة فاستعاد هؤلاء السعداء مستوى

ثرائهم وازداد عددهــم بحيث أصبحوا في كانون الأول الماضي عشرة ملايين عضواً مليونيراً أي ١،٤ مليون مليونيراً أكثر من عام ٢٠٠٨. كذلك في تقريــر كاب جيمني ورلد ويلث Cap Gemini World Wealth الذي فيه إحصــاء لعام ٢٠٠٨ هناك عشرة ملايين من الأشخاصــ الذين يمتلكون ذمة مالية خارج مكان إقامتهم الرئيسية قيمتها أكثر من مليــون دولار. لقد كانــوا أقل من النصــف (٤،٥ مليــون) عــام ١٩٩٦. وفي التصنيــف الأخير لفــورب Forbes نجد أكــثر من ١٠١١ ملياردـيــراً (بالدولار) تجاه ٧٩٣ «فقط» عام ٢٠٠٩.. و١٤٠ منذ عشرين عاماً!!! ومن الطبيعــي أن توجد الثروات الكبيرة في الولايات المتحدة، لكن ظهر لأول مرة في منطقة آسيا – المحيط الهادي ثلاثة ملايــين مليونير أي عدد مماثــل لما هو في أوروبة وحيث ازداد عددهم (٣) عام ٢٠٠٩ والمتوقــع أنــه في عــام ٢٠١١ سيكون عدد أصحــاب الملايين في منطقة آسيا – الهادي أكثر مما هو عليه في أوروبة.[٤]

رغم كل هذه الثروات يشهد العالم أزمات وانهيارات تدعونــا لمقاربة مكونات النظام الاقتصــادي السائد وأصوله إذ في مثل هذا الزمــن الذي تجتــاز فيه هــذه الرأسمالية مرحلــة عميقة مــن إعــادة تعريفها وحتى عدم يقين بالنسبــة إلى مستقبلها، فإنه من الطبيعــي جــدّاً مساءلة التاريــخ كي نفهم بشــكل أفضل رهانات العصــر، إذ رغم كل الأزمــات الحاصلــة يبــدو أن الرأسمالية تســود دون منــازع في كل زاوية مــن زوايا الكــرة الأرضيــة، لذلك يحــاول المؤرخون مناقشة نشوئها وتطورها في جميع الأمكنة والأزمنــة. ومنذ أن تبنــى الباحثون القيام بمراجعة كاملة للتاريــخ الاقتصادي للبلاد غير الأوروبية، بدأت ترتسم ملامح جديدة لتاريخ الرأسمالية.[٥]

ففي الأعمال العالمية التي أعادت طرح مسألــة أصول الرأسمالية تبــيّن أن هناك عــدداً من عناصرها المكونة يمكن أن نلحظ آثارها قبل القــرن السادس عشر في أوروبة كمــا في آسيا ســواء أكان الموضــوع متعلقاً بوجود أسواق متطــورة أم بنظام ائتمان أو بعقود راتبية، أو بالامبريالية.[٦]

إن هذا التيار من البحوث هو استمرارية لرؤيــة فيرنــان بروديــل ١٩٠٢-١٩٨٥ Fernand Braudel والتــي وفقها تكون الرأسمالية هي مجموعة ممارسات حاضرة في العديــد من المجتمعــات وفي العديد من



العصور[٧]. درس هذا المؤرخ الفرنسي نشوء الرأسمالية: في الفترة السابقة للصناعة كان يوجد اقتصاد سوق هذا أكيد ويحتل بالتأكيد مكانة محدودة في المجتمع لكنه كان المرتكز للتحولات الحاسمة التي سارت به نحو الرأسمالية. فبزوغ الرأسمالية هو سابق للثورة الصناعية بفترة طويلة. ويصف بروديل في مؤلفاته «حضارة مادية» و«اقتصاد ورأسمالية»، الظهور التدريجي لـ«اقتصاد – العالم الرأسمالي» انطلاقاً من القرن الثامن عشر، الذي انتشر على الصعيد العالمي عبر مجموعة متتالية من المراكز كل مركز يجمع بدوره الغالبية العظمى من النشاطات الاقتصادية: جنوى، البندقية، بروج، أمستردام، ثم لندن ونيويورك.[٨]

ومن الأسئلة المطروحة في هذا البحث، هل الرأسمالية كنظام اقتصادي هي اختراع أوروبي كما كان يعتقد كارل ماركس وماكس فيبير؟ أم أننا يمكن أن نجد آثارها في العديد من المجتمعات انطلاقاً من العالم العربي والمحمدي إلى صين سلالة سونغ، كما بين المؤرخ الفرنسي فيرنان بروديل؟ هناك العديد من الدراسات المعاصرة في ميدان التاريخ العالمي يبدو أنها تؤيد الفكرة الثانية وترفض الأولى. وبرهنت هذه الدراسات أن أوروبة إضافة إلى استيرادها للتقنيات التجارية والمالية من العالم العربي أو من الصين، فإن النمو الاقتصادي فيها قد تأثر إيجابياً بالازدهار التجاري الآسيوي.

وقد وضحت بحوث التاريخ العالمي وبرهنت بقوة أن المناطق الأخرى من العالم لم تنتظر الأنوار الأوروبية. فقد عرفت الصين في ظل سلالة سونغ[٩] الحاكمة مرحلة رائعة

من التحديث الاقتصادي مبنية على ازدهار السوق الداخلية وعلى ارتقاء التقنيات والإبداع من الدرجة الأولى (التقنيات الزراعية، والملاحة لمسافات طويلة، وآلات الغزل[١٠]). وقد برهن المؤرخ الأمريكي كينيث بوميرانز[١١] أن في المنطقة الصينية في دلتا اليانتسه[١٢] وحتى أعوام ١٨٢٠ كانت مستويات العمل الإنتاجي والمستويات الاستهلاكية بمستويات انكلترا نفسها أو حتى تفوقها، فيستنتج أنه من الخطأ إذاً أن نعرّف الرأسمالية الغربية مع الحداثة الاقتصادية. كما أنه شأن مضلل أن نعتبر عودة البروز المعاصر لآسيا على أنه ثمرة اهتدائها إلى الرأسمالية الغربية، حتى لو أن انتشار الرأسمالية عالمياً ساهم في ذلك. فالتاريخ العالمي كشف موضحاً عن أسلوب تحديث اقتصادي آخر لا يمكن تحويله إلى الأسلوب المتبع في الغرب.

ومن الملفت للنظر وحتى قد يكون الأمر مفاجئاً أن يكون الباحث الاقتصادي الاسكوتلندي الكبير آدم سميث[١٣] هو أول مؤرخ عالمي منذ نهاية القرن الثامن عشر كان مصراً على فهم المسارات الخاصة والمتبادلة لأوروبة وللصين. كان سميث يرى الأسلوب الصيني «المجرى الطبيعي» لإثراء الأمم، مبنيّاً على ازدهار السوق الداخلية. انطلاقاً من التطور الزراعي، أخذ البلد بشكل متدرج ينمّي النشاطات الصناعية ويطوِّرها، معتمداً بشكل كامل على الحلقة الفاضلة للتخصص ولتحسين التقنيات. كان سميث يلاحظ أن أوروبة قد تصرفت عكس ذلك. فمنذ أولى المدينة- الدولة الإيطالية إلى ذروة المقاطعات الهولندية المتحدة، أسست القارة الأوروبية القديمة ازدهارها الاقتصادي على الاستيلاء على الأسواق الخارجية- وكانت الإمبراطورية البريطانية منذ ذلك الزمن تتهيّأ للإنابة في ذلك.

والسؤال المطروح، هل علينا أن نستنتج بأن الرأسمالية كانت حاضرة منذ بدء التاريخ وفق مقولة فرنان بروديل: «رأسمالية قوية برزت في خطوطها الرئيسية منذ فجر التاريخ وتطورت واستمرت لقرون عديدة» والتي توحي لنا بأن الرأسمالية كانت موجودة على الدوام وأنها أزلية بشكل ما، لدرجة أن نشوءها لا يتطلب أي شرح؟ وفق رأي المؤرخة إلين ميكسين وود Ellen Meiksins Wood، تقدم هذه الرؤية خطورة «تطبيع الرأسمالية»[١٤]، وبالنهاية تؤدي إلى اعتبار أنها طالما كانت حاضرة منذ بداية الزمان، فهي تمثل أفق المجتمعات الإنسانية الذي لا يمكن تجاوزه. وخطورتها أيضاً في التغطية على تفرد نظام اقتصادي (غربي) أدى بزوغه إلى بلبلة وقلب تاريخ البشرية برمته.

فمن خلال البحـوث التاريخية لأصول الإنتاج والتنظيم الاقتصادي في المجتمعات الإنسانية، نجد أن تكوّن بوادر رأس المال قد حصل في البـلاد السورية وفي أزمنة موغلة في القدم حيـث تم التنبّه باكراً إلى إمكانية التوسـع والحصـول على أكـبر نصيب من كماليات العمران عن طريق غير الغزو وفرض الجزية إنمـا كان – عن طريق التجارة – فقد خطا السوريون الكنعانيون والآراميون إلى التجارة وثقافـة الإنتاج التجاري، التي تتصل بأمكنة بعيدة وتمتد إلى موارد واسعة جـداً وتدخلها في نطاقهـا، ونتج عن هذا التطـور الخطير، فن معرفـة العالم وما فيه من ثروات، وترقية فـن سلك البحار وربط أماكن المواد الخام بمراكز الثقافة التجارية الجديدة، فكان التقدم من الوجهة العمرانية والاقتصادية عظيماً. ابتدأ العمل العقلي في هـذه الثقافة يرجح على غـيره، فالتجارة عمل عقلي بامتياز.(١٥)

ولما كانـت التجارة الطـور الأول للثورة السورية الثقافية، سـارت قوافل السوريين إلى مصـر وإلى الأناضـول واليونان وجرت مراكبهم علـى سطح البحـر. ولم يكن هذا الطور التجاري مقتصـراً على نقل بضائع بين مـكان ومكان آخر، بـل كان يقوم على نشـوء صناعـات عديدة ونموهـا كالنسيج والصبغ وصنع الزجاج وما شاكل فضلاً عن صناعة القوارب والمراكب التي بقيت صناعة قومية بحتة لا يقصد منها التصدير.(١٦)

والتجارة هــي أحد العوامل العظمى في تفاعل الثقافات وأحد العوامل الاقتصادية الكـبرى. نظمـت الثقافة التجاريـة العمل في وحـدات مشتركة وأوجـدت المعنى الهام للرأسمـال. وقـد شبه الطبيـب الفرنسي فرانسوا كيـزني (١٦٩٤ – ١٧٧٨) في كتابه «الجـدول الاقتصادي» تـداول المال داخل الجماعـة بالـدورة الدموية، قـال ميرابو حينذاك عن هذا الجـدول بأنه: «يوجد في العالم ثلاثة اختراعـات عظيمة هي الكتابة والنقود والجدول الاقتصادي».

كان الرأسمـال قبل نهضة التجارة بين الأمم فردياً يستعمل في الإنتاج لسد الحاجة مداورة وللتبادل الداخلي الذي هو من أهم عوامل تنظيم المجتمع العمراني ولكنه لم يكن عاملاً في تنظيم الاقتصاد والعمل أي إنه لم يكن رأسمالاً بالمعنى العصري.(١٧)

برز المعنـى العصري لرأسـ المال بعد الثـورة الصناعية الحديثة التـي، إضافة إلى التطـور الاجتماعي على أساس الحرية الفرديـة ولـدت نظاماً جديـداً هو نظام الرأسماليين ومزاولي المهن الحرة والعمال، أو نظام الطبقات الرأسمالي أو ما يعبر عنه بالطبقة العليا والطبقـة الوسطى والطبقة الدنيـا.(١٨)، والذي حل محل النظام القديم

الـــذي كان يقسم المجتمـــع إلى طبقة نبلاء وطبقـــة أحـــرار وطبقـــة عبيد وهـــو نظام الطبقات الإقطاعـــي. وبذلك فقد وضعت الاجتماع علـــى أساس جديد فهي لم تقتصر علـــى سلـــب العائلـــة صناعاتهـــا وصاحب الحرفـــة حرفته، بل هي أوجـــدت المعامل والمصانع الكبيرة التي تضم مئات وألوفاً من العمـــال في كل معمـــل أو مصنع فنشأت في المدن والمناطـــق الصناعية هذه الطبقة من العمال التـــي عرفت في التعابـــير العصرية بلفظـــة «بروليتاريـــة». وضعت هـــذه الآلة الاقتصاديـــة في يد الرأسمـــالي قوة لم يكن يحلم بها، ففاقت قوة الرأسمال المتعاظم أية قوة أخرى مناقبية أو مادية.

بيـــد أن نظام الطبقات الرأسمالي الذي صنف المجتمع إلى طبقة عليا هي الرأسمالية وطبقة وسطى هي المهنية الحرة وطبقة سفلى هي العاملة، لم يكن نظاماً صالحاً للبقاء لأن المشاكل الاقتصادية الاجتماعية التي نتجت عنه أحدثـــت ولا تزال تحـــدث حيثما بقي هذا النظام فاعـــلاً، تشنجات واضطرابات شديدة تحفز العقول على ابتغاء نظام جديد للمجتمـــع الإنســـاني يزيل تلـــك التشنجات والاضطرابات، ويفسح المجال لتفاعل ينمي الحيـــاة ويقويها ويجعلهـــا صالحة للإنسان ومصالحه النفسية والمادية.

إن نظام الطبقـــات الرأسمالي لم تكن له نتيجة اجتماعية غير الحفز على نظام حرب الطبقات فـــإن الرأسمال الفردي الحر كوّن طبقـــة رأسمالية مرهقـــة ساحقة وطبقتين مضغوطتـــين مسحوقتين: طبقـــة مسحوقة نفسياً هي الطبقة الوسطى وطبقة مسحوقة ماديـــاً هي الطبقـــة السفلـــى والحرب بين الطبقـــة الرأسمالية والطبقة العاملة ليست حلاً لمشكلـــة الاجتماع الإنساني الاقتصادية ولا تحقيقـــاً لمصالحه النفسيـــة واتجاهاته الروحية ومقاصده المثلية.

كمـــا تكونـــت ضمـــن المجتمـــع الواحد الطبقـــات والنظـــام الطبقي بعامـــل الثورة الصناعية، كذلك تكونت بذاك العامل عينه الطبقات الأمميـــة والنظام الطبقي العالمي الذي يضـــع طبقة مـــن الأمم الاستعمارية ذات الإمبراطوريـــات والمناطـــق الواسعـــة، وطبقة من الأمم المتوسطة وطبقة من الأمم المضغوطة المحرومة.[١٩]

ويثـــار الجدل حول مـــا يكـــوِّن الأصل الحقيقـــي للتفـــوق الاقتصـــادي الأوروبي بشـــكل خاص، هل حصل إثـــر الغزوات في الأمريكيتـــين كما يصـــر على ذلـــك المؤرخ الأمريكـــي كينيـــث بوميرانـــز Kenneth Pomeranz؟ أم أن هنـــاك أسبابـــاً أخرى نجدها عند بعض المحللين من الذين يقللون من مساهمـــة الاستعمار في الإثراء، أو عند بعضهم الآخـــر الذين يولون أهمية للتطور

العلمي والصناعي وللتوسع الاستعماري في آن معاً.

فالثورة الصناعية التي حدثت في أوروبة الغربية تعتبر بشكل عام وكأنها انفصال مؤسس، عندما تركت الرأسمالية خلفها تاريخها التجاري السابق لتتخذ سمات لازمتها وأصبحت خاصة بها لفترة طويلة: زمن المصانع والتجمعات العمالية الكبيرة هذا الزمن يسم أيضاً بروز التفوق الأوروبي الراسخ المبني على التفوق التقني. حيث ظهرت مواصلات السكك الحديدية التي نقلت المنتجات عبر القارة القديمة، وإلى الهند والأمريكيتين. وتغلغلت أيضاً وسائل النقل البخارية في قلب ظلمات القارة الأفريقية بغية استعمارها. ومن البديهي أن تمتلك طبقة الأمم الاستعمارية سدة الحركة المالية أي قيادة الرأسمالية في العالم يدفعها على الدوام البحث عن الربح بشتى الوسائل.

وبما أنه من خصوصيات الرأسمالية البحث المنهجي عن الربح كي تتمكن الصفقات والمشاريع من الازدهار، فمن أهم ما وجده كارل ماركس في هذا المنهج هو تشكل بروليتاريا مجبرة على بيع جهد عملها لتؤمِّن احتياجاتها، وامتلاك السيطرة على وسائل الإنتاج بحيث تصبح قادرة على استغلال العمال مما يعني الاستئثار بجزء من القيمة التي ينتجونها (فائض القيمة). كما يمكنها أيضاً تنظيم العمل وفق مصلحتها بغية الحصول على أفضل الأرباح. بالنسبة إلى ماركس، فهي ليس لديها الخيار أبداً وبنظره هنا تكمن السمة المميزة للرأسمالية: الوقوع في مضاربة دون توقف، عليها أن تزيد من دخلها دون توقف كي تحظى بفرصة الاستمرار.

الرؤية الفيبرية ليست بفحواها بعيدة عن رؤية ماركس. بالنسبة إلى فيبير، الرأسمالية هي النظام الاقتصادي الأول الذي تنظم بالكامل حول البحث المنهجي عن الربح[٢٠]. فإذا كان الطعم الجاذب للربح هو شأن قديم لكنه لم يصبح مبدأً لتنظيم المجتمع إلا إذا اجتمعت بعض الشروط الظرفية منها وفق فيبير وماركس، امتلاك وسائل الإنتاج من قبل منشآت خاصة، ووجود عمال جاهزين للعمل بالأجرة، وتطور الأسواق الحرة. لكنه يركز ويلح أيضاً على ضرورة وجود مؤسسات تسبق انتشار هذه المنهجية الفريدة، مثل وجود نظام محاسبة التي بدونها لن يكون أي حساب للدخل ممكناً، أو وجود الحق الأساسي الضروري والذي لا غنى عنه لضمان الملكية الخاصة وللحسم والفصل في الاختلافات التجارية.

أكمل عالم الاقتصاد الهنغاري كارل بولاني[٢١]، التعريف متمسكاً ومصراً على

رسوخ بنية مستحدثة غير مسبوقة في التبادل التجاري. هذا يعني أن إشباع الاحتياجات الأساسية وحيازة الأشياء التي تعمر حياة الناس هي أمور تستتبع وتفرض معاملات تجارية مصفقة. هذا يعني أيضاً تحوّل العمل والأرض إلى سلع، بشكل أصبحت فيه الحياة الإنسانية والطبيعة محكومتين من الآن فصاعداً بشروط السوق.وهذا ما أسماه بولاني «تحويل المجتمع إلى سلعة»[٢٢]. بينما حرصت كل المجتمعات السابقة على احتواء هذا المنطق، فوفق الاقتصادي الهنغاري، خاصية الرأسمالية هي إعطاؤها الحرية المطلقة وحتى دفعها باستمرار إلى أبعد مما هي عليه حتى في حال تهديد سلامة المجتمع.[٢٣]

بالنسبة إلى المؤلفين الثلاثة، أوروبة وحدها التزمت في طريق التطوير الرأسمالي. وجد بولاني أن المجتمع لم يستطع التصرف تجاه هذه الآلية أي آلية تحويله إلى سلعة في محاولة لاحتواء بحزم دائرة التبادل التجاري: كان يرى في بزوغ الدول - العناية وآلياتها في إعادة التوزيع، إشارات لـ«تحول كبير». لكن على العكس من ذلك فقد اعتبر ماركس وفيبير وكل على طريقته، أن الرأسمالية تأخذ البشرية وتلزمها في طريق بحركة ذي اتجاه واحد أي اتجاه غير ردود في التغير الاجتماعي.

أما ماركس فكان يرى بعين إيجابية مغامرة الاستعمار الأوروبي، التي قد تؤدي بالكرة الأرضية بمجملها إلى طريق التطور والنمو الذي سيكون دون مساواة بالتأكيد، لكنه سيرسي قواعد مهيّأة للحدث الاشتراكي. أما فيبير فقد افتتح سلسلة بحوث وأعمال طويلة تسجل الرأسمالية في قلب الحركة المدنية لتحديث المجتمعات، وهي طريقة تفكير تقليدية يمكننا أن نجمعها مع بحوث جوزف شومبيتر[٢٤] وأعمال وايتمان روستو[٢٥]. فعندما أعلن عن «مراحل النمو الاقتصادي» اعتبر روستو التحولات الطارئة في أوروبة وكأنها الطريق الطبيعي للنمو الاقتصادي. مراحل انطلاق العمل هذه (انتشار الفكر العلمي، الملتزمين والمقاولين الأوائل)، و«إقلاع» (الثورة الصناعية) ثم «نضجها» (الثورة الصناعية الثانية، ونمو وتطور الاستهلاك الجماهيري) كانت بكل بساطة قد رُسِمَت وفق التجربة الأوروبية. وبالمختصر، ظهور الرأسمالية كما حدث في أوروبة هي الطريق الإجبارية للحداثة الاقتصادية بالنسبة إلى كل الكرة الأرضية.. والتساؤل المطروح: لماذا سبق الغرب الصين التي كانت قوة عظمى في القرن الثامن عشر؟[٢٦]

تحليل بروديل حول هذه النقطة ركيزة هامة لأنه يصر على تفرد أوروبة: السهولة

التي ازدهــرت بها الممارســات الرأسمالية بينمــا في بلاد أخــرى اصطدمت بمقاومة السلطة السياسية. وبمقابلة تحاليل سميث وبروديــل استطــاع المؤرخــون المعاصرون أمثــال جيوفاني آريغي[٢٧] وبيفرلي سيلفر[٢٨] أو إيريــك ميــلان أن يحــددوا ويحيطوا بهــذه «الطريقة الغربيــة» – أي «الطريقة الرأسماليــة»- التي تستنــد في النهاية إلى درجــة التقارب وحتــى التكامل بين النخب الاقتصادية والسلطة السياسية. بينما أبقت الصين على الدوام رأسمالييها على مسافة منهــا، قدمت الــدول الغربيــة بشكل عام دعماً قوياً للنخــب التجارية ثم الصناعية، وهذا يشــكل في النهاية خصوصية طريقة النمــو والتطور الغربــي. ويؤكد العديد من الباحثــين أنه ولا في أيــة منطقة أخرى من العــالم استطاع الرأسماليــون الاعتماد على دعم النخب السياسية بغية القيام بالانتشار العالمي، بهذا الاتجــاه ألا ينبغي أن نعترف بفرادة وتفرّد الرأسمالية الغربية؟

على هذا التفرد ركز كارل ماركس Karl Marx وماكــس فيبــير Max Weber أو كارل بــولاني Karl Polanyi. فرؤيتهــم للموضــوع أن أسلــوب تنظيــم اقتصــادي مستحــدث تماماً قد نشأ في أوروبة في فترة واقعة بين القرن السادس عشر والقرن التاسع عشــر. وكما يبرهن ذلك تماماً فيليب نوريل Philippe Norel، قائلاً إن أفضل فائدة للتاريــخ العالمي تكمن في شــرح كيف تمكن نظام كهذا النظــام أن يرى النور في أوروبة وبالتالي لماذا فقط على هذه القارة العجوز؟ ألم يكن مفكرو الرأسمالية الكلاسيكيون على حق عندمــا قيّموا أنه على أنقاض الإقطاع الأوروبي بــزغ نظام اجتماعي غير مسبوق؟ أليس هذا ما يكــرر تأكيده المؤرخون الذين يحللون خصوصيات طريقة النمو الأوروبية؟ هل كان ذلــك بفضل دعم النخب السياسية أم بفضل منهجة العمل التي رافقت التطور التقني والتطور التجاري في آن معاً؟

ففــي القــرن العشريــن كانــت الوثبة الاقتصادية التي استفادت منها الرأسمالية هــي في جزء كبير منها نتــاج استراتيجيات منهجة العمل. فقد قام مهندسان أمريكيان فريديريك تايلــور (١٨٥٦- ١٩١٥) وهنري فورد بوضع أسس لتنظيم العمل(٢٩). كانت تحديثاتهــم للعمل من المكونــات الحاسمة في تطوّر الرأسماليــة. وقد استندت نظرية تايلور إلى أفكار منظمة سابقة تسمى«منظمة العمل العلمية
O.S.T – Organisation scientifique du travail»
التي كانــت تبحث عن أفضــل طريقة للإنتــاج الذي يــؤدي إلى الدرجة القصوى في العائدات؛ وصــاغ تايلور نهجه في كتاب بعنوان «المبادئ العلمية للإدارة ١٩١١».

كان تايلــور عامــلاً ثم أصبــح مهندساً أراد أن يقلــل من الوقت المهدور وأراد إلغاء العمليات التي لا تفيد، وفصل التنظيم عن التنفيذ. أما هنري فورد فقد أكمل التايلورية وحسنها فنشأت الفوردية من مفهوم صناعي: الصناعة وفق إنتاج غزير متماثل السلع. أما التويوتيــة فتستند إلى ثلاثــة مبادئ: إغناء المهــام، مشاركة أكبر للعمال، وإنشاء حلقات مميزة حيث يجتمع فيها العمال والمهندسون لتحســين نوعية إنتاج العمــل. أدت منهجة المصانــع إلى سياسة مميزة ودقيقة وحازمة حيث ترمــز الأصفار السبعــة للإتقان إلى التحديات: صفــر تعطل- صفر استمهال- صفر ورق- صفر احتقــار- صفر عيب- صفر مخزون stock- صفر حادث.

للنظام الرأسمالي خصائص وخصوصيات ذات مصطلحــات نوعية ومفــردات، ورغم المنهجة الدقيقة والعمــل الدؤوب تظهر في مساراتــه أطوار من الازدهــار والأزمات متعددة الأسباب والمشكلات والنتائج. أهم كلمات الرأسمالية هو طبعاً المال سواء أكان مال البائع أم مال الشاري حيث تلعب القوة الشرائيــة دوراً كبــيراً في هــذا النظام، ثم السوق والسعــر والعرض والطلب والمنافسة والاحتكار.

تقيم الرأسمالية منشآت متنافسة تتواجه في أســواق المنتجــات والخدمــات من أجل تصريف السلع التــي تصنعها من جهة ومن أجل الحصول على العناصر التي هي بحاجة إليها للإنتاج (مــواد أولية، آلات، خدمات) من جهة أخرى؛ كمــا أنها توظف موظفين برواتــب في سوق العمــل وتحاول رفع قيمة الأموال بإصدار أسهــم في الأسواق المالية. بالنسبــة إلى الاقتصاديين السوق هو المكان الذي يتواجه فيه العرض والطلب للمنتجات والخدمات أو الأسهم (سواء أكانت مالية أم لا) وحيــث يتشكل السعر. إذا اعتبر الجميع أن السوق هي آلية تنظيم أساسي للرأسمالية، فكثــيرون من الذين تأثروا بكارل ماركس أو بجون كين يشككون بالمقدرة التلقائية للسوق في إقامة تــوازن مرضي يستطيع أن يتجنب الأزمات.

والسوق: مصطلــح يطلقه الاقتصاديون علــى الأماكن والأوضاع التــي يتبادل فيها النــاس، بيع وشراء السلــع والخدمات. وفي الاقتصــاد الرأسمــالي، (كمــا في الأسواق الســوداء التي غالبا ما تنشــأ عندما يكون الاقتصاد مقيــدًا بشدة من الدولة)، تتحدد أسعــار السلــع والخدمات أساسًــا بأوضاع السوق مثل العرض والطلب والمنافسة.

ويؤكد بعضــ الباحثــين في تاريخ هذه الآليــات، أنــه في السابــق لم يحكم في يوم مــن الأيام أي مجتمــع إنســاني بضرورات وأوامر السوق. وبطريقة تبدو اليوم معاكسة

للحدس، حيث أصبحت عادة خاطئة، أن نلحق الرأسمالية باقتصاد السوق، يحدد المؤرخ الفرنسي بروديل الأولى بصفتها معاكسة للثانية بينما يعود اقتصاد السوق إلى مبادلات جوار تتدخل في الأسواق النظامية والشفافة، مثل معارض العصور الوسطى؛ فبالنسبة إلى بروديل، شرط الرأسمالية هو الإحاطة بقواعد التنافس للحصول على مكاسب استثنائية. فالرأسمالية هي البحث عن أوضاع ومراكز وامتيازات تجارية يتم الحصول عليها خصوصاً بمد السلك التجاري إلى أن يفقد الشفافية ويصبح كتيماً. عندها يجد أفضل تجسيد له في التجارة طويلة الأمد سواء الممارسة تاريخياً من قبل التجار البندقيين أو من يهود الشتات أو العرب أو الهنود الذين منذ الألف الأول يشحنون بضائع من البحر الأبيض المتوسط إلى المحيط الهندي ومن البحر الأسود إلى الصين.

العرض: هو كمية السلع والخدمات المقدمة للبيع. والطلب: هو الكمية التي يرغب الناس فيها، ويستطيعون شراءها. وتميل الأسعار إلى التغير عندما يكون العرض والطلب غير متكافئين. وعمومًا يجبر السوق الأسعار على الانخفاض، عندما يفوق العرض الطلب وعلى الارتفاع عندما يفوق الطلب العرض. انظر: العرض والطلب. المنافسة توجد عندما يحاول عدد كبير من المنتجين بيع نفس أنواع السلع لنفس المشترين. وتعتمد الرأسمالية على المنافسة، لكي لا تمكن الشركات من فرض أسعار غير معقولة، وتستطيع المنشأة التي تقدم أسعارًا أقل أو التي تحسن من نوعية منتجاتها أن تحوّل إليها المشترين من منافسيها. ودون المنافسة قد ينمو الاحتكار أو الكارتل (اتحاد المنتجين). وتكون المنشأة محتكرة عندما تكون هي الممول الوحيد في سوق ما. وتستطيع المنشأة المحتكِرة الحد من الإنتاج ورفع الأسعار، لأنها لا تخشى من المنافسة. أما الكارتل فمجموعة شركات تتعاون للتحكم في الإنتاج ورفع الأسعار. ولكثير من الأقطار قوانين تمنع الاحتكار والتجمعات الاحتكارية حاليًا.

ورغم القوانين المانعة للاحتكار، تكوِّن الشركات الضخمة شبه احتكار في بعض الصناعات، وتستطيع مثل تلك الشركات، أن تتحمل مؤقتًا تخفيض الأسعار، وقبول الخسائر. أما المؤسسات الصغيرة التي لا تستطيع تحمل الخسائر فلا قدرة لها على المنافسة.

ومن سلبيات الرأسمالية عدم المساواة في توزيع الثروة حيث يستطيع بعض الناس في ظلها شراء كثير من الكماليات بينما لا يجد آخرون المأكل والمسكن المناسب وضروريات

أخرى. ويعود ذلك إلى محاولة أغلب الشركات في الاقتصاد الرأسمالي أن تحقق أكبر قدر ممكن من الأرباح، مما يستوجب التدخل الحكومي أحياناً لضمان أن يكون الدافع الربحي هو الصالح العام، الذي يتضمن على سبيل المثال، توفير السكن المنخفض التكاليف والخدمات الصحية وكذلك الخدمات العامة الأخرى كاستخدام وسائل التحكم المكلفة في التلوث، حيث من دون الخدمات الحكومية، قد تلوث كثير من الصناعات الجو أو المياه أو التربة.

تعتمد الرأسمالية على الخيارات الاقتصادية الخاصة وللناس فيها حرية اتخاذ القرار في طريقة كسب دخلهم وإنفاقه. وللشركات أن تختار السلع التي تنتج والخدمات التي تقدم والسعر الذي تعرضه بها كما أنها تتنافس فيما بينها في بيع المنتجات. وتشمل النظم الاقتصادية الرئيسية القائمة على الرأسمالية: الولايات المتحدة، أستراليا، المملكة المتحدة، كندا، ألمانيا، هونج كونج، اليابان. تتحكم الحكومات في بعض جوانب الاقتصاد في كل دولة، إلا أن تركيز الرأسمالية على القرارات الاقتصادية الخاصة يجعلها تختلف عن النظامين الاقتصاديين الرئيسيين الآخرين الشيوعية والاقتصاد المختلط. ففي الاقتصاد الشيوعي أو اقتصاد التخطيط المركزي، تمتلك الدولة الإنتاج وتضع الخطط القومية لاستخدامها.

أما في الاقتصاد المختلط، فتقوم الدولة ببعض التخطيط الاقتصادي، وتتحكم في بعض الصناعات، لكنها أيضًا تسمح ببعض الخيارات الفردية. أهم مشكلات النظام الرأسمالي عدم الاستقرار الاقتصادي حيث يمر بحالات من الصعود والهبوط، فينمو بسرعة أحياناً ويقود إلى رخاء عام، وأحياناً أخرى يقود إلى التضخم ويتسبب في فقدان النقود لقيمتها وفي حالات الكساد التجاري الحاد التي تؤدي إلى بطالة كبيرة. ويختلف الاقتصاديون والقادة السياسيون حول ما يسبب التحولات في النشاط التجاري، وحول كيفية التحكم فيها، فبالنسبة إلى الاقتصادي النمساوي جوزف شومبيتر ١٨٨٣-١٩٥٠ Joseph A. Schumpeter الرأسمالية هي نظام ديناميكي يتميز بتناوب أطوار النمو والأزمة. إن ظهور التجدد التقني الأساسي هو مصدر النمو. لكن عندما ينضب كمون نمو الابتكارات، تبرز الأزمة وتستمر إلى أن تبزغ ابتكارات جديدة تكون الأساس في دورة أخرى من النمو.هذا التجدد الدوري للابتكارات التقنية يشكل «آلية التدمير الخلاقة». ويشير شومبيتر إلى الدور الأساسي للمقاولين في هذه الآلية لأنهم مدفوعون في البحث عن الربح،

فيشجعون بزوغ تقنيات جديدة أكثر نجاحاً من سابقتها.

أما الباحث الاقتصادي البريطاني جون كين ١٨٨٣-١٩٤٦ John Keynes فهو ليس عدواً للرأسمالية لكنه يعتقد أنها إن تركت لنفسها قد تسبب البطالة والأزمات. في عام ١٩٣٦ وفي «نظريته العامة حول العمل والفائدة والعملة» ينصح في سياسات الأعمال الكبيرة بتوزيع أكثر عدالة ومساواة للثروات كما ينصح بسياسة نقدية موجهة إلى تشجيع الاستثمار. وقد جرى تطبيق سياسات لجون كين خلال الثلاثين سنة المجيدة ١٩٤٥- ١٩٧٥، كما يعاد الاهتمام بها منذ أزمة ٢٠٠٨ العالمية.

تاريخياً: كانت أعوام ١٩٢٠ هادئة على مستوى العالم ومزدهرة بالنسبة إلى فرنسا والسويد وأستراليا وكندا. وفي الولايات المتحدة، ازداد الإنتاج الصناعي بنسبة ٢٦٪ بين عام ١٩٢٦ وعام ١٩٢٩. ترافقت هذه البحبوحة الجديدة بشهية قوية للقرض والبورصة والمضاربة. وبين بداية عام ١٩٢٨ وحتى شهر أيلول من عام ١٩٢٩ ارتفع مؤشر داوجونز للقيم الصناعية ضعفين، فكان ذلك ازدهاراً مضللاً وغبطة علمية باهرة، وتناقضات بنيوية مدمرة، هكذا كانت الثلاثية المشؤومة التي أدت إلى أخطر أزمة اقتصادية في تاريخ الرأسمالية، لأنه بعد ذلك استولى الذعر على وول ستريت في نهاية شهر أكتوبر عام ١٩٢٩ في سياق أزمة كامنة، أدى الانهيار المالي إلى سقوط النظام المصرفي وإلى جمود اقتصادي شديد، إنها الأزمة التي غيّرت وجه الرأسمالية[٣٠]. بدأت عندها الرأسمالية بمواجهة أكبر تحد لها من جراء الكساد العظيم الذي كان هبوطًا عالمياً في النشاط الاقتصادي وحيث أغلقت كثير من المصارف والمصانع والمحال التجارية أبوابها خلال الثلاثينيات من القرن العشرين وفقد كثير من الناس وظائفهم ومساكنهم ومدخراتهم، كما فقد الكثيرون منهم ثقتهم في الرأسمالية، وبحث كثير من القادة السياسيين عن نظريات اقتصادية جديدة.

استمر الكساد العظيم حتى بداية الأربعينيات من القرن العشرين، عندما نجح أخيرًا الإنفاق الحكومي العسكري الضخم خلال الحرب العالمية الثانية في تنشيط الاقتصاد العالمي. وبعد نهاية الحرب وحتى منتصف السبعينيات قامت الحكومات الرأسمالية بزيادة إنفاقها بشدة، وبالتحكم في اقتصادياتها.

في بداية الثلث الأخير من القرن العشرين بدت تلوح في الأفق بوادر عصر جديد: وهو إنشاء نادي في قرية من جبال الألب السويسرية اسمها «دافوس»،

وكان ذلــك عــام ١٩٧١، اجتمــع فيه كبار قــادة المشاريع الأوروبيــة. باجتماعهم هنا، تمكنــوا مــن مراقبة وملاحظــة الحضارة بمنظار الأعمال. وبسرعة كبيرة، أخذ المكان باستقبــال رجــال أعمال من جميــع أنحاء العالم ثم القادة السياسيين، فالجامعيين بغية البحــث عن مستثمريــن، ليبدأ منه عصر العولمة الجديــد. الجميع، مــن مصنعين، وسياسيــين ومنظرّين مجتمعين، أبدوا قبولاً لمبــدأ دافوس المركــزي: المصلحــة العامة ليست سوى ناتج ثانوي للمبادلات والمضاربة والمصالح الخاصّة.

والانطلاقة الحقيقيــة للعولمة تعود إلى الانهيار الاقتصــادي الحاصل عام ١٩٧٣، الأزمة الشبح. وقد قالوا إن ذلك ليس سوى ركــود اقتصــادي، ثم أزمة أخــرى، وهكذا دواليك، موكب من الأزمات يُقلَّل من قيمتها علــى الدوام، وهــي دومــاً في طريقها إلى الحل.

وفي عــام ١٩٧٥، تم إنشــاء الــ: G٦، وهــو سلف الـG٨، وبهــدف مماثل للتجمع السويســري: اجتمع قادة أقــوى الفعاليات الاقتصاديــة القومية كــي ينظروا إلى العالم مــن خلال الواقع الاقتصادي المشوّه. لم تكن العلاقات بين الأمم الكبيرة قبل ذلك بمثل هــذا الوضوح وهــذا التصميم وقد ترتبت حــول المصالح التجارية فقط الخاصّة بكل أمة منها مهملة التوازنات –مضرة كانت أم مفيدة– التــي تجلبها المعايــير الاجتماعية وحقــوق الإنســان، والأنظمــة السياسية، والســلالات الحاكمة، والأديــان، والحتمية العرقية.

وفي عــام ١٩٧٧م: ذكــر وزيــر الزراعة الأمريكي قائلاً: «إن العجز في العالم الثالث يمكنه أن يعطي الولايات المتحدة الأمريكية سلطة لم تتمتع بها من قبل فخلال السنوات العجاف يمكن لواشنطــن الحصول مبدئياً على سلطة الحيــاة و الموت تجاه الجماهير المعوزة في المناطق الفقيرة».

ومنذ أعــوام ١٩٨٠ تشكلت الرأسمالية الحديثة حيــث تأسست وبنيت بشكل خاص على خلل وعدم انتظام النشاط المالي.

وفي بداية أعوام ٢٠٠٠ تمَّ اتخاذ تدابير تجــاه التحولات التــي طرأت منــذ أعوام ١٩٨٠. بدأ العديد مــن الباحثين يتحدثون عن «رأسماليــة جديدة» مبوبة تحت علامة مرونــة في جميع الاتجاهــات، نشأت بفعل عولمة المال والإنتاج.(٣١)

وفي مطلــع أعــوام ٢٠١٠، دقت ساعة الحسابات، حيــث تصادف الأزمة مع نهاية العديد من الــدورات الاقتصادية. فالأزمة المالية الكبرى التي تدفقت على كل المجموع الاقتصــادي للكرة الأرضيــة تفرض أن يتم صنع بيان بالتغيرات الفجائية الطارئة خلال

العقـود الثلاثة الأخـيرة. ترافقت الأشكال الجديـدة لتنظيم العمل بشـكل منتظم مع إضعاف الأجور والرواتب وتعاونيات العمل الجماعي.

إن انحرافـات الرأسماليـة المتعلقـة بالنواحـي الماليـة، وازدياد الفـروق وعدم المساواة لهي أمور ظاهرة جداً. المال العالمي لم يف بوعـوده في معادلة وتسوية مستويات النمو وفوق ذلك يسبب أزمة شبيهة بشدتها بأزمة عام ١٩٢٩. الوضع بحاجة لإجراءات عاجلة في إعادة تأسيس رأسمالية تكون أكثر تنظيمـاً، ومؤطرة من جديـد، دون أن يعلم أحد إن كانت القوى الغربية الكبيرة ستكون قادرة على دفعهـا وتحريكها بهذا الاتجاه. في هذه الأثنـاء، بزوغ آسيا من جديد خلط مرة أخرى أوراق الهيمنة العالمية. فقد قدّم لنا هـذا العقد الأخير العديد من الإشارات تدعونا للتساؤل إن كنا سنشهد أخيراً خريف التفـوق الغربـي وهيمنته علـى الاقتصاد العالمي، دون أن يدري أحد إن كنا نتجه نحو رأسمالية متعـددة الأقطاب وغير مسبوقة، أو إن كان القـرن الواحد والعشرون سيكون بتصميم وعزم قرناً آسيوياً بامتياز؟.

الهوامش

١- كزافييه مولينا Xavier Molenat– العلوم الإنسانية

٢- وفق النسخة الرابعة عشرة لتقرير ميريل

World Wealth Report de Merrill Lynch Wealth Management et Capgemini.

– عن صحيفة لوفيغارو، عدد ٢٠١٠/٦/٢٢

٣- وفق شرح لورانس كريتيان Laurence Chretien.

٤- تنبؤ جيل دار Gilles Dard.

٥- كزافييه دي لافيغا، Xavier de la Vega– أصول الرأسمالية – العلوم الإنسانية Sciences Humaines.

6- P. Norel, L'Histoire économique globale, Seuil, 2009.

تاريخ الاقتصاد العالمي، نوريل

7- F. Braudel, Civilisation matérielle, économie et capitalisme (XVe-XVIIIe siècle), 3 vol., 1979, rééd. LGF, 2000.

فرنان بروديل، حضارة مادية، اقتصاد ورأسمالية من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر.

٨- جوستين كانون Justine Canone – العلوم الإنسانية.

9- Song.

10-E.H. Mielants, The Origins of Capitalism and the «Rise of the West», Temple University Press, 2007.

ميلان، أصول الرأسمالية وصعود الغرب.

11-K. Pomeranz, Une grande divergence. La Chine, l'Europe et la construction de l'économie mondiale, Albin Michel, 2010. - الصين وأوروبة وبناء الاقتصاد العالمي.

12-Yantze.

13-Adam Smith.

14-E. Meiksins Wood, L'Origine du capitalisme. Une étude approfondie, Lux, 2009.

– ميكسين، أصول الرأسمالية. دراسة معمقة.

١٥- انطون سعادة، نشوء الأمم، ص١٢١.

١٦- انطون سعادة، نشوء الأمم، صفحة ١٢٠.

١٧- انطون سعادة نشوء الأمم، صفحة ١٢٢.

١٨- انطون سعادة نشوء الأمم، صفحة ١٢٥.

١٩- انطون سعادة، الأعمال الكاملة، الجزء الثامن، صفحة ١٦٠.

20- M. Weber, Économie et société, 1921, rééd. Stock, 2003.

فيبير، الاقتصاد والمجتمع ١٩٢١

21-Karl Polanyi.

22-Marchandisation.

23-K. Polanyi, La Grande Transformation, 1944, rééd. Gallimard, coll «Tel», 2009.

بولاني، التحوّل الكبير ١٩٤٤.

24-Joseph Schumpeter.

25-W.W. Rostow, Les Étapes de la croissance économique. Un manifeste non communiste, 3e éd., Economica, 1997.

روستو، مراحل النمو الاقتصادي. بيان غير شيوعي.

٢٦- فيليب مينار

Philippe Minard – العلوم الإنسانية Sciences Humaines.

27-G. Arrighi, Adam Smith à Pékin. Les promesses de la voie chinoise, Max Milo, 2009.

٢٨- وبيفرلي سيلفر Beverly Silver أو إيريك ميلان Eric Mielans.

٢٩- كليرمان لوفران Clerment Lefranc –Sciences Humaines.

٣٠- الباحث اوليفييه بروسار Olivier Brossard– العلوم الإنسانية Sciences Humaines.

٣١- كزافييه دي لا فيغا، دراسة في الرأسمالية عن مجلة العلوم الإنسانية Xavier de la Vega، Sciences Humaines.

المصادر

١- الباحث الفرنسي كزافييه دي لا فيغا، مجلة العلوم الإنسانية Sciences Humaines.
٢- الموسوعة العربية العالمية.
٣- موسوعة ويكيبيديا.
٤- موقع الجزيرة.
٥- موقع الحزب الشيوعي الأردني.
٦- منتدى العالم الثالث.
٧- منتدى التسامح:

www.altasamoh.net/Article.asp?Id=435 - 100k

٨- صوت العمال:

www.sautalomal.com/tarikh_al_haraka/2t.htm - 52k -

٩- ملتقى ابن خلدون لعلم الاجتماع.
١٠- التايلورية، ميكائيل سيلفان، مجلة الاقتصاد الاجتماعي رقم ٣ و٤.
١١- مجلة تحولات، العولمة، عدد كانون الأول، ٢٠٠٥.

الدراسات والبحوث



هندسة الذاكرة

دراسة في السياقات العصبية للذاكرة

د. إقبال كمال مرشان ❁

في كل يوم يمضي يهبط بنا سلم الحياة، ويرتقي بنا سلم الذاكرة، نوسانٌ ما بين الوجه والكينونة إذا شئنا التعبير، فماذا يعني أن نتذكر؟ أي المقاربات هــي الأصح في دراسة الذاكرة، هل نظريات فيزيولوجيا الأعصاب، أم علوم الاستعراف، أم نماذج الذاكرة المعلوماتية؟

هــل بإمكاننـــا مكننـــة الذاكــرة (mechanization) وفقــاً للمفهوم الديكارتي؟ أمن العبث البحث عن الذاكرة دون معرفة بناها العصبية؟ أيمكننا اختــزال الذاكرة إلى مجموعة من النماذج المعلوماتية، كيف لنا أن نبتكر تلك

❁❁ طبيب وباحث سوري.

العمل الفني: الفنان مطيع علي.

النماذج للتفضيل والحكمة والقصدية والألم والبصـيرة، وإذا كان /بيرغسـون/ قد أقر بوجود ذاكرتين إحداهمـا حركية (آلية) - أي دماغية- وذاكرة الروح المرتبطة بنشاط الاستذكار المستقل والتلقائي فإن /سبينوزا/ قـد رأى بالذاكرة برهاناً على عدم حريتنا، فـإلى أي حـد ترتبـط مقاصدنـا بجهاز الذاكرة؟!

إن نتاجات الدماغ كاللغة والفكر والذاكرة والوعي والخيال أشياء لا يمكن مكننتها على الإطلاق، تلك الصورة (الممكننة) التي تمتد جذورها من ديكارت إلى ماير ١٩٣٨، ومنذ عصر جاليلو إلى العصور الحديثة خبا صوت الآليـة الصارمة ليحل محله صوت الحياتية والانتخابية الداروينية. وإذا ما تتبعنا تأثير فكرة المعرفـة القبلية لـ (كانت) نجد أنه في العام ١٩٤١ (كونراد لورنس) يشبّه التراكيب الدماغية المؤهلـة للخدمة بزعانف الحوت الوليد التي تؤهله للسباحة، كما لو أن دماغ الإنسان مصمم لحظة ولادته بأن تكون لديه بصيرة بالخصائص الكونية والتي ليست في مستوى إدراكنا الحي على حد تعبير «إرنست ماير»، فأين موقع الذاكرة العاملة في الدماغ بالنسبة لهذا المفهوم الأصولي؟

وكما نعلم فإن أهم وصف يميز الهندسة هـو التجريـد والنمذجـة، فكيـف نطابق نماذجنـا الذاكرية مع نماذجنـا الهندسية، إننـا نختار الوعي بالذاكـرة إلا إذا وضعنا أنفسنـا في نسيجهـا المـكاني والزماني في آن معـاً، إن الحـدث لـكل آن هو نقطة في نسيجنـا ذاك، ومن نقطـة تقاطع الحدث المكاني مع اللحظـة الزمانية تنطبع الخبرة في وعينـا، وعلى ذلك تتنضـد الذاكرة في مستويات الشعور بـدءاً من الأبسط والأعم إلى الدقيق والخاص في بناء هرمي، وحينما يوجه انتباهي بشكل مباشر نحو ظاهرة ما.. تضطرم أوصال العصبونات ويضيء الدماغ (كمـا أراد شيرنغتـون في ثلاثينيات القرن المنصـرم) كقرية كونيـة، ولدراسة الذاكرة فإنه يجب علينا أولاً.. أن نبحث عن آلياتها في المستـوى ما بـين الخلوي وثانيـاً.. في المستوى الجزيئي والبنيوي الخلوي، وثالثاً.. في مستوى الـدارات العصبيـة، ورابعاً في المستوى السيكولوجـي.. إن بيولوجيا النقل العصبـي هي أكثر مـن كهربائية تسري بين العصبونات، فهـي نظام تراسل بيوكيميائي خصوصاً إذا علمنا أن المكتشف من النواقل العصبية (ماينوف ٥٠ نوعاً) إضافة للتفاعل الجزيئـي داخل الخلايا العصبية وذلك من خـلال وحدة تكامليـة للمنظومة العصبية، يضاف إلى ذلك كله إرث جيني على مستوى الفرد والنوع.

إن ذاكرتنـا غائرة في جذورنا وحين يلحّ «كلود ليفـي شتراوس» بأننـا في العمق من



نتاجنا الإنساني بنية موحدة، نرى أن يونغ يلتمس بموهبة ولطف أعمق ما في ذواتنا الذاكرية (في نظريته عن اللاشعور الجمعي) وفي المكان المركزي من نفسنا ينتظم نسيج المكان والزمان كواقع صغري عجائبي يوحّد نوعنا الإنساني، ويدفعنا باتجاه فهم أشمل لمفهوم الذاكرة.

يمكننا تعريف الذاكرة عموماً بأنها الوظيفة أو الوظائف العقلية التي تعمل على احتفاظ المرء بآثار خبرات الماضي واستعادتها أو الانتفاع بها فيما بعد، سواء على المستوى الشعوري، أو قبل الشعوري أو اللاشعوري.

ويمكننا القول إن الذاكرة تبدلٌ في السلوك ناتج عن تجربة، وبذلك تكون قطع منعزلة من النسيج العصبي حتى لو كانت مستمدة من أجزاء محيطية من الجهاز العصبي قادرة على التذكر.(1)

• **نظريتان للذاكرة:**

إن ما يدعى نظرية الأثر ترجع أصولها إلى ريتشارد سيمون Richard Semon وعلى الرغم من أنه فيلسوف كـ هوبز ولوك إلا أن جميعهم قد كتبوا عن آثار الذاكرة، فقد قدم سيمون التعريف التالي عن الذاكرة:

«إنها الأثر الذي تتركه خبرة ما في الدماغ (engram) ويعتقد أن الأحداث المثيرة تؤثر في العضوية بيولوجياً وتحدث تغيرات وانتقالات فيزيولوجية للعناصر المثارة انفعالياً، ونتيجة ذلك يجري إنتاج آثار الخبرة في الدماغ وذلك بالنسبة لحدث

أو خبرة مـــا». ويقول سيمـــون «إن كل مثير نوعـــي يعمل علـــى تشفير آثـــار خاصة في الدمـــاغ، والأحداث المثـــيرة المتكررة يجري تخزينها على شكل آثـــار منفصلة ومستقلة Separate engrams وحالمـــا يتكون أثر معين، فإنـــه يحمل إمـــكان الاستثارة تحت شروط معينة، وتصبح تلك الآثار مخزنة على شـــكل سجل بيولوجي لكل مثير أو حدث من الأحداث الحقيقية.(٢)

– لقد تلقت نظرية الأثر دعماً بيولوجياً من قبل «دونالد هب» ١٩٤٩ ومن قبل الجراح العصبـــي الشهير «ويندر بنفيلد» ١٩٥٨ لقد اكتشف أن الاستعادة الحـــرة أو الاسترجاع الحر لبعض التفصيلات الخاصة أو الفنية لأحـــداث معينة تجري عندمـــا تثار مناطق معينة من المخ.(٣)

– وفي مقابل ذلك بـــرزت نظرية أخرى توصـــل إليهـــا «بارتليـــت» أثبت عـــدم دقة التذكـــر معتبراً أن أكثر تمثلات الذاكرة لدى الأفراد هـــي بمنزلة تقرّبـــات لبلوغ المعنى العـــام للأحداث وخاصة التفصيلات المهمة والمتميزة.(٤)

– دُعي ذلـــك المفهوم «بالنظرية البنائية للذاكرة»، ويمكن إيجاز الخلافات الأساسية بين نظريتي الأثر والبنائية بما يلي:

١– الدقة النسبيـــة لنظرية الأثر مقابل عدم الدقة النسبية للنظرية البنائية لتمثلات الذاكرة للأحداث الأصلية.

٢– تمثـــلات الذاكـــرة الخاصـــة جـــداً (نظريـــة الأثر) مقابـــل التمثـــلات العامة للذاكرة (النظرية البنائية).

٣– يعتبر المفحوصـــ بمنزلة متلق سلبي ويسجّل الأحداث بصـــورة مطابقة للأصل (نظرية الأثر) مقابل اعتبار المفحوص على أنه بنـــاء ومركّب فعّال لتمثـــلات الذاكرة. (نظرية البنائية).(٥)

– إن الوصـــف النظري البيولوجي الذي قدمنـــاه يقابلـــه وصـــف آخر يـــزاوج فيما بين النمـــاذج المعلوماتية للذاكـــرة والنماذج العصبونيـــة، حيث أن النمـــاذج المعلوماتية تفترضـــ توافقاً بين الذاكرة البشرية وذاكرة حواسيبنـــا، وتصف هذه النمـــاذج الذاكرة البشريـــة بأنها مركبة من وحـــدات جزئية، والمعالجة الأولية تقـــوم علاقاتها الوظيفية بتحديد بنية ما أو هيكلية ما. وفيها تضبط آليـــة المراقبة دفق المعلومـــات التي يعالجها النظـــام وتخزن هذه المعلومـــات في مواضع محددة من الذاكرة.(٦)

– أما النماذج الوصلية فإنها تعتمد على وجود شبكات عصبونية صورية مستوحاة من تنظيم أو تعضي خلايا الدماغ، تتم معالجة المعطيات بوساطة شبكة من وحدات صغرية تقـــوم بالمعالجة على نحـــو متزامن ومتوازٍ، وتفترض أن المعلومـــة لا تتموضع على نحو

دقيق بل تتوزع في مجمل النظام في قلب شبكة من العصبونات.(٧)

• هل من موضع للذاكرة في الدماغ؟

لقد أثبت «كارل لاشلي» من جامعة هارفرد وجود فائض في مخزون الذاكرة عندما أزال جراحياً القشرة المخية في الجرذان دون أن تتأثر بشكل ملحوظ في قدراتها السلوكية، وهكذا يتضح أن الذاكرة يجب أن تكون متوضعة في أماكن مختلفة من الدماغ.(٨)

إضافة لذلك فقد برهن الباحث «روي جوف» جامعة نيويورك على أن الإشارات الكهربائية الحسّية النوعية يمكن ملاحظتها في مناطق متسعة من الدماغ سواء كانت (مناطق من قشرة الدماغ أو ما تحتها) بعد أن يتم أخذ العلم بالمنبه.(٩)

– وتشير الدراسات السيكولوجية إلى أن الفص قبل الجبهي Perfrontal lobe ذو أهمية في تنظيم وربط كثير من الحقائق الراهنة وعلى هذا فإنه أكثر قدرة على القيام بمهام الذاكرة قصيرة الأمد وأقل قدرة على القيام بمهام الذاكرة بعيدة الأمد.(١٠)

وإذا افترضنا أن الذاكرة هي إحدى وظائف القشرة المخية ككل.. وبمعنى أدق، نوع من الصدى الحركي أو نموذج للموجة الكهربائية الدائمة في الأجزاء المكونة لها أكثر مما هو خزن ساكن للمعلومات في أجزاء منفصلة في الدماغ، فإن ذلك يفسر بقاء الذاكرة بعد حدوث تلف كبير في الدماغ، ففي التجربة التي نفذها طبيب الأعصاب «رالف جيرارد» جامعة /ميتشغان/ نجد أن الهمسترات (حيوان قارض شبيه بالجرذ) عُلّمت كيف تمر في شبكة ممرات بسيطة، ثم وضعت بدرجة حرارة قريبة من درجة التجمد (التجميد الحيوي). لقد حدث أن الهمسترات تذكرت كل شيء بعد فك التجميد عنها. وهنا يمكن القول إن بقاء الذكريات بعد حدوث آفات كبيرة بالدماغ يجب أن يكون ناجماً عن خزن فائض معطيات الذاكرة الساكنة في أماكن مختلفة.(١١)

– تتصل القشرة المخية قبل الجبهية عصبياً مع جميع باحات الدماغ التي تعالج المعلومات الحسية، وهي تقع في مكان مناسب يمكنها من الاحتفاظ بمخزون قابل للزيادة من المعلومات.

لقد بينت الباحثة (كولدمان . راكيك) وزملاؤها لعام ١٩٩٨ أن النشاط العصبي قبل الجبهي يتطابق مع أداء الذاكرة العاملة، حيث أن مستقبلات الناقل العصبي Dopamine تؤثر بشكل حيوي في استجابة الخلايا الموجودة في القشرة المخية قبل الجبهية، وفي وظائفها بالذاكرة العاملة،

ويبدو عموماً أن القشرة المخية قبل الجبهية لـدى الرئيسيـات Primates تبدو دائماً مشغولة حينما يحتفظ بالمعلومة المستخدمة بالعقل.(١٢)

إضافـة لذلك فـإن كلاً مـن (كورتني وأونكرلايـدر) وزملائهمـا لعـام ١٩٩٦ أوضحـا باستخدام التصوير الطبقي بالبث البوزيـتروني Position Emission Tomography (pet)، أنـه توجـد لدى البشر والقرود باحات دماغية معينة تنشط بشكل خاص في مهـام الذاكرة العاملة ذات العلاقـة بالتفاصيـل الإبصاريـة والمواقع الحيزية للأشياء.(١٣)

إنها باحات القشرة المخية قبل الجبهية، فهل هنـاك ما يميـز القشـرة المخية قبل الجبهية في بناء وتنظيم الذاكرة؟

لقد قدم «بترايدس» -جامعة ماك كيل- لعـام ١٩٩٨ أن هناك مستويـين مستقلين للمعالجـة Processing كلاهمـا يقعان داخل القشرة المخية قبل الجبهية، ويتمايزان بالتجريـد Abstract فالمستـوى الأدنـى (الأخفض طبيعياً) بالدماغ من حيث الموقع والإدراك -يسترجـع البيانـات مـن مخزن الذاكـرة الطويلـة الأمد الكائـن في مكان آخـر- أما المستوى الأعلـى (الأرقى)، فإنه يتمتـع بالمراقبة ومتابعـة تسلسل الأحداث العديدة مما يوحي بـأن الأجزاء العليا من القشرة المخية قبل الجبهيـة تملك مفتاحاً للضبط الذاتي. Self Monitoring.(١٤)

ولأن القشرة المخيـة قبل الجبهية تعمل كوسيـط بـين الذاكرة والفعـل نستطيع أن نتصـور أن إتلافهـا لا يؤثـر في الاحتفاظ بالمعلومات عن العـالم الخارجي وإنما يفقد الكائن الحـي القدرة على استحضارها إلى العقل للاستفادة منها.(١٥)

• الأحداث العصبونية في المستوى الصغري للذاكرة:

- يقول «جاك مونو»: إن الذاكرة مُسجلة على صـورة تغيير ما. تختلف درجة قابليته للانعكاس في التفاعلات الجزيئية المسؤولة عـن انتقال التيـار العصبي علـى مستوى مجموعة من الأوصال العصبية.(١٦)

أيضاً فإن النصيـب الأكبر من ذكرياتنا هـي ذكريات سالبة وليست موجبة، بمعنى أن أدمغتنا تفيضـ بمعلومات حسّية بكل أنواع حواسنا، فـإذا حاول عقلنـا تذكر كل هذه المعلومات لتجاوز بذلك كل إمكانيات عقلنا خلال دقائق، ولحسن الحظ فإن أدمغتنا لها القدرة على تجاهـل المعلومات غير المثيرة. ويتولـد ذلـك مـن تثبيـط Inhibition السبـل المشبكيـة (في نقـاط الاتصال بين العصبونات). أيضاً فإن الدماغ يقوم بتعزيز وخزن آثار الذاكرة لتلك المعلومات التي تولد نتائج مهمـة كالألم أو البهجـة، وهي ذاكرة

موجبة تتولد من تيسير السبل المشبكية Facilitation (في نقاط الاتصال بين العصبونات).[١٧]

كذلك فإن الذاكرة تحتاج إلى تغيرات طويلة الأمد في العصبونات تستمر من ثوان إلى أشهر بعد زوال المادة الناقلة (بين المشابك العصبونية) الأولية. وبما أن القنوات الأيونية× بعد المشبكية تنغلق خلال -ملِّ ثانية- بعد غياب المادة الناقلة، فإنه ينجز الفعل العصبوني المطول بوساطة تفعيل (مرسال ثاني) داخل الخلية العصبونية بعد المشبكية نفسها.[١٨]

إن العصبونات المسؤولة عن خبرة ذاكراتية تنتظم بشكل جمهرة عصبونية – Neural cliques – ويقول (تسيين) لعام ٢٠٠٨: إن الدماغ يعتمد على عصبات مشفرة للذاكرة لغرض تسجيل واستخلاص المعالم المختلفة للحادثة بعينها، وتنظم المعلومات الخاصة بحادثة ما ضمن هرم تنظّم مستوياته تراتبياً. بدءاً من المعالم المجردة الأكثر عمومية وانتهاءً بالنواحي الأكثر نوعية.[١٩]

وبناءً عليه هل ثمة اختلاف على المستوى العصبوني المشبكي (المستوى الصغري) يميز نوعي الذاكرة القصير والطويل الأمد؟

إننا نطلق على الذكريات التي تدوم لثوانٍ أو على الأكثر لدقائق اسم الذاكرة قصيرة الأمد Short term memory وهي تدوم ما دام الشخص مستمراً بالتفكير بهذه الذكريات، أو بهذه الحقائق، ويتم ذلك من خلال (التيسير أو التثبيط قبل المشبكي). يحدث ذلك بالمشابك التي تقع على نهايات قبل المشبكية وليس على العصبونات التالية لها. بمعنى أن الناقلات العصبية في هذه الأماكن تسبب تيسيرا أو تثبيطاً مشبكياً مطولاً لمدة ثوانٍ أو عدة دقائق.[٢٠]

– ويمكن أن تتولد الذاكرة القصيرة الأمد من تراكم كميات كبيرة من أيونات الكالسيوم في النهايات قبل المشبكية بسبب (جهود الفعل) action potential المتعاقبة على النهاية نفسها قبل المشبكية بحيث لا تتمكن المتقدّرات (ميتوكوندريا) والشبكة الهيولية الباطنة من امتصاص الأيونات كافة. وإذّ ذاك يحدث تحريراً قبل مشبكياً مطولاً من المادة الناقلة في المشبك العصبوني.[٢١]

– إضافة إلى ما سبق فإن الذاكرة القصيرة الأمد تعتمد على الملاحظة الفيزيولوجية. حيث أن الموقع من لحاء المخ الذي تمت استثارته لمدة ثانية أو أكثر يستمر في إطلاق نشاط إيقاعي لمدة ثوانٍ أو دقائق، إذ إن التنبيهات تدور حول حلقة مترابطة من الخلايا العصبية في الموقع نفسه من لحاء المخ، وعندما يتلاشى هذا التذبذب أو الترداد Reverberation

يتلاشى دور الذاكرة الوقتية. وإذا ما حدث أن استثيرت الخلية العصبية نفسها مرة أخرى فإنها تستجيب بقوة أعلى من المستوى الطبيعي.(٢٢)

وهكذا يبدو أن الذاكرة القصيرة الأمد هي الذاكرة الأولية بناء على التغيرات العصبونية المصاحبة لها، إنها غرف الذاكرة المؤقتة والسريعة في قطار التذكر..!

أما الذاكرة الطويلة الأمد Long Term Memory فهي الذاكرة التي إذا خُزِنت يمكن تذكّرها بعد سنين وحتى طيلة العمر كله.(٢٣)

ويرافق تلك الذاكرة مجموعة من التغيرات البنيوية في المشابك العصبونية وأهمها:

أولاً: تغيرات تشريحية بالمشابك العصبية، حيث أنه يرى بعض علماء الفيزيولوجيا أن التنبيه المطول يحدث زيادة في عدد النهايات العصبية، وفي النهايات قبل المشبكية والتي من الواضح أنها تجعل مسالك المشابك العصبية أكثر قابلية للاستثارة عن الظروف العادية، ويرى البعض أن تركيب النهايات قبل المشبكية يتغير من حيث الحجم أو الشكل، ومن الواضح أن تراكيب الخلايا الدبقية Glia cells المحيطة بالخلايا العصبية تتغير تغيراً ملحوظاً وفقاً لتغير الظروف الوظيفية المختلفة للمخ.(٢٤)

ثانياً: تغيرات بيولوجية للمشابك العصبونية حيث أنه ليس من الضروري حدوث تغيرات بالتركيب الفيزيقي للمشابك العصبونية، وإنما قدرة النهايات قبل المشبكية على إفراز مركّبات ناقلة للسّيال العصبي، أو بسبب حدوث تغير بالقدرة على إطلاق المواد الناقلة للسّيال.(٢٥)

- ونشير هنا إلى أن التكرار له دور في تحويل الذاكرة القصيرة الأمد إلى ذاكرة طويلة الأمد، حيث أن للدماغ نزعة طبيعية لترديد المعلومات المستحدثة خصوصاً التي تجلب انتباه العقل.(٢٦)

- لقد قام (ميرزنيش) من جامعة كاليفورنيا لعام ١٩٩٤ بفحص تمثيل اليد في الباحة الحسيّة للقشرة المخية وكان المختصون يعتقدون أن هذا التمثيل يبقى ثابتاً طيلة الحياة، ولكن تبين أن الخرائط القشرية هي عرضة لتحوير مستمر مبني على استعمالات السبل الحسية، ولما كنا ننشأ في بيئات مختلفة (حسية+ حركية) لذا فإنه سيحدث تحور على نحو طفيف في البنيان القائم في أدمغتنا، ويمثل ذلك الأساس البيولوجي للفردية Individuality.(٢٧)

• ثلاث مراحل استعرافية للذاكرة طويلة الأمد:

- إننا نستطيع أن نستجلي ثلاث مراحل استعرافية تمر بها الذاكرة طويلة الأمد:

١- تشــكل سيرورات التميــز والتخزين المرحلــة الأولى من الذاكــرة طويلة الأمد، وربما يكــون الترميز مزدوجــاً للمعلومات على شكل لفظي أو على شكل صور، أو على الشكلــين معاً، وقد تكــون هنالك مستويات مختلفة من التصور الذاكري، مستوىً عميق تترمز فيــه المعلومــات على شــكل قضايا ومستوىً سطحي حيث يمكن أن يكون الشكل لفظياً أو صورياً.(٢٨)

٢- يشكل التنظيم المرحلة الثانية، حيث أن هنالــك بعض الذكريــات المستقرة جداً التي لا تتشوش بتغــير سياقات الاسترجاع. إنها المفاهيم أو المعارف العامة التي نضمها تحت اسم الذاكرة الدلالية.(٢٩)

٣- أمــا المرحلة الثالثــة للذاكرة طويلة الأمد فتشمل عملية الاستذكار/ الاسترجاع، ويمكن أن يتم الاسترجاع هنا بصورة مباشرة أو غــير مباشرة، بالحالــة الأولى فإننا نعيّ عملية التذكر كالإجابة على سؤالٍ ما، أما إذا كنا نقرأ كتاباً أو ننزل سلماً فإن ذلك يتطلّب ولوجاً متعــدداً إلى الذاكــرة، إلى الكلمات والمعــاني بالنسبة للقــراءة، وإلى التصورات الحركية والإدراكيــة بالنسبة لنزول السلم، وفي مثــل هــذه الحالة فإننــا لا نعي تنفيذ الاسترجاع.(٣٠)

• مـا هـو دور الـزمـن في اختـزان الذاكرة؟

يبــدو أن هنالك برهة مــن الزمن تكون بمثابة توطيــد لا تتواجد الذكريات خلالها إلا علــى شــكل ديناميكــي أو كهربائــي - كهركيميائي- فأثناء هــذه البرهة يجب ألا يجري تشويش الذكريات حتى يجري نقشها على شكل إنغرام ENGRAM بنيوي دائم، فإذا تحطــم إثر ذكرى ديناميــة أثناء فترة التوطيد، فإن الذكرى تغيب إلى الأبد.(٣١)

وكما ألمحنا سابقاً إلى أهمية الترميز في اختزان الذاكرة حيث ترمــز الذكريات من صنــوف مختلفة من المعلومــات، وتستدعى خلال هذه العملية المعلومــات المشابهة لها مــن مخازن الذاكرة وتقــارن معها، لذا فإن المعلومات الجديــدة أثناء عملية الترسيخ لا تخــزن عشوائياً بالدماغ بــل تخزن بترابط مباشر مــع الذكريــات الأخرى مــن نفس النوع.(٣٢)

- هذا يعني أن جوهــر عملية الترسيخ consolidation يبدأ بالتغيرات الكيميائية والفيزيائيــة والتشريحيــة في المشابــك العصبونية المسؤولة عن النوع الطويل الأمد للذاكــرة، وتستغرق هــذه العملية ٥ - ١٠ دقائق للترسيخ الأصغري ومدة ساعة أو أكثر للترسيخ القوي.(٣٣)

• دور (الحُصين hippocampus) في سيرورة الذاكرة:

- وإذا ما حاولنا أن نستقصي عن المراكز الدماغية المسؤولة عن اختزان الذاكرة فإننا

نرى أن المكون الرئيسي لقدرتنا على التذكر موجود في الحصين - Hippocampus . الذي هو جزء من القسم أو الجهاز الحوفي Limbic system في منطقة الدماغ الأوسط، حيث أن الأضرار الدماغية التي تصيب هذا الجزء تجعل الشخص يعيش دون ذاكرة ويخلق إحساساً بالضياع.(٣٤)

- لقد بينت العديد من التجارب أن الحصين يخلق حالة من الإثارة الصنعية حيث يبدو أنها ضرورية للتذكر، وبفضل ذلك تتمكن الذاكرة من انتقاء الأمر المهم، واعتبرت نظريات أخرى أن الحصين مثير للانتباه، وفي الواقع فإن الحصين من الناحية التشريحية شديد التقارب مع البنى الحوفية التي تراقب الحفز والانفعال والإثابة.(٣٥)

- وفي الدراسة التي أجراها الباحث (فريد مان) -جامعة بيل ١٩٩٤- بوساطة قياس (أيض المخ) Brain Metabolism (تقنية قياس فعالية مناطق من الدماغ عن طريق عملية الاستقلاب في الخلايا العصبية) . أظهرت نشاطاً متزامناً في تلفيف الحصين وبعض ساحات القشرة المخية، وفي رأيه إن الحصين يعمل على توطيد الارتباطات الجديدة بين العصبونات في حين أن القشرة قبل الجبهية ضرورية لاسترجاع حصائل التعلم الترابطي من أماكن التخزين طويل الأمد بغية استخدامها في المهمة الراهنة.(٣٦)

- أيضاً فإن (متشكين) -من معهد الصحة الوطنية و (أمارال) و (زولا- موركان)- من جامعة كاليفورنيا ١٩٩٤ . يؤكدون أن آفات الحصين لا تتدخل في اختزان الذاكرة الجديدة، فالحصين يعالج المعلومات الحديثة التعلم لمدة أسابيع وحتى شهر ومن ثم ينقلها إلى باحات معينة في قشرة المخ حيث تحقق اختزاناً أكثر ديمومة.(٣٧)

- ومن المحتمل أيضاً أن الحصين هو أحد السبل الصادرة المهمة من باحات الثواب Reward والعقاب Punishment - للجهاز الحوفي- حيث تستثير المنبهات الحسية أو الأفكار التي تولد الألم أو الكراهية. مراكز العقاب الحوفية، بينما تستثير المنبهات التي تولد البهجة والسعادة أو حتى الثواب مراكز الثواب الحوفية (الجهاز الحوفي Limbic System)، ويوفر ذلك للشخص بواعث وخلفيات مزاجية تكون باعثة على التذكر سواءً كانت سارة أم غير سارة.(٣٨)

- وهكذا بعد أن رأينا أن ترسيخ الذكريات يفترض أنه يتم بموجب مجموعة من البنى الدماغية إضافة إلى تبدلات كمية ونوعية في التعضي العصبوني، وذلك من أجل استحضار الذكريات، وتكوين حلقة تجمع الماضي مع الحاضر سعياً وراء توجيه

الانتباه نحو رؤية المستقبل، وعلى هذا فإن لفعل الذاكرة هنا بعداً ثلاثياً غائياً Teleological من خلال جوابنا عن الماضي الذي لم يعد موجوداً، وعن المستقبل الذي لا يزال غير موجود، وعن الحاضر الذي يتلاشى خلال اللحظة التي يولد فيها، فالتذكر يتيح لنا أن نأخذ بالحسبان معاً هذه الأبعاد الزمنية الثلاثة، كما كان (كانت) قد لاحظ ذلك جيداً، (كانت) الذي يعتبر أن ملكة التذكر وملكة التنبؤ تستخدمان (لتحبكا في تجربة متماسكة، ما لم يعد موجوداً وما لا يزال غير موجود بوساطة الموجود)، وتذكر الماضي تحدٍ موجه للمستقبل، تحدٍ يكمن في أن نوازن حالياً بين ما كنّا قد صنعنا وما يمكن أن نصنع.(٣٩)

لذا فإن الزمن هو مواقع الأحداث في هندسة النسيج الذاكري، وهو العنصر (الميتا ـ بيولوجي) الذي يستهدف ربط الأحداث في الدماغ بالزمن الخارجي (الكوني) فهل ثمة زمن آخر راسبٌ في ذاكرتنا؟

– إن الإنسان القديم لم يتعود على الاحتفاظ بشيء في ذاكرته بتخطيط مقصود، بل كان يتصرف تبعاً لباعث مباشر، ولنزوع عفوي، وفي لحظة تماسه مع الشيء تظهر صورة الشيء نفسه، وصورة الفعل كجسد للفكرة، أي كتصور للشيء.(٤٠)

– ويمكننا أن نسمي تلك الذاكرة ـ الذاكرة البدئية Primary memory ـ وهذه الذاكرة لا يمكنها أن تنفصل عن الفاعلية الجارية وعن ظروفها، شأنها شأن التفكير البدئي: أي التي ليس بمقدور الأفراد أن يتكلموا عنها، والسلوك المكتسب بوصفه مكتسباً ومندمجاً، هو حضور الماضي أو حضور في الماضي (وليس ذاكرة الماضي) إنها ذاكرة دون احتياز للوعي تؤثر بالفرد دون علم منه، وتروض الجسم لتجعله ذا ذاكرةً وهي ضربٌ من الاغتراب المؤسس للهوية.(٤١)

– وحسب نظرية (جاسون براون) ـ جامعة نيويورك ـ بأن التفارقات الانفعالية للذاكرة هي حالات من التراجع إلى مستويات أشد بدائية من التعضي الدماغي.(٤٢)

– لكن كيف يتم ربط الذاكرات البدئية لتؤلف فيما بعد ذاكرة الفرد..؟ يقول (يونغ) إن الذاكرة المتصلة لا وجود لها في السنوات الأولى من الحياة، ولا تظهر إلا كجزر من الواعية أو أشياء مضيئة في أعماق الظلام. إن هذه الجزر شيء أكثر وشيء أجد، هذا الشيء هو السلسلة من المحتويات النفسية التي تشكل ما ندعوه (الأنا)، وشأنها في ذلك شأن المحتويات الأولية تماماً إنما هي موضوع في الواعية، ولهذا يتحدث الطفل عن نفسه بصورة موضوعية ـ بصيغة الغائب. ويضيف يونغ ـ ولا شك أنه في اللحظة التي

يبدأ فيها الطفل بالتحدث عن نفسه بصيغة المتكلم، عند هذا المستوى تتشكل بداية الذاكرة المتصلة.[٤٣]

- إن الاتصال الزماني ـ المكاني للذاكرة يولد الإحساس بواقعيتها ويمنحها بعداً سيكولوجياً أما نتيجة وحدة (الفرد / الحدث) في النسيج الزماني- المكاني يوّلد المعرفة ويمنح الشخص بعداً انطولوجياً.. فكيف يكون ذلك..؟

إن الذاكرة التي يجري ترميزها زمانياً ومكانياً temporally and spatially coded هي ذاكرة الأحداث، وذاكرة السير الذاتية تمثل جميعها على هذا النوع من الذاكرة، وذلك لأن معالجة المعلومات فيها تكون زمانياً أو مكانياً، ويقول (تولفينغ). إن هذا النوع من الذاكرة يتضمن دوماً مرجعيات للسيرة الذاتية بحيث تجري فيها مقارنة حدث ما مع الذكرى. أما الذاكرة الدلالية اللفظية فتعزى إلى الذاكرى التي تخزن بشكل لغوي ورمزي stored in linguistic and symbolic form وكل واحد منها له قواعد خاصة بعملها ومن أمثلة الذاكرة الدلالية ـ الرياضيات، واللغة ويسمي تولفينغ منظومة ذاكرة الأحداث بأنها تذكر الخبرات الذاتية، والذاكرة الدلالية اللفظية هي منظومة المعرفة knowing.[٤٤]

- لقد وصف (شاكز) في عام ١٩٩٥ بأن التذكر الواعي لخبرة سابقة يجري قياسه عن طريق تقرير الذات self report سواء عن طريق الاستدعاء أو اختبارات التعرف ويترافق دوماً بالوعي والمعرفة awareness تلك هي الذاكرة الصريحة ـ أما عندما يتم التذكر بشكل غير هادف، أو غير واعي ويقاس مباشرة عن طريق تأثير الذاكرة على الأداء، فإننا هنا بإزاء الذاكرة الضمنية.[٤٥]

- ألا يسعنا الاستنتاج من ذلك بأن نموذج الذاكرة الصريحة يرتبط بشكل أوثق مع نموذج ذاكرة الأحداث، ذلك أن كلا النموذجين يبرز فيهما دور الوعي، بمعنى أن الذاكرة الصريحة تتطلب الوعي والإرادة في إنشاء التقارير الذاتية، وذاكرة الأحداث يتطلب فيها معالجة زمانية ـ مكانية للأحداث، ونقول هنا (الأحداث الواعية). إن الصريح ينطلق هنا من كونه حدثيٍّ بمعنى أنه أكثر ارتباطاً بالواقع الزماني ـ المكاني، ومن وحدتهما تتشكل الذاكرة الواقعية (الموضوعية).

- وكذلك الأمر فإن نموذج الذاكرة الضمنية يرتبط أيضاً بشكل أقرب مع نموذج الذاكرة الدلالية اللفظية، ذلك أن كلا النموذجين يخفي ضمن آلياته سيرورات غير واعية، بمعنى أن الذاكرة الضمنية يتبدى أداؤها بشكل غير واعي (غير هادف) فهو لا يشترط النية والإرادة، أما الذاكرة

الدلالية اللفظية فهي تعتبر النموذج المعرفي المميز للإنسان، وبناءها الداخلي يتشكل وفق آليات غير واعية. يمكن أن نرى ذلك في نتاج الأساطير أو حتى الفن-وربما بدايات التفكير الرياضي (الصوري والرمزي)، ومن هنا نرى أن الضمني ذاتيٌّ في صميمه، والدلالي اللفظي- معرفيٌّ في شكله وبنائه.

• موقع الذاكرة من الذات؟

يبدو لنا أن الذاكرة أصل الشعور بالاستمرارية الزمنية والشرط الضروري لتصور وحدة الأنا، فمن المدة الزمنية والقدرة التذكرية على إدراكها، إنما يولد الوعي بالذات ربما. والفرد هنا يستهدف العالم بوساطة الذاكرة ويجتاز الوعي بهذا العالم على نحوٍ مستمر ويظهر نواياه إزاءه، ويبنيه وينظمه في الزمان والمكان ويمنحه المعنى.(٤٦)

إن الفارق الجذري بين ذاكرة الإنسان وذاكرة الحواسيب هي (الذات) ذلك أن الحواسيب لا تدمج الأحداث المحفوظة لذاكرتها في معنى، ولا تجعل منها موضوعاً للتصور، وتكون هذه الحواسيب من جهة أخرى غريبة عن كل فكرة بمرور الزمن الذي يولد من تعاقب الإحساسات التي تذكّر بها الذاكرة، فحين أن الدماغ البشري قادر على أن يبتكر استراتيجيات على نحو مستقل، ويبني برامجه الخاصة (تنظيم الذات)، إن الذاكرة الإنسانية تصورية وذاكرة الحواسيب تقتصر على العرض، وهي عاجزة عن أن تختار، أن تتذكر، أو أن تقرر أن تنسى.(٤٧)

- إن التذكر أو النسيان يُظهر علاقة وجودية مع المدة الزمنية. يقول (باشلار): لم تحتفظ نفسنا بالذكرى الأمينة لعمرنا ولا بالقياس الحقيقي لطول السفر في السنين. إنها لم تحتفظ (المدة الزمنية) إلا بذكرى الأحداث التي كونتنا في اللحظات الحاسمة من ماضينا. فالتذكر يرتب الأحداث المدركة وفق نظام عقلاني في لحظة الاستحضار نفسها خلال (أنات فاعلة) بالمعنى الذي يطلقه باشلار عليها، حيث يجري احتياز الذاكرة. وهو احتياز للوعي بالذات في الوقت نفسه.(٤٨)

- إن عمل الذاكرة ليس فردياً على نحو محض، فقيادة السرد التي تحدد فعل التذكر تتكيف دفعة واحدة مع الشروط الجمعية للتعبير عنه، إذ يتعدل الشعور بالماضي عندئذ وفقاً للمجتمع، إن نسيجاً ذاكرياً جمعياً تماماً هو الذي سيغذي شعورنا بالهوية. إن الذاكرات المنظمة تظهر عندئذ كذاكرات فعّالة، قوية، صلبة، تعزّز الاعتقاد باشتراك الجماعة في أصل وتاريخ مشتركين، وعندما تكون الذاكرة دون قوام، وتكون الأغراض مشوشة والمشروعات غامضة، فإن الذاكرة المنظمة لا تفلح في أن تنبعث وتظل ضعيفة ومتشظية.(٤٩)

الهوامش

• القنـوات الأيونيـة: في غشـاء العصبون بعـد المشبكي- قنوات هابطـة- تسمح بمرور أيونـات الصوديوم وأحياناً البوتاسيـوم أو الكالسيوم وقنوات صاعـدة تسمح بمرور أيونات الكلوريد وتبطن القنـوات الهابطة بشحنات سالبة تسمـح بانجذاب أيونات الصوديوم الموجبة في حين تبطن القنوات الصاعدة بشحنات موجبة تسمع بانتقال أيونات الملوريد السالبة وذلك عندما تزداد أقطار كلا هاتين القناتين.

ويمكننا القول بتوضيح أكبر مايلي:

أولاً- حصـول زيادة عدد مواقع تحرير الحويصلات لفرز المادة الناقلـة وذلك على سطح النهاية قبل المشبكية المحيط بها الفلح المشبكي Synaptix Cleft الذي يفصلها عن النهاية بعد المشبكية بسعة (٢٠٠- ٣٠٠ أنغستروم).

ثانياً- لا يزداد فقط عدد مواقع تحرير الحويصلات ولكن يزداد أيضاً عدد الحويصلات الناقلة في كل نهاية قبل مشبكية.

ثالثاً- زيادة في عدد النهايات قبل المشبكية مع استمرار التدريب، يصل عددها إلى أكثر من ضعف السوي وبالتالي يزداد طول تغصنات Dendrites العصبونات المتتالية لتتكيف مع المشابك الإضافية. (راجع- المرجع في الفيزيولوجيا الطبية. المصادر. ص٨٨٣).

المصادر

١- فيرست، تشارلز- الدماغ والفكر، ترجمة: د.محمود سيد رصاص، دار المعرفة، دمشق ط /٢/ ١٩٩٣، ص١٨٥.
٢- د. عبد الله، محمد قاسم، سيكولوجية الذاكرة- قضايا واتجاهات حديثة، سلسلة عالم المعرفة- فبراير ٢٠٠٣، ص١٨ — ١٩.
٣- د. عبـد الله، محمـد قاسم، سيكولوجيـة الذاكرة- قضايا واتجاهـات حديثة، سلسلة عالم المعرفـة- فبراير ٢٠٠٣، ص١٩-٢٠.
٤- د. عبد الله، محمد قاسم، سيكولوجية الذاكرة- قضايا واتجاهات حديثة، مصدر سابق، ص٢١.
٥- د. عبد الله، محمد قاسم، سيكولوجية الذاكرة- قضايا واتجاهات حديثة، مصدر سابق، ص٢٢.
٦- دورتييـه، فرانسوا- الدماغ والفكر، ثورة علوم الاستعـراف، ترجمة محمد دنيا، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ط /١/، ٢٠٠٧، ص٣٤٣.
٧- دورتييه، فرانسوا- الدماغ والفكر، ثورة علوم الاستعراف، مصدر سابق، ص٣٤٣.
٨- ساغـان، كارل- تنانين عدن، تأمـلات في تطور العقل البشري، ترجمة: نافع أيـوب لبس، منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق بلا رقم طبعة، ١٩٩٦، ص١٥.
٩- فيرست، تشارلز- الدماغ والفكر، ترجمة: د.محمود سيد رصاص، دار المعرفة، دمشق ط /٢/ ١٩٩٣، ص١٨١.
١٠- د. اسماعيل، عزت سيد، علم النفس الفيزيولوجي، الناشر وكالة المطبوعات- عبد الله حرمي- الكويت- ط /١/

١٩٨٢، ص٧٥٥- ٧٥٦.
١١- ساغـان، كارل- تنانـين عدن، تأملات في تطور العقل البشري، ترجمة: نافـع أيوب لبس، منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق بلا رقم طبعة، ١٩٩٦، ص١٨.
١٢- بيرد سلي، آلية التفكير، مجلة العلوم الأمريكية، العدد ٥، المجلد ١٤، ١٩٩٨، ص١٣- ١٤.
١٣- بيرد سلي، آلية التفكير، مجلة العلوم الأمريكية، العدد ٥، المجلد ١٤، ١٩٩٨، ص١٤.
١٤- بيرد سلي، آلية التفكير، مجلة العلوم الأمريكية، العدد ٥، المجلد ١٤، ١٩٩٨، ص١٥.
١٥- راكيك، الذاكرة العاملة والعقل، مجلة العلوم الأمريكية، العدد ٥، المجلد ١٠، ١٩٩٤.
١٦- مونـو، جاك- المصادفة والضرورة، محاولة في الفلسفة الطبيعية لعلم الحياة الحديث، ترجمة: د. حافظ الجمالي، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق ط /٢/ ١٩٩٨، ص١٣٧.
١٧- غايتـون وهول- المرجـع في الفيزيولوجيا الطبية، ترجمة: أ.د. صادق الهلالي- تحرير د. محمد دبس، مصدر سابق، ص٨٨١.
١٨- غايتون وهول- المرجع في الفيزيولوجيا الطبية، مصدر سابق، ص٦٧٤.
١٩- تسيين، كود الذاكرة، مجلة العلوم الأميركية، العددان ٦/٧، المجلد ٢٤، ٢٠٠٨.
٢٠- غايتون وهول- المرجع في الفيزيولوجيا الطبية، مصدر سابق، ص٨٨١.
٢١- غايتون وهول- المرجع في الفيزيولوجيا الطبية، مصدر سابق، ص٨٨١.
٢٢- د. اسماعيل، عزت سيد، علم النفس الفيزيولوجي، الناشر وكالة المطبوعات- عبد الله حرمي- الكويت- ط /١/ ١٩٨٢، ص٧٤٩- ٧٥٠.
٢٣- غايتون وهول- المرجع في الفيزيولوجيا الطبية، مصدر سابق ص٨٨٣.
٢٤- د. إسماعيل، عزت سيد، علم النفس الفيزيولوجي، الناشر وكالة المطبوعات- عبد الله حرمي- الكويت- ط /١/ ١٩٨٢، ص٧٥١.
٢٥- د. إسماعيل، عزت سيد، علم النفس الفيزيولوجي، الناشر وكالة المطبوعات- عبد الله حرمي- الكويت- ط /١/ ١٩٨٢، ص٧٥٢.
٢٦- غايتون وهول- المرجع في الفيزيولوجيا الطبية، مصدر سابق ص٨٨٤.
٢٧- كاندل وهاوكيس، الأساس البيولوجي للتعلم والفردية، مجلة العلوم الأمريكية، العدد ٥، المجلد ١٠، ١٩٩٤.
٢٨- دورتييه، فرانسوا- الدماغ والفكر، ثورة علوم الاستعراف، مصدر سابق، ص٣٣٩ـ ٣٤٠.
٢٩- دورتييه، فرانسوا- الدماغ والفكر، ثورة علوم الاستعراف، مصدر سابق، ص٣٤٠-٣٤١.
٣٠- دورتييه، فرانسوا- الدماغ والفكر، ثورة علوم الاستعراف، مصدر سابق، ص٣٤٢.
٣١- فيرست، تشارلز- الدماغ والفكر، ترجمة: د.محمود سيد رصاص، دار المعرفة، دمشق ط /٢/ ١٩٩٣، ص١٨٥.
٣٢- غايتون وهول- المرجع في الفيزيولوجيا الطبية، مصدر سابق ص٨٨٤.
٣٣- غايتون وهول- المرجع في الفيزيولوجيا الطبية، مصدر سابق ص٨٨٤.
٣٤- ساغان، كارل- تنانين عدن، تأملات في تطور العقل البشري، مصدر سابق، ص٢٠.

٣٥- فيرست، تشارلز- الدماغ والفكر، مصدر سابق، ص١٩٠.
٣٦- راكيك، الذاكرة العاملة والعقل، مجلة العلوم الأمريكية، العدد ٥، المجلد ١٠، ١٩٩٤.
٣٧- كاندل وهاوكيس، الأساس البيولوجي للتعلم والفردية، مجلة العلوم الأمريكية، العدد ٥، المجلد ١٠، ١٩٩٤.
٣٨- غايتون وهول- المرجع في الفيزيولوجيا الطبية، مصدر سابق، ص٨٨٥.
٣٩- كاندو، جويل، الذاكرة والهوية، ترجمة: وجيه أسعد، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ط /١/، ٢٠٠٩، ص٨١.
٤٠- غاتشف، غيورغي، الوعي والفن، ترجمة د. نوفل نيو، مراجعة د. سعد مصلوح، سلسلة عالم المعرفة، شباط / فبراير ١٩٩٠، ص١٥.
٤١- كاندو، جويل، الذاكرة والهوية، ترجمة: وجيه أسعد، مصدر سابق، ص٢١.
٤٢- فيرست، تشارلز- الدماغ والفكر، نصدر سابق، ص١٩٣.
٤٣- يونغ، البنية النفسية عند الإنسان، ترجمة: نهاد خياطة- منشورات دار الحوار، اللاذقية، ط /٢/ ٢٠٠٠، ص١٢-١٣.
٤٤- د. عبد الله، محمد قاسم، سيكولوجية الذاكرة- قضايا واتجاهات حديثة، سلسلة عالم المعرفة- فبراير ٢٠٠٣، ص٣٧-٣٨.
٤٥- د. عبد الله، محمد قاسم، سيكولوجية الذاكرة- قضايا واتجاهات حديثة، مصدر سابق، ص٣٨.
٤٦- كاندو، جويل، الذاكرة والهوية، ترجمة: وجيه أسعد، مصدر سابق، ص٧٢-٧٣.
٤٧- كاندو، جويل، الذاكرة والهوية، ترجمة: وجيه أسعد، مصدر سابق، ص٧٤-٧٥.
٤٨- كاندو، جويل، الذاكرة والهوية، ترجمة: وجيه أسعد، مصدر سابق، ص٨٠.
٤٩- كاندو، جويل، الذاكرة والهوية، ترجمة: وجيه أسعد، مصدر سابق، ص١٠٠.





الساعة البيولوجية والزمن

المهندس فايز فوق العادة *

تقبع في أعماق كل كائن حي ساعة بيولوجية خاصة به تولد إيقاعات زمنية تضبط بدورها فعاليات الكائن كافة بكل تفاصيلها بما في ذلك تلبية حاجات الكائن من الطعام والشراب. إن هناك ثلاث دورات رئيسية للساعات البيولوجية: دورة يومية وأخرى شهرية، ودورة زمنية أطول تغطي سنة كاملة. تقسم الدورة الأولى اليوم إلى نصفين متساويين تماماً ذلك أنها انطلقت أصلاً من المناطق الاستوائية. إن لكلٍ منا ساعة بيولوجية تتناغم مع اليوم القمري

** رئيس الجمعية الكونية السورية.

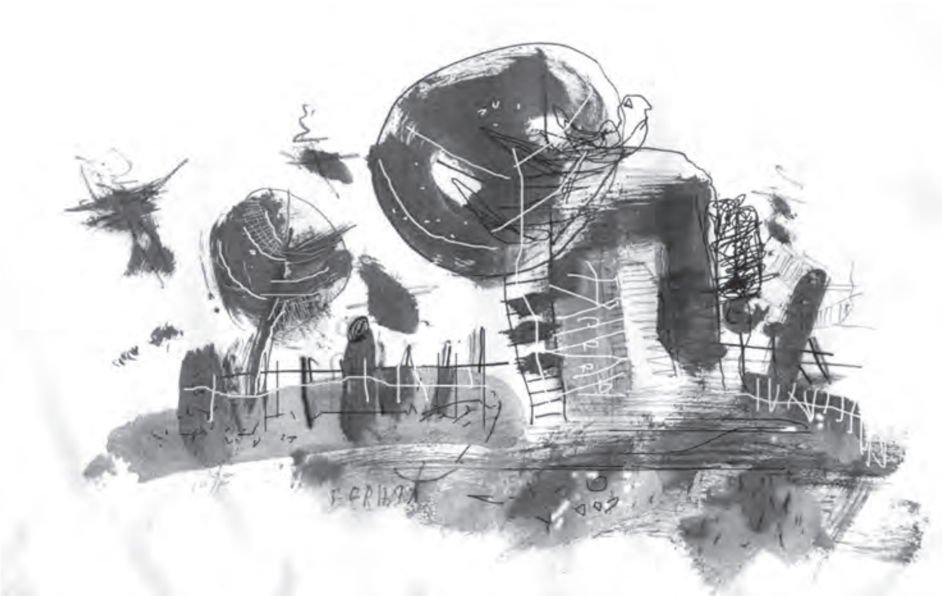
العمل الفني: الفنان شادي العيسمي.

ثم تعيد ضبط نفسها وفق اليوم الشمسي. يحدث ذلك قبل انتهاء أحد أطوار الساعة البيولوجية الشهرية وقد يترافق مع بعض الاضطرابات الوظيفية.

لاحظ العلماء أن الساعات البيولوجية للقردة بالغة الدقة وأدق من الساعات الذرية. تظهر الساعة البيولوجية اليومية للفرد الإنساني بشكل واضح وكما في الكائنات الأخرى إثر ضربة قوية على الرأس أو في نوبة من نوبات التهاب الدماغ السباتي.

إن هناك من الدلائل ما يشير إلى أن الإنسان الأول حتى قبل ثمانمئة ألف سنة كانت تتحكم في حياته ساعة بيولوجية أشبه بما نجده اليوم لدى الجرذان والقردة. ثابرت تلك الساعة على حث الفرد الإنساني للبحث عن مأوى أثناء الليل اتقاء لأخطار الكائنات الأخرى وعلى إيقاظه خشية التهديدات التي كان من الممكن أن يتعرض لها. إن دقة الساعة كانت بمثابة الضمانة الرئيسية للفرد الإنساني كي يستمر على قيد الحياة. وفرت النار إثر اكتشافها قبل ثمانمئة ألف سنة أداة فعالة لإبعاد الحيوانات المفترسة وأخذت تُحدث تغييرات طفيفة وتدريجية في الحياة اليومية للمجموعات البشرية من أهمها تأجيل مواعيد النوم والبقاء في حالة يقظة إلى ما بعد مغيب الشمس. كان لابد للساعة البيولوجية اليومية للإنسان عقب هذه التطورات من أن تغوص إلى عمق اللاوعي، لكنها لم تخرج عن دائرة الفعل فغدت موجهة لعملية التطور كما وأخذت تتأثر بها بدورها. من هنا كان الغياب الظاهري للساعة المذكورة في عصرنا. إن أي خلل في الوظائف العصبية من شأنه أن يدفع الساعة وآثارها إلى السطح. أما الساعة الشهرية فما زالت واضحة لدى إناث الجنس البشري، وإن كان بروز آثارها الجليلة يرتبط بحدوث الاضطرابات النفسية. يجد العلماء صعوبة بالغة في تعقب الساعة البيولوجية السنوية لدى الفرد الإنساني فقد دفعتها المدنية الحديثة إلى وهادٍ سحيقة من بنيوية الذات. لقد ضُبطت الساعة البيولوجية على إيقاعات التظاهرات الفلكية بشكل رئيسي.

كيف تحول الذات الإيقاعات الماضية والمستقبلية إلى (آنٍ بطيء)؟ كيف يترجم الدماغ الانطباعات الفيزيائية إلى مشاعر؟ هل العالم هو المشاعر؟ هل يُمكن توصيف هذه الكليانية (المحلية) بالفيزياء والرياضيات! على الرغم من أن الوعي



ينبثق عن الدماغ المصنوع من ذرات كثيرة منفصلة فإنه يبدو غير قابل للتجزئة. هل هناك تقابل بين علاقة الدماغ بالوعي من جهة وعلاقة المجال الفيزيائي بالجسيمات من جهة أخرى. إن الأساس الزمني هو حركة البيولوجيا في المحيط. تتخلق تلك الحركة بفعل الإرادة وتنجم عنها علاقة زمنية مع العالم، هل يعني ذلك أن الإرادة تُخلّق الزمن بمساعدة الساعات البيولوجية المدفونة في أعماق اللاوعي. يجد هذا التساؤل دعماً له بحقيقة وجود فعاليتين زمنيتين تحرضهما الإرادة وتنفذهما البيولوجيا ألا وهما التجديد الخلوي والصيانة الداخلية.

لا تتوافر فعاليات مشابهة في الطبيعة أو التكنولوجيا. تحرك التيارات الكهربائية الداخلية في المنظومة العصبية الوعي وتحفزه. هل يعني ذلك أن للحيوانات وعيها الخاص؟ يؤكد بعض العلماء هذا الأمر معللين بأن الحيوانات مصابة بحالات توحد أقرب لما يشاهد لدى بعض أفراد الجنس البشري.

تُعبّر الموسيقى عن جريان الكهرباء عبر البيولوجيا. من هنا كان تذوق الحيوانات والنباتات للموسيقى. نظراً لأن الموسيقى ترتيب لغير ذاتها فهي منظومة من موجات صوتية تتناغم الحياة معها. لذا نعتبر

الموسيقى أنموذجاً كونياً يعلمنا عن الفترة والاستمرار وتراتبية الأحداث وتكرارها وعلاقتها بالذاكرة والإدراك والساعات البيولوجية. لا يختلف العلماء على أثر الموسيقى في الساعات البيولوجية. ولأن الموسيقى تنطوي على فعلٍ فيزيائي فلعلها المعبر الحسي لاستشعار الوجود. يُختزل تذوق الموسيقى إلى تحسس بدهي عميق للزمن مضبوط على الساعات البيولوجية. لا زمن بلا ذاكرة. الموسيقى تركّز الذاكرة بالتالي تهب العقل زمنيته. تؤكد لنا الموسيقى أننا غارقون في لجة الكون. إن علاقة الذات بالموسيقى حدسية وليست منطقية على الرغم مما يبدو من بنيوية منطقية للموسيقى. لذا فإن الموسيقى لاتخضع للتخصص بل تتواجد وحسب: هناك موسيقى تناغم وموسيقى تنابذ. تصبح الموسيقى بالغة الجودة عندما يكون المُؤلف زمنياً بمعنى من المعاني أي عندما يكون والزمن عضوية واحدة. تحفز موسيقى التناغم الساعات البيولوجية لإجراء استبطان تنبثق عنه ذات مصقولة. إن الموسيقى المعاصرة هي موسيقى توقيت فهي محكومة بالتقويم والمواقيت الاجتماعية. إن الموسيقى الفعلية هي الموسيقى التماثلية مقارنة بالذات وساعاتها البيولوجية. أما الموسيقى الرقمية فهي ليست موسيقى على الإطلاق. هنا نطرح التساؤل التالي: كيف يستطيع الدماغ أن يُجرّد انطلاقاً من موجاتٍ مبهمة استشعار الزمن وتذوق الموسيقى؟

أوليس الشعر فصلاً من فصول الموسيقى؟ إن الدفق الزمني السريع والإيقاعات العاجلة للساعات البيولوجية، تقلب الحياة إلى شبه حلم. لذا اتخذ المتنبي موقفاً من التيار الزمني:

ولو برز الزمان إليّ شخصاً
لخضب شعرَ مفرقه حسامي

اختزل المتنبي الزمان ومعه ساعاته البيولوجية، إلى المكان بقوله:

لا أقمنا في مكانٍ وإن طاب
ولا يمكن المكان الرحيل
إذا صح فالزمان صحيح
وإذا اعتل فالزمان عليل

إن لحظة تدقها ساعة بيولوجية، هي الزمان بأسره. أكد ذلك جبران خليل جبران بقوله: «وكل لحظة انقضت لم تكن أبداً. ففي اللحظة الراهنة تذوب وتتحد عناصر الماضي والحاضر والمستقبل. أما الآن فقد

عرفت أن في الهنيهة الحاضرة كل الزمن بكل ما في الزمن مما يُرجى ويُنجز ويتحقق. أما الآن فقد علمت أن مكاناً أحل فيه هو كل مكان وأن فسحة أشغلها هي كل المسافات». الزمن هو الآن، لا زمن لا آن.

إن كان مكانٌ هو كل الأمكنة، فلاشك أننا أسرى للزمان. تمثل الساعة البيولوجية ذاكرة هذا الأسر، تحدث المعري عن الأسر الزماني:

وما الإنسان في التطواف إلاّ
أسير للزمان فما يُفك

عندما تدق الساعة البيولوجية دقة أخيرة لا تليها أية دقة تسود الظلمة ويتوقف الزمن. أشار المعري إلى ذلك:

يزيد ليلك إظلاماً إلى ظُلَمٍ
فماله آخر الأيام إصباح

وأكد عمر الخيام التماهي مع الأبدية بزوال كل الساعات البيولوجية التي عرفتها الحياة:

قد عصف الموت بهم فانطووا
واحتضنوا تحت تراب الأبد

تسود الطاقة المكان والزمان وهي ثابتة في كميتها وتساوي الصفر على صعيد الكون إذا أخذنا بعين الاعتبار الطاقة الكامنة الموجودة في كل حيز لكن النور يستتبع الظل: إن الأنتروبي هي ظل الطاقة. تحاول الأنتروبي تخريب ما تبنيه الطاقة: إن كانت الطاقة هي الترياق فالأنتروبي هي السم. وبعكس الطاقة، تزداد الأنتروبي على نحوٍ مطرد، ينطوي أي فعل كوني على تحول الطاقة من شكل لآخر، لكن هذا التحول غير متوازن، بمعنى أن جزءاً من الطاقة يتبدد على الدوام، أي يتحول إلى طاقة فوضوية غير هادفة تستحيل الإفادة منها. يمثل هذا التبدد ازدياد الانتروبي. إن وقود السيارة هو الطاقة، بينما الغاز المنطلق من العادم هو الأنتروبي. إن الأنتروبي هي الفوضى ويضمها مع الطاقة القانون العام الخاص بانحفاظ الطاقة. إذا صورنا الكون في هيئة مصنع كبير، تكون الأنتروبي أشبه بإدارة هذا المصنع، إذ إنها تقرر طبيعة ونوعية الأعمال التي يمكن إدراجها في الخطة، ثم تدفعها إلى حيز التطبيق الفعلي. أما الطاقة، فهي في هذه الحالة مراقب مالي، يتابع التوازن الدقيق بين الأرصدة والديون. ولا غرو في ذلك، فالأنتروبي تقرر الاتجاه اللاعكوس لجريان الأحداث، أي ذلك الاتجاه الذي لاعودة فيه إلى الماضي والمترافق مع تردي تدريجي في جودة الطاقة. يعني ما تقدم أن

لحظة من عمر الكون لا شك قادمة يعجز عندها كل جسم في الكون مهما كان عن الإفادة من أية كمية من الطاقة. إذ ذاك ينحدر الكون إلى الفناء فيما يُعرف بالموت الحراري أو الفوضوي للكون، لعلها مفارقة كبرى، إن أي تكوين بيولوجي هو تكوين غير مستقر يُنقص الأنتروبي داخله، بينما تزداد الأنتروبي الخاصة به لحظة الموت إلى اللانهاية.

تحدث المعري في هذا السياق إذ قال:

يحطمنا ريب الزمان كأننا
زجاج ولكن لا يعاد لنا سبك

أما عن زمن تردي الطاقة وتحولها إلى أنتروبي فقد أكد:

يُفني ولا يفنى ويُبلي
ولا يبلى ويأتي برخاء وويل

وعن نهاية فوضوية حرارية للكون أشار:

واللبيب اللبيب من ليس يغتر
بكون مصيره للفساد

وكان المتنبي قد سبقه إلى طرح مفاهيم مماثلة:

ولا تفتق الأيام ما أنت راتق
ولا ترتق الأيام ما أنت فاتق

حيث لاحظ الهبوط التدريجي للأحوال الخاصة بكل إنسان وفق اندثار الطاقة:

وما ماضي الشباب بمستردٍ
ولا يوم يمر بمستعاد

هكذا نضيف إلى الساعات البيولوجية التي أتينا على ذكرها ساعة بيولوجية أخرى لكل كائن حي.

تتخلل هذه الساعة البنيوية العميقة لجزيء الـ دي. إن. إي. الذي يُعرّف الكائن. إنها تحدد لحظة توقف الساعات البيولوجية اليومية والشهرية والسنوية. إنها بمثابة تعليمة النهاية المنطقية والفعلية للبرمجيات الفيزيولوجية للكائن الحي ولا غرو في ذلك فهي اختزال لكل تلك البرمجيات. وفي إسقاط ممتد سريع، نتصور ساعة بيولوجية خاصة بالكون- الكائن الحي تعين بدورها لحظة انفصال البنى المادية عن سيل الطاقة الحرة وانجرافها في تيار الأنتروبي بما يؤدي إلى الموت الحراري للكون. إن زمن تردي الطاقة هو الزمن الخطي، إنه دفقٌ مفروض من الماضي إلى المستقبل. إن لم يكن الزمن متتالية، فهو على الأقل ينطوي على متتالية.

هل يمكن للزمن أن يكون دائرياً؟ تطالعنا أساطير القبائل القديمة بمفهوم العود الأبدي حيث لا هروب من دوامة الزمن.

لا يكفي في هــذه الحالة أن تُضبط الساعة البيولوجية على نقطة الانطلاق من جديد. إن المطلوب تجديد الساعة، بل تصنيع ساعة جديدة تدق لكائن وليد. لكن الكائن الوليد بساعتــه الجديدة هو ذاتــه الكائن السابق بساعته القديمة. يتحدث بعض العلماء عن كــون نابض، يموت ويندثر، ثــم يُجمّع ذاته لينطلق في طورٍ مستحدث لذات الكون الذي مات وغاب.

هل الآن لحظة زمنيــة أم تقاطع الزمن مــع اللازمن. هــل يضــم الأزل والأبد كل الزمــن وهل قوانين الفيزياء أزل وأبد؟ وفق نيتشــه الآن لقطــة مــن الأزل- الأبد لأنها تكرر نفسهــا: بمعنى من المعاني الآن لحظة لا زمنية. عالــج بولتزمــان الموضوع نفسه بــأدوات علمية فقانونه عــن تكافؤ المعرفة والفوضــى صيغة من صيغ العــود الأبدي. تفيدنــا نظرية مطــورة عن وجهــة النظر الكونيــة التي ذكرناها للتو بــأن الكون يمر بعدد معــين ومحدد من الحــالات ثم يكرر نفســه. تصــور نيتشه أن العــالم الفيزيائي المحسوس هو الممكــن الوحيد بالتالي لا بد من العود الأبدي كي تكوّن الذات ما تريده. كان شوبنهــاور قد طــرح الفكرة نفسها عن ضرورة العود الأبدي كــي نتفحص الماضي لدى تخلله المستقبــل. لا يتحقق الكمال في البوذيــة إلاَّ بالتدريج، من هنا كانت ضرورة العود الأبدي. وفق البوذية اليابانية: الكينونة هي الزمن وبالعكس.

إن كان الماضي مفروضاً وثابتاً فماذا عن الحاضر والمستقبل، وهــل تكون المنظومات الأخلاقيــة إذ ذاك لا زمنيــة. ينصــ مبدأ الريبــة في الميكانيك الكوانتي على استحالة المعرفة بأي دقة اختيارية مسبقة. المستقبل في الميكانيك الكوانتي هو كذلك لأنه الريبة بحــد ذاتها. يحتــاج الرصــد والقياس في الفيزيــاء إلى مكان وزمــن محددين. أما في الميكانيك الكوانتي فيجري الرصد والقياس عبر امتداد مــكاني لا نهائي ولحظة زمنية تطابق الصفر.

بعد ذلك هل يمكن أن يكون هناك انتقاء اختيــاري؟ إن الانتقــاء الاختياري لن يكون كذلك إن لم يكن بالإمكان العودة بالزمن إلى الوراء لتبديل ما جرى انتقاؤه. عندما نرصد الأجرام البعيدة في الكون نقع على ما كانت عليه تلك الأجرام منذ أزمان بعيدة فالضوء المرتحل إلينا يستغرق مئات وآلاف وملايين السنوات كي يبلغ مراصدنــا. باختصار إن

الارتحال الرصدي في أعماق الكون يعود بنا إلى الماضي. هل يقود استبطان الذات بالمثل إلى العودة نحو ماضي الذات بل والكون. هل يُعزى قصورنا في استشعار الزمن إلى قصور مقابل للذات في استبطان ذاتها أو كما يؤكد الكاتب الكبير دوستويفسكي من أن الإنسان لا يقدر ما لديه حق قدره.

نعرج على موضوع الاستعارات الزمنية: تمثيل الزمن برقم التوقيت- تمثيل الزمن بمكان: الزمان البعيد: منذ مدة طويلة: غطى فترة زمنية واسعة- تمثيل الزمن بأطوار: حان الوقت: الزمن يخبرنا- الاستعارة والتمثيل الموسيقيان: تمثيل زمني للزمن.

إن الموضوعية في الفيزياء ليست الموضوعية في البيولوجيا. وفق هرمان ويل الموضوعية تعني عالماً غير متغير، أما حكم التغير الصادر بحق العالم فيعني ضمناً أن مصدر الحكم وهو العقل زمني الطابع. من هنا كان حديث العالم ويل عن خط الحياة الزمني المكاني. تُختزل الموضوعية في المنظور الزمني إلى حقيقة أن كل شيء هو موضوع للزمن أو زمني بالتعريف: لكن ما هو الزمن. إن الموضوعية والذاتية كلاهما ذاتي. حيثما ذهبت الذات فإنها تبلغ لا مكان بينما يندفع زمنها في متتالية رتيبة. نذكّر أن التخدير في العملية الجراحية لا يؤثر في المكان بينما يقفز بزمن المريض عدة ساعات ولربما عدة أيام ومعه تقفز الساعة البيولوجية.

يستحيل فصل الجسد الفيزيائي عن الذات أو الأنا: إنهما من جبلّة واحدة هي الزمن. إن القِدمَ لا يتخلق ولا يصح إلاَّ بقدوم الذات إلى الكون لحظة (الآن). من هنا كان مفهوم الأزلية- الأبدية. هكذا تكون لحظة الآن ارتطام الماضي بالمستقبل. أما من منظور الذاكرة فالآن هو الإمكانية الوحيدة المتاحة للذات كي تُوثِق. نظراً لأن الذات تعي ذاتها وتفسرها في ذاتها فإنها تنحت مصطلحات في سياق التفسير من مثل الماضي والحاضر والمستقبل. إذا أسبغنا مسحة التجريد على الزمن وحيدناه يسقط الآن ومعه تغيب الذات. ما الذات إلاَّ لحظة تُدمر وتُستعاد ولا يهم المكان. لذا وعلى الرغم من وجود أبجدية للموسيقى فإن التفاعل مع الموسيقى وتذوقها يتجاوز قاموس المصطلحات ويجتاز حاجز التوقيت ليهبط إلى أعماق الذات حيث نبع الزمن: الساعة البيولوجية.

تحدث هيغل عــن القوة المدمرة للزمن. وفق هيغــل الزمن يخلق النقيضــ بالتالي يعطي العالم حالة فعلية فالزمن ينفي نفسه: في الدياليكتيك: الزمن هو الزمن. إن فعلية المــكان والعالم هــي في حقيقتهــا استشعار زمني. قرر هيغل أن الزمن هو التاريخ لكنه أخطــأ في ذلك فهل سبــق أن اختار أحدنا توقيــت قدومه إلى العالم، ومــاذا عن تاريخ الكون. تحــدث سارتر وهيغل عن أن الزمن ماليس هو وماليس هو هو الزمن. إن الزمن هــو الحامل غير المحسوس لما هو محسوس، وهو الحامل البدهي لــكل شيء آخر. وفق هيغــل الزمن هــو التغــير في الأشياء، لكن مفهوم الزمــن لا زمني. يذهب ميرلو بونتي إلى استحالــة تواجد الــذات إن هي تعالت على الزمن (بعكس كانــت). نظراً لأن الآن يصبح ماضياً لدى تأمله فإن حقيقة الزمن تُختزل بأن الماضي هو الهدف الزمني وليس المستقبل. يُقال إن الأفــراد زائلون والفكرة باقيــة أو التاريــخ مستمــر. يُصنــف هذا القول في عــداد الأخطاء الفادحة، فالفكرة والتاريــخ بــدوره تُحمل في الأدمغــة. ماذا يتواجد أو يبقى إن لم تكن هناك أدمغة تولد ساعات بيولوجية. هنا كانت ضرورة إعطاء الأولوية لفهم العالم وليس لتحويله. تصور لا ينتز الاستمرار الزمنــي استناداً إلى فكرة الاستمــرار في الرياضيات والتي استخدمها لتعريف التفاضل والتكامل.

إن إنكار محدودية الــذات يدفع الذات إلى إسقاط تشخيصي عبر متتالية لحظات من الوقت لا معنى لها. يعني تفهم محدودية الــذات السائرة إلى الموت إعــادة مكاملتها مع طبيعتهــا الزمنية المضبوطــة بساعتها البيولوجية.

ذهب إدموند هوســرل إلى تشبيه التيار الزمني بمقطوعــة موسيقية بحيــث تَأْفُل وتغيب علامة موسيقية لتحل محلها علامة تالية. إن العلامة التالية هي علامة متوقعة وليست نشازاً. أما الزمن الذاتي فيصاغ في المطلق حيــث الاستبصــار اللازمني. يؤكد هوسرل أن الماضــي استبقاء والحاضر طور الذات بينمــا المستقبل استباق. رأى توماس هيدجــر أن الذات ليســت لقطة زمنية فلو كان الأمر كذلــك لما كان هناك تبصر. وفق هيدجر الماضي والحاضر والمستقبل لحظات وجد فالماضــي تكرار أو نسيــان والحاضر تبصر أو تصنيع أما المستقبل فهو حدس أو انتظار. طالعنا سوريــن كيركجارد بتأملات

أخرى فالماضي لديه تكفير والحاضر تحول والمستقبل انعتاق.

إن الساعة البيولوجية المُحدِدة للزمن هي ذاتها التي تدفع صاحبها إلى تصور كل ما هو لا زمني كالاستبصار اللازمني، كذلك لقطة التوقف المنطوية على الاستبقاء. أما الوجد فيتخلل الأنا عند تفاعل منتجات الساعة البيولوجية مع الزمن الموضوعي: زمن تردي الطاقة إن الساعة البيولوجية المجردة هي التي لا تأتي بأي نشاز، بل تدق لحظة تالية مُتَوَقعة في السياق. ألا تمتط اللحظة الزمنية في فيزياء النسبية، من هنا كان الامتداد الزمني المقابل في الحدس أو الانتظار والذي يرتبط بتباعد ملحوظ في دقات الساعة البيولوجية أخيراً: التفكير والتحول والانعتاق عمليات تتحقق بإمكانية الضبط على خلفية الساعة البيولوجية السنوية وربما الساعة البيولوجية الكليانية التي تنهي البرمجيات المنطقية والعقلية للبيولوجيا.

المراجع

1- Fraser, J.; Lawrence, N.: editors: The study of Time: (1975): Springer verlag.

2- Fraser, J. Time: the Familiar stranger: (1987): Tempus Books of Microsoft Press.

٣- الفوضى والحتمية: ترجمة هاني حداد: (٢٠٠٢)، وزارة الثقافة، سورية.

4- Asimov, I: The Roving Mind: (1997): Prometheus Books.





في الظرف والظرفاء

❁
فايز مقدسي

كلمة (ظرف) أُطلقت في أواخر العصر العباسي الذهبي على جماعة من الناس من الطبقة الراقية/رجال ونساء) لتدل على نمط معين من السلوك الخاص المرهف والرفيع المستوى في كل المجالات. وكان الواحد من هؤلاء يُطلق عليه اسم (ظريف) وفي صيغة الجمع (ظرفاء) أيّ المترفعون عن العامة في سلوكهم، وفي نظرتهم إلى الحياة. وهي نظرة مأساوية في الحقيقة تظهر دائماً في الفترة التي تبدأ فيه حضارة من الحضارات تستعد للموت والزوال.

❁❁ شاعر وباحث سوري باريس.
العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

وكان أولئك الظرفاء يستعدون للموت من دون أن يدروا. أو كانوا يواجهون الموت وهم في كامل زينتهم مما يجعلنا نفكر في الجماعة التي ظهرت في أوروبة في القرن التاسع عشر، والتي كان الواحد منها يُطلق عليه اسم /داندي/ أي الشخص المتظاهر الذي يبدي للناس وجها ليس هو وجهه الحقيقي عن طريق السلوك والملبس المتأنق وطريقة العيش في المجتمع الذي يترفع عنه /الداندي/ المتظاهر. وكان الشاعر الفرنسي الشهير /شارل بودلير/ مؤلف كتاب /أزهار الشر/ القرن التاسع عشر واحداً من أشهر هؤلاء.

إذا عدنا إلى الشخص الظريف في أواخر العصر العباسي الذهبي لندرس ظاهرة أولئك الظرفاء فسوف تواجهنا العديد من المصاعب حيث نجد أنه من الصعوبة بمكان العثور في بطون الكتب التي تحدثت أو تعرضت لظاهرة الظرف والظرفاء آنذاك على تعريف واضح ومكتمل للظرف. وسوف نرى أن تعريف الشخص الظريف يتنوع ويتعدد بتنوع وتعدد المؤلفين أنفسهم الذين يعطون هم أنفسهم تعريفاً للظرف وللظريف، أو ينقلون عن لسان من سبقهم تعريفات متعددة، وأحياناً متضاربة، لحالة الظرف.

وهكذا، وعلى هذا المنوال، يمكن أن نعتبر الظريف (في العصر العباسي) هو الذي يولي مظهره الخارجي اهتماماً خاصاً يفوق المألوف. أو الظرف هو التهتك. ولكنه في آن واحد، وبالنسبة إلى آخرين، العفة. وهو أيضاً البلاغة والفصاحة أو الميل إلى استعمال المفردات الناعمة والبعيدة عن خشونة ألفاظ الأعراب وأهل البادية. والظرف أيضاً الأدب والكتابة المتأنقة. وهو في تعريفات أخرى المروءة. كما أنه قد يكون كل هذه الخصال مجتمعة أو البعض منها أو واحدة منها وحسب. فليس هناك ما يمنع (حين نتصفح الكتب القليلة التي تعرضت أو أرخت للموضوع) أن تكون متصوفة عاشت تجربة الحب الإلهي مثل رابعة العدوية ظريفة وفي الوقت نفسه توصف ماجنة من أشهر ما جنات ذلك العصر والتي خصص لها الأصفهاني في كتابه الشهير الأغاني صفحات مطولة وهي (عريب) بالظرف. من ناحية أخرى فبالنسبة إلى البعض فكل شاعر عذري هو ظريف لأن العفة من شروط الظرف[1]. وبالنسبة إلى آخرين فشاعر متهتك كعمر بن أبي ربيعة هو ظريف. وهكذا نجد أن شخصين على



طــرفي نقيض ومــن عصرين مختلفــين كل منهمــا ظريف بالنسبــة إلى الشخصــ الذي يعطي التعريف.

لغويــاً لا يفيد معنى كلمة (ظــرف) في توضيــح الأمور. فالظــرف في المعاجــم هــو (الوعــاء) ليســ إلا. كمــا أن الكلمــة اليوم لم تَعُــدّ تستعمل ســوى لتــدل علــى شخصــ (ظريف) يعنــي صاحب نكتة وخفيــف الــدم ولــه حضور مسلي.

فــإذا قمنــا بالبحــث في الكتب التــي تحدثت عن تلك الظاهــرة فســوف نعثر على طائفة من التعريفــات التي حاولت تحديد معنى الظرف وتوضيح صفة الظريف.

وإلى القــارئ مــادة ظرف كمــا يعرفها قاموس لسان العرب:

/الظرف: البراعــة وذكاء القلب. وقيل الظرف حسن العبارة، وقيــل حسن الهيأة، وقيل الحذق بالشيء. عــن الأصمعي وابن الأعرابــي، الظريف: البليــغ الجيد. وقالا الظــرف في اللسان وقال غيرهما الظريف: الحسن الوجــه واللسان. يقال لسان ظريف ووجه ظريــف. والظــرف في اللسان (هو) البلاغة، وفي الوجه (هو) الحسن، وفي القلب (هو) الذكاء. والظرف هو الكياسة/.

أما ابــن الجوزي فقد عرّف الظرف في كتابه الموسوم بكتاب (الظراف والمتماجنين) فقــال (الظرف يكــون في صباحــة الوجه ورشاقة القد ونظافة الجسم والثوب وبلاغة اللســان وعذوبــة المنطق وطيــب الرائحة. والتقــزز من الأقذار والأفعــال المستهجنة. ويكون في خفة الحركة وقوة الذهن وملاحة

الفكاهة والمزاح. ويكون في الكرم والجود والعفو وغير ذلك من الخصال اللطيفة). ونلاحظ هنا أن ابن الجوزي يضع المتماجنين مع الظرفاء. وهو أمر يرفضه آخرون.

ويتابع ابن الجوزي كلامه بعد التعريفات السابقة فيقول:

(وكان الظريف مأخوذاً من الظرف الذي هو الوعاء. فكأنه (أيّ الظريف) وعاء لكل لطيف. وقد يقال ظريف لمن حصل فيه بعض هذه الخصال).

الوشّاء، وهو المؤلف الوحيد الذي كرّس كتاباً كاملاً للظرف جمع مادته كما ذكر من/ أقاويل جماعة من الظرفاء والظريفات وأهل الأدب والمروءات كما سمعناهم ورأيناهم يتكلمون./ فنحن هنا أمام شهادة هامة جداً رصدت الواقع كما كان وكما شاهده شاهد عيان هو الوشّاء صاحب الكتاب المذكور وبعد أن يسجل كل الخصال والصفات التي أوردها ابن الجوزي والتي سبق ذكرها فإن الوشاء يصف الظريف بخاصتين جديدتين هما المروءة والأدب/ لا أدب لمن لا مروءة له. ولا مروءة لمن لا ظرف له. ولا ظرف لمن لا أدب له./ ومن ثم، فعلى الظريف حتى يكون ظريفاً أن يتحلى أيضاً، وكما سبق، بالفصاحة والبلاغة. ثم يضيف الوشّاء خصلة جديدة هي العفة وصفة ثانية هي النزاهة. وينقل أبياتاً شعرية ينسبها إلى أبي عبد الله الواسطي وفيها ما يؤيد قوله:

ليس الظريف بكامل في ظرفه

حتى يكون عن الحرام عفيفا

فإذا تورّع عن محارم ربه

فهناك يدعوه الأنام ظريفا.

والعفة المقصودة هي العفة عن الجنس. والظريف هو من كان (فصيحاً عفيفا)

حول الحب العذري، وهل هو من الظرف في شيء أم لا؟ هذه الحكاية عن الأصمعي أنه قال: قلتُ للأعرابي مرة: ما العشق فيكم (في البادية) قال: النظرة بعد النظرة وإن كانت القبلة بعد القبلة فهو الوصول إلى الجنة. فقلتُ: ليس العشق عندنا (في الحواضر) كذلك. قال: فما هو عندكم العشق؟ قلت: تفرق (المرأة) بين رجليها وتحمل نفسك عليها. فقال: بأبي أنت لست بعاشق وإنما أنت طالب ولد.

وهنا نواجه مشكلة عويصة. فنحن إذا قبلنا كلام الوشّاء واعتبرنا أن العفة من شروط الظرف ومن صفات الظريف، فكيف نصنف عمر بن أبي ربيعة وعريب ومطيع بن إياس وغيرهم بين الظرفاء وقد كان الذين ذكرنا أسماءهم على سبيل المثال وليس الحصر أبعد الناس عن العفة كما يفهمها الوشاء. ويكفي أن يقرأ المرء كتاب

الأغاني ليقع على قصص كثيرة لم تكن العفة (بالمعنى الجنسي) تعني لهم شيئاً. وهو أمر يبين التناقض الذي نعثر عليه في تعريف الظرف كما كان في فترة محددة من التاريخ. وإذا تابعنا الوشّاء في كتابه (الموشى) فإننا سوف نعثر على تعريفات فيها الكثير من الأخلاقية وحسن السلوك بحيث أن الظريف يأخذ صورة الإنسان المثالي.

ففي باب سنن الظرف ينقل الوشّاء التعريفات التالية للظريف وللظرف. وهي تعريفات تتقارب وتتباعد وتتطابق وتتناقص كما سوف نرى.

(سألت بعض الظرفاء عن الظرف فقال (هو) التودد إلى الأخوان، وكف الأذى عن الجيران.

وقال آخر: الظرف ظرف النفس وسخاء الكف وعفة الفرج (.....) ثم يورد كلاماً للأصمعي وابن الأعرابي مفاده أن الظرف لايكون إلا في اللسان. فلان ظريف أيّ أنه بليغ.

ثم يتابع الوشّاء ناقلاً عن ابن سيرين أن الظرف مشتق من الفطنة. ثم ونقلا عن غيره، أن الظرف حسن الوجه والهيئة. وعن آخر، الظريف الذي قد تأدب وأخذ من العلوم فصار وعاء لها فهو ظرف.

ثم ينتقل الوشّاء إلى شيء مهم في تعريف الظرف، وفي كيفية التعرف إلى الظريف فيقول (.....إن المطبوع على الظرف/ وهذه العبارة تدل على أنه كان هناك ظريف مطبوع وظريف مصنوع/ ليشهد له القلب عند معاينته بحلاوته. وتسكن النفس عند لقائه إلى مجالسته. وتصبو إلى محادثته، وترتاح إلى مشاهدته. وهو (الظريف) بيّن في شمائله، ظاهر في خلائقه (أخلاقه) بيّن في منطقه، غير مستقر عند صمته (يعني أنه يستمع على نحو جميل) دلائله واضحة في مشيته وزيّه ولفظه، يستدل عليه بظاهر حركة الملاحة دون اختبار باطن الحلاوة).

وهنا نواجه صعوبة في كيفية (الحلاوة) في الظريف. هل تدل على المظهر الخارجي وحسب. أم أنها تعني حلاوة المظهر والسلوك؟ المقطع التالي من الكتاب يجعلنا نميل إلى الأخذ بالحلاوة في دلالتها الخارجية والداخلية. فالظريف إذاً هو المتحلي بكل ما سبق من صفات فهو الإنسان الكامل ظاهراً وباطناً والذي، وكما سبق، يُستدل عليه بظاهر حركة الملاحة قبل اختبار باطن الحلاوة.

ونحن لو استعرضنا أكثر الذين سموهم ظرفاء وعلى اختلاف أهوائهم وتناقض نظرتهم للحياة وللظرف نفسه لوجدنا أنه هناك خصوصية واحدة مع ذلك تجمع في

ما بينهم وهي تلك (الحلاوة الداخلية أو الباطنية) التي ذكرها (الوشّاء) كما سبق. وهذه (الحلاوة) كما سماها (الوشّاء) تحدث عنها (الجاحظ) برهافة حسه ودقة استعمالاته اللغوية ووضع لها اسماً لا يصل إليه سوى كاتب في مستوى الجاحظ. وهذا الاسم هو (الكياسة) وقد توصل إليه الجاحظ بكل ما فيه من حلاوات ودلالات. وهكذا يبدو الوشّاء ومن ثم الجاحظ وكأنهما أمسكا بمفتاح الظرف الذي هو الحلاوة الباطنة المطبوعة أو الكياسة التي تولد مع الإنسان ومن الصعب امتلاكها بوسيلة أخرى سوى من الناحية الخارجية التي سوف تبدو عندئذ بلا نكهة جمالية وليست سوى التصنع.

الكياسة هي التي تنعكس على الخارج فيصير الشخص ظريفاً تتوق إليه النفوس وتشتاق إليه الأرواح. وهنا نعود إلى معنى الكلمة القاموسي (الظرف هو الوعاء). والظريف هنا يصير كوعاء مملوء بالعسل كيفما أمسكت به وجدته حلواً. وهذه الكياسة هي التي وصلت إلى درجاتها العليا في القرن التاسع/العصر الذهبي العباسي في أواخره وأضحت سمة مميزة لجماعة من الناس أو لطبقة معينة من المجتمع تجاوزت في ظرفها أو في كياستها أو في حلاوتها الباطنة ما كان متعارفاً عليه من سلوك وأناقة وحيث تحول الطبيعي نفسه إلى مصطنع والمطبوع إلى متكلف والظريف إلى متظرف والزينة إلى صناعة وكان في كل ذلك حس مأساوي وعبثي يرافق دائماً زوال المدينة أو الحضارة. وفي مثل هذه الأجواء لا يعود الشخص يكتفي بما هو (جميل) بل يطمح إلى ابتكار (الجمال) الخاص والمصنوع برهافة وبدقة عاليتين حتى يكون محاطاً بالجمال المصنوع ويتفرد به. وكان ابتكار الجميل في أكثر الأحيان يقود المرء إلى ضرب من اللهو العجيب وقدر كبير من العبث المأساوي يذكرنا بقول مطيع بن إياس (من كبار ظرفاء عصره) وهو على فراش الموت عندما سألوه ماذا تتمنى؟ فأجاب: (أتمنى أن لا أموت). تلك هي حالات يقترن فيها الجمال الذي يتوق إليه المرء من خلال الفن والأدب بما هو فاجع. عندئذ يصير الجمال (أو الكياسة) عالي المستوى ولكنه مفعم بالحس العبثي كما سبق. وهناك حكاية في كتاب الأغاني تمثل الحالة التي نتحدث عنها وتقول (سأل (جعفر) (سلاّمة الزرقاء) وكان يهواها. هل ظفر منك أحد ممن كان يهواك بخلوة أو قبلة؟ فقالت إنه (يزيد بن عون) قبلني قبلة وقذف في فمي لؤلؤة بثلاثين ألف درهم). وهناك أيضاً

حكاية الخليفة المأمون (في كتاب المستظرف) الذي سأل (يحيى بن أكثم) عن شيء فقال: لا، وأيد الله أمير المؤمنين. فقال المأمون: (ما أظرف هذه (الواو) وأحسن موقعها. ولقد ذكر (يحي بن عدي) كلاماً هاماً حول الموضوع فقال: (إن الطبيعة تمل الشيء الواحد فلذلك اتخذت الألوان والأطعمة وأصناف الثياب وأنواع الطيب وفنون الأوتار والتحول من مكان إلى مكان والاستكثار من الإخوان والتفنن في الآداب والجمع بين الجد والهزل والزهد واللهو). وهذا الكلام ينطبق على الظرفاء.

و(ابن الجوزي) في كتابه (الظراف والمتماجنين) يخبرنا أن (خلف بن عمرو العكبري) العالم المعروف كان يملك ثلاثين خاتماً وثلاثين عصا حتى يغيرها كل يوم. ومثل هذه الحكايات كثير في بطون الكتب القديمة.

وسوف نختتم هذا البحث بالقول إنه رغم أن الشخص الظريف له حضور سابق في أكثر الحضارات القديمة، غير أنه اتخذ صفة شبه رسمية في أواخر العصر العباسي الذهبي حيث ظهرت، كما أسلفنا، جماعة أُطلق عليها اسم الظرفاء ووضعت حولها الكتب. وصار لهذه الجماعة، كما رأينا، طريقة عيش محددة بقواعد دقيقة وشروط ينبغي الالتزام بها حتى يستحق المرء اسم ظريف. والظريف وبعيداً عن كل التعريفات المتنوعة هو شخص يريد أن يتميز عن الآخرين. إنه يرغب أن يعيش محاطاً بالجمال المصنوع بدقة وبرهافة. فلا يسكن إلا المكان اللائق، ولايرتدي إلا الثياب المتناسقة، ولا يأكل إلا ما نعم من الطعام، ولا يتلفظ إلا بم لطف من العبارات. وهو أمر يجعل من الظريف شخصاً متعالياً.

والظرف كما سبق، فطرة أو طبع تهذبه الصنعة. فالظريف شخص متكلف لا يترك الغريزة تقود سلوكه بل يضع على وجهه أكثر من قناع. أيّ أنه يتظاهر بأنه يتظاهر بأنه غيره. لذلك فالظريف بهذا المعنى شخص متظاهر لا يعرف أحد وجهه الحقيقي لأنه يبتكر وجوهه كل يوم. وكل مأساته تكمن في هذا التظاهر. وظريف العصر العباسي الذي كرسنا له هذا البحث يبدو وكأنه أعطى فيما بعد لأوروبة في القرن التاسع عشر المتظاهر الذي تحدثنا عنه في مطلع هذه الصفحات وهو شخص شكّل مع أمثاله الآخرين الجماعة التي أُطلق عليها بالانجليزية اسم/داندي/.

ثم ظهرت حركة شعراء الانحطاط (كما سموا هم حركتهم) ودوّنوا أدباً اهتموا من خلاله بالأسلوب أكثر مما اهتموا بالمعنى

وحاولـوا ابتكار (جمال) يقـوم على الشكل الذي عملـوا عليه بدقة ووضعوا في خدمته كل أساليـب البيـان والبديـع كمـا هي في الفرنسيـة والإنجليزية وهـو أمر نعثر عليه عند بعض شعراء المدرسـة الرمزية أيضاً. وسبـق وأشرنا إلى أن هذا النمط من الأدب الـذي يُطلق عليه اسم أدب الانحطاط يأتي في بداية العصر الـذي تصل فيه الحضارة إلى أوجها ثم تبدأ تظهر عليها بوادر الموت.

وإلى القـارئ بعضـ النمـاذج من أدب الظرف والظرفاء. وهي نماذج تعكس نظرتهم إلى الحيـاة، وتبين في آن واحد طريقتهم في العيشـ. ونلمح فيها بعضاً من فلسفتهم إذا صـح القول. وكما قلنا فقـد اهتم الظرفاء بأسلوب الكتابة اهتماماً كبيراً فأتى ما كتبوه في أحسن صـورة لغوية فيهـا من البلاغة والملاحة، أو من الحـلاوة والكياسة الشيء الكثـير ناهيك عـن المعنى المعـبر عنه بلغة فيها رقة وعذوبة واقتدار بحيث أنها تصير الجمال ذاته ولذته كما تقول الفلسفة. وأبلغ أنموذج على ذلك مقامات الحريري الذائعة الصيت.

كتـب أبو نوح الكاتب فقـال (كانت أيام المتـوكل أحسن من الخصـب بعد الجدب. والسلـم بعد الحرب. والأمـن بعد الرعب. والظفر (بالمحبوب) بعد اليأس.

وكتـب المهلبـي الوزير رداً علـى رسالة وصلت إليه فقال (قـرأتُ هذه الرقعة التي هي أدق من السحر، وأرق من دموع الهجر، وأطيب من الغنى بعـد الفقر (..) فمرحباً بها وبكاتبها. وماذا عليه لو أنه كان مكانها).

وعن أبي الفضـل الميكالي حول كتاب وصل إليه قـال (ما الحيران هُـدي من الضلال والظمـآن سُقي من الماء الـزلال، والمهجور ظفر بالوصـال، والسقيم هبـت عليه ريح الابـلال (الشفاء) والخائـف أحس لخوفه بالزوال، والصائم بشر بهلال شوال، والعاشق فقد وجوه العذال، بأسر مني بكتابك (الذي هـو) نزهة الطـرف، وتهزه الأُنسـ، ومنية القلب، ومنة النفس. ولقد وصل كتابك فكان مطلعه أجمل من طالع السعد ومجمعه أمتع من جمع الشمل. ومقطعه أحسن من قطف الورد. كتابك ألذ من حاسة الطرف الفاتر. وأحلى من خلسة الحب الزائل).

ولـه (كلام أرق من الشكـوى. وألذ من السلـوى. وأنعم مـن سجع الحمـام ودمع الغمام. وأطيب في الأحوال كلها من سلاف المدام.

ولأبي منصـور إسماعيل (أنـا إليك يا سيـدي أشوق من العطشان إلى الماء والعليل

المدنف إلى الشفــاء. وأنت أمتع من حركات الريــح في الريحان. فما عليك لو ساعدتني وأسعدتني وحييتني وأحييتني).

أبــو العباســ كان يومــاً مشرفــاً على صحــن داره ومعه امرأتــه (أم سلمة) وهما يتحادثان. فعبثت بخاتمها فسقط من يدها (إلى صحن/ ساحة الدار) فألقى أبو العباس أيضاً خاتمــه. فقالت يا أمــير المؤمنين ما دعاك إلى هذا؟ قال خشيــتُ أن يستوحش خاتمك فأنستــه بخاتمي. فبكت (أم سلمة) فرحاً.

عن ابن حمــدون قال. قال لي الفتح بن خاقان يوماً يا أبــا عبد الله دخلتُ قصري فاستقبلتنــي جارتي (رشا) فقبلتها فوجدتُ في فمها هواء لو رقد فيه المخمور لصحا.

كتب أبو سعيد الخالدي

ياشبيه البدرُحسناً وضياء وجمالا

وشبيه الغصن ليناً وقواماً واعتدالا

أنت مثل الورد لوناً ونسيماً وملالا

زارنا حتى إذا ما سرّنا بالقرب زالا.

ولابن سكرة الهاشمي:

في وجه إنسانة كلفتُ بها

أربعةُ ما اجتمعن في أحد

الخد ورد والصدغ غالية

والريق خمر والثغر من برد

ولأبي نصر مشكان:

لو أن الورى كانوا كلاماً وأحرفا

لكان نعم منهم وباقي الأنام لا.

ولقد وصل الحــال بالظرفاء إلى درجة مــن رهافة الحس أنهم كانــوا يتطيرون من بعض أسمــاء الفاكهة والزهــور والأطعمة والألبســة. فكانوا على سبيل المثال لايحبون تهــادي شقائق النعمــان لأن أول الاسم فيه كلمة شقاء. ولا يرسلون بالسوسن هدية لأن فيه كلمة سوء.

وكانوا يحبون إهداء البنفسج لأن في أول اسمه (بنفسي) وتُؤول على (فديتك بنفسي) قال الشاعر (مجهول) في ذلك:

(أرسلت إليه بنفسجاً تهديه

تنبيهُ أنها بنفسها تفدية).

ويذكر عــن الحسن بن وهب أنه قال في مغني (كأنه والله خُلق من كل قلب فهو يغني كلاً بما يشتهيه).

ويــروى عن سعيــد بن أحمــد أنه كتب إلى صديق يدعوه لسهــرة وقد اجتمع فيها الأصدقاء فقال:

(كأننا نجوم في السماء مضيئة

ولا بد من بدر فهل أنت طالع)

ونأتــي الآن إلى ذكــر الشعــراء الذين حصــروا أشعارهم على الغزل وجعلوه نهاية الظرف.

قال العباس بن الأحنف

(نزوركم لانكافيكم بجفوتكم

إن المحب إذا لمُ يستزر زارا.

يقرّب الشوقُ داراً وهي نازحة

من عالج الشوق لم يستبعد الدارا).

وأنشد المهلبي

(أرى عهدكم كالورد ليس بدائم

فلا خير فيمن لايدوم له عهد.

وعهدي بكم كالآس حسناً وخضرة

له بهجة تبقى إذا فني الورد

وقال المؤمل المحاربي:

(إذا مرضتم أتيناكم نعودكم

وتذنبون فنأتيكم ونعتذر.

ويروى عن ابن طباطبا أنه قال:

ولي خمسة مني حلتْ منك خمسة

فريقك منها في فمي أطيب الرشف.

ووجهك في عيني ولمسك في يدي

ونطقك في سمعي وعطرك في أنفي.

وحول بلاغة الظرفاء كتب أبو منصور النيسابوري الثعالبي فقال عن كتابه (لطائف اللطف)

(جعلتُ هذا الكتاب في لطائف الظرفاء من طبقات الفضلاء. وأودعته ظرف الظرف وروح الروح (...) فالألفاظ بين البلاغة والإيجاز وخفة الروح مع الإعجاز والمعاني بين الكرم والظرف والمروّة والفتوة مع المداعبة والنوادر غير الفاترة).

ويذكر الوصف التالي للتفاح وينسبه إلى المأمون. والتفاح كان أفضل الهدايا من الفاكهة عند الظرفاء لحلاوة شكله وطعمه ولما في أسمه من دلالة مثل (أكل التفاح فباح فاراح واستراح) أو فاح العطر. أما العبارة المنسوبة إلى المأمون فتقول: (اجتمع في التفاح الحمرة الخمرية (لون النبيذ) والصفرة الوردية مع شعاع الذهب وبياض الفضة فالعين لحسنه والفم لطعمه والأنف لطيبه).

وعن (الجماز قال): (شممتُ مرة في دار فلان رائحة أطيب من رائحة العروس في أنف العاشق المشتاق).

وحكاية (أبو العيناء) وقد قال له المتوكل كيف ترى دارنا هذه؟ فقال يا أمير المؤمنين رأيتُ الناس يبنون الدور في الدنيا، وأنت بنيت الدنيا في دارك).

ومن صفات الظرف التأنق في صناعة الأشياء والعطور. وإلى القارئ نصاً يصف كيفية تحضير ماء النمام كما جاء في كتاب الوصلة إلى الحبيب لابن العديم:

(يخرط ورق النمام الطري وقلوبه. ويُجعل في جامات. ويُرش عليه ماء الورد، ويُذر عليه عود مدقوق وصندل مقاصيري

وحبـة مسـك. يغطى بقشور تفـاح وقشور ترنج ويُغم يومـاً وليلة. ثم يُجمع النمام بما عليـه ويُصب عليه مـاء ورد قد ضُرب فيه أربعة مثاقيـل كافور ومثله قرنفل مسحوق، ويُستقطر على نار هادئـة. ويُزاد عليه مثل مـا فيه ماء قراح ومـاء ورد ويكرر على نار حادة).

وهنا يحتار المرء هل ماء النمام أحلى أم وصف طريقة صنعه هي أحلى؟

وعلى هذا النحو نقرأ في كتاب (الموشى): (ومن زيهم (الظرفـاء) في التعطر والطيب بالمسك المحلول بماء الورد، واستعمال العود المعنبر بماء القرنفل المخمّر، والند السلطاني والعذر البحراني).

أما في ذكر مـا كان يُكتب على الخواتم والعصائب والحلى فقد روى الوشاء فقال (وأخبرني من رأى طبق ريحان مكتوب عليه بياسمين ونسرين:

فما ريحُ ريحان بمسك وعنبر
بنـد وكـافـور بـدهـنـه بـان
بأطيب ريقاً من حبيبي لو أنني
وجدتُ حبيبي خالياً بمكان.

وعلى خاتم من ذهب لجارية:

(اتركوني في المعاصي
وعلى الله خلاصي).

أو:

(أحـبُ مـن يـهـواني
بـرغـم مـن يـنـهـاني).

وفي حلاوة التعبير ورقة العبارات كتب الحسن بن وهب إلى محمد بن عبد الملك:

(سروري، أعارني الله حياتك، إذا رأيتك كوحشتي لك إذا لم أرك).

وعن (عريب) الشهيرة بالمجون والظرف فقد ذكر كتاب الأغـاني أنها كانت تجد في رأسها برداً (علة) فكانت تغلف شعرها مكان العلة بستين مثقالاً مسكاً وعنبراً وتغسله من جمعة إلى جمعة. فإذا غسلته أعادته فتقتسم الجواري غسالة رأسها بالقوارير.

ونأتي أيضاً إلى ذكر ما يُهدى من الزهور والفاكهة وما لا يُهدى وذلك تطيراً من الاسم وما فيه من دلالة. ومن ذلك هذا البيت من الشعر:

أهـدت إليـه بظرفها رمانا
تنبيه أن وصالها قد حانا.

أو:

ما أحسن الأس في عيني وأطيبه
لولا اتصال حروف الأس باليأس.

أو:

يا ذا الذي أهدى لنا سوسنا
ما كنتَ في اهدائه محسنا.
أولـه سـوء فـقـد ساءني
ياليت أني لم أر السوسنا.

وقول أخر:

لا تـــراني طـــوال دهـــري
أهــــوى الـشـــقـــائـــقـــا.
إن يـكـن يـشـبـه الـخـــدود
فـنـصـف اســمــه شـــقـــا.

إذا عكفنـــا علـــى الموسيقـــى والغنـــاء فالحكايات كثيرة. منها أن إبراهيم الموصلي المغنـــي الشهير غنى يومـــاً في مجلس شعراً لأبي النواس خاتمته تقول:

رشــــا لــــولا مــلاحــتــه
خـلـت الـدنـيـا مـــن الـفـتن.

فقامت قيامة الحضور ولم تقعد.

وذكـــر كتاب الأغـــاني ألحانـــا لا يقدر الشبعان الممتلئ على غنائها ولا سقاء يحمل قربة على المترنم بها. وأُخرى لا يقدر المتكئ أن يغنيهـــا حتـــى يقعـــد، ولا القاعد حتى يقوم.

وعـــن أسمـــاء بنت المهـــدي: قلتُ لأخي إبراهيم (ابن المهدي وكان مشهوراً بصناعة الألحـــان والغناء) يا أخـــي أشتهي والله أن أسمـــع من غنائك شيئـــاً. فقال: إذاً والله يا أختي لا تسمعين مثلـــه. عليّ وعليّ وأغلظ في اليمـــين إن لم يكن إبليس ظهر لي وعلمني النقر والنغـــم وصافحني وقـــال لي: اذهب فأنت مني وأنا منك.

وفي الرهافـــة المطلقـــة ومنتهى الظرف حيث يخرج المرء من العالم ليدخل عالماً آخر كل ما فيه مصنوع صنعاً هو منتهى الجمال المصنـــوع والذي يفوق الجمـــال الموجود في الطبيعـــة حيث أنـــه مركب مـــن كل جمال موجـــود في الطبيعة، نذكـــر حكاية حسان (الشاعر المعـــروف) وقد دخـــل على الملك جبلـــة بن الأيهم ووصـــف مجلسه في قصره الخاصـــ عند ملك الروم وإن كانت الحكاية تسبق الزمن الذي نتحدث عنه:

(.. ثـــم أقبلت جارية علـــى رأسها طائر أبيض كأنه لؤلؤة، وفي يدها اليمنى جام فيه مـــاء ورد فلفّت الطائر في ماء الورد فتمعك بـــين جناحيه وظهـــره وبطنه، ثـــم أخرجته فألقته في جام المســـك والعنبر فتمعك فيها فلـــم يدع فيها شيئاً. ثم نقرته فطار فسقط علـــى تاج (جبلة)، ثم، رفـــرف ونفض ريشه فما بقى عليه شيء (من الطيب الممزوج) إلا وسقط على رأس (جبلة).

وهناك أيضاً حكايـــة زفاف بوران بنت الحسن بـــن سهيـــل إلى الخليفـــة المأمون. احتفلـــوا به احتفالاً لم يسبق له مثيل نثر فيه الحسن علـــى الهاشميين والقـــواد والكتّاب والوجوه بنادق من مسك فيها رفاع (أوراق) بأسمـــاء ضيـــاع وقـــرى ودواب وغير ذلك. فكانـــت البندقـــة إذا وقعت في يـــد الرجل ذهـــب إلى الوكيل فيتسلم مـــا فيها. ثم نثر

الحسن على سائر طبقات الناس الدنانير والدراهم ونوافج المسك والعنبر. هذا غير ما أنفقه المأمون (..) ولما كانت ليلة البناء (بالعروس) وجُليت (بوران) على المأمون فرش لها حصيراً من الذهب، وجيء بمكتل مرصع بالجواهر فيه درر كبار نُثرت على النساء (..) وجاء المأمون في الليلة التالية إلى عروسه فنثرتْ عليه جدتها ألف درة كانت في صينية من ذهب.

من جميل كلام سليمان بن وهب قوله وكأنه يعرف الظرف في المجالس:

(لباس بهي وطعام شهي وشراب هنيّ. فكيف أتحول من حال السعيد إلى حال الشقي).

وقال الجاحظ (دخلت مرة على أبو الحسن أعوده (لمرض ألم به) فقلتُ له: ما تشتكي يا أبا الحسن؟ فقال: أعين الرقباء وألسن الوشاة وأكباد الحساد).

ونختتم هذه النماذج بهذه الحكاية التي يمكن أن نعتبرها كل الحلاوة وكل الكياسة وكل الملاحة وظرف الظرف. وهي تُحكي عن يحيى بن أكثم أنه حكى عن صبية حلوة فقال: (قالت لي: أعنّي على خصمي. فقلتُ: من يعينني على عينيك؟ قالت: شفتاي. قلتُ: ما بال شفتيك منشقتين؟ قالت: أحلى ما يكون التين إذا تشقق. قلت: ما أنحفك. قالت: كلما دق قصب السكر كان أحلى).

المصادر

- الوصلة إلى الحبيب في وصف الطيبات والطيب، ابن العديم.
- لطائف اللطف، أبو منصور إسماعيل.
- خاص الخاص، الثعالبي.
- الموشى، الوشاء.
- الظرف والمتماجنين، ابن الجوزي.
- كتاب الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني.
- تاريخ التمدن الإسلامي، ج٢، جرجي زيدان.
- كتاب الأغذية، ابن خلصون.
- المقدمة، ابن خلدون.
- معجم الألفاظ الفارسية المعربة، السيد ادي شير.

الدراسات والبحوث



عندما تتحول الأفكار إلى إبداع

❁ عبد الباقي يوسف

الفكـرة هـي فتيلة الإبداع، تشتعـل الفكرة، وتتحـول في مخيلة الموهبة البشرية إلى إبداع فكري وأدبي، ثم تأخذ مكانها على الصفحات.

كل عمل إبداعي كبير هو نتيجة شرارة فكرة أولى.

سوف أتحدث هنا عن بعض التجارب الفكرية التي تحولت إلى إبداعات كبـيرة قدمت للبشرية إبداعات هامة سواء على صعيد الفكر، أو على صعيد الأدب والفن.

❁❁ أديب وناقد سوري.

العمل الفني: الفنان جورج عشي.

كيف أبدع نيتشه هكذا تكلم زرادشت:

إنها من الأعمال الفكرية والأدبية التحولية في ثنائية العلاقة بين الفكرة والإبداع.

استطاع نيتشه أن يترك إبداعات فكرية وأدبية حققت لذاتها ولمؤلفها الخلود، وهو يعتمد في كتاباته على القوة في تناول الأفكار، أي إنه لايكتب المواضيع الهشة، إنه ينتقي الأفكار التي تزلزله، فيتناولها بلغة بالغة القوة، ورغم ذلك فهي تلبث متمتعة بشاعرية ورهافة حس شديدة.

يقدم نيتشه نفسه وأسلوب تناوله الإبداع قائلاً: / يعرف الذين يستطيعون أن يتنفسوا هواء كتاباتي أنه هواء عاصف ينتمي إلى الذرات، إن الفلسفة كما فهمتها وعشتها حتى الآن تعني العيش بطواعية بين الجليد والجبال المرتفعة بحثا عن كل ما هو غريب وقابل للاستقصاء في الوجود.

علمتني التجربة الطويلة المكتسبة في مسار تجوالات كهذه في إطار ما هو ممنوع أن أنظر إلى الأسباب التي حثت على العمل الأخلاقي والمثالي في ضوء مختلف جدا عما يبدو مرغوباً.

ينبع كل إنجاز، كل خطوة إلى الأمام في المعرفة من الشجاعة، من القسوة على الذات، من النظافة الذاتية.

في هذه الإشارة ستنتصر فلسفتي يوما ما لأن ما منعه المرء حتى الآن من ناحية المبدأ كان دائما هو الحقيقة /.

يتحدث نيتشه عن كتابه /هكذا تكلم زرادشت/ قائلاً: /من بين كتاباتي، يقف زرادشت وحده بالنسبة لذهني، بهذا منحتُ البشرية أعظم هدية قُدمت لها إلى الآن. ذلك الكتاب بصوته الذي يختصر العصور، لايمثل ذروة الكتب فحسب، إنه الكتاب الذي يتصف حقيقة بهواء المرتفعات، إن الحقيقة الكلية للإنسان ترقد تحته على مسافة بعيدة جداً، إنه أيضاً الأعمق، ولد من شروق الحقيقة الأكثر عمقاً، من بئر لاتنفذ، لاينزل فيها دلو دون أن يخرج ممتلئا بالذهب والطيبة.. إنها الكلمات الأكثر هدوءا، التي تولّد العاصفة، الأفكار التي تجيء على أقدام الحمام وتقود العالم.. ثمار التين تسقط من الأشجار، إنها جيدة ولذيذة الطعم، وحين تقع ينكشط جلدها الأحمر.

أنا الريح الشمالية للتين الناضج.. هكذا كالتين ستسقط إليكم هذه التعاليم يا أصدقائي. كلوا الآن لحمها الطيب، واشربوا عصيرها، إنه الخريف.. السماء صافية والوقت بعد الظهر/.

كتب نيتشه /زرادشته/ بين عامي ١٨٨٣ و١٨٨٥ وكتب الأجزاء الثلاثة الأولى كلها في عشرة أيام .

ماريو بارغاس يوسا

يتحدث ماريو بارغاس يوسا عن بدايات مراحل الكتابة لديه قائلا: الأمر بدأ مع القراءة، أنا تعلّمت القراءة في الخامسة من عمري، ودائماً أقول إنه هذا هو الشيء الأهم الذي حصل معي، أتذكر كيف أن القراءة أغنت حياتي وعالمي من خلال الكتب والمغامرات التي كنت أقرأها، وأعتقد أن هذه كانت العلامات الأولى لقلق ما، لحساسية ما إزاء الأدب. كانت والدتي تخبرني أن الأشياء الأولى التي كتبتها.

كانت تتمات للروايات، أو الحكايات التي كنت أقرأها، فكنت أغيّر نهاياتها أو أطيلها، وإلى ما هنالك، علما بأني لا أتذكر شيئا من هذا.

ويضيف يوسا موضحا أهمية العلاقة بين القراءة والكتابة: ما أتذكره هو أن القراءة شغلت طفولتي ومراهقتي، فأتذكر بوضوح تام الشخوص التي كنت أصادفها في الروايات أكثر مما أتذكر رفاقي في المدرسة. روايات /الكساندر دوماس/ مثلاً كانت بالنسبة لي شيئاً رائعاً لا مثيل له.

شهدتها كأنها تجربة شخصية، كأني كنت هناك، مع الشخوص، فأعيش تجاربهم حتى



تصورت أني واحد من الفرسان الثلاثة.

أتذكر أيضاً /بؤساء/ فكتور هوغو عندما كنت في بداية صفوفي الثانوية، وقد أكون بدأت الكتابة في تلك الحقبة عندما كنت ما أزال في المدرسة حيث كتبت قصائد وقصصا قصيرة وحكايات، بيد أني لم أفكر أني سأكرّس يوما حياتي للكتابة.

رواية واحدة هي التي يمكن أن تؤسس لحضور روائي بارع في المشهد الروائي العالمي، وأظن أن هذه الرواية بالنسبة ليوسا

هي /الفردوس على الناصية الأخرى/.

تلك الرواية التي عرفت القارئ والناقد معا بهذا الكاتب، وجعلت الناس ينتظرون كتاباته الجديدة.

لذلك عندما زار يوسا دمشق، كانت اسم روايته /الفردوس على الناصية الأخرى/ تقترن باسمه، وربما حظيت بشهرة أكثر من مؤلفها.

عندها تعرفت على شخصية /فلورا/ بطلة الرواية، الابنة غير الشرعية التي تحلم بفعل شيء يخفف من آلام المضطهدين، وبحياة أقل ألما، وهي شخصية استطاعت أن ترتقي لدي إلى شخصية /إيفالونا/ في رواية إيزابيل الليندي، وكذلك باولا، ثم بيوكولا لابريتلوف في رواية توني موريسون /أشد العيون زرقة/ وكذلك سولا.

هذه الشخصيات التي ليس بوسعي نسيانها مع شخصيات نسائية روائية أخرى.

رواية /الفردوس على الناصية الأخرى/ تعرفك بأجواء روائي يتمتع بثقافة روائية وحكائية وسردية وفنية عالية، كما أنه يرصد بقوة أدق التفاصيل، وربما أكثرها حساسية وإحراجاً بجرأة مقنعة، إلى جانب أنه يتمتع بحالة فياضة من قوة الشاعرية في تناول العلاقات الإنسانية، وهذا ما بدا واضحاً لدى زوج فلورا -أو كما يدلعها /فلوريتا/- في إحدى المشاهد المثيرة التي صورها ماريو في غرفة النوم عندما دخل عليها الزوج ورآها نائمة على بطنها.

يتميز يوسا في أعماله بأنه رجل موسوعي الثقافة، يطلع على كل شيء، ويستطيع أن يوظف هذه المعرفة بشكل جيد في أعماله.

أحيانا تشعر بأنك أمام رجل موسوعي فتحترم جهده الدقيق في عمله الذي يأتي نتيجة خبرة وبحث مكثف لايقل عن بحث زميله في رواية /العطر/.

ينتمي ماريو إلى سلسلة الروائيين الذين يتركون لديك بصمة ليس من اليسر نسيانها، كما أنه ينتمي إلى أولئك الذين يمكن لك أن تتعلم منهم شيئاً هاماً.

من أعماله الروائية التي ترجمت إلى غالبية لغات العالم: (الزعماء) سنة ١٩٥٨، (المدينة والكلاب) ١٩٦٣ (البيت الأخضر) ١٩٦٦ (الكلاب الصغار) ١٩٦٧ (حوار في الكاتدرائية) ١٩٦٩ (بانتاليون والزائرات) ١٩٧٣ (العربدة الدائمة) ١٩٧٥ (حرب نهاية العالم) ١٩٨١ (من قتل بالومينو موليرو) ١٩٨٦ (لغة الشغف) ٢٠٠١.

السياسة لدى يوسا لاتنفصل كثيراً عن الأدب، فيمكن للأديب كما يرى يوسا أن يلعب دوراً سياسياً، كما يمكن للسياسي أن يقوم بدور أدبي في مجتمعه.

لذلك أعطى يوسا بعضاً من وقته

للسياسة ورشح نفسه لرئاسة الجمهورية في بلاده.

يصف يوسا تجربته السياسية بقوله: هذا صحيح، لكنني لم أكرّس ذاتي يوماً للسياسة.

ما فعلته هو أني اعتقدت أنه يجب علينا دائماً أن نشارك في الحياة السياسية، خصوصاً إذا رأينا أن الأمور حولنا ليست على ما يرام.

إذا رأينا أن المجتمع انحرف، ووقع في الفساد وفي الاحتكار، وإذا طغى الظلم.

رأينا ناساً يرضخون قهراً للتمييز العنصري، في هكذا حالات علينا أن نقوم بشيء مفيد، هذا ما أسميه السياسة.

عدا ذلك لم أحب السياسة يوماً، وذلك منذ طفولتي المرّة الأولى التي مارست فيها السياسة بشكل سرّي، كانت عندما كنت طالباً في الجامعة، وذلك تحت الديكتاتورية، أحسست وقتها أن السياسة المنقذ الأساسي والضروري للبشرية، حتى إني أعتقد أنه أمرٌ لا أخلاقي أن لا نشارك في السياسة، وخصوصا سنة ١٩٨٧ إذ كان البلد يعيش حالة دقيقة جداً.

كنا نعيش تقريباً حرباً أهلية مع حركة المتمردين، إضافة إلى الحالة الاقتصادية الرديئة وكان التضخم حينها هائلاً.

الديمقراطية التي كانت لدينا كانت هشة جدا وبدأت بالتالي تنهار أو هكذا بدت لي.

في هكذا ظروف، ومن دون فرح كبير، عليك أن تنخرط بالسياسة.

أحسست أن هذا واجبي إضافة إلى أني فكرت أني هكذا أستطيع أن أفعل شيئا.

ويضيف يوسا عن هذه العلاقة قائلا: تعلّمت أشياء كثيرة عن البيرو، عن السياسة، وأيضاً عني شخصياً.

على هذا النحو يوظف يوسا السياسة لعمله الأدبي، بحيث يستطيع أن يتعرف على وقائع وتفاصيل الحياة السياسية في الوقت الذي يتناول فيه وقائع الحياة الاجتماعية لشخوصه، والحقيقة فقد استفاد ماركيز أيضا من علاقاته السياسية التي وظفها في جانب من أعماله الروائية.

يقول يوسا في ذلك:

إذاً، ما قمت به ليس مهمة سياسية، إنما واجب أخلاقي ومدني. أما هدفي الوحيد في الحياة فهو الأدب، وليس عندي اهتمام غيره.

الإبداع والمعاناة

حظي الأدب العالمي برسائل بالغة الأهمية كتبها نوابغ الأدب في العالم، وتكمن أهمية هذه الرسائل في أنها تعرّف القارئ بشكل مباشر بالمبدع الذي عادة يتخفى خلف شخوصه في أعماله الأدبية.

مع الرسائل يتمكن القارئ من الوقوف

وجهاً لوجه مع الأديب، ومن جهة أخرى تكون فرصة مذهلة للقارئ والناقد معاً لإعادة قراءة أعمال هذا الكاتب بعد نقاط الضوء التي سلطها الكاتب على نفسه، وعلى تفاصيل الواقع الذي يعيش فيه من خلال الرسائل التي خطها إلى أناس أعزاء لديه.

من هنا أعتقد بأن الناقد والقارئ معاً تعرفا على فرانز كافكا بشكل أكثر قرباً بعد قراءة رسائله التي كانت تشرح في مواضع كثيرة غموض إبداعه، وكذلك الأمر مع دستويفسكي، وناظم حكمت، وهاينرش فون كلايست وغيرهم من كبار الشخصيات الأدبية التي تركت بصمات عميقة في تاريخ الأدب الإنساني.

فيدودور دستويفسكي يكتب عن معاناته الشخصية إلى أخيه

يتحدث دستويفسكي بشكل شخصي، وشبه سري لأخيه في رسائل خاصة تعبر عن تفاصيل وقائع حياة هذا الروائي الروسي الكبير.

بعد قراءة هذه الرسائل التي حرص أن تكون سرية، ولم يطلع عليها أحد لأنه كان يفرّغ فيها معاناته الشخصية التي كانت تفجر لديه تلك العبارات الملتهبة التي سحرت الملايين من قرائه من مختلف أنحاء العالم وبغالبية لغاته الحية، نتوقف أمام حقيقة اقتران الإبداعات العظيمة بالمعاناة العظيمة، فيمكن ملاحظة أن معظم مراحل العباقرة والنوابغ كانت معاناة في معاناة، والمعاناة تقترن بالإبداع في ألوانه وأشكاله كافة.

لولا المعاناة لما كان هناك طموح،

لما كانت ثمة آمال وأحلام.

إن أعظم هبة تمنحها الظروف للإنسان الذي يريد أن يصنع شيئا مجديا في حياته، هي قوة الشقاء ولحظات الحرمان، إنها تهبه المعنى الحقيقي للحياة.

لقد كان أبو لينير -صاحب ذاك المسرح المذهل- يعاني طيلة حياته من شعوره بأنه ابن غير شرعي،

وكان كافكا -مبدع رواية المسخ- لايستطيع أن يتخلص من شعوره الأعمق بأنه حشرة كبيرة غير مرغوب فيها،

ولم يتلق رامبو - مبدع تلك القصائد الرائعة - قبلة حب حقيقية من شخص،

وعانى بودلير الأهوال من زوج أمه،

وأمضى المركيز دي ساد خمسا وعشرين سنة في السجن،

وانتهى سويفت إلى الوهن العقلي أواخر حياته،

وانتهى نيتشه بالجنون،

ويقول سارتر: كنتُ بمنتهى الصدق أرى جامعا مكان معمل، وكان عنوان مسرحية يزرع الرعب في طريقي.

يقول سترندبرغ: إنني أجد بهجة الحياة في صراعاتها الأكثر حدة.

فالكاتب الذي يستعير كتاباً بسبب الفقر وضيق اليد، يقبل على قراءته بنهم حرفا حرفا أكثر من كاتب تهدى إليه مجموعات من الكتب كل شهر.

في إحدى رسائل دستويفسكي يقول: لا أملك كوبيكا واحدا لكتابة رسالة.

لقد بلغ الفقر بالسيد دستويفسكي إلى أقصى مراحله.

يقول: لدي مشروع، أن أفقد عقلي.

بقوة عظمى يستخدم الكتابة للتعبير عن نفسه إذ لا يملك غيرها، إنه يرمز إلى الإنسان الفقير، بل هو لسان حالهم ورسولهم، يروي تاريخهم ربما دون قصد عندما يروي تاريخه.

لا شك أن الكثيرين لا يملكون قيمة قدح من شاي، أو قيمة سيجارة واحدة ويعانون الفقر وأمراض سوء التغذية وفقر الدم مثل دستويفسكي نفسه، وهو من هذا المنطلق يتضامن معهم ويطرح مآسيهم، ومن هنا فإنه يكتب الجملة الصادقة إلى أخيه في إحدى هذه الرسائل التي يقول فيها: وما تبقى لي سوى هذا القلب والدم واللحم، هذا الذي يعاني ويشفق ويتذكر ويبدع الحياة رغم كل شيء. لم أشعر بها مطلقا بهذه الخواص الملأى بالقسوة والغنى الفكري من قبل كما أشعر بها الآن.

لا شيء يفسد على المبدع إبداعه سوى أشكال الرفاهية التي تقتل فيه روح الإبداع، ويمكن ملاحظة أن الإنسان بصورة شبه عامة تخلى عن شفافيته في زحمة مطاردته للحياة والرفاهية بعد ثورة الانفتاح الاقتصادي.

لقد خسر هذا الإنسان الشيء الذي لاشيء يعوضه على الإطلاق وهو في أثناء جريه يتحسس مرارة هذه الخسارة الفادحة.

إن دستويفسكي يكون أقوى في وضعه، يكتب بقوة هائلة يقول: نعم إنهم منعوني من الكتابة، إنني أفضّل أن أُسجن خمسة عشر عاما شرط أن أحتفظ بقلمي في يدي.. إنني لم أفقد الأمل.

ويختتم خوفه: أنا مسكون بالخوف من أن يُصاب حبي الأول للعمل بالفتور قبل انطلاقه على الورق.

لقد استطاع فيودور دستويفسكي أن يهدي العالم إبداعات أكثر من أغنى رجل من أبناء عصره.

إن كل من يحمل القلم، يحمل في قلبه ألما يسعى بالقلم أن يعبر عن هذا الألم، ويبقى يكتب إلى أن يموت وفي قلبه الكلمة التي لم يتمكن من قولها والتي تخلصه من ألمه، وأما إذا اهتدى إلى الكلمة المضبوطة المعبرة فإنه سيقولها ويبقى قلمه منطفئا إلى أن ينطفئ

عقب انطفـــاء قلمه وفي لحظات الاحتضار الأخيرة سيكتشف بأن تلك الكلمة خانته ولم تكن مضبوطة بالمرة.

شعلة الإبداع وعمق المعنى

المعنـــى نبضــ الكلمـــة، الكلمـــة جسد المعنى.

إننـــي لا أصغـــي إلى الكلمـــات قـــدر إصغائـــي إلى نبضها، كما أنني لا أصغي إلى الشخص قدر إصغائي إلى محراب قسماته، ثمة كلمات تفرض عليك راحة الإصغاء إلى نبضهـــا، وثمة قسمـــات ترغمك على راحة التأمل في نورانيتها.

أحيانا أقلب عشرات الصحف والمجلات، ولا أقـــع على نبض كلمـــة يمكن أن تشدّني، أقلب عشرات القنـــوات الفضائية، ومواقع النـــت، ولا ينجح مسعـــاي، أو ينجح مسعى الكلمات.

أصغي إلى عشرات الأشخاص، فلا تنجح قسماتهم لإقناعي بعمق التأمل، أو لا أنجح في إقناع نفسي براحة إصغاء.

أحيانـــاً تستفـــزني كلمـــات، تستفـــزني قسمات، تستفزني مشاهد تمثيلية، تستفزني صحـــف، إنها تملك مقـــدرة هائلة على أن تشوش علي صفاء مخيلتي.

أظن أن ما بات يميز زماننا بجدارة، كل هذا الكم الهائل من الكلمات التي تخلو من نبضات، كلمات لا قلوب لها. وقد نجح هذا إلى حـــدّ مرعب في صناعة متلق استهزائي، بات يستهزئ بكل ما يسمع، ويقرأ، ويرى.

أمـــام هذه الهوة الأكثر عمقاً يفقد هذا المتلقي حساسية جدّية التلقي، ليبلغ مرحلة فقدان حساسية جدّية التأثير.

فترى شخصاً يتحدث، لكنه لايتحدث،
يستمع، بيد أنه لا يستمع،
يبدي علامات التأثر، بيد أنه لا يتأثر،
يضحك، غير أنه لا يضحك،
يبكي، إلا أنه لا يبكي،
يجلس، لكنه لا يجلس،

يرقـــد في السرير، غير أنه غير راقد في دوامة استباحية لمعنى الكلام ومعنى الأفعال، حتى إنـــه يرتدي حالة اللا جدية، فإن وُجه إليه تهديـــد، لا يأخذه على محمل جد، وإن نظر إلى قانون يمنعه من القيام بهذا الفعل، لا يأخذه على محمل جد، فتراه يراهن حتى على عقائده وحياته العائلية في مجلس كأنه ينفث لفافة تبغ، فيمكن لك أن تراه في ثلاثة وجوه خلال ثلاثة أيام.

تعيش المجتمعات ذروة يقظتها وتقدمها قدر حالـــة الجدية لديها، فهي تأخذ كل ما تراه، أو تسمعـــه، أو تقرأه على محمل الجد لأنها تعقد آمالا كبرى على الكلمة، والنغمة، والمشهد.

لذلـــك تراهـــا تقـــدم مغامـــرات كبرى ومخاطـــر كبرى مـــن أجل أن تقـــرأ، وتسمع وترى.

وهذا ما يمنح للإبداع وللعمل قيمة كبرى، فلوحة تباع بثمن باهظ، قد لا يتنازل شخص آخر أن يقف بسيارته ليحملها إلى البيت إذا ما رآها لقىً على الطريق، وكتاب جديد يقف الناس في طابور للحصول عليه، وقراءته حرفا حرفا، قد يتراكم عليه الغبار ثلاث سنوات في موقع آخر.

إننا لسنا أغنياء بمقدار ما لدينا من بنوك وأوراق نقدية، إننا أغنياء بقدر ما لدينا من متاحف، وكتب وموسيقى.

عندما تستبيح المعنى، فإن المعنى لا يتوانى عن استباحتك، وعندما تمجد المعنى، فإن المعنى لا يتوانى عن تمجيدك .

مخاض الإبداع

سوف أتحدث هنا عن شكل من أشكال تحويل الفكرة إلى عمل إبداعي، من خلال الحديث بشكل قصصي عن تحريض الفكرة إلى الإبداع.

منذ سنوات أتردد إليه في الأماسي.. التي أضجر فيها، وعندما يراني خلف الباب يستقبلني بحفاوة ويصر على تقديم كل ما في بيته من طعام وشراب ويجبرني على الأكل والشرب، كل مرة أرتب لقضاء ساعة أو ساعتين، مثلاً في الشتاء أزوره السادسة مساءً وأمكث للثامنة، وفي الصيف أزوره في الثامنة مساءً، ولم يسبق لي أن زرته نهاراً إلا أيام الأعياد، ولكن بقائي غالباً يطول حتى ساعة متأخرة من الليل وأحياناً في فصل الشتاء عندما لا يتوقف المطر يمسك بي ويصر عل نومي في بيته فأنام الثالثة وأستفيق الثامنة صباحاً أتجه من بيته إلى عملي مباشرة، وإذا لم أزره لأسبوعين يقوم بها وهو يحدثني بلهجة توبيخية.

لا أعرف سبب مضايقته للقيام بزيارتي وكل ما يجيبه: (أنا في الخمسين وأنت في العشرين فمن تقع عليه الزيارة)؟ ويلفت انتباهي مضايقته الواضحة عندما أكون في بيته ويُطرق الباب من الخارج وأحياناً يجيب باستياء: أنا نائم يا حمار.

لكن على الأغلب لا يزوره أحد، فهو يقيم في هذا البيت لوحده منذ ثلاثين سنة، لاأصدقاء له ولا أحد من أقربائه أو جواره يجرؤ على طرق الباب مهما كانت الدوافع حتى لا يسمع شتيمة، فهو يمكن له أن يشتم كائناً من كان دون أن يعرفه أو يراه ولمجرد أنه طرق الباب، مثل أن يقول-عندما أكون موجوداً- للطارق قبل أن يراه أو يعرف هويته:/ابن الكلب لا تطرق هذا الباب مرة ثانية/ وقد سطر رجل مجهول هذه العبارة على بابه /لا تطرق هذا الباب يا حمار/ وصديقي نفسه لا يعرف من كتب هذه العبارة، لكنه يشعر بأنه كتبها نيابة عنه. يقول لي بأنه منذ ثلاثين سنة لم يزر أحداً من أقربائه مهما كانت المناسبة سلبية أو إيجابية،

ولا أجد أي حرج مـن زياراته رغم نظرات الجـوار الذيـن يجلسون علـى الأغلب في أمسيات الربيع والصيف أمام أبواب بيوتهم يحتسون الشاي ويبحلقون في المارة بنظرات استفسارية مزعجـة، وعلى الأغلب يمعنون النظر إلي وأنا أتوقف مطولاً أنتظر أن يفتح /حسيـب/ لي الباب لأنني أجد راحة هائلة لدى ناس غير عاديين وربما أغلب أصدقائي هـم من هؤلاء، أفضل قضاء ساعات طويلة برفقتهم وقد لا أستطيـع قضاء ربع ساعة فقـط مع شخصـ /عـادي/ أو /عام/ لا خصوصية لديه،وهكـذا لا أحتمل زياراتهم إلى بيتي فأتحجج بعـد دقيقة من جلوسهم بأننـي على موعد هام وأصرفهم لأنني حقاً لا أحتمل ضياع ساعـات مثلما هم يريدون ضيـاع وقتهم فقط حتـى يموتوا، لكن عند حسيـب الذي لا يحتمله أحد ساعة واحدة، أجـد راحة مذهلة ربما أكثر من وجودي في منزلي. مرة قلت لحسيب وأنا أخطط لعدم الزواج: ما رأيك بالحياة دون زوجة؟

أجاب وهـو يبحلق في: ليس هناك أمتع مـن الحياة مـن دون امـرأة وأولاد خاصة عندما لا يثق الرجل بقدرته على إعالة أسرة سوف تكبر مـع السنوات.. أنا عشت سعيداً من دون مسؤوليـة لأن المرأة تحطم الظهر، كان علي أن أتحـول إلى حمار لأحتمل هذا العبء المـروع، ولم تتغير نظرتـي حتى الآن لأننـي عشـت دون مشاكل وأعتقـد بأنني سأموت دون مشاكل. الآن أحس بحاجة إلى امـرأة تخدمني فقط، لكن المجتمع متخلف لا يمنحني هذا الحق، وأنا أيضاً لا أستطيع أن أغريهن براتب كبير لأن ذلك فوق قدرتي، هذه هـي الحقيقة، أتكاسل من جلي صحن أو غسل ثوب أو تنظيف البيت، هذه المسائل البيتية التي غـدوت احتقرها تقلقني هذه المرحلة أكـثر من غيرها وتكاد تخنقني الآن فأهملها يوماً بعد يوم، لكن القذارة ستأكلني وأنا مجبر على القيام بهذه الأمور التافهة.

قلت له: وهذه العزلة كيف تحتملها؟

ضحك وقد ضغط بكفه على كفي قائلاً: هي التـي تحتملني، أنـا جلبتهـا بإرادتي لتختطفنـي أو تعتقلني، أنـا أرغمت عليها البقاء معـي، وهي المسكينة تحتملني لكنني مـن دون أصدقـاء عشت في سـلام، المبلغ الذي ورثته عن أبي ودعته في المصرف أعيش بفوائـده، منذ عشريـن سنة أقبضـ راتباً شهريـاً مـن المصرف،لست بحاجـة إلى أن أكذب أو يُكذب علي، ولا أريد أن أكون ثرياً ولا أن ينصبـوا لي أصناماً لا في حياتي ولا بعد مماتي،ولا أن ينشروا صوري على أغلفة مجلات أو يجروا لقاءات إذاعية وتلفزيونية معـي، أعيش لوحدي لا أريد شيئاً من العالم كله، أرفض كل شـيء حتى الكتب والأغاني والـكلام، لا أن أسمـع ولا أن أُسمـع، هل

يشدك هذا النمط من الحياة، هل تعرف أن المشاكل كلها تأتي من الخارج.

قاطعتــه: والنجاحات أيضــاً تأتي من الخارج.

قال: عن أي نجاحات تتحدث.

أن تكــون ناجحاً هنا عندما تقنع نفسك بأنك ظفرت بكل شــيء واسترحت: النوم- الكسل- الاستمتاع بالبقاء بالبيت- السهر- الابتعاد من الآخريــن. هذه حرية حقيقية، حريــة كبرى لا يحسها أحــد غيري في هذه الجمهوريــة. الليلة أرغــب بزيارته والسهر معه هذا الطقس المثلج، وعدني منذ عشرة أيــام بأنه سيكشف لي ســراً خطيراً ما زال حتى الآن يحرقــه وكان السبب الأول خلف اتخاذ قرار العزلة.

ابتعت خضاراً وفاكهــة وبعض حلويات واتجهــت إليه في السابعة مســاءً، أخرجت حزمة مفاتيحي وطرقت بها الباب.. تناهى صوته: هل هو أنت؟

وضعت فمي في شقَي الباب: أجل هو أنا ألن تحفظ طرقاتي؟

سحــب شــق البــاب إلى الداخــل بقوة وأخــذني بيديه محتفياً كأنّنــي ابنه الضائع منذ ثلاثين سنة، وقادني إلى الداخل،سحب وسادة أجلسني عليهــا بالقرب من المدفأة، ولمــا لمحني أرتجف أخذ يــدي بكفيه وصار يدفئهما على المدفأة تارة وينفخ عليهما تارة أخرى: لماذا تختفي.. هل عملك متعب. لماذا لا تأخــذ إجازة ونسافر معاً إلى أي بلد آخر لدي نقود لا تلزمني سنصرفها ما رأيك هل توافق.. اجلس بالقرب مني أرجوك.. كدت أخــرج للتو إليك، منذ أربعة أيام وأنا أنتظر مجيئك كل مساء. نظرت في عينيه المغلقتين مستفســراً عن سبب هــذا الاهتمام الكبير بي،لا أرغب في سرد التفاصيل الدقيقة التي يقوم بها، وأنا شــارد بهذه الحالة انحدرت دموع من عيني عفوياً.

قلت له: هذا الاهتمام الغامض يؤلمني.

قال: لأنني أريد أن أفيك حقك.

قلت بدهشة هازاً رأسي: أي حق؟

قــال: لأنني أريد أن تأتــي، فتأتي، أنت تحقق لي مسرة بحضورك.

قلــت: ولكنني أخاف بعضــ اللحظات هذا الاهتمام الزائد.

قال: هذا كل شيء، قلت لك ما لدي.

مد يده يزيد السائل إلى المدفأة ثم حمل بطانية ولفها على كتفي قائلاً: حتى لا تبرد قــد لا تشعر بأثر البرد لكنــك ستعاني منه في المستقبــل .ثم تعاونا في إعــداد العشاء عندئذ ومع مد اللقمة الأولى إلى فمي قلت: أنا مصر الليلــة أن تروي لي قصتك السرية التي وعدتني بها المرة السابقة هل تذكر؟

كنــت أعــرف أن ثمــة امــرأة في هذه القصة،

وخطرت لي أحداث مثل أنه كان يخطط للزواج من امرأة، لكنها أعطته جسدها قبل الزواج فلم يعد يثق بها، أو كان يحب واحدة فتركتــه، أو تعلق بامرأة فأخبره صديق بأنها على علاقات مشبوهة، كل هذه الاحتمالات خطــرت لي فأصررت علــى معرفة قصته أكثر.

ســدد نظرة متأملــة إلى شــكل المدفأة وقــال كأنــه يحدثها: حدثت هــذه القصة منذ عشرين سنة، السر الوحيد الذي مازال يرعبني حتــى هذه اللحظــة وكان علي أن أبقــى محافظاً عليه لأسبــاب ستعرفها بعد أن أرويهــا لك،لا أدري لماذا أجدني مدفوعاً إلى قولهــا لشخص عزيز مثلــك ولاأخفي بأنك تمثل الجزء المضــيء للحياة بالنسبة لي وأننــي متعلق بك وهذا التعلق الذي يبلغ بــي حد الألم يمنعني مــن مجرد لفظ /لا / وأنــت تطلب شيئا،قــد تسألني عن السبب، أجيبك بأنني لاأعــرف، ولكن أعرف بأنك تحمل أجــزاء من كل العلاقــات الحميمية التــي فاتتني، تحمل جزءاً من الابن، وجزءاً من الأخ، وجزءاً من الصديق الحميم، وحتى جزءاً من الحب المفقود، ولذلك عندما تطرق بابي يوما ولاتراني، اذهب إلى المصرف وإلى دائرة العقــارات، ستجد مفاجأة خبأتها لك ربما لأشعــر بأنك ستكون أقــرب إلي حتى في موتــي وستكون علاقتنا أكــثر قربا وأنا في ذروة البعــد عنــك. لاأعرف مــا الذي أصابني بذكره لعبــارة الفراق فقلت: لاتقل هذا، وكيف تكــون قادرا على لفظ عبارات كهذه وأنا لاأتخيــل حتى خروجك من هذه المدينــة، لايعجبنــي الاستمــرار في اتجاه كهــذا للسهر، قل لي القصــة التي وعدتني بهــا. بعد بريهات صمت تمتــم بهدوء بالغ: تعــرف أن كل رجــل على الأرضــ يريد أن يستقل من خلال الزواج حتى يمارس حريته الشخصيــة خــارج سلطــة الأب، أنا رأيت هذه المــرأة ودامت علاقتنــا خمس سنوات كنا نخطــط فيها لحياتنــا ونرسم المراحل والبرامــج التــي سنواجههــا، خالدية كانت تسكن في حي شعبــي وتزورني في الأعطال الرسمية عندما لم نذهــب إلى الدائرة التي كنا نعمل موظفين صغيرين فيها. في المرحلة الأخيرة اتفقنا على أن نتزوج لكنها في اليوم التالي غابت عن الدائــرة، دام هذا الغياب أسبوعين فرحت أسأل عنها في الحي بحجة أنني سأبلغهــا قرار فصلها مــن الوظيفة، لكنني فوجئت بأنها متزوجة وتسكن في حي آخر مع زوجهــا.. لم أسأل عنها، وبعد مرور شهرين جاءت إلي في هذا البيت قبل ذهابي إلى الدائرة بربع ساعة وهي تعرض علي أن تعود علاقتنا.

أنــا كنت أريد مبرراً واحــداً لهذا الفعل فلماذا وعدتني بالزواج وتزوجت بعد يومين من رجل آخر.

قلـت: عندما تزوجت مـات كل ما كان بيننا.

قالت: لن ينتهي شيء ما دام قد بدأ.

- على أي أساس لن تنتهي علاقتنا وما الفائدة؟

أنا عازب وحضـورك في بيتي سيسبب لكلينا إشكالات إن بدأت لن تنتهي بالفعل!!

جلسـت على الكنبـة وقالت: هل صرت تكره حضوري.

- لا شيء لي عندك ولا شيء لك عندي، كنا نتحـدث عن حياة كاملة عـن مستقبل كامـل لإنسانين،لكائنين، قـولي لي ما الذي سنقولـه، هـل هناك غير مضيعـة للوقت، عندمـا لا تأتـين سأبحث عـن غيرك حتى نرسم المستقبل.

نظـرت إلي نظرة تحمـل عبق السنوات الخمس الماضيـة وهي تقول: لكن أنت كلك تعنيني هنا.

- وأنـت لا تعنين لي غـير الماضي الذي مات ولم يعد يصلح للحاضر.

هنا بكت خالدية وقالت: إذاً لأصارحك الآن، أجـل عندما كانـت علاقتي بك كنت أخونك مع شخص آخر، كان هو ثرياً وكنت بحاجة إلى نقوده، كنت أجلس معه في الشهر مرتـين فيعطيني مـا يعـادل راتبي ثلاث مرات،كنـت أستمتع بهذه النقـود وعندما كان ضمـيري يؤنبني كنـت أغيب عنه لكن بعـد شهرين ولأنني بحاجـة إلى نقود كنت أعود إليه مرغمـة. هذه هي الحقيقة التي أخفيتهـا عنك حتى يكون كل شيء واضحاً. كنت ألجأ إليه مـن أجل نقوده، لكنني كنت أجيء إليك من أجلك فقط، من أجل حبنا. بعدما خرجت من هنا آخر مرة ونحن نرتب لاستعـدادات الزواج، شككـت بأنني حامل بسبـب تأخر دورتـي الشهريـة، وفي اليوم التـالي ذهبـت إلى التحاليل بـدل الدائرة ليخـبرني الطبيب بنبأ الصاعقة الذي حول شكـي إلى حقيقة لامفر منهـا، فأنا حامل وعلي أن أتصرف، فكرت بك ملياً ولكن كنت واثقة بأنـك لم تكن لتساعدني في أمر كهذا، ولن يكون بوسعك أن تغفر لي خطيئة كهذه. اتصلت من هناك مع هذا الشخص وطلبت أن يأتـي إلى مخـبر التحاليـل ليسمع ذلك بنفسه ويتصرف بموقف سريـع، ويبدو أنه كان راغباً في علاقة كهذه لا لأنه يحبني، بل لأنه معجب بجسدي وقد استطعت تلخيص ذلك من خـلال علاقته بي رغم حديثه عن الحـب، لأن الحب الذي عشته معك علمني بأنـه أسمى مـن أن يتعرض على يد المحب لأي شكل من أشكال التلوث، ويبقى محافظاً علـى صفائه ونقائه مثـل طائر حر، وهذا مـا حدث فقد جاء في اليوم التالي وطلبني للزواج لأنني هددته بأنني لن أحتمل العاقبة لوحدي وسأصارح أهلـي بالحقيقة عندما

يعاقبونني ليكون العقاب لكلينا وكان هو يعرف بأن أهلي سيهرقون دمه ودمي معاً لهذه القضية وفي أقصى سرعة تم الزواج.

كيف كنت تريدني أن آتي وأخبرك بهذه الوقائع، وهل كنت ستحتمل هذه الخيانات حينذاك؟!

- والآن انتهى ذلك على خير لماذا تنفخين في رماد النار التي انطفأت

- أنا أعرف لماذا جئت إليك، وهذا هو رجائي الوحيد حتى لا أخسرك مرة أخرى، هل تصدق بأنني لا أستطيع النوم، أشعر بإثم كبير نحوك، مثلاً كأنني تركتك مجروحاً .بعد تفكيرمؤرق وصلت إلى نتيجة تخلصني من هذا العذاب، فمثلاً أنا خنتك مع هذا الرجل وحتى أعيد لك ثأرك، سأخونه معك وفي الوقت الذي سيكون هو فيه زوجي ستكون أنت عشيقي، والفرق شاسع بين الزوج وبين العشيق، هكذا سأتخلص من الألم، هذا ما توصلت إليه.

- هل أنت يا خالدية تقولين هذا الكلام!!. لقد سقطت خالدية عندما تركتني.. والآن أي سقوط آخر هذا،كيف لم أتصور أن حبي الذي كان بحجم العالم سيودي بمن أحب إلى هذا الهلاك وقلت بنظراتي وصوتي: خالدية هل أنا من سيحيلك إلى عاهرة/.

- سأملأ حياتك.. عند ذاك سأمنحك كل حياتي.

- أي حياة، أنا لست بحاجة إلى أن تمنحيني حياتك، حياتي تكفيني، لن أخون حبي الذي كان كبيراً ذات يوم حتى لا أشعر بأنني كنت أحمقاً وغبياً. لن أدفع ثمن خطأ لم أرتكبه، ادفعي أنت لوحدك الثمن، يمكن أن تخونيه مع رجل آخر أو أكثر من رجل، أنا الآن خارج الموضوع لأننا لم نكن متفقين على علاقتك به، أليس هذا صحيحاً قولي هل أقول غير الحقيقة؟

- ولكنك بحاجة إلى امرأة. كل رجل بحاجة إلى امرأة..

- صحيح/امرأة/ إما زوجة أو حبيبة أو عاهرة، وأنت لا تصلحين أن تكوني زوجتي ولا حبيبتي ولا أستطيع أن أعاملك كعاهرة، لأنك كنت حباً كبيراً، سأخدع نفسي.. أنا أعجز عن ذلك لست وصية علي، هذه هي مبادئي كيف سأعيش مجرداً من المبدأ، وفي حال إصرارك سأقدم استقالتي أو أسافر إلى مدينة أخرى أو دولة أخرى أو حتى قارة أخرى.

- أنت تحقد علي وتريد أن أموت حزناً.. ألا تنظر كم هزلت ألا ترى ارتجاف يدي، أقول لك بأنني أصارع الموت ألا تفهم، يجب أن تفعل ذلك ولو مرة واحدة في حياتي لأدافع بها عن نفسي ولنفسي: /لأن حسيب أصبح أيضاً مثل زوجي/ مثلما خنت حسيب مع هذا ها أنا أخونه مع حسيب.

- لا لا أريد /أنــت كنت حباً كبيراً/ لن أتنــازل عن هذا المبدأ حتى لا أكون منافقاً، الآن سأذهــب إلى العمــل، هــذا هــو ردي الأخير.

فجــأة احتقــن وجهها وسقطــت على الأرضــ.. ناديتها، لم تجب، رششت ماء على وجههــا ولم تتحرك، تحسســت دقات قلبها، وعرفت بأنهــا فارقت الحياة، صُدمت بهذا الواقــع، لم يعد عقلي قــادراً على التفكير.. مددت يــدي إلى علبة الأقراص المنومة، ها هو مستقبلــي الذي ضاع يتحــول إلى جثة أمام ناظري، وفجــأة وأنا أنظر إلى خالدية والأقراص بيدي انتفضــ الماضي كله على جثــة المستقبل الميت: خالديــة هل سنموت ذات يوم؟

- لا أصدق، وحتى لو متنا فإننا سنعيش هذا الحب الكبير في الموت، حبنا هو القيمة النظيفة الوحيدة لدينا.

- خالديــة حبنا هــو أروع لحن في هذا الزمان تعزفه البلابل ويغنيه الربيع.

- هــل سيموت كل هذا يــا حسيب هل تعتقد ذلك كله.

أفرغــت علبــة الأقراص بيــدي، كانت خمسة أقراص ابتلعتهــا دفعة واحدة وقد تركت ورقــة كتبت عليها: /هذا ما فعله بنا الحــب/. وراودني إحساس بالانتصار لأنني سألتحق بها، أغمضت عيني وأنا أرى أن ما قالته خالدية كان حلماً، وبعد لحظات سأرى خالدية الحقيقة وسأظفر بها. الحياة لم تعد تعنيني لقــد تجردتُ من كل شــيء عندما خسرتُ خالديــة، لقد ماتــت خالدية التي كانت كالقلب بــين جوانحي، والآن سألتحق بها، أنا واثق بأنني أقوم بعمل صائب.

لا أدري مــا حدث بعــد ذلك، أو كم من الساعات مضت ولم يسبق لي أن دخلت واقعاً كالــذي أنا فيه، ولم يعــد الموت يرعبني منذ ذاك الوقــت.. لــن أقول /لقــد مت/، لكن أقــول بقناعة /لقد عشــت/ هذا سر أبوح به أمامك بسرية تامة، رأيت عالماً غير هذا عندما دبّت الحياة في كرة أخرى وخطفتني من ذاك العالم المدهش السحري، في اللحظات الأولى لم أرغب في النهوض، حاولت المقاومة بكل الوسائــل حتى أوهم نفســي بأنني ما أزال في ذاك العالم السحري ولكنها الحقيقة المروعة والواقــع الصدامي، وعادت الحياة هــذه تحتل حواسي وتعيــد إلى ذاكرتي من جديد ذاك الكم الهائــل من ذكرياتي فيها، رأيت رأسي على صدر خالدية وهي ممددة في الغرفة وقد شحــب وجهها أكثر، عندئذ عرفت وأيقنت بأنني أمام إنسان ميت، أجل كانــت ميتة تماماً، يا لــه من منظر مروع / خالدية حقاً ميتة/ ولن تعود.

تذكرت من جديد ما حدث عندما دخلت خالدية صباحاً وأنني لم أذهب إلى الوظيفة،

عادت التفاصيل.. عندئذ نظرت إلى الساعة وقد سرتُ باتجاه الباب وأنا مثل شخص كان ميتاً وفجأة نهض ورأى نفسه بين المقابر، رائحة الموت كانت طافحة تفوح من خالدية بقوة.. الساعة تشير إلى الثانية، في البدء ظننتها ثانية الظهيرة ولكنني عندما فتحت الباب بحذر وخرجت إلى الحوش، أدركت بأنها ثانية بعد منتصف الليل وأدركت بأنني أمضيت ثمانية عشر ساعة متواصلة في حالة غيبوبة على إثر تناولي الأقراص المنومة الخمس، استنشقت هواء وعدت إلى الغرفة، غطيت خالدية ببطانية. تناولت إبريقاً من العصير لأسد معدتي الخاوية وشردت بالعمل الذي سأقوم به، فكرت أن أبلغ السلطات قبل أي تفكير آخر،

- وماذا سأقول لهم، ماذا سيكون موقف خالدية وأنا أفضحها في موتها، فما الذي يبرر حضور امرأة متزوجة منذ شهرين في بيت شاب عازب مثلي/ ولكن من المؤكد أن زوجها وأهلها قلبوا المدينة وهم يبحثون عن ابنتهم المفقودة/.

خرجت مرة أخرى إلى الشارع مرتبكاً وهذه المرة لفتت دراجة المستأجر الطالب نظري وكان عندذاك يسكن الغرفة التي تحولت الآن إلى مطبخ، ودون أي تخطيط بما سأفعل، قدت الدراجة الهوائية إلى الشارع وعدت إلى الغرفة دون أن أدري ما سأفعله، أمضيت وقتاً لا بأس به في حمل خالدية إلى الشارع وتعديلها على مقعد الدراجة أمامي وقدتها بركبتين تصطكان إلى أن وصلت منتصف الطريق الواصل إلى بيتنا. وقفت في ركن أشد ظلمة، أنزلتها ومددتها على الأرض بجانب أحد البيوت إذ لم تكن حينذاك أرصفة، غطيتها بالبطانية لكنني عندما ركبت الدراجة فكرت أن البطانية ستثير أسئلة، فنزلت وسحبت البطانية تركتها دون غطاء في ذاك البرد الشديد كانت الحرارة من المؤكد تحت الصفر قلت في نفسي: بعد ساعتين على الأغلب سيفيقون ويبلغون السلطات التي ستتولى مهمة تدبير أمرها.

عدت إلى البيت، أعدت الدراجة إلى موضعها وأغلقت الباب على نفسي.. ها هو شبح خالدية من جديد يتمدد في ذات المساحة، رائحة الموت الفظيعة تملأ الغرفة. لقد تركتها في ذلك الصقيع ولم يكن أمامي خيار آخر غير ذلك كم كنت رجلاً قاسياً، لو كانت حية لنظرت إلي نظرة خيبة وأنا أتركها في ذاك الركن مكشوفة، لكن أدافع عن نفسي بأنني ما فعلت ذلك لأجلي، فها أنا أبوح لك بكل شيء، لكن من أجل إنقاذ سمعتها. لقد ماتت ويجب أن يبقى هذا الموت غامضاً إلى درجة الإقناع بأنها ماتت مثل الملايين الذين يقضون بأزمات قلبية

في الطرقــات.. لم تكــن مسمومة ولا يوجد عليها أي خدش، إنه موت طبيعي، لكن منذ صباح الأمس وهذا هــو اللغز الذي ما زال يثير فضول الكثيرين، هــذا مااستطعت أن أقدمــه لخالدية في موتها بين يدي، بعد كل هذه السنوات مــا تزال خالدية تحرقني في أحلامي، وكلما نظرت إلى ذاك الركن أراها ممددة هناك وأراني أحملها من جديد.

توقفــت غصة في حنجرتــه ومنعته من إضافة كلمة أخــرى، تركته بصمت دون أي تعليق وغادرت لأول مرة في الثانية ليلاً دون أن يلح علي كعادته: /ابق.. نم هنـا/.

اعترافات فرنسواز ساغان

تقول الروائية الفرنسية فرنسواز ساغان بأن الثقة بالنفس في خطوتها هذه أثرت على كامل حياتها، فهــي تعتمد على نفسها على الأغلــب حتى في النهوض لشــرب كأس من الماء، أو لصناعــة نوع من الطعام، أو لشراء حاجة لها أو للمنــزل، وعندما يلومها أحد فإنها لاتتردد من أن تقول: هذه.. أنا.

دخلت كبرى الملتقيات الأدبية والثقافية، وعقدت صداقات مع المشاهير، وكان الرئيس الفرنســي الراحل فرنســوا ميتيران يفتخر بصداقته لها.

أصدرت العديد من الأعمال الإبداعية التــي قدمتهــا في مراحل عمرهــا للقراء وترجمت هذه الأعمــال إلى غالبية اللغات الحية، إذ قلما نجد قارئــا في العالم لم يقرأ لساغــان. أبدعــت العديــد مــن الأعمال الروائيــة والقصصية والمسرحية، والمقالات الأدبية، والآراء الاجتماعية.

تقــول عن علاقتهــا بالكتابة: /الكتابة سحرية بالمعنى الــذي يرغب فيه كل الناس أن يكونــوا كتابا، الكثــيرون جدا يحتفظون بمخطوطــات ويطلبون مني أن أقرأها لهم، ذات يــوم صادفت سيــدة جميلة في إحدى المكتبات، فبادرتني قائلة: /كيف يمكنني أن أنشــر كتاباً كبيراً إن كنــت لا أجيد الكتابة؟ أجبتهــا: تتخذيــن مساعــدا يعينــك على الكتابة/. قالــت: /حسنا وإن كنت لاأعرف ماذا أكتــب؟/ قلــت: /اسمعينــي، عندما لانعرف عم نكتب ولاكيف نكتب، خير لنا أن ننسى ذلك/. أُصيبــتٌ بخيبة أمل وردّدت: /وأسفاه، كم كنت أحب أن أكون كاتبة/.

هذه الكلمات التــي تقولها ساغان بلغة سهلــة بسيطــة تعبر عن مــدى جديتها في مسألــة الكتابة إلى درجة أنها عندما تواجه الأحــزان والمواقف الصعبة في حياتها فإنها لاتتردد من مواساة نفسهــا قائلة: /ولكنني أحيا لأنني أكتب/.

متعة العثور على جملة مناسبة

بعــد كل هــذا المشوار في عــالم الكتابة والتألــق والنجاح تنتهي ساغان لتقول: /إني متأكدة مــن أني قد تغيرت، ولكن ليس لدي

انطباع بأني نضجت وفهمت الشيء الكثير، وإني لأتساءل إن لم أكن في الثامنة عشرة أغزر معرفة مني اليوم ٠ على كل حال، كنت حينها أكثر ثقة بنفسي وبأحكامي، وأعمق تصميما، في العشرين نكون مترددين، ولكن مقتنعين. في شبابي - إن وسعني قول ذلك - كانت الأمور واضحة وكان هناك لطفاء وأشرار، ويساريون ويمينيون. أشياء بسيطة جداً، ولكن في غاية الوضوح، ذاك أمر يدعو للاطمئنان ٠ عصر اليوم يلفه الغموض قليلا. كل شيء مشوّش مع هذه العبادة للمال التي أضحت لاتطاق. أصبح نصف الناس من التابعين والنصف الآخر متعصبا، لم تكن الأمور هكذا في الماضي/.

بيد أن السعادة ماتزال تأتي من الكتابة، فتشعر بحياة جديدة وبدفق حيوي جديد مع إبداع كل سطر وكل صفحة وكل كتاب، وهي واثقة بأنها سوف تعثر على كلمات لم تكتبها بعد، وتقدم أفكارا لم تقدمها للقراء بعد.

تقول: /السعادة.. سعادة الكتابة وحسب، إنني متأكدة من أن الكاتب الرديء نفسه يعيش لحظات سحرية عندما يعثر على الجملة المناسبة، والتوافق بين كلمتين في هذه اللحظات، هذه اللحظات وحدها، يشعر الكاتب بأنه كاتب حقيقي.. إنني مولعة بحب الحياة، قضيتها وأنا أعيش أكثر مما فعلت، وأنا أكتب أتمتع بحس السعادة، التعاسة لاتعلمنا شيئاً/.

في كتابه كليات شمس تبريز يقول جلال الدين الرومي:

ما التدبير أيها المسلمون فإنني لا أنا،

لا أنا بالمسيحي، ولا باليهودي، ولا بالمجوسي، ولا المسلم،

ولا أنا بالشرقي، ولا بالغربي، ولا بالبري، ولا بالبحري،

ولا أنا من عناصر الطبيعة، ولا أنا من الأفلاك الدوارة،

ولا أنا من تراب، ولا أنا من هواء، ولا من ماء، ولا من نار،

ولا أنا من العرش، ولا أنا من الفرش، ولا أنا من الكون، ولا أنا

من المكان، ولا أنا من الهند، ولا من الصين، ولا من البلغار، ولا من السكسون، ولا من بلاد عراقين، ولا من خراسان،

ولا من الدنيا، ولا من العقبى، ولا من الجنة، ولا من النار،

ولا من آدم، ولا من حواء، ولا من فردوس رضوان.

مكاني في اللامكان، وعلامتي أن ليس لي علامة.

لستُ جسماً، ولا روحا بل إنني روح من روح الحبيب

جردت نفسي من الإثنينية فوجدت العالمين وحدة واحدة.

إنني أبحث عن واحد أقول واحدا، وأعرف واحدا، وأدعوا واحدا

هو الأول وهو الآخر وهو الظاهر وهو الباطن.

لا أعرف لا هو ولا أقول لا يا من هو ولا أعلاف سوى هو

إنني ثمل من روح العشق وقد ذهب العالمان من يدي

ولا أملك شيئاً سوى الشطارة والتسول.

إذا تنفست يوما في العمر بعيداً عنه، فإنني نادم على ذلك الوقت وتلك الساعة، وإذا أسعدني

الوقت يوماً مع الصديق في الخلوة

أضع العالمين تحت قدمي وأرقص طربا.

ياللعجب أيها الأحباب أي طائر أنا إذا أطير وأنا في البيضة

فأنا بكليتي عشق وروح في جسم من الماء والطين

ألا يا شمس تبريز إنني ثمل في هذه الدنيا

بحيث لا يداويني شيء سوى السكر والتسول

كل من اطلع على سرنا

قل له افتح عينيك وسارع إلينا

ضع كأس الخمر على كتفي حتى

أخلع هذا الدلق الأزرق اللون

ولو كان ذلك سبباً لسوء السمعة عند العقلاء

ولكنا لا نطلب حسن السمعة ولا سوءها

لا نطلب الطاعة، ولا العهد، ولا الصلاح مني.

أنا ثمل، فإنني اشتهرت بتجرع كؤوس الشراب من يوم السبت.

إنني من تلك اللحظة التي توضأت فيها من ينبوع العشق

كبّرت التكبيرات الأربع على كل ما في الوجود،

لا تطلب منا سوى طاعة المجانين

فإن شيخ مذهبنا يرى العقل ذنباً

لا تطلب منا الصلاح والتوبة والتقوى يا حافظ

لأنه لا يوجد أحد في الخليع والمجنون صلاحاً

إذا كنت من مريدي طريق العشق، فلا تفكر في سوء السمعة

فقد رهن شيخ صنعان الخرقة في بيت الخمار

ما أحلى وقت ذلك القلندري اللطيف إذا كان له

في أطوار السيرة ذكر تسبيح الملائكة في حلقة الزناد

كان لي دلق يستر ماءة عيب مني، فالخرقة صارت رهنا للخمر والطرب وبقي لي الزنار.

أنا الذي طرق طريق التقوى في الليالي بالدف والصنج

فإذا أظهرتُ رأسي الآن فماذا يكون ما قيمة دلق حافظ

أصبغه بالخمرة ثم جيء به من السوق وأنت جدّ سكران

لو فكرت في لوم الأدعياء، لم تذهب عني صفة السكر والعربدة

إن زهد الإباحية المبتدئين بالتعلم طريق للمقايضة

فأي إصلاح أفكر فيه أنا الذي أصبحت فضيحة للعالم،

أي شأن في المصلحة للماجن المحرق للعالم، فالعمل الذي ينبغي له التدبير والتأمل هو أمر المملكة.

ويمكن أن يتشكل الإبداع من حادث يقع عليه المبدع، فقد كتب موباسان روايته /بيير وجان/ بعد قراءته لخبر في جريدة.

يورد محيي الدين بن عربي في كتابه الوصايا: /قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أتى سائل امرأة، وفي فمها لقمة، فلفظتها وناولتها إياه، فلم تلبث أن رزقت غلاماً، فلما ترعرع جاء ذئب، فاحتمله فخرجت تعدو في أثر الذئب، وهي تقول: ابني ابني، فأمر الله ملكاً: الحق الذئب فخذ الصبي من فيه، وقل لأمه: إن الله يقرئك السلام وقل: هذه لقمة بلقمة/.

المراجع

١- كليات شمس تبريز- جلال الدين الرومي.
٢- هكذا تكلم زرادشت- فريدريك نيتشة.
٣- رسائل دستويفسكي.
٤- فرانز كافكا - المسخ.
٥- البرهان في علوم القرآن- محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي أبو عبد الله- تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - دار المعرفة - بيروت ١٣٩١ هـ.
٦- فريدريك نيتشة- إنسان مفرط في إنسانيته- ج٢ ترجمة محمد الناجي — أفريقيا الشرق — الدار البيضاء ٢٠٠١.
٧- الوصايا- محيي الدين بن عربي- ط١- دار الإيمان- دمشق ١٩٨٦- باب: لقمة بلقمة وسلام من الله، ويورد: الحديث لم أجده.





لَمَحات مِن سِيرةِ مَعنِ بنِ زائدة

❁
حسن موسى النميري

يَتَّصِفُ مَعنُ بنُ زائدةَ بِكَثيرٍ مِنَ الصِّفاتِ المُحَبَّبَةِ لَدَى الإنسانِ العَربيّ في كُلِّ وقتٍ وحِينٍ، أي أنَّها مَزايا تَتَّصِفُ بِالدَّيْمُومَةِ والثَّباتِ، لاتَتَغيَّرُ قِيمَتُها، ولا تَتَأَثَّرُ مَكانَتُها مَعَ تَحَوُّلِ الأزمانِ، فالرَّجُـلُ يَتَمَتَّعُ بِشَخصيَّةٍ مَرموقةٍ وجَذَّابَةٍ ومُحَبَّبَةٍ لِكَثـيرٍ مِن الأنماطِ المُختلِفَةِ مِنَ العـربِ؛ حاكِمينَ ومَحكومِينَ، وكانَ الرَّجُـلُ بِحَقٍّ ذا سِيرَةٍ حَمِيـدَةٍ، وسُمْعَةٍ طَيِّبَةٍ، وشُهْرَةٍ عاليَـةٍ، يَحتَرِمُها كِبارُ

❁❁ أديب وباحث في التراث العربي (فلسطين).
العمل الفني: الفنان جورج عشي.

القَوم مِـنْ قادَةٍ وخُلَفـاءٍ ووُلاةٍ ووُزَراءٍ، كما أنَّها شخصِيَّةٌ مَحبُوبَةٌ مِـنَ النَّاسِ العاديينَ، والبُسَطاءِ المُحْتاجينَ لِبَذْلِ مَعنٍ، وعَطائِهِ.

ويَجِدُ مَن يُريدُ الكِتابَةَ عن مَعنٍ صُعُوبَةً ليستْ هيِّنَـةً، لأنَّ الكاتِبَ لا يَجِدُ لَهُ أخبارًا يَجمَعُهـا مَرجِعٌ واحِـدٌ، أو مَراجِعُ مَحدودَة العَدَدِ، لِيَقِفَ على حُدُودِ شَخصِيَّتِهِ، ويَتَعرَّفَ على مُختَلَفِ مُزاياهُ.. فأخبارُهُ نادرَةٌ، وما هيَ إلاَّ نُتَفٌ مُتَفَرِّقَةٌ، تَجِدُ نُتْفَةً مِنْها هُنا، وأُخرَى هُناكَ في مَكانٍ بَعيـدٍ.. وبِسَبَبَ ذلكَ جَعَلنا عُنوانَ ما كَتَبْناه (لَمَحاتٍ مِن سِيرَتِهِ..).

التَّعريـفُ بمَعـنٍ: اسْمُه مَعنُ بنُ زائدة ابن عبدِ اللّهِ بن مَطَـر الشَّيباني،ويُكنَى أبا الوَليدِ، وهوَ عَـمُّ القائدِ العَبَّاسِـيِّ الشَّهيرِ (يَزيدِ بنِ مَزيد الشَّيْباني) الذي لَهُ يَدٌ لا تُنْكَرُ في تَوطِيدِ دَعائِـمِ أركانِ الدَّولَةِ العبَّاسِيَّةِ.. لم يَذكُرِ المُؤَرِّخونَ تاريـخَ مِيلادِ مَعنٍ، لكنَّهم عَيَّنُوا تاريـخَ وفاتِهِ في عام ١٥١هـ=٧٦٨م.. أي أنَّهُ عاشَ في آخِرِ عُمْرِهِ ما يُقارِبُ عِشرينَ سنـةً في ظِلِّ الدَّولَةِ العَبَّاسِيَّـةِ.. أمَّا مُعظَمُ حياتِهِ، فَـكانَ في ظِلِّ الأُمويـينَ.. وكانَ في عَهدِ بَنـي أميَّةَ مُكرَّمًا، يَعيشُـ حُرًّا مُقَدَّرًا مُحتَرَمًا مِن خُلفـاءِ بَني أُميَّةَ ووُلاتِهِم، وهذا مـا جَعَلَهُ يَقِفُ مُناوِئًا لِحُكْـمِ العبَّاسيينَ في بِدايَةِ مُحاولاتِهِم اجتِثاثَ الحُكم الأُمويّ.(١)

لِمَاذا عادَى المَنْصُورُ مَعنًا وطَلَبَهُ:كانَ مَعنُ بنُ زائِـدَةَ على صِلَةٍ طَيِّبَـةٍ بِالوالي والقائدِ الأُمـويّ يزيد بن عُمَرَ بن هُبَـيْرَة الفَزَاري، الذي كانَ يُدافِعُ عن حُكْمِ بَني أميَّةَ، والتَقَى جيشُ الأُمويينَ الذي يَقُودُهُ يزيدُ هذا، بِجيشِ العبَّاسيـينَ الذي يَقودُهُ قَحْطبَـةُ بنُ شبيب الطَّائي، فَقتَلَ مَعنُ بنُ زائدَة القائدَ العبَّاسِيَّ (قَحطبةَ) في منطقةِ حوضِ الفُراتِ.(٢)

واستَمَرَّ مَعنٌ يُقاتِـلُ مَعَ جيشِ الأُمويينَ حتـى أُعلِنَ عن مَقتَلِ آخِـرِ خُلفاءِ بَني أُميَّةَ (مَروان بن محمّد) فاستَتَبَّ الأمرُ لِلعبَّاسيينَ، ويَئِسَ أنصارُ الأُمويـينَ.. فاختَفَى مَعنٌ عنِ الأنْظارِ، والعَبَّاسيُّونَ يَطلُبُونَهُ بِشَكلٍ حَثيثٍ، حتى ماتَ أبو العبَّاسِ السَّفّاح، وآلتِ الخِلافَةُ لأَخيهِ أبي جَعفرِ المَنْصُور، فاستَمَرَّ أبو جَعفر في طَلَبِ مَعنٍ، حتى يوم الهاشِمِيَّةِ.

كيـفَ رَضِـيَ المَنْصُـورُعنْ مَعْـنٍ: كانَ مَعنٌ-كما أسلَفنا- وَثيقَ الصِّلَةِ بِيَزيدَ بنِ عُمرَ بنِ هُبَيْرَةَ، وأبلَى بَلاءً حسَنًا في الدِّفاعِ عنهُ،



فَلَمَّــا استَقَــرَّ الأَمرُ لِلعبَّاسيينَ خافَ مَعنٌ على حيَاتِــه، فاسْتَتَرَ مُــدَّةً مِــنَ الزَّمَــنِ، وأبو جَعفــر المَنْصُور يَطلُبُهُ..

وفي مَــكــانٍ قُــربَ الـكُـوفَـةِ يُـقـالُ لَــهُ (الـهـاشِـمِـيَّـةُ) ثــارَتْ جَـمـاعَـةٌ مِـنَ (الـرَّاونْـدِيَّـةِ[٣]) ضِدَّ أبي جَعفر المَنْصور، وحَمَلوا السِّلاحَ ثَأرًا لِمَقـتَـلِ أبــي مُـسلِم الخُــراســانـي، الـذي يتَّهَمُ المَنْصورُ أنَّــهُ أعطَى الإذنَ بِقتْلِه.. وكانَ مَعنٌ يَومَها مُختَفِيًا لَدَى (مَرزوق أبي الخَصيب) الذي كانَ حاجِبًا لَدَى المَنْصُورِ، وكانَ يَتَحَيَّنُ الفُرصَةَ المُناسِبَةَ لِطَلَبِ الأمانِ لِمَعنٍ.. فاغتَنَمَ مَعنٌ الفُرصَةَ فَاستَلَّ سيفَهُ، واقتَحَمَ الصُّفُوفَ، يُدافِعُ عنِ المَنصُورِ، ويُقاتِلُ الرَّاونديَّةَ بِشَجاعَةٍ وبَسالَةٍ نادِرتَيْنِ، فَرَدَّ الثَّائرينَ، ودَحَرَ هم، والمَنْصُورُ يَنْظُرُ إليْهِ ويَعجَبُ مِنْ إقْدامِهِ حينًا، وتَأخُّرِهِ حِينًا آخَرَ، لِيَعودَ ويَأخُذَ بِلِجامِ فَرَسِ المَنْصورِ، لِيَذودَ عنْهُ، ويَحمِيَهُ بِنَفسِهِ.. فَعَفَا المَنْصُورُ عنْهُ ولَقَّبَهُ(أسدَ الرِّجالِ) وأجازَهُ بِعشرَةِ آلافِ درهم، ثمَّ عَيَّنَهُ واليًا على اليَمَنِ.[٤]

وكانتِ اليَمَن يَومَها تَمُوجُ بِكثيرٍ مِنَ الفِتَنِ، مِــنْ بَينْهــا تأييدُ كثيرٍ مِــنَ القبائلِ في بِلادِ

اليَمَنِ للدَّولَةِ الأُمويَّةِ، وكانَ الأُمويُّونَ يغدقُونَ الأَموالَ على مُؤَيِّديهِم مِن القَبائِلِ اليَمَنِيَّةِ.. فَشَغَبُوا علــى واليهــم الجَديدِ(مَعنٍ)فَكانَ لا بُــدَّ مــِنِ استِخــدامِ العُنْفِ، ويَبــدو أَنَّ مَعنًــا تَجاوَزَ الحَدَّ في استِخــدامِ القُوَّةِ ضِدَّ مُخالِفيهِ، وهذا ما جَعَلَ المَنْصُورَ نَفسَهُ يَتَّهِمُهُ بِالمُغالاةِ والإفراطِ في العُنْفِ.فأَعفاهُ المَنْصُورُ مِنْ ولايَةِ اليَمَنِ، ونَقَلَهُ واليًا على سِجِستانَ.. وهُنــاكَ ابْتَنَى لِنَفسِــهِ دارًا، لكنَّ الثَّائرينَ لم يُمْهِلــوهُ حتى يَهنَــأَ بِقَصْــرِهِ الجَديدِ، فقد دخَلَ عليْهِ (الخَــوارِجُ) بزيِّ الفَعَلَةِ (العُمَّالِ) فَقتَلوهُ، وليسَ بِمُستَبْعَدٍ أَنْ يَكونَ لِمَقتَلِهِ صِلةٌ بالثَّأرِ لأَبي مُسلِمِ الخُراساني.

الحِلـمُ والأَناةُ أَبْرَزُ صِفـاتِ مَعْنٍ: لقَد كُنَّــا نَعجَبُ، ومنْذُ أَنْ كُنَّــا صِغارًا بِشَخصِيَّةِ مَعنٍ الجَذَّابَةِ الأَخَّاذَةِ، التي رُبَّما زادَها قُرْبًا إِلى قُلوبِنــا، الأَماديحُ العظيمــةُ، والتَّقاريظُ الجَليلــةُ التي كانَ يُولِيها مُعَلِّمُونا (رَحِمَ اللهُ مَــنْ ماتَ مِنْهم، وذَكــرَ اللهُ الأَحياءَ بِالخَيْرِ، ومَتَّعَهــم رَبِّي بِالصِّحَّــةِ والعافيَةِ والسَّعادَةِ) لِشَخصِيَّةِ مَعنٍ، وهوَ بِكُلِّ تأكيدٍ يَستَحِقُّ هذا التَّقديرَ وأَكثَرَ، مِن خِلالِ حِصَصِ المُطالَعَةِ، لِهــذهِ الشَّخصيَّةِ الفَذَّةِ المُتَمَيِّزَةِ، ذاتِ المَزايا المُتَعَــدِّدَةِ والتي مِنْ أَبرَزِهــا الأَناةُ والحِلمُ، واحتِمَالُ الأَذى، ومُدافَعَةُ الغَضَبِ، وذلكَ مِنْ خِلالِ حِكايَــةِ الرَّهطِ الذينَ راهَنُوا أَحَدَهم بِمبلَــغٍ مِنَ المالِ،إنْ هوَ استَطــاعَ أَنْ يُغْضِبَ مَعنًا، ويُخْرِجَهُ عنْ طَورِهِ ويُثيرَ انْفِعالَهُ..

دَخلَ الرَّجُــلُ على مَعــنٍ، ولم يُسَلِّمْ كما يَفعَلُ العربُ والمُسلِمونَ، وإِنَّما بادَرَ بِالهُجُومِ ونَظَمَ شِعْرًا هَدَفُهُ إِغْضابُ الأَميرِ، واسْتِثارَةُ غَيْظِهِ.. فقد بَدَأَ بِقَولِهِ:

أَتَــذكُــرُ إِذْ لِحَــافُـكَ جِلــدُ شاةٍ
وإِذْ نَـعـلاكَ مِــنْ جِـلـدِ الـبَـعيرِ

فقالَ مَعنٌ وهــوَ يَبتَســمُ ويَضحَكُ: إي واللهِ، أذكــرُ ذلــكَ ولا أَنْساه. فــزادَ الرَّجُلُ يَقولُ:

فَسُبْـحـانَ الـذي أعـطـاكَ مُلكًا
وعَـلَّـمَـكَ الجُـلُـوسَ على السَّريرِ

فقال معن: سُبْحانَ اللهِ العَظيمِ، يُعِزُّ مَن يَشــاءُ، ويُذِلُّ مَنْ يَشاءُ، وهــوَ على كُلِّ شيءٍ قَديرٍ. فقال الرَّجلُ بِصيغَةِ المُصَمِّمِ:

ســأرحَـلُ عـن بِــلادٍ أنـتَ فيـها
ولَـو جـارَ الـزَّمـانُ عـلى الـفَـقيرِ

فقال مَعــن: إنْ أقمتَ مَعَنَــا فأهلاً بكَ ومَرحَبًــا، وإنْ رَحَلــتَ فَمَــعَ سَلامَــةِ اللّهِ وحِفْظِــهِ.. فعَلَّى الرَّجُلُ وَتــيرَةَ الهُجُوم، لَمَّا وَجَــدَ مَعنًا لا يُغْضِبُهُ الــكلامُ العاديُّ الذي يَخلو مِنَ السِّبابِ والشَّتائم، فَاتَّجَهَ إلى السَّبِّ والشَّتْمِ المُباشِرِ، واشتَــقَّ شَتيمَةً مِنْ مَعكوسِ اسْمِ مَعنٍ فقال:

فَجُدْ لي يابْنَ (ناقِصَةِ) بشيءٍ
فــإنِّي قــد عَـزِمـتُ علـى المَسيرِ

لقــد وَقُحَ الرَّجُــلُ، وقَلَّ حيــاؤُهُ لِدَرَجَةِ أَنَّهُ سَبَّ الأميرَ بلا مُسَــوِّغٍ، وشَتَمَهُ من دونِ سَبَــبٍ، فقلبَ اسمَ أبيهِ (زائدَة) إلى مَعكوسِهِ (ناقِصَة) قاصِدًا إغاظَةَ مَعْنٍ، وإثارَةَ غَضَبِهِ، واسْتِثــارَةَ حفيظَتِهِ. لكنَّ مَعنًــا لم يَغضَبْ.. وإنَّما ضَحِكَ وتَهَلَّلَتْ أساريرُ وجْهِهِ، وقال:

ياغُلام! أعْطِــهِ ألفَيْ دِرهم، يسْتَعينُ بها على قَضاءِ حاجاتِهِ.. لكنَّ الرَّجُلَ استَمَرَّ في وَقاحَتِهِ، وقِلَّةِ أدَبِهِ، قائلاً:

قَـلـيـلٌ مــا أتَـيْــتَ بِــهِ، وإنِّي
لأَطـمَـعُ مِـنْـكَ بـالمَـالِ الـكَثيرِ

هذا واللّهِ كَما قالَ المَثَلُ الشَّعبيُّ (شَحَّاذٌ وَيَتَشَرَّطُ) إنَّهُ يَتَمــادَى في قِلَّةِ حَيائِهِ، ويَتَّهِمُ الأميرَ بالبُخْلِ، وكَأنَّما يُطالِبُ بِحَقٍّ مُكتَسَبٍ لَهُ علــى الآخَرينَ.. ولم يُخَيِّبْ مَعــنٌ أمَلَهُ.. فقــالَ: يا غُلام أعْطِــهِ ألفَــيْنِ آخَرَيْنِ، ولا تُخَيِّبْ رَجاءَهُ فينا..

فَسُقِــطَ في يَدِ الرَّجُلِ، وأيْقَــنَ أنَّهُ فَشِلَ في مَهَمَّتِــهِ، وأدرَكَ أنَّهُ خَسِرَ الرِّهانَ، ولا بُدَّ مِن مُواجَهَةِ الحَقيقَــةِ المُرَّةِ، ولا مَفَرَّ لَهُ مِنَ النُّطْقِ بِكَلِمَةِ الحَقِّ.. فقالَ: أيُّها الأميرُ! لَقَد وَهَبَكَ الوَهَّابُ مِنَ الحِكمَــةِ والأناةِ والحِلمِ ما لَو وُزِّعَ على أهلِ الأرضِ لَكَفاهم.. فَصاحَ مَعنٌ:يا غُلامُ! كم أعطَيتَهُ على شِعرِهِ؟ فقال: أربعــةُ آلافٍ. فقال: أعْطِهِ على نَثْرِهِ مِثْلَها.. فاقْبِضْ يا أخا العربِ جائزَتَكَ، وإنَّنا لَنَحمِلُ عَنْكَ رِهانَكَ الذي خَسِرتَهُ.

مَعــنٌ يَسْعَدُ بالجُـود ويُسَرُّ بالمَعروفِ ويَفــرَحُ لِتَفريجِ كَرْبِ المُصابــينَ: ووَلَّى أبو جَعفَــر المَنْصُورُ مَعنًا أذربيجــانَ[٥] فَقَصَدَهُ ناسٌ من أهــلِ الكُوفَةِ، فَلَمَّا صــارُوا بِبَابِهِ، واستَأذَنُوا عليْهِ، دَخَلَ الآذِنُ فقال: أصلَحَ اللّهُ الأميرَ، بالبابِ وَفدٌ مِن أهلِ العِراقِ. قال: مِنْ أيِّ أهلِ العِراقِ؟ قال: مِنَ الكوفَةِ. قال: ائذَنْ لَهــم، فَدَخلوا عليْهِ، فنَظَرَ مَعنٌ إلى هيئاتِهِم

الرَّثَّةِ.. وتَهَلَّلَ وجْهُهُ تَهَيُّؤًا لِلمَعروفِ، وأَخَذَتْهُ هِزَّةُ حُبِّ العَطاءِ، فأنشأَ يَقولُ:

إذا نَوبَةٌ نابَتْ صَديقَكَ، فاغتَنِمْ
مَرمَّتَها، فالدَّهرُ بِالنَّاسِ قُلَّبُ[٦]
فَأحسَنُ ثَوبَيْكَ الذي هوَ لابِسٌ
وأَفْرَهُ مُهْرَيْكَ الذي هوَ يَركَبُ[٧]
وبادِرْ بِمَعروفٍ إذا كُنْتَ قادِرًا
زَوالَ اقْتِدارٍ، أوغنىً عنْكَ يَذهبُ[٨]

فَأَمَرَ غُلامَهُ أنْ يَهَبَ كُلَّ واحِدٍ مِنهم أربَعةَ آلافِ دِرهم، قبلَ أنْ يَرَى رأيَهُ بِإجازَتِهِم.

عَفْوُ مَعنٍ وصَفْحُهُ ورَحمَتُهُ: مَزايا مَعنٍ وخِلالُ الخَيْرِ في شَخصِهِ كثيرَةٌ لا تُحصَى مِنْها: سَعَةُ صَدْرِهِ، وحُبُّهُ لِلعَفوِ عنِ الخاطِئينَ.. فقد أُتِيَ مَرَّةً – وهوَ أميرٌ– بِبَعضِ الأَسرَى، فأَمَرَ بِقَتلِهِم، فانْبَرَى أَحَدُ الأَسرَى، وقد هَداهُ اللهُ لِطَريقةٍ لَعَلَّها تُخَلِّصُهُ ورِفاقَهُ مِنَ السيفِ.. فقالَ: يا مَعنُ، يَذكرُ النَّاسُ أنَّكَ جَوادٌ، فَهَلْ مِنَ الجُودِ أنْ تَقتُلَ أَسراكَ ظِماءً؟ فَأَمَرَ مَعنٌ بِهِم فَسُقوا.. فقالَ الأَسيرُ بَعدَ أن نالَ مِنْ ضِيافَةِ مَعنٍ (أَعنِي الماءَ الذي شَرِبَهُ): وهلْ يَقتُلُ الجَوادُ أَضيافَهُ يا مَعنُ؟ فقالَ مَعنٌ: انْزَعُوا أَغلالَهم، وخَلُّوا سبيلَهم.[٩]

جُودُ مَعنٍ وكَرَمُهُ: ولَعَلَّ الجُودَ أَظْهَرُ مَحامِدِ مَعنٍ، وأَوضَحُ مَحاسِنِهِ، وأَكْثَرُ صِفاتِهِ بُرُوزًا وانْتِشارًا بينَ النَّاسِ، والعربُ أُمَّةٌ يُعجِبُها العَطاءُ، وتَهشُّ لِلمَنْحِ، وتَرتاحُ لِلهِباتِ.. فَقد مَدَحَهُ مَرَّةً الشاعرُ (مُطيعُ بنُ إياس[١٠]) بِشِعرٍ، فَوَقَّعَ مَعنٌ على ظَهرِ رُقعَتِهِ: إنْ شِئتَ أَثْبَنْاكَ، وإنْ شِئتَ مَدَحناكَ.. فَكَرِهَ مُطيعٌ اختِيارَ المَدحِ، وهو مُحتاجٌ إلى النَّوالِ فَكتَبَ إليْهِ:

ثَناءٌ مِنْ أميرٍ، خَيْرُ كَسْبٍ
لِصاحِبِ مَكْسَبٍ، وأخي ثَراءِ
ولكنَّ الزَّمانَ بَرَى عِظامِي
ولا مِثْلُ الدَّراهِمِ مِنْ دَواءِ[١١]

فقال مَعنٌ: صَدَقَ ابنُ إياسٍ: ما مِثْلُ الدَّراهِمِ مِن دَواءٍ. وأَمَرَ لَهُ بِألفِ دينارٍ.. وسُئِلَ مَعنٌ فقيلَ لَهُ: ما أحسَنُ ما مُدِحْتَ بِهِ أبا الوَليدِ؟ فقال: قَولُ سَلْم الخاسِرِ:[١٢]

أَبلِغِ الفِتْيانَ مَأْلُكَةً
أنَّ خَيْرَ الوُدِّ ما نَفَعا[١٣]
إنَّ قَرْمًا مِنْ بَني مَطَرٍ
أتْلَفَتْ كَفَّاهُ ما جَمَعا[١٤]
كُلَّما عُدْنا لِنائِلِهِ
عادَ في مَعروفِهِ جَذَعا[١٥]

ومن أمثِلَةِ جُودِ مَعــنٍ وَسَخائِه أنْ دَخلَ عليْــهِ الشاعرُ(مَروانُ بنُ أبــي حفصة [١٦]) بِبَغداد بعــدَ عَودَتِه مِنَ اليَمَن، ومَجْلِسُ مَعنٍ غاصٌّ بِأَهلِه، فَأَخَذَ مَروانُ بِعَضادَتَي البابِ، وأنشَأَ يَقولُ:

وما أحجَمَ الأعداءُ عَنْكَ بَقيَّةً
عَليْكَ،ولكنْ لمْ يَروافيكَ مَطْمَعا[١٧]
لَهُ راحتانِ:الجُودُ،والحَتْفُ فيهِمَا
أبَى اللّه إلاّ أنْ تَضُرَّا، وتَنْفَعَا[١٨]

فَأُعجِبَ مَعنٌ بِشِعرِهِ، وقال لَهُ: احتَكِمْ[١٩] قال: عَشــرة آلافِ دِرهم، فقالَ مَعنٌ: رَبِحْنا عليْكَ تِسعينَ ألفًا[٢٠] فقال مَروانُ: أَقِلْنِي[٢١] قال مَعن: لا أَقالَ اللّه مَنْ يُقيلُكَ.[٢٢]

ومِــن أمثِلةِ جُودِ مَعنٍ أنَّ شاعِرًا يُقالُ لَهُ (يَحيَى بنُ مَنْصــور الذُّهلي)كانَ قد تَنَسَّكَ، وهَجَــرَ قَولَ الشِّعرِ، ولبِسَ المُسُوحَ[٢٣] فَلَمَّا بَلَغَهُ أنَّ مَعنًا يُعطِــي الفَقيرَ فيُغنِيه، ويُسْعِدُ بِهِباتِــهِ ذا الحَظِّ الكَسير، نَــدِمَ على زُهدِه، وعــادَ إلى الشِّعرِ.. ووَفَدَ على مَعنٍ فَمَدَحَهُ، فَعَلَّــقَ مَــروانُ بــنُ أبي حفصــةَ على ذلكَ بِقَولِه:

لا تَعدَمُوا راحتَيْ مَعنٍ، فإنَّهما
بِالجُودِ أفتَنَتَا يَحيَى بنَ مَنْصُورِ
لَمَّا رَأى راحتَيْ مَعنٍ تَدفَّقَتا
بِنائلٍ مِن عَطاءٍ غَيْرِ مَنْزورِ[٢٤]
ألقَى المُسُوحَ التي قد كانَ يَلبَسُها
وظَلَّ لِلشِّعْرِ ذا رَصْفٍ وتَحْبيرِ[٢٥]

ومِن أمثِلَةِ جُــودِهِ أنَّ الشاعِرَ مَروانَ بنَ أبي حَفصَــةَ، كانَ يَعتَرِفُ ويُباهي بِأنَّ ما بِهِ مِنْ غِنــىً يَعُودُ لِلهِباتِ الجَزيلَةِ، والأُعطِياتِ الجليلةِ التي كانَ مَعنٌ يَهَبُها إيَّاهُ.. وكانَ حتى الخُلَفاءُ يَغــارونَ مِنْ حِرْصِــِ الشُّعَراءِ على تَقديمِ مَعْنٍ، ويَحْسُدونَهُ على تَحْبيرِ الشُّعَراءِ لِقَصائِدِهِــم وتَجْويدِها في مَدحِــهِ، والثَّناءِ على مَكارِمِهِ.. فَمِمَّا يُذكَرُ أنَّ مَروانَ بنَ أبي حفصَــةَ دَخَلَ مَجلِسَ المَهــدِيِّ، يُريدُ مَدحَهُ، فقالَ لَهُ المَهدِيُّ: أَلَستَ القائلَ:

أقَمْنا بِاليَمامَةِ بعدَ مَعنٍ
مُقامًا لا نُريدُ بِهِ زَوالا
وقُلنا: أيْنَ نَرْحَلُ بعدَ مَعْنٍ
وقد ذَهَبَ النَّوالُ فَلا نَوالا

قد ذَهبَ النَّوالُ -كما زَعمتَ- فَلِمَ جِئتَ تَطلــبُ نَوالَنا؟ لا شــيءَ لَكَ عِندَنــا، جُرُّوا بِرِجْلِهِ، فَأَخرَجَهُ الحُجَّابُ.. وكَذلكَ فُعِلَ بِهِ يومَ دخَــلَ مَجلِسَ هارون الرَّشيــد، ولِلسَّبَبِ

نَفسِـهِ، وذَكَّرَهُ هـارونُ بِالبَيْتَيْنِ السَّابِقَيْنِ نَفسيْهِما.[٢٦]

ويُقالُ إنَّ الخَليفَـةَ المَهدي خَـرَجَ يومًا للصَّيد، فلَقِيَهُ الشاعِرُ(الحُسينُ بنُ مُطَيْر[٢٧]) فَأَنْشَدَهُ:

أَضْحَتْ يَمينُك مِنْ جُودٍ مُصَوَّرَةً
لا، بَلْ يَمينُكَ مِنْها صُورَةُ الجُودِ
مِنْ حُسْنِ وَجْهِكَ تُضْحي الأَرضُ مُشْرِقَةً
ومِنْ بَنَانِكَ يَجري الماءُ في العُودِ[٢٨]

فقـال المَهدِيُّ:كذَبْـتَ يـا فاسِق! وهل تَرَكْـتَ في شِعْرِكَ مَوضِعًـا لأَحَدٍ بعدَ قَولِكَ في مَعنٍ؟:

أَلِمَّـا بِمَـعـنٍ، ثـم قُـولا لِـقَـبْرِهِ
سَقَتْكَ الغَوَادي مَرْبَعًا ثمَّ مَرْبَعا[٢٩]
فَيَا قَبْرَ مَعـنٍ،كُنْتَ أَوَّلَ حُفْرَةٍ
مِنَ الأَرضِ خُطَّتْ للمَكارِمِ مَضْجَعا
ويا قَبْرَ مَعنٍ كيفَ وارَيْتَ جُودَهُ؟
وقد كانَ مِنْهُ البَرُّ والبَحْرُ مُتْرَعا
ولكنْ حَوَيْتَ الجُودَ، والجُودُ مَيِّتٌ
ولَوْ كانَ حَيًّا ضِقْتَ حتى تَصَدَّعَا
وما كانَ إلاَّ الجُودُ صُورَةَ وَجْهِهِ
فَعَاشَ رَبِيعًا ثمَّ وَلَّى فَوَدَّعا
فَلَمَّا مَضَى مَعنٌ مَضَى الجُودُ والنَّدَى
وأَصْبَحَ عِرْنِينُ المَكَارِمِ أَجْدَعا[٣٠]

فَأَطْـرَقَ الحُسَيْنُ بْـنُ مُطَير، ثم قال: يا أَميرَ المُؤْمِنينَ، وهـلْ كانَ مَعنٌ إلاَّ حسَنَةً مِنْ حَسَناتِكَ؟ فَرَضِيَ عنْهُ المَهْدِيُّ،وأَمَرَ لَهُ بِأَلفَيْ دينارٍ.. وذَكَرَ ابنُ المُعتَزِّ أَنَّ في القَصيدَةِ بَيتَيْنِ يُعَزِّي فيهِما مَروانُ بْـنُ أبي حَفصَةَ (زائدة بنَ مَعنٍ) حيثُ يَقُولُ لَهُ[٣١]:

تَعَزَّ أَبا العبَّاسِ صَبْرًا، فَإنْ يَكُنْ
نَصيبُكَ مِنْ مَعنٍ بِأَنْ تَتَضَعضَعا
فَمَا ماتَ مَنْ كُنْتَ ابْنَهُ لا ولا الَّذي
لَهُ مِثْلُ ما سَدَّى أَبُوكَ،وما سَعَى[٣٢]

ويَقُـولُ الإخبارِيُّونَ: إنَّ مَعنًا لم يَكنْ يَمنَعُ أَحَـدًا حاجَةً إلاَّ مَـنْ كانَ في غِنىً عن هذِهِ الحاجَـةِ، وكانَ هوَ نَفسُـهُ يَقُولُ:(ما سَأَلَني أَحَـدٌ حاجَةً قَطُّ، فَرَدَدتُّـهُ، إلاَّ رأَيتُ الغِنَى عَنْها في قَفَاهُ).[٣٣]

وكانَ مَعـنٌ على جُودِهِ، وكَـثْرَةِ عَطاياهُ، يَسْتَقِـلُّ ما يُعطِيهِ، ولا يَغْـتَرُّ بِما يَمدَحُهُ بِهِ النَّاسُ، وبِما يَصِفُهُ بِهِ الشُّعَراءُ مِنْ أَوصافِ الأَجوادِ الكرامِ المَسامِيـحِ.. وكانَ فَوقَ ذلكَ كُلِّه يُحْسِـنُ امْتِصاصَ غَضَبِ الخُلَفاءِ، لأَنَّهُ كانَ يَحْرِصُ على إرْضائِهِـم، والابْتِعادِ عنْ سَخَطِهِم.. فالمَنْصُورُ مَثَلاً كانَ حَقُودًا مُهابًا، عتِـبَ على مَعنٍ مَرَّةً، فقالَ لَـهُ لائِمًا عاتِبًا

(وقد دخَــلَ مَجلِسَهُ): هيه يــا مَعنُ! تُعطِي مَروانَ بنَ أبــي حَفصَةَ مِئَةَ ألفِ دِرهمٍ على بيتٍ قالَهُ فيكَ:

مَعنُ بنُ زائـدَةَ الَّـذي زيـدَتْ بـهِ
شَرَفًـا علـى شَـرَفٍ بَـنُـو شَيْبـانِ

فقالَ مَعنٌ: كَلاَّ-واللهِ- يا أميرَ المُؤمِنينَ، إنَّما أعطَيْتُهُ على قَولِهِ:

ما زِلتَ يَومَ الهاشِمِيَّةِ مُعلِنًا
بالسَّيفِ، دُونَ خَليفَةِ الرَّحمَنِ
فَمَنَعتَ حَوزَتَهُ، وكُنْتَ وِقاءَهُ
مِنْ وَقْعِ كُلِّ مُهَنَّدٍ، وسِنَانِ

فاستَحْيَا المَنْصُورُ، وأُعجِبَ بِحُسْنِ تَخَلُّصِ مَعنٍ، وقال لَهُ: أحسَنْتَ أبا الوَليدِ(٣٤).

وأمثِلَةُ جُودِ مَعنٍ كَثيرَةٌ يَصعُبُ إحْصاؤُها، مِنْهــا: أنَّ أعرابِيًّا وَفَدَ عليْــهِ، لا يَعرِفُ مِنْ أيِّ القَبائــلِ هوَ (وخَيْرُ الجُودِ أنْ تَجُودَ على مَنْ لا تَعرِفُ)فَلَمَّــا مَثَلَ الأعرابِيُّ بينَ يَدَيه، قالَ لَهُ: ما حاجَتُكَ؟ فقال: نَأْيُ بَلَدي،وكَثْرَةُ وَلَدي،وضَعفُ جَلَدي،وقِلَّةُ ذاتِ يَدِي. فأتَيْتُكَ يا غَوثَ اللَّهيفِ، ويا جابِرَ الضَّعيفِ.. فَحَبَاهُ مَعنٌ وأكرَمَهُ.(٣٥)

وجاءَهُ سائلٌ فأنْشَدَهُ:

بِـأيِّ الخَلَّـتَيْنِ عليْكَ أُثْنِي
فَـإنِّي عِنْدَ مُنْصَرَفِي مَسُولُ(٣٦)
أبِالحُسْنَى، وليسَ لَها ضِيَاءٌ
عَلَيَّ، فَمَنْ يُصَدِّقُ ما أقُولُ
أمِ الأُخْرَى، ولسْتَ لَها بِأَهْلٍ
وأنْتَ لِكُلِّ مَكْرُمَةٍ فَعُولُ(٣٧)

ومِنَ المَحامِــدِ التي يَتَمَتَّــعُ بِها مَعنُ بنُ زائــدة، والمَزايــا العاليــة التي يَمتــازُ بِها، حُسْنُ أدَبِهِ وصِــدْقُ لَهْجَتِهِ، وسُرعَةُ بَديهَتِهِ، وتَوفيقُهُ إلى الجَوابِ المُحَبَّبِ الصَّائبِ، الذي يَستَحْسِنُهُ السَّائلُ، ويَسعَدُ بِسَماعِهِ المُتَلَقِّي.. فَيروَى أنَّ مَعنًا دخَلَ على أبي جَعفَرِ المَنْصُورِ، وكانَ المَنصُورُ داهِيَةً مُهابًا، وكانَ مَعنٌ يَمشي مُتَهادِيًــا، وبِخُطــىً واثِقَةٍ وئيــدَةٍ.. قالَ لَهُ المَنْصُــورُ: واللهِ لَقَدْ كَبُرْتَ يــا مَعنُ، فقال: فِي طَاعَتِكَ يا أمِــيرَ المُؤمِنِينَ. قال المَنْصُورُ: وإنَّكَ لَجَلْدٌ، فقال: على خُصُومِكَ وأعدائِكَ يــا أميرَ المُؤمنِينَ. قال: وإنَّ فِيكَ لَبَقِيَّةً.قال: هِيَ لَكَ يــا أمِيرَ المُؤمِنِينَ. فقــال المَنْصُورُ: فَأيُّ الدَّولَتَيْنِ أحَــبُّ إلَيْكَ، وأبْغَضُ؟ أدَولَتُنا أمْ دَولَــةُ بَني أميَّةَ؟ فقــال: ذَلكَ عائدٌ إلَيْكَ يا أمِــيرَ المُؤمِنِينَ؛ إنْ زادَ بِــرُّكَ على بِرِّهِم

كانتْ دَولَتُكَ أَحَبَّ إلَيْنا، وإنْ زادَ بِرُّهم على بِرِّكَ،كانَتْ دَولَتُهُم أَحَبَّ إليَّ.. فقال المَنْصُورُ: صَدَقتَ واللّهِ يا مَعْنُ..

ومِنْ دَلائــلِ صِدْقِهِ وتَوفِيقِهِ إلى الجَوابِ الصَّحيحِ، والــرَّدِّ السَّليمِ المُختــارِ الألفاظِ الذي تَدُلُّ كَلِماتُهُ على قُوَّةِ مَنْطِقِهِ، ورَجاحَةِ عَقْلِهِ.أنَّ هارُونَ الرَّشيدَ سأَلَهُ يومًا فقالَ لَهُ: كيفَ زَمانُكَ يا مَعنُ؟ فقال: يا أَميرَ المُؤمِنينَ، أَنْتَ الزَّمانُ، فَإنْ صَلَحْتَ صَلَحَ الزَّمانُ، وإنْ كانَ غَيْرُ ذلكَ فَسَدَ الزَّمانُ.[٣٨]

وكانَ مَعنُ بنُ زائدةَ يُحِبُّ مُصاحَبَةَ أَهلِ العِلمِ، والمَعروفينَ بِالفِكْرِ والثَّقافَةِ، فلَمَّا عَيَّنَ المَنْصُــورُ مَعنًا واليًا علــى اليَمَنِ، اصطحَبَ فيمَنِ اصطَحَــبَ (ابنَ جُرَيــج[٣٩]).. حَدَّثَ ابنُ جُرَيج فقال:كُنــتُ معَ مَعنِ بنِ زائدَةَ في اليَمَــنِ، فَحَضَرَ موسِــمُ الحَجِّ، ولم تَحضُرني نِيَّتُــهُ.. ولكنْ خَطَرَ بِبالي قَــولُ عُمَرَ بنِ أبي ربيعةَ[٤٠]:

تــاللهِ قُـولي لَـهُ:مِـنْ غـيرِ مَعتَبَةٍ
ماذا أَرَدَّت بِطُولِ المُكْثِ بِاليَمَنِ؟
إنْ كُنْتَ حاولتَ دُنْيَا، أو نَعِمْتَ بِها
فَمَا أخذتَ بِتَرْكِ الحَجِّ مِنْ ثَمَنِ؟[٤١]

قال ابــنُ جُريــج: فَدَخلتُ علــى مَعنٍ، فأَخبَرتُهُ أنِّي قــد عَزَمتُ على الحَجِّ.. فقالَ لي: ما نَزَعَــكَ إلى الحَجِّ، ولم تَكنْ تَذْكُرُهُ مِنْ قَبلُ؟ قُلتُ: ذَكَــرتُ قَولَ عُمَرَ بنِ أَبي ربيعةَ، وأَنْشَدتُــهُ شِعــرَهُ، فَأَمَــرَ لي بِمَــا يُجَهِّزُني، وانطَلَقتُ لِلحَجِّ.[٤٢]

ومِــنْ مَزايا مَعــنِ بنِ زائــدة الحَميدة، حُبُّــهُ لِلحَزْمِ والحازِمــينَ، وتَقديرُهُ لِلجادِّينَ الذينَ يأَخذونَ لِكُلِّ شيءٍ أُهبَتَهُ، وما يَستَحِقُّ مِــنِ اهتِمــامٍ واستِعدادٍ.. ويَكــرَهُ المُتَراخينَ الكُسالَى، ولِهذا السَّبَبِ كانَ يُفَضِّلُ ابنَ أَخيهِ (يَزيدَ بنَ مزيد) الذي أَصبَحَ فيما بَعدُ قائدًا مِنْ قُوَّادِ جيشِ العَبَّاسيــينَ، الذينَ ساهَمُوا في توطِيــدِ أَركانِ الدَّولَــةِ العَبَّاسِيَّةِ، والذي استَطاعَ أَنْ يَخْضِدَ شوكَةَ أَكثَرِ من ثائرٍ، تَمَرَّدَ على الدَّولَةِ العبَّاسيَّةِ، حتى لو كانَ مِنْ أَهلِهِ وذَويهِ وأَقارِبِــهِ؛ كالوَليدِ بنِ طَريف، وشَبيب الخارِجــيّ.. كانَ يُفَضِّلُ ابنَ أَخيهِ هذا على أَولادِهِ.. وساهَــمَ في تَربِيَــةِ الفتَى (يَزيد بن مزيد) بعدَ وفاةِ أَبيهِ (مَزيد أَخي مَعنٍ) وكانَ يُقَدِّمُــهُ علــى أَولادِهِ، ويُمَيِّــزُهُ عليْهِم، حتَّى لامَتْهُ امرأَتُهُ في ذلكَ وقالتْ لَهُ تَلومُهُ: كيفَ

تُقَــدِّمُ ابنَ أخيكَ على بَنِيــكَ الَّذينَ هم مِنْ صُلبِكَ؟! فقالَ لَها: واللهِ إنَّهُ لأفضَلُ مِن بَنِيكِ جَميعًا، وسَأُثْبِتُ لَكِ ذلكَ بالتَّجْرِبَةِ والحُجَّةِ والبُرهــانِ.. وفي إحــدَى اللَّيــالي المَاطِــرَةِ المُظلِمَةِ المُخيفَةِ؛ اسْتَدعَى -وبشَكْلٍ مُفاجِئٍ- أولادَهُ، ومَعهــم ابنُ أخيــهِ، في جَوفِ الليلِ. فَجاءَهُ أبنــاؤُهُ مُتَعَطِّرينَ مُتَكَحِّلينَ، يَتَثاءبُونَ، مُتَراخِينَ مُتَهالِكِينَ، في ثِيابٍ تَدُلُّ على التَّرَفِ والنِّعمَةِ، ولِينِ العَيْشِ.. بَينَما جاءَهُ يُزيدُ(ابنُ أخيهِ)مُتَأَهِّبًا في عُدَّتِــهِ وسِلاحِهِ، تَمامًا في اللَّحظَــةِ التي أرسَــلَ إليْهِ عَمُّــهُ.. فلَمَّا رآهُ علــى هذِهِ الهَيئَةِ قالَ لَــهُ: ما الذي أتَى بِكَ على هذهِ الحَالِ؟ قــالَ: أتاني رسُولُكَ ليلاً، وتَحــتَ جُنْحِ الظَّلامِ، فتَبادَرَ إلى ظَنِّي الشَّرُّ، وتَوقَّعتُ السُّوءَ، فأخَــذتُ لِلأمرِ أُهبَتَهُ، لِذا تَــراني جِئتُكَ كما تَرَى.. وإنْ يَكنِ الأمرُ بِغَيْرِ ذلكَ، هــانَ عليَّ حَلُّ ما أنا فيــهِ، والفكاكُ منــهُ. فَعَجِبَتِ امرأةُ مَعنٍ مِنْ حَزْمِهِ وتَأَهُّبِهِ، وانْقَطَعَتْ حُجَّتُها، ورَجَعتْ عنْ لومِ زَوجِها.. ومِنَ المُفارَقاتِ التي تَستَلفِتُ النَّظَرَ أنْ يَمدَحَ الشاعــرُ مُسلِمُ بنُ الوليد(صَريعُ الغَواني[٤٣]) يَزيدَ بنَ مَزيد بِهذهِ الصِّفَةِ، ويُصَوِّرُهُ بِصُورَةِ الحــازمِ المُتَأَهِّبِ،وذلك حينَ مَدَحَهُ يَومَ صارَ قائدًا مَشهورًا،وبعــدَ حِكايَتِهِ مَعَ عَمِّهِ بِأكثَرَ مِنْ عِشرينَ سنةً.. قال صَريعُ الغَواني:

تَـراهُ في الأمـنِ في دِرْعٍ مُضَاعَفَةٍ
لا يَأمَنُ الدَّهرَ أنْ يُدعَى على عَجَلِ[٤٤]

فَلَمَّا رأى مَعنٌ حالَ ابــنِ أخيهِ، والحَالَ التي أبناؤُهُ فيها، أنشَدَ مُتَمَثِّلاً:

نَفسُ عِصامٍ سَوَّدَتْ عِصاما[٤٥]

ولَمَّــا ماتَ مَعنُ بنُ زائــدة رَثاهُ مُعاصِروهُ مِــنَ الشُّعــراءِ، مِــن أبرَزِهــم: الحُسَينُ بنُ مُطَير، ومَروانُ بنُ أبي حَفصة.. ذَكرنا فيما تَقَدَّمَ جانبًا مِــنْ (مَرثِيَّةِ) الحُسين بن مُطَير (العينِيَّة[٤٦]) وهذهِ أبياتٌ من (مَرثِيَّةِ) مَروانَ بنَ أبي حفصة (اللاَّمِيَّة):

مَضَـى لِسَبيلِـهِ مَعـنٌ، وأبْقَـى
مَحَـامِـدَ لَـنْ تَبِيـدَ، ولَـنْ تُنَـالا
كـأنَّ الشمسَ يـومَ أُصِيـبَ مَعْنٌ
مِـنَ الإظْــلامِ مُـلبَسَـةً جِـلالا
هُـوَ الجَبَـلُ الـذي كـانَـتْ نِـزارٌ
تَـهـدُّ مِـنَ الـعَـدُوِّ بِـهِ الجِبَـالا
أصَـابَ المَـوتُ يـومَ أصـابَ مَعنًا
مِـنَ الأخـيَـارِ، أكـرَمَـهـم فَعـالا
وكــانَ الـنَّـاسُ كُـلُّـهُـمُ لِمَعْـنٍ
-إلى أنْ زارَ حُفـرَتَـهُ- عِـيَـالا

فَـلَـيْـتَ الـشَّـامِـتِـيـنَ بِـهِ فَـدَوْهُ
ولـيـتَ الـعُـمْـرَ مُـدَّ لَـهُ فَـطَـالا[٤٧]

ورثـاهُ مَـروانُ بنُ أبـي حفصـة أيضًا بِقصيدَةٍ (رائيَّةٍ) رائعَة، نَذكرُ مِنْها قَولَهُ:

زارَ ابْـنُ زائـدَةَ المَقـابِـرَ بَعدَما
ألـقَـتْ إلـيْـهِ عُـرَى الأُمُـورِ نِـزارُ
فَـلأَبْـكِـيَنَّ فَـتَـى رَبـيـعَـةَ مـا دَجـا
لَـيْـلٌ بِـظُـلْـمَـتِـهِ، ولاحَ نَـهـارُ
لا زالَ قَـبْـرُ أبـي الـوَلـيـدِ تَـجُـودُهُ
بِـعِـهـادِهـا وبِـوَبْـلِـهـا الأمـطـارُ
قَبْرٌ يَضُمُّ معَ الشَّجاعَةِ والنَّدَى
حِـلْـمًـا، يُـخـالِـطُـهُ تُـقـىً ووَقـارُ
إنَّ الـرَّزِيَّـةَ مِـنْ رَبـيـعَـةَ هـالِـكٌ
تَـرَكَ الـعُـيُـونَ دُمُـوعُـهُـنَّ غِـزارُ[٤٨]

ولِمَروانَ بنِ أبي حفصةَ مَرثِيَّةٌ شَهيرَةٌ ثالِثَةٌ (على الفاءِ) نَذكُرُ مِنْها الأبياتَ التَّاليَةَ:

بَكَى الشَّامُ مَعنًا يومَ خَلَّى مَكانَهُ
فَكادَتْ لَهُ أرضُ العِراقَيْنِ تَرْجُفُ
ثَوَى القائدُ المَيْمُونُ والذَّائدُ الَّذي
بِهِ كانَ يُرْمَى الجَانِبُ المُتَخَوَّفُ
أتَى المَوتُ مَعنًا وهوَ لِلعرضِ صائنٌ
ولِلمَجْدِ مُبْتاعٌ، ولِلمَالِ مُتْلِفُ
وما ماتَ حتَّى قَلَّدَتْهُ أُمُورَها
رَبيعَةُ، والحَيَّانِ: قَيْسٌ وخِنْدِفُ
فَكمْ مِنْ يَدٍ عِنْدي لِمَعْنٍ كَريمَةٍ
سَأشْكُرُها مادامَتِ العَيْنُ تَطْرِفُ[٤٩]

مَعنٌ يُجيرُ على الخَليفَةِ نَفسِه:

لايَجرؤُ كَثيرٌ مِنْ كُبَراءِ القَومِ على أنْ يُجيروا حتى على حُكَّامِ الطَّبَقَةِ الثَّانيَةِ (أعني الوُلاةَ وحُكَّامَ المَناطِقِ المَحَليينَ) فما بالكَ بِحُكَّامِ الدَّرَجَةِ الأُولَى (أعني الخَليفَةَ ووَليَّ عَهْدِهِ).. فقد قَرأنا في التَّاريخِ أنَّ شاعِرًا طَلبَ مِنَ الأحنَفِ بنِ قيس (وهوَ مَنْ هُوَ) مِن رِجالاتِ التَّاريخِ ذوي السُّمْعَةِ العاليَةِ، أنْ يُجيرَهُ من أحَدِ وُلاةِ مُعاويَةَ فاعتَذَرَ بِحُجَّةِ أنَّهُ لا يَقْدِرُ على الإجارَةِ على مُعاويَةَ، أو أحَدِ أعوانِهِ، والأحنَفُ في ظَنِّي (وتَقديري) أكبَرُ مَكانَةً، وأعلَى قَدْرًا، ليسَ لَدَى مُعاويَةَ (الحاكِمِ في عَهْدِهِ) بَل لَدَى مُعظَمِ العَرَبِ والمُسلمينَ، في هذهِ الحِقْبَةِ مِنَ التَّاريخِ، مِنْ مَعنِ بنِ زائدَةَ، لَدَى المَهْديّ.. ومَعَ كُلِّ هذا فقد تَجَرَّأَ مَعنٌ على إجارَةِ رَجُلٍ (ثَبَتَ أنَّهُ مُذنِبٌ) وأجارَ مَعْنٌ، على مَنْ؟ على الخَليفَةِ المَهْديِّ نَفسِهِ!! وإليْكَ عَزيزي القارئَ تَفاصيلُ الحِكايَةِ..

أهدرَ الخليفَــةُ المَهْديُّ دَمَ رَجُلٍ مِنْ أهلِ الكُوفَةِ، اتُّهِمَ بالسَّعي في فَسَادِ الدَّولَةِ، وبَذَلَ الخَليفَةُ المَهدي لِمَنْ دَلَّ عليْهِ (مئةَ ألفِ درهم) فاستَخفَى الرَّجُلُ زَمانًا، ثم خَرجَ إلى العَلَنِ، فأتَى بَغدادَ، فــكانَ يَسْتَترُ بها حِينًا، ويَظهَرُ حِينًــا آخَرَ.. وفي يــومٍ، وبَينَمــا كانَ المُتَّهَمُ بِالفَسادِ يَســيرُ في بعضِ الطُّرُقاتِ، بَصُرَ بِهِ (شُرطِيٌّ) كانَ قــد عَرَفَ شيئًا مِنْ حالِ هذا المُتَّهَــمِ.. فَهَجَمَ عليْهِ، وأمسَــكَ بِتَلابِيبِهِ[٥٠] وصاحَ: أنتَ-واللّهِ-فُلانٌ طِلْبَةُ أميرِ المُؤمنِينَ، و(المُتَّهَمُ) يَسَتغيثُ حِينًا، ويَستَعطِفُ الشُّرطِيَّ حِينًا آخــرَ، راجِيًا أنْ يُطلِقَــهُ، وألاَّ يَتَسَبَّبَ في سَفكِ دَمِهِ، وأحيانًــا يُكَذِّبَ الشُّرطِيَّ في زَعْمِهِ وادِّعائِــهِ، ويُحاوِلُ تَخليصَ نَفسِهِ مِن بــينِ أصابِعِهِ.. وبَينَما هُما على هذهِ الحالِ، إذْ سَمِعا وَقْعَ حَوافِرِ الــدَّوابِّ، فالتَفَتَا فإذا بِمَوكِــبِ أميرٍ، يُواكِبُــهُ ويُحيطُ بِــهِ، ويَسيرُ خَلفَهُ رَكبٌ مِنَ الفُرســانِ والحُرَّاسِ، بِكامِلِ أسلِحَتِهِــم.. فقالَ (المُتَّهَــمُ) مَنْ هذا؟ فقالَ أحَدُهم: هذا مَعنُ بنُ زائدَةَ. قال: وما يُكنَى؟ قالوا: أبــو الوَليدِ. فَلَمَّا حاذاهُ، صاحَ المُتَّهَمُ: يا أبــا الوَليدِ، خائــفٌ فَأجِــرْهُ، ومُسْتغيثٌ فَأَغِثْــهُ، ومُستَأمِــنٌ فَأمِّنْــهُ! فوَقَفَ مَعنٌ في مَوكِبِهِ، وسأَلَ عنْ حالِهِ، فقالَ الشُّرطِيُّ: هذا فُلانٌ طِلبَةُ أميرِ المُؤمنينَ، وقد جَعلَ لِمَنْ جاءَهُ بِهِ، أو دَلَّهُ عليْهِ مِئَةَ ألفِ دِرهم. فقالَ مَعنٌ: خَلِّ عنْهُ، وأعلِمْ أميرَ المُؤمنِينَ أنِّي قد أجَرْتُهُ، وأشارَ مَعــنٌ إلى بَعضِ غِلمانِهِ: أنِ انْزِلْ عن دابَّتِكَ، واحمِــلِ المُستَغيثَ عليْها، وانْطَلِقْ بِهِ إلى مَنْزِلِكَ، واحْفَظْهُ وأحْسِنِ إليْهِ، وإيَّاكَ أنْ يَصِلَ إليْهِ أيُّ أذىً.

وأسرَعَ الشُّرطِيُّ (وقد خَسِرَ صَيْدًا ثَمينًا بِمِئَةِ ألــفٍ) إلى بابِ المَهْدي، فَــإذا (بِسَلاَّم الأبرَشِ)رِجْلُهُ على العَتَبَةِ يَهُمُّ بالدُّخُولِ على المَهدِي.. فأعلَمَهُ بِمَا فَعَلَ مَعنٌ، فدَخلَ سَلاَّمٌ وأخــبَرَ المَهدِي بِمــا حصَــلَ.. فَأمَرَ المَهدي بِإحْضارِ مَعــنٍ، ولَمَّا جاءَهُ رسُــولُ الخَليفَةِ، رَكبَ دابَّتَــهُ، لكِنَّهُ أوصَى حاشِيَتَــهُ ومَوالِيَهُ أنْ يُحْسِنُــوا الدِّفاعَ عــنِ (المُستَغيثِ) الذي أجارَهُ، وقالَ لَهم: إنْ مَسَّهُ أذىً فلا تَلومُوا إلاَّ أنْفُسَكم، وإنْ أرادَهُ أحَدٌ بِسُوءٍ فَمُوتُوا دُونَهُ.

ودَخَلَ مَعــنٌ على المَهْــدي، فسَلَّمَ.. فَلم يَرُدَّ عليْــهِ، وإنَّما قال: يامَعنُ! وتُجِيرُ عَلَيَّ؟! قال: نَعَم. قــال: ونَعم أيْضًا؟ قــال: نَعَمْ يا

أميرَ المُؤمنين، لقَد قَتلتُ في طاعَتِكم ودِفاعًا عَنْ دَولَتِكم أربَعَةَ آلافِ مُصَلٍّ في يَومٍ واحِدٍ، ولا يُجَارُ لي رَجُلٌ واحِدٌ، اخْتارَني فاسْتَجارَ بِي؟!.. فَأَطرَقَ الخليفَةُ المَهدي لَحْظَةً.. ثم رفعَ رأسَهُ، وقال: قد أجَرنا مَنْ أجَرتَ يا أبا الوَليدِ.. فَتَهَلَّلَ وجْهُ مَعنٍ بعدَ عُبُوسٍ، وطَمِعَ بِمَزيدٍ مِنَ الخَيْرِ والنَّوَالِ للمُستَغيثِ، فقال: يا أميرَ المُؤمنينَ، أدامَكُمُ اللهُ أمانًا لِلخائفينَ، وعَونًا لَلمُستَضعفِينَ.. الرَّجُلُ خائفٌ وقد أمَّنْتَهُ، وهوَ فَقيرٌ ضَعيفٌ أفَلا أغنَيْتَهُ؟ قال: قد أمَرنا لَهُ بِثَلاثينَ ألفِ درهم.. فقال مَعنٌ: إنَّ جِنَايَةَ الرَّجُلِ عَظيمَةٌ، وهِباتُ الخُلَفاءِ على حسبِ جِناياتِ الرَّعِيَّةِ. قال: قد أمرنا لَهُ بِمِئَةِ ألفٍ. فقال مَعنٌ: أهنَأُ المَعروفِ أعجَلُهُ. فقالَ المَهدي: يا غُلام، عَجِّلْ بِصِلَتِه، وأوْصِلْها الآنَ، وقبلَ انْصِرافِ أبي الوليدِ، وقبْلَ أنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِه.. فانْصَرَفَ مَعنٌ بأمانِ الرَّجُلِ وغِناهُ.. ولَمَّا عادَ أحضَرَ الرَّجُلَ، وأعطاهُ المَالَ، وأوصاهُ قائلاً: ادْعُ اللهَ لأميرِ المُؤمنينَ الذي حَقَنَ دَمَكَ، وأجْزَلَ صِلَتَكَ. وأخْلِصْ في طاعَةِ وَليِّ أمْرِ المُسلمين في مُسْتَقبَلِ أيَّامِكَ.(٥١)

البَرْمَكي يُثيبُ مَروانَ على رِثاءِ مَعْن:

كانَ إعْجابُ العربِ والمُسلِمينَ كَبيرًا بِشَخْصِيَّةِ مَعنٍ، ليسَ في حياتِهِ ومِنْ مُعاصِريهِ فَحسب، وإنَّما الذينَ سَمِعُوا بِمَكارِمِهِ، وعَرَفُوا مَزاياهُ بعدَ مَمَاتِهِ.. فقد ذَكَرتْ كُتُبُ التاريخِ والأدَبِ، أنَّ كُبَراءَ القَومِ كانُوا يُجِلُّونَ مَعنًا، ويُعَظِّمُونَهُ حتى بعدَ مَوتِهِ بِزَمَنٍ، مِنْهُمُ الوَزيرُ جَعفَرُ بنُ يَحيى البَرْمَكي.

دخَلَ الشَّاعِرُ مَروانُ بنُ أبي حَفصةَ، الذي كانَ شَديدَ الإعجابِ بِمَعنِ بنِ زائدةَ، والذي أنفَقَ جانِبًا ليسَ قَصيرًا مِنْ عُمْرِهِ، يَنظمُ الشعرَ في تَخليدِ مَآثِرِ هذِهِ الشَّخصِيَّةِ وإبْرازِ مَزاياها، ووَصْفِ مَحَامِدِها.. دَخَلَ مروانُ على جَعفَرِ بنِ يَحيَى البَرْمَكي، فَمَدَحَهُ بِقَصيدَةٍ جيِّدَةٍ، لكنَّ جَعفَرًا المُعجَبَ بِشَخْصِيَّةِ مَعنٍ، طَلبَ مِنْ مَروانَ أنْ يُنْشِدَهُ قَصيدَتَهُ التي قالَها في رِثاءِ مَعنٍ، والتي مِنْها قَولُهُ:

وكانَ النَّاسُ كُلُّهُمُ لِمَعْنٍ
- إلى أنْ زارَ حُفرَتَهُ - عِيالا

فَأنْشَدَهُ مَروانُ القَصيدَةَ حتى أتى على آخِرِها، وجَعفَرٌ يَبْكي ويَنتَحِبُ ويُرسِلُ دموعَهُ غِزارًا. فَلَمَّا فَرَغَ مِنَ الإنْشادِ سَألَهُ

جَعفَــرٌ: هل أثابَكَ أحَدٌ مِن ولَدِ مَعنٍ عليْها؟ قال: لا قــال جَعفر: فَلَو كانَ مَعــنٌ حَيًّا ثمّ سمِعَها مِنْكَ، فكم كانَ سَيُثيبُكَ عليْها؟ قال: ليسَ أقلّ مِنْ أربعِ مِئَةِ دينــارٍ. قال جَعفَر: قد أمَرنا لَكَ بأربَعةِ أضعافِ هذا المَبلَغ. قُم، واقْبِضْ جائزَتَكَ (ألفًا وستَّ مئةِ دينارٍ).. فَزادَ مَروانُ في مَرثِيَّةِ مَعنٍ أبياتًا يَذكرُ فيها مُبادَرَةَ جَعفرٍ الكَريمةَ، تَقديرًا لَمقام الفَقيدِ، وتَثمينًا مِنْهُ لِلشِّعرِ الرَّائعِ المُختارِ، ومِمَّا زادَهُ الأبيات التَّالية يُخاطِبُ جَعفَرًا:

نَفَحْتَ مَكارِمًا عنْ قبْرِ مَعنٍ
لَنَا، مِمَّا تَجودُ بِهِ سِجالا[٥٢]
فَعَجَّلتَ العَطِيَّةَ يا بْنَ يَحيَى
بِتَأديَةٍ، ولم تُرِدِ المِطَالا
فَكافَى عنْ صَدَى مَعنٍ جَوادٌ
بِأجودِ راحَةٍ بَذَلَتْ نَوالا[٥٣]

لِلَّهِ دَرُّكَ يا جَعفر البَرمَكي، لِلَّهِ دَرُّ مَنْ يحسِنُ تَقديرَ عُظَماءِ الرِّجال، وتَثمينَ مَكانَتِهِم وقِيمَتِهِم في المُجتَمَع..

وعلى الرَّغم من بُلوغِ مَعنٍ هذهِ المَكانَةَ العاليَةَ، والمَنْزِلةَ الرَّفيعَةَ في قُلوبِ النَّاسِ، وهذهِ السُّمعَةَ العظيمَةَ في كُتُبِ التَّاريخِ والسِّيَرِ والأدبِ.. فلم يَكنْ مَعنٌ مَغرورًا بِنَفسِهِ، مُستَعظِمًا لِمَكانَتِهِ، مُستَكثِرًا لِعَطائِهِ، ولم يَكنْ لِيَضَعَ نَفسَهُ في الدَّرَجةِ الأولَى من دَرجاتِ الكِرامِ.. وإنَّما كانَ يَتَواضَعُ لِلَّهِ، ويَجعَلُ نَفسَهُ في دَرَجَةِ الخاشِعِ المُتَذَلِّلِ لِلَّهِ، يُجِلُّ الكِرامَ، ويَحتَرِمُ الأجْوادَ، ويَضَعُهُم في مَراتِبَ أعلَى مِنْ مَرتَبَتِهِ، فَهوَ في نَظَرِ نَفسِهِ أقَلُّ الأجوادِ، وأصغَرُ الكِرامِ، وكُلُّهم أعلَى مِنْهُ مَكانَةً، وأطولُ مِنْهُ باعًا.. والقِصَّةُ التَّاليَةُ التي يَروِيها مَعنٌ نَفسُهُ تَدُلُّ بِوُضُوحٍ على تَواضُعِهِ، وأنَّهُ يَضَعُ نَفسَهُ في مَنْزِلَةٍ، هوَ بِالتَّأكيدِ أعلَى مِنْها، ومَكانَتُهُ فَوقَ المَرتَبَةِ التي يَجعَلُ نَفسَهُ فيها.

رُوِيَ عَن مَعنٍ أنَّهُ قال: لَمَّا كُنتُ هارِبًا مِن أبي جَعفَرِ المَنْصُور، خَرَجتُ مِنْ بابِ حَربٍ[٥٤] بعدَ أنْ أقَمتُ أيَّامًا في الشَّمسِ، وخَفَّفتُ لِحيَتي[٥٥] وعارِضَيَّ، ولَبِستُ جُبَّةَ صُوفٍ غَليظَةً، وركبتُ جَمَلاً، وخرجتُ عليْهِ، لأمضيَ إلى البادِيَةِ، قال: فَتَبِعَني رَجُلٌ أسودُ، مُتَقلِّدًا سيْفًا. حتى إذا غِبتُ عنِ الحَرَسِ، قبضَ (الأسودُ)على خِطامِ[٥٦] البَعيرِ، فَأناخَهُ، وقبَضَ عَلَيَّ. فقلتُ: ما شأنُكَ؟ قال: أنتَ بُغيَةُ أميرِ المُؤمنينَ. قُلتُ: مَنْ أنا

-رَحِمَكَ اللّهُ- حتى يَطلُبَني أميرُ المُؤمنين؟ قال: أنتَ مَعنُ بنُ زائدة. قُلتُ: يا هذا، اتَّقِ اللّهَ، وأيْنَ أنا مِنْ مَعنِ بنِ زائدة؟ قال: دَعْ عنْكَ هذا، فأنا واللّهِ أعرَفُ النَّاسِ بِكَ! فقلتُ لَهُ: فَإنْ كانتِ القِصَّةُ كَما تَقُولُ، فهذا عِقْدُ جَوهَرٍ حَمَلتُهُ مَعي، قِيمَتُهُ بأضعافِ ما بَذَلَهُ المَنْصُورُ لِمَنْ جاءَهُ بي، فَخُذْهُ، ولا تَسفِكْ دَمي. فقال: هاتِهِ، فدَفَعتُهُ إليْهِ، فنَظَرَ فيهِ بُرهَةً، وقال: صَدَقتَ في قِيمَتِهِ، ولكنَّني لَستُ قابِلَهُ حتى أسألَكَ عن شيءٍ، فَإنْ صَدَقتَني فيهِ أطلَقتُكَ. قُلتُ: قُلْ. فقال: إنَّ النَّاسَ قد وَصفُوكَ بالجُودِ، فأخْبِرْني: هلْ وَهبْتَ قَطُّ مالَكَ كُلَّهُ؟ قُلتُ: لا. قال: فَنِصْفَهُ؟ قُلتُ لا. قال: فَثُلُثَهُ؟ قُلتُ: لا. حتى بَلَغَ العُشْرَ.. فاسْتَحْيَيْتُ، وقُلتُ: إنّي أظُنُّ أنِّي قد فعَلتُ هذا. قال: ما هذا بِعَظيمٍ. أنا -واللّهِ-راجِلٌ[57] ورِزقِي[58] على أبي جَعفر المَنْصورِ عِشرونَ دِرهَمًا، وهذا الجَوهَرُ قِيمَتُهُ ألفُ دينارٍ، وقد وَهَبْتُهُ لَكَ، ووَهَبتُكَ لِنَفسِكَ، ولِجُودِكَ المَأثُورِ بينَ النَّاسِ، ولِتَعلَمَ (أنَّ في الدُّنيا مَنْ هوَ أجودُ مِنْكَ، ولا تُعجِبكَ نَفسُكَ، ولِتُحَقِّرَ بعدَ هذا كُلَّ شيءٍ تَفعَلُهُ، ولا تَتَوقَّفْ عن مَكرُمَةٍ).. ثم رَمَى بِالعِقدِ إلَيَّ، وخَلَّى خِطامَ الجَمَلِ، وانْصرَفَ. فقُلتُ: يا هذا، قد-واللّهِ- فَضَحتَني، ولَسَفْكُ دَمِي أهوَنُ علَيَّ مِمَّا فَعَلتَ، فَخُذْ ما دَفَعتُهُ إليْكَ فَإنِّي عنْهُ في غِنىً..

فَضَحِكَ ثم قالَ: أردتَّ أنْ تُكَذِّبَني في مقامي هذا، فواللّهِ لا آخُذُهُ، ولا آخُذُ لِمَعروفٍ ثَمَنًا أبدًا، ومَضَى. فَوَاللّهِ لقد طَلَبتُهُ بعدَ أنْ أمِنْتُ، وبَذَلتُ لِمَنْ جاءنِي بِهِ ما شاءَ. فَمَا عَرَفْتُ لَهُ خَبَرًا، وكَأنَّ الأرضَ ابْتَلَعَتْهُ.[59]

نَعلَمُ مِن هذهِ القِصَّةِ أنَّ مَعنًا كانَ يَسْتَصْغِرُ ما يَبْذُلُهُ، ويَستَهِينُ بما يُعطِيه.. في حين كانَ يُقَدِّرُ مبَاذِلَ الآخَرينَ، ويُعَظِّمُ هِبَاتِ الأجواد.

الهوامش

١- انظر أعلام الزِّرْكلي، ٧/٢٧٣.

٢- انظر تاريخ الطبري، أحداث عام ١٣٢هـ.

٣- الرَّاوُنْدِيَّةُ: فِئةٌ مِن أهلِ خُراسانَ، نِسْبَةً إلى بَلدَة صَغيرَةٍ اسْمُها(راوند) وهُم مِنْ أنصارِ أبي مُسلِم الخُراساني، يُؤمنونَ

بِتَناسُخِ الأرواحِ، ويُطالِبُونَ بِقَتْلِ أبي جعفر المَنْصُور ثأرًا لِمَقتَلِ أبي مُسلِم.

٤- انظر أيَّام العرب في الإسلام: تأليف محمد أبي الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي ٤٧٧/٤٧٨.

٥- أذربيجان: دولةٌ تَقع شمال غَربي إيران، معظَمُ سُكَّانِها مِنَ المُسلينَ، كانتْ تَبْريزُ أعظَمَ مُدُنِها (انظر مُعجم البُلدانِ لِياقوت الحَمْوي ١٢٨/١).

٦- نابتهُ نوبَةٌ: أصابَتْهُ مُصيبَةٌ. مَرَمَّتُها: تَرْميمُها وإصْلاحُها. دَهرٌ قُلَّبٌ: يَتَلَوَّنُ ويَتَغَيَّرُ.

٧- يَدعُو لِكُسْوَةِ الصَّديقِ، وحَمْلِهِ على فَرَسٍ إذا افْتَقَرَ.

٨- انظر مُختَصَر تاريخ دِمشق لابن عَساكر(تأليف ابن مَنْظور ٩٤/٤).

٩- انظر العقد الفريد، ١١٦/١.

١٠- مُطيعُ بنُ إياس: شاعر مِن مُخَضْرَمي الدَّولتَيْن الأُمويَّةِ والعبَّاسيّةِ، كانَ ظَريفًا ماجِنًا، وكانَ يُغَنَّى بِشِعرِهِ.

١١- طبقات ابن المُعتَزّ، ص٩٣.

١٢- شاعرٌ عَبّاسِيٌّ كانَ خَليعًا ماجِنًا، سُمِّيَ (الخَاسِرَ) لأنَّهُ باعَ مُصْحَفًا، واشتَرَى بِثَمَنِهِ طُنْبُورًا (أيْ عُودًا).

١٣- المَألُكَةُ: الرِّسالَةُ.

١٤- القَرْمُ: في الأَصْلِ فَحْلُ الإبِلِ، ويكنَى بِهِ عن زَعيم القَوم.

١٥- أمالي أبي علي القالي، ١٦٥/٢ وعادَ الأمرُ جَذَعًا: عادَ حَديثًا كَما بَدأَ.

١٦- شاعر أُمَوي، نَشَأ باليَمامَةِ، وأدرَكَ بَني العبَّاسِ، مَدَحَ مَعنَ بنَ زائدة، كانَ مُنافِقًا يَتَقَرَّبُ لِلعبَّاسيينَ بِهجاءِ خُصومِهم مات سنة ١٨٢هـ =٧٩٨م.

١٧- بَقيَّةً عليْكَ: أرادَ إبْقاءً وحِفاظًا عليْكَ. الرَّجُلُ الذي لا مَطمَعَ فيهِ: النَّادِرُ الشَّجاعَةِ، القَويُّ المُهَابُ الذي لا يَقدِرُ أحَدٌ على مُواجَهَتِهِ.

١٨- مُختَصر تاريخ دمشق لابن عَساكِر (صَنعة ابن مَنْظور ٢٠٢/٢٤، وانظر أغاني دار صادر ٧٥/١٠).

١٩- احتَكِمْ: اطْلُبْ (فَطَلَبُكَ مجابٌ كيفَما كانَ أو مَهْما كانَ.

٢٠- قَدَّرَ مَعنٌ أنَّ الشاعرَ سَيَطلبُ مِئَةَ ألفٍ، أو أنَّهُ قَدَّرَ أنَّ شِعرَهُ يَستَحِقُّ مِئَةَ ألفٍ.

٢١- أقِلْني: يُريد أنِّي أخطأتُ وزَلَّ لِساني، فَصَوِّبْ خَطَئي.

٢٢- الأغاني، ٧٥/١٠.

٢٣- المُسُوح: جمعُ مِسْح: ثَوبٌ مِنْ شَعرٍ يَلبَسُهُ الزُّهَّادُ والرُّهبان.

٢٤- غَير مَنْزور: غير قليل.

٢٥- الأغاني، ٧٦/١٠. وتَحْبيرُ الشِّعرِ: تَحسينُهُ وتَنمِيقُهُ وتَجويدُهُ.

٢٦- مُختصَر تاريخ دمشق.. ١٩٨/٢٤، وانظر أغاني دار صادر، ٧٢/١٠.

٢٧- الحُسَيْنُ بنُ مُطَيْر: مِنْ مَوالي بَني أَسَد،شاعر مِنْ مُخَضْرَمي الدولتَيْنِ الأُمويَّةِ والعبَّاسيَّةِ، ماتَ عام١٦٩هـ=٧٨٥م.

٢٨- مُختَصَر تاريخ دمشق، ١٧٦/٧.

٢٩- الغَوادي:جمعُ غاديَةٍ وهيَ السَّحابَةُ الآتِيَةُ غُدُوًّا أيْ باكِرًا. المَربَعُ: المَطَرُ في الرَّبيعِ.

٣٠- مُختَصَر تاريخ دمشق، ١٧٧/٧.

٣١- القَصيدَةُ يَتَنازَعُها الحُسينُ بنُ مُطَير، ومَروان بن أبي حفصة.

٣٢- طبَقات ابن المُعتَزِّ، ص٤٣١.

٣٣- انظر العقد الفريد، ٣٧/٢.

٣٤- السَّابق، ٧٣/٢.

٣٥- العقد الفريد، ٢٢٠/١.

٣٦- الخَلَّتَانِ: الخَيْرُ والشَّرُّ (أو الحُسْنَى والسَّيِّئة) وتَفصيلُهما فيما يَلي. مَسُول: مَسؤول.

٣٧- انظر العقد الفريد، ٢٢١/١. الأُخْرَى: أي السَّيِّئة (عَكس الحُسْنَى المَذْكورة في البيتِ الثاني) ولِذلِكَ قال لِلمَمْدوحِ:لسْتَ لَها بِأَهْلٍ.

٣٨- العقد الفريد، ٩/٢.

٣٩- ابن جُرَيج: اسْمُهُ عبدُ المَلِكِ بن عبد العزيز بن جُرَيج: فقيه الحَرَم المَكي، وإمامُ أهلِ الحِجازِ في عصْرِهِ، وهوَ رُوميُّ الأَصْلِ، مِن مَوالي قُرَيش، ولد وماتَ في مَكَّةَ، اتَّهَمَهُ بعضُهُم بالتَّدليسِ، ولد عام ٨٠هـ= ٦٩٩م ومات عام ١٥٠هـ= ٧٦٧م.

٤٠- عُمَر بن أبي ربيعة المَخزومي: شاعرٌ أُمَويّ وهوَ أشعَرُ قُرَيش، مِن أهلِ مَكَّةَ، نَفاهُ عُمَرُ بنُ عبدِ العزيزِ إلى جزيرةِ (دهلك) لِتَعَرُّضِهِ لِلنِّساءِ في الحَجِّ، لَهُ ديوانٌ مَطبوعٌ، مُعظَمُهُ في الغزَل.

٤١- ديوانه ٣٧٥/٣٧٤/، نشر دار الكتاب العربي/ تحقيق د. فايز محمد.

٤٢- مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر (صنعة ابن منظور ٨٩/١٩).

٤٣- مُسلِم بن الوليد، المُلَقَّب بِصَريعِ الغَواني، وهوَ مِنْ مَوالي الأنصار، شاعر عبَّاسي غَزِل، مدَحَ عدَدًا مِنَ الخُلَفاءِ والقادَةِ مِنْهم يَزيد بن مَزيد، ماتَ صريع الغواني عام ٢٠٨هـ=٨٢٣م.

٤٤- ديوان صريع الغواني، ص١٢ / دار المعارف بمصر / تحقيق د.سامي الدّهّان.

٤٥- شَطرَةٌ مِن بيتِ شِعرٍ لِلنَّابغةِ الذُّبياني، قالَهُ في مَدحِ فَتىً كانَ خادِمًا لَدَى النُّعمانِ بنِ المُنْذر، ثمّ ارتَقَى في المَناصِبِ، والشَّطرُ الثاني (وعَلَّمَتْهُ الكَرَّ والإقداما).

٤٦- انظر ما تَقَدَّمَ ص٧.

٤٧- انظر طبقات ابن المُعتَزّ، ٥١/ ٥٢.

٤٨- العقد الفريد، ٣/ ٢٥٨. الرَّزِيَّةُ: المُصيبَةُ.

٤٩- العقد الفريد، ٣/ ٢٥٩.

٥٠- التَّلابيبُ: جمع تَلبيب؛ وهوَ مَوضِعُ اللَّبَبِ (طَوقِ العُنُقِ) مِنَ الثِّيابِ.

٥١- مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر (صَنعة ابن مَنظور ٢٢/ ٣٠٣).

٥٢- نَفحتَ: أعطيْتَ السِّجالُ: دِلاءٌ عَظيمةٌ.

٥٣- انظر طبقات ابن المُعتَزّ، ص٤٥.

٥٤- باب حرب: أحد أبواب مدينة بغداد القديمة.

٥٥- العربُ المُسلِمونَ كانُوا يَتَمَيَّزونَ عن غيْرِهِم بِاللِّحَى، وحَلقُ اللِّحيَةِ أو تَخفيفُها لِيَتَشَبَّهَ بِغيرِ العربِ، وكانَ الحاكِمُ إذا أرادَ عِقابَ امرىءٍ وإهانَتَهُ أمَرَ بِحَلقِ لِحْيَتِه.

٥٦- خِطامُ البَعيرِ كَلِجامْ الفَرَسِ كِلاهُما: بِمَعَنى الرَّسَنِ.

٥٧- راجِلٌ: ليس لِي دابَّةٌ أركبُها.

٥٨- رِزْقِي: أيْ راتِبي.

٥٩- نهاية الأرب، ٣/ ٢١٢.



الإبداع

شعر :

قصة :

الإبداع



السَفَر الجميل

شعر

❁
سليمان العيسى

تقول لي عصايَ:

فتِّشْ عن بقايا الجمر في الجَعْبةِ

عن ثُمالةٍ في الكأس

● شاعر العروبة والطفولة الكبير

العمل الفني: الفنان مطيع علي.

عن دندنةٍ أطلقها الوترْ
يا أيهـــا المبعثرُ الهائمُ في خرائب العربْ
يا أيها العاشقُ دون وقفةٍ
يا أيها التعبْ!

❁ ❁ ❁

تهمسُ لي عصايَ:
هاتِ يَدَك المعروقةَ العزلاءْ
هيا، واتكئ عليَّ،
هل أبقى لك السفرْ
إلاّ الحطـامَ المشتهـى والحلـمَ والضجرْ؟
يا عاشقَ الترابِ والأوديةِ الجرداءِ والخضراءِ والقمرْ
يـــا أنت! يا رائحـــةَ الأرضِ التي أنبتتِ البشرْ
ولم تزل تُنبتهمْ،
للموتِ والجوعِ،
عجيبٌ أمرُها وأمركمْ،
تبقوْنَ، تَحيَوْنَ، تقاتلونَ
في الموتِ، وفي الجوعِ، وفي الخطرْ

❁ ❁ ❁



تقول لي عصاي..
غُضي الطرفَ يا صديقتي
أعرفُ ما يدورُ في رأسكِ
لست آخِرَ الصهيلْ
في هذه الخرائبِ السوداءْ

لسنا آخرَ الصهيلْ
يرجُّ هذي الأرضَ
هذي الجثةَ الخرساءَ
ألفُ مستحيلْ
يخلق ما لا تعلمونَ
انتظري
تُنبتُ ألفَ مستحيلْ

لن أطرحَ القمرْ
من قبضتي
لن أوقفَ السفرْ
ومِنْ هنا..
من صخرةٍ في رأس عيبانَ وشمسانَ
ومن صفصافة في بَرَدى
من نخلةٍ تُقصفُ في البصرةِ
سوف أحْمِلُ القمرْ
في قبضتي
أقولُ حتى آخرِ البرقِ نشيدي
أصفعُ الخطرْ
براحتي المعروقةِ الثَّكلى
أصرُّ نحن ها هنا!
حتى انسحاقِ العظمِ في معركة المصيرِ،
ما زال على الشجرْ
صوتٌ وغصنٌ أخضرٌ
يقول لي: ردّوا الحجر * من حيث جاءْ
إنه تاريخكُم! جذورُكم!
ردّوا الحجرْ
رُدّوه من حيث أتى!
لم يندثر غناؤكمْ
ولم تمتْ سماؤكمْ
أقسمُ بالربيع -مهما فاتنا-
لم يمتِ الشجرْ

تقول لي عصايَ ما شاءَ الهوى
أتركُها تقولُ، أنساقُ مع المدى
أعودُ للعشب، وللأطفالِ، والندى
أعود، ظهري مُثقلٌ بالفاجعاتِ،
أعشقُ الصدى
يخترقُ الغيبَ شعاعٌ
حاملاً صوتي عِناداً
أرتدي صوتي وأمشي معه إلى الردى
لكم بدأنا السفــرَ الجميل -يا أحبتي-
من الردى!

❁ ❁ ❁

بشّرتُ منذ الكفن الأَولِ
بالقيامةِ الخضراءِ
بالنشورْ
لا تيئّسوا،
العشبُ، والأَطفالُ، والندى
آتٍ غداً، آتٍ غداً، آتٍ غدا
لكم بدأنا السَفــرَ الجميلَ يا أحبَّتي من
الردى.

صنعاء٢٠٠٢

الهوامش

❀ الكلمة للإمام علي كرم الله وجهه.

الإبداع



العبـــــور

شعر

وفيق سليطين*

هكذا تهبطُ اللغةُ الشاهقهْ.

القصيدةُ أشلاءٌ في الشارع البشري المتاخمِ للموتْ.

غاضَ فيها النشيدُ..

وماتَ المجازُ على بُعْدِ مِتْرين من أرضهِ في الحقيقهْ.

* شاعر وناقد سوري.

العمل الفني: الفنان مطيع علي.

إنها لحظةٌ للعبورِ المريرْ.
زَمنٌ يتقدَّمُ في رغوةِ الموتِ
غيرُ الذي نسجتْهُ الملاحمُ
والآلههْ.

❁ ❁ ❁

هكذا يتأمَّلُ في الفراغْ
آيةً..
آيةً
في الرصيــفِ الذي تتبعثرُ
فيه العيونُ
وتمضي بلا هدفٍ..
وأنا موقعٌ للرّنينِ الحزينْ
لنشيجِ الحجارةِ في الجسدِ
الآدميْ.
إنها لحظةٌ للعبورْ
لسرابِ الوصولِ الذي لا يجيءْ
نحو هاويةٍ اسمها الحياةْ.
لحظةٌ تتمدَّدُ أو تتكسَّرُ
في عُمْرِ هذا المواتِ
وفي خطوِهِ الظافرِ البطيءْ.

❁ ❁ ❁

كيفَ يسَّاقطُ النايُ في الجرحِ..؟



قُلْ..
أَعْطِني غيبكَ حتى أرى
أيها الشاعرُ الغجريْ
أَعْطني ما ترى كي أغيبْ!
قالتِ الأرضُ من صَدَأ الروحِ:
دُرْ..
لا تُعدْني إليْ
واتخذْ كَبِدي
خِرْقَةً لرياحكَ تعصفُ بي
في مهاوي غَديْ

عَلَّني بكَ أبراُ من تُهمةِ اسمي

وأمْسي

وأبارحُ رَمْسي.

إنها لحظةٌ للعبورْ

لفراغٍ يُعلِّقُ موتَ الحياةْ.

لسؤالٍ تحرّضهُ نَأْمةٌ في العبورِ

ولكنّهُ يتأخّرُ أو يتشظَّى

دماً..

وخلائطَ من رممٍ

وبقايا كلام على منبرِ الغابرينْ

هكذا سوفَ أُفرِدُ نَردي

لأمضي..

فأرى أنني عالقٌ بشراكي

وأرى أنني أتقاسمُ هذي الخلائقَ

في لغتي

حين تكتبني..

وتُسمِّي خلاصي هلاكي

الفراغُ.. الفراغْ

ســوف نَمــلأُ أرواحنــا بزجــاجِ الفراغِ الأنيقْ

لنُقيمَ المذابحَ فينا..

ونمضي إلينا.

❁ ❁ ❁

إنها لحظةٌ للعبورْ

دقَّ ناقوسَه شاعرٌ

ثمَّ ماتْ

غار في جُذوةِ الكلماتْ

وأنا ههنا..

في التقاطعِ ما بين مُفتَرقين

أغوصُ..

وأُعْلي قصيدتَهُ شارةً للحياةْ.

إنها لحظةٌ للعبورْ،

إنها لحظةٌ للعبورِ المريرْ.



قصتـــــان

قصة

نيروز مالك ❁

-١-

قال سعيد: «لقد جاء».

تساءل جليسه: «من؟».

أجابه سعيد: «حاول أن لا تُلفتَ نظره. التفت إليه بحركة عادية طبيعية.. لكي لا تثير انتباهه!».

تساءل جليسه: «ما القصة؟».

ابتســـم سعيد بحذر وأجاب: «قد لا تصدق ما سأخبرك به! ثم إنك، تابع سعيد: سألتني منذ ساعة عن أسباب تغيير مكان سهرتنا؟».

أجابــه جليسه: «نعم. لقد سألتك. أما أنت فقد قلت لي: سأخبرك فيما

❁ قاص وأديب سوري.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

بعد عن ذلك. أعتقد بأن هذا الـ «فيما بعد» قد حان لتحدثني عن الأمر».

قال سعيد: «لا بأســ.. ولكن ليس قبــل أن ينتهــي صاحبنا مــن اختيار الطاولة التي سيجلس إليها، انظر إليه، لتكن نظرتك طبيعيــة لا تثير الشك.. أقصد، لا تكن فضولياً».

قــال جليسه: «قــل لي: مابال هذا الرجل الذي تحدثنــي عنه، كأنه قادم من كوكب آخر غير الأرض؟».

أجــاب سعيد: «انتظــر قليلاً. كل شيء في حينه.. لا تكن فضولياً! ثم تابع في اتجاه آخر: لقد سمعت عنه، أقصد الرجــل، منذ عــدة أيــام، في المقهى، قصة غريبــة.. لم أصدقها. ولكــن عندما كررها الأصدقــاء على مسامعي أثــارت في نفسي الفضــول.. لذلك قــررت أن أرى بأم عيني مــا كان الأصدقاء قد تحدثــوا به.. قصة، حسب رأي الأصدقاء، تتكرر كل ليلة.. حتى باتت عادية لا جديــد فيها.. ولكن الغريب في الأمــر، هو..عندما غــاب الرجل الذي نحن بصدد الحديث عنــه، تساءل الجميع عن أسباب غيابه. وهم لا يكفون عن قلقهم إلا عندمــا يرونه يدخل كالمعتاد، في الساعة التاسعة مساء إلى الحانــة بتأنقه، وخطوته الواثقة، ونظرته القاسية المتعالية».

توقف سعيد عــن حديثه وسأل جليسه: «هل رأيت على الرجل مما وصفته به؟».



أجــاب جليســه: «لم أنتبــه إلى ذلك، إلا أن تقاسيــم وجهــه تبــدو قاسيــة.. ثم إن جلسته على الطاولة فيهــا شيء من التكبر والعنجهيــة، كأنه، يشعر بعــدم انتمائه إلى هذا القطاع مــن البشر الذي يجلس بينهم. كأن خطأ ما دفعه إلى هذه الحانة التي يجلس إلى إحدى طاولاتها!».

إذاً، قال سعيد: «ما أخبرني به الأصدقاء صحيح».

تساءل جليسه: «وأنــت ألم تر في الرجل ما وصفته؟».

هز سعيد رأسه وقال: «نعم. لقد رأيت.. ولكن النقطة الحساسة في قصة هذا الرجل، لم نصل إليها بعد».

تساءل جليسه: «كيف؟».

أجابــه سعيد: «لقد تحــدث عنه بعض

الجراسين، إنهم يخافون من خدمته!».

تساءل جليسه باستغراب: «لماذا؟».

أجابــه: «القضية، أن الجراسين يقولون عنه: إن غضــب الله كله مرسوم في عينيه، وعلــى وجهه، حتى جبينــه العريض لم يروه أبداً على انبساط، لم يــروه إلا مقطباً! لقد حاول بعض الجراسين التودد إليه، ومعاملته معاملة خاصــة، يشعرونه علــى أنه إنسان مميز لديهم، يختلف عن بقية زبائن الحانة اليوميــين.. إلا أنه، ابن حرام! هكذا وصفه أحــد الجراسين، لقد ندمت أنــا شخصياً، على اهتمامي الزائد به، ومحاولتي المتكررة بإشعاره أنــه مختلف عن البقيــة.. إنه ابن حرام! قال جرسون آخر: لم أسمع في يوم من الأيام كلمة شكر عــن الخدمة المميزة التي قدمتها لــه. ليس هذا وحسب، إنما كان في بعض الأحيــان، وأنا أرتب له الطاولة، فظاً فظاظة غير مقبولة، كان يقول لي: كفى.. دع كل شيء على حالــه. ليس هناك من حاجة للقيام بهذه الحركات! يتابع الجرسون: حتى إنه في بعضــ الأحيان كان يقول بشكل غير مباشــر: حركاتك هذه لن تفيــدك، فأنا لن أدفع لــك بخشيشاً أكثر مما اعتدت عليه.. عشرة ليرات يعني عشــرة ليرات.. لن تكون رغم حركاتك هذه إحــدى عشرة ليرة! لذا، يتابع الجرسون: كنــت في كثير من الأحيان أهمله، ولا أقترب من طاولته، حتى، عندما كان يصفــق لكــي نسأل ما بــه، وما يريد؟ كنت ألتفــت فيما حــولي كأني بذلك أشك في سماعــي للتصفيــق الــذي كان يقوم به الرجل».

تســاءل جليســ سعيد: «لمــاذا كل هذا التعامل غير الحضاري مع الرجل؟».

لا أعــرف التفاصيل، يجيــب سعيد، ثم يتابــع: «إلا إني سمعــت مــن الأصدقاء أن الرجل، منذ لحظة دخوله إلى الحانة، يترك لدى الآخرين انطباعاً بالفظاظة والجلافة! كان زبائــن الحانــة يتساءلون عــن أسباب سلوكه غير الإنساني هذا؟».

أما تقاطيع وجهه، يتابع أحد الجراسين: «فلا تعرف الاسترخاء، فهو صاحب قسمات مشدودة بشكل دائــم، ذات نظرات قاسية، واخــزة كأنها المخــارز. أما فمــه فمزموم الشفتين، كأنه يعضــ على شيء ما، يخاف أن يفلت من بين أسنانه».

انظــر إلى وجهه، يقول سعيد: «هل تجد قسماته على ما وصفته لك؟».

أجاب جليســه: «فيها كثير مما وصفت. ربمــا.. يتابع: شكل أنفــه الذي يشبه منقار الصقــر، هــو الــذي جعــل لوجهــه هذه القساوة؟».

ربما أجاب سعيد. ثم تابع: «هذا الوضع هو الذي جعل الجراسين والزبائن وصاحب الحانة، وبقية الشغّيلــة، يحذرون منه كأنه الكابوســ الدائم الذي يــؤرق لياليهم. رغم أنهــم، كما أخبرتك سابقــاً، حريصون جداً

أن يسألــوا عنـــه فيما بينهـــم إن غاب ذات ليلة عــن الحانة». باختصـــار، تابع سعيد: «كان الرجــل، كما أخبرني عنـــه الأصدقاء، صورة عن ســؤال غامض لا جواب له! لقد تســاءل الجميع: مــن هذا؟ ولكــن لا أحد استطاع الجــواب عليه. هل هو مجرد رجل له قسمــات قاسية؟ هل هو رجل جاء لمهمة سرية؟ هل هو رجل عادي لا يختلف عن أي واحد منا،؟ لقد أجاب بعض الأصدقاء على هــذه الأسئلة: لا نعرف. مــا لبث أن وضح بعضهم قائلاً: لقــد سألنا بعض الجراسين الذين «نمــون» عليهم، إن كانوا يعرفون عن الرجل شيئاً ما؟ هز الجميع رؤوسهم علامة النفــي». هذه المعلومات، تابــع سعيد: «هي التي دفعتني للحضور إلى هذه الحانة. ففي اليوم الأول قضيت معظم الساعات الثلاث منتظراً دخول الرجل الغامض الغريب الذي تحدث عنــه الأصدقاء في المقهى لعدة أيام، إلا أني لم أستطــع أن أتعــرف إليه، أنا الذي ظننت بأنه بات واضح القسمات بالنسبة لي من خـــلال وصف الأصدقاء له. ففي النهار عندما لاقيت الأصدقاء في المقهى سمعتهم يتحدثون عنه. فقد كان الجميع يسألون: لماذا لم يحضر الرجل الليلة الماضية؟ أما في الليلة التالية فقد رأيتــه، وعرفته فور دخوله إلى الحانة من بابها الزجاجي الكبير. دخل علينا كما دخل اليوم تمامــاً، وجلس إلى الطاولة نفسها التي يجلس إليهــا الآن، أما تقاطيع وجهه فهي نفسها التي رأيتها في الليلة التي أحدثك عنهــا. لقد التهيــت بمراقبته عن الشرب والأكل، حتــى إن الجرسون المشرف علــى خدمة طاولتــي، تساءل عــن أسباب عزوفي عنهما حــين قال: أتمنى أن لا تكون مريضـــاً يـــا أستاذ؟ ابتسمت لـــه وقلت: لا. الحمد لله صحتي جيدة.. لا بل ممتازة إنما هـــذا الرجل هو الذي يلهينـــي عن الشراب والطعام. ضحك الجرســـون وقال: ستعتاد عليـــه بعد يوم أو اثنين. إنه هكذا، منذ أكثر مـــن خمس سنوات، منذ اليـــوم الأول الذي جاء فيه إلى الحانـــة. ولكنك يا أستاذ، قال الجرسون، ستغير رأيك به في نهاية السهرة! سألت الجرسون: كيف؟ ابتسم وقال: أود أن تعرف ذلك بنفسك».

تساءل جليس سعيد باستغراب: «سيتغير! كيف؟».

ضحـــك سعيد وأجـــاب: «ستعرف ذلك بنفســـك..». وارتشف سعيد من كأسه رشفة وهو يبتسم من دون أن يعلق بكلمة.

التفت جليســـ سعيــد إلى الرجل وراح يتأمله، ولكن بعد حين التفت إلى سعيد وقال لـــه: «انظر إليه، ألا ترى معي كأن القسمات القاسيـــة التي على وجهه قـــد لانت قليلاً؟ فأنا، كأني أرى ابتسامة خفيفة تجوب طرفي فمه؟».

أجابه: «ربما».

تســـاءل الجليس مرة أخرى: «ثم ألا ترى معـــي أنـــه قليـــل الأكل، لأن الصحون التي أمامه على الطاولة ما زال الطعام فيها كأنه لم يمس؟».

لم يعلـــق سعيد علـــى كلام صاحبه الذي

تابع: «حتى الشرب فهو لا يرتشف من شرابه إلا قليــلاً، وكأسه مازالــت هي الأولى، رغم مرور أكثر من ساعة على تواجده في الحانة أخبرني، قــال الجليس: هل رأيته أنت أيضاً على هذه الصورة؟».

هز سعيد رأسه موافقاً، أن نعم.

غريب! علــق الجليس: «أيعقــل؟ أن لا أحد من هؤلاء الزبائن على معرفة به؟ هذا أمر غــير معقول! لا بــد أن أحدهم يعرف عنــه قليلاً على الأقل.. مثــلاً: ماذا يعمل؟ ما اسمه؟ أين يسكــن؟ وضعه الاجتماعي؟ أيعقل هذا الأمر؟».

أجابه سعيد: «ولمــاذا لا يعقل؟ ثم تابع: دعــك من هذا ا لأمر. انظر إليه الآن.. كما يحدث له في كل ليلة، الآن سيبدأ بالابتسام ورفع رأسه والتطلع إلى سقف الحانة. سيفتح فمه ويتحدث مع نفسه بصوت خافت بحيث لا أحد مــن الزبائن الذين يجلسون بالقرب منه يسمعون ما يتحدث به».

اي والله! قال الجليس: «انظر.. لقد بدأ كمــا قلت. إنه يرفع رأســه.. ولكن الأغرب في الأمــر، لقد اختفى الغضــب الذي كان مرسومــاً على وجهــه منذ بدايــة السهرة، وانمحت كل القساوة من نظراته، انظر كيف لانت عينيه وذبلت رموشهما!».

ضحك سعيد وقال: «لا تستعجل الأمور، لأن الأهم الذي ستراه لم يحن بعد!».

كان الرجــل مــا يزال ينظــر إلى سقف الحانة، كأنه يبحث فيه عن أمر ما. أو يترقب حدوث معجزة! إلا أنه بعد مضي زمن آخر كاف ليشعر بألم في عنقه، حرك الرجل رأسه إلى الأسفل، وتطلع باتجاه «أبو حنا» صاحب الحانة. مــا لبث أن قام وهــو مايزال على ابتسامته التي احتلت وجهه بالكامل، وخلال سيره إلى صاحــب الحانة، كان مضطراً إلى أن يمــر بمجموعــة من الطــاولات، حيث يجلس عليها بعض الزبائن، فيهز رأسه لهذا الزبون، ويحني عنقه لآخر وهو يحييه.

قــال سعيد لصاحبه: «هــل تعرف ماذا سيطلب من صاحب الحانة؟».

أجابــه الجليســ: «مــن أيــن لي أن أعرف؟».

تابع سعيد: «سيطلب يا صاحبي مجموعة كبيرة من أجنحة الدجاج النيئة!».

لماذا؟ سأل الجليس.

أجابــه سعيد: «من أجل أن ينشر بعضها حوله لتتراكض القطط قافزة إليه، ومع كل جناح يرميه الرجل سيأتي قط، حتى تتجمع حوله جميع القطط الموجودة في الحانة!».

ماذا سيفعل بها؟ سأل الجليس.

أجابــه: «سيذهب الرجــل في الضحك والابتسام والحديــث معها! ثم يحمل بعضاً منها إلى حضنه ليطعمها بيده بالذات!».

تساءل الجليس: «أهكذا يقضي سهرته، هنا في الحانة؟».

أجابه سعيد: «هذا جزء من السهرة. أما

مـــا تبقى منها فهو يذهـــب في الحديث مع الزبائن وتقبيلهم والشد مرحباً على أيديهم والربت على أكتافهـــم.. وفي بعض الأحيان يطلب من بعضهم القيام ليضمه ويشده عدة مرات إلى صدره مرحباً به!».

تســـاءل الجليس: «أهذا يحدث كل ليلة، وفي كل سهرة من سهراته اليومية؟».

هـــزّ سعيد رأسه بالإيجـــاب ثم أضاف: «طبعاً هناك إضافة أخرى إلى سهرته».

سأل جليسه: «ما هي؟».

«الغناء!» أجاب سعيد.

«أيطلـــب مـــن الزبائن أن يغنـــوا معه؟» تساءل الجليس.

هـــزّ سعيـــد رأسه بالنفي ثـــم قال: «هو الذي يغني. يجمع حوله بعض الزبائن، عادة يكون الاجتماع قريباً مـــن طاولة «أبو حنا» صاحب الحانة.. يتهيأ الجميع وهم يبتسمون منشرحـــين، ثم يبدأ التصفيق بهدوء وصوت خافت، يشجعونـــه على الغناء». تابع سعيد: «بالمناسبة صوته جميل. خاصة تلك الأغاني القديمـــة، الفولكلورية.. تلـــك الأغاني التي تقوم على النغمة الحزينة والآهة الأسيانة.. أما عندما ينتهي، أو بالأحرى يزدحم الدمع الذي يفيض في عينيه، ويضيق عليه الخناق أثناء الغناء، فيتوقف مضطراً. يظل جالساً مدة بـــين الزبائن. حتى تجـــف دموعه من تلقاء ذاتها.. عند هذه النقطة، يقوم الرجل، ليدفـــع حسابه بين صمت الجميع، ويعبر ما تبقى من الطاولات والزبائن إلى الخارج».

«غريب!» قال الجليســـ. أما سعيد فلم يعلـــق. كان ينظر إلى الرجـــل وهو يتحدث ضاحكاً مع «أبوحنا» ويحمل بين يديه كمية لا بأس بها من أجنحة الدجاج النيئة الوردية اللون.

التفت سعيـــد إلى جليسه وسأله: «أتريد أن نذهـــب أم نبقى حتى ترى بأم عينيك ما حدثتك به عن الرجل؟».

هزَّ الجليســـ رأسه بعد تـــردد وأجاب: «كفـــي.. لقـــد رأينـــا مـــا يكفـــي.. علينـــا الانصراف».

«هيا» أجاب سعيد.

-٢-

رغم أنه زبون قـــديم للحانة، ولم ينقطع عن ارتيادها يومـــاً، إلا أنه في نظر روادها الآخرين، الجديد الدائم والمستمر.. ففي كل مرة يدخل فيها الحانة، يلتفت إليه الجميع، ويقف الجراسين ينظـــرون إليه باستغراب، وينتبهون للرجل الخمسيني الذي يدفع باب الحانة باضطراب وتردد قبل أن يتابع خطوه إلى الداخل، يذكـــرك مشهده بدخول شاب صغـــير ملهى ليلي لأول مـــرة. أما صاحب الحانة، وهـــو في أواسط العمر، فينظر إليه نظرة كمن يتذكر ويسأل نفسه: «أين رأى هذا الرجل قبل الآن؟».

كنـــت أتابعـــه بنظري حتـــى يستقر إلى طاولـــة، عـــادة تكون مـــن تلـــك الطاولات

المنزوية، التـــي لا تتسع سوى جليسين. ففي الصيف، كنــت أراه، يرتــدي ألبسة كاشفة اللون.. مثل الرمــادي والسكري والسماوي والأبيضــ، وفوقها، أقصــد فوق السراويل، يرتــدي قمصانــاً بيضــاء بنصف كــم، أو سماوية بكم طويل. شــيء آخر لفت نظري في الرجل.. هو الحــذاء. كان دائم اللمعان كأنه يصبغه كل يوم. أما ذقنه فكانت حليقة بشكل مستمر.

كان، عندما يعبر بين الطاولات، رغم أن المسافة بينهــا واسعة، ويمكن للمرء أن يعبر بسلاسة، كنت تراه دائم الحذر من أن يلمس هذا الكرسي أو تلك الطاولة أو يلامس هذا الزبون أو ذاك. كان، هكذا رأيته دائماً، يعبر وهو يبتسم بخجل واضطراب، تحس به، كأنه يمــر بك محيياً، رغم أني لم أسمع في يوم من الأيــام صوته، إلا أني كنت أرى حركة شفتيه وهو يعبر بين الطاولات والكراسي والزبائن باتجاه طاولته التي اعتاد الجلوس إليها.

كان دائم الأناقة، وفي كل فصول السنة، خاصــة الشتاء منهــا. كان يرتــدي أطقماً غالية الثمــن، وقمصاناً ملفتة للنظر بسبب ألوانها! أما ماكان يثير اهتمامنا بشكل أكبر فهو ربطات العنق التي يزين بها صدره. أما السؤال الدائم الــذي كان يدور في أذهاننا: من هو؟ ثــم لماذا يصرّ علــى سهره اليومي في هــذه الحانة التــي لا يرتادها، عادة، إلا أناس مــن أمثالنــا، مفلسين بشــكل دائم، بحيث لا تكلفنــا السهرة الليلية الواحدة إلا أقل المبالغ.

كنا ننظر إلى الرجــل ونتساءل: «لماذا لا يذهب إلى الأمكنة التــي تليق بهذه الأناقة والثيــاب الغاليــة التي يظهر بهــا أمامنا؟ وعندما سألنا أحــد الجراسين، وكان عادة يقوم على خدمــة الرجل الذي نحن بصدد الحديث عنه، إن كان بخيلاً مقتراً في طلباته مــن مــأكل ومشــرب، وفي البخشيش الذي يدفعه له في آخر السهرة؟ أجابنا الجرسون: «على العكســ.. فهو كريم جــداً، بدءاً من الطلبــات التــي يريدها مــن الخضراوات واللحوم والفاكهة، هذا إلى جانب المشروب.. أما البخشيش فهو سخي وكريم به».

إذاً ليــس البخــل هو الــذي يدفعه إلى المجــيء في كل ليلة إلى حانــة (الدراويش) هذه مــن أمثالنــا.. ولكن، هكــذا طرحنا السؤال على أنفسنــا، ما هي الأسباب التي تدفعه للمجيء إلى حانتنا هذه، وهو الرجل القادر المقتدر على السهر في أفضل المطاعم وأغلاها؟ أما السؤال الآخر الذي انداح في أذهاننا فكان: ماذا يعمل؟

كانــت الأجوبة كثيرة، إلا أن واحداً منها لم يكن حاسماً وحقيقياً في معرفة عمله. إلا أن أحد الجراسين أكد على أنه طبيب، وهو شهير في أمراض الجهاز الهضمي. ثم حدثنا عــن ابن عمه الذي لم يختــف ألم أمعائه إلا على يديه. إلا أن آخر، أقصد جرسون، قال

لنا بعد ذهاب الجرسون الأول: «لا تصدقوا كلامــه. فهو «يخــرط» عليكم». ثــم تابع: «أعتقــد الرجل بأنه محــام أو قاض، لأنني ذات يوم كنت في دار القضاء لشكوى أقامتها زوجتي ضدي، رأيــت الرجل في الدار، كان يرتدي ذاك الرداء الأسود الذي اعتاد رجال القضــاء والمحامين علــى ارتدائه». ثم مال الجرسون فــوق رؤوسنا وقال: «شهادة لله.. يقولــون عنه شاطر.. يفك حبل المشنقة عن عنق المحكوم عليه».

إلا أن أحــد روّاد الحانة الشبان أخبرنا، علــى أنه مديــر مدرســة: «كان مديري في ثانويــة المأمــون. كان الرجــل «أكابر» وقد عمل بشكل دائم لصالح الطلاب ضد بعض المدرســين الذين كانوا يحاولون أن لا يعملوا بما يرضــي الله والضمير». وآخرون أكدوا، على أن الرجل تاجر، وهو معروف في«سوق المدينــة»، تاجر جملــة.. يتاجر في الخيوط النسيجية، إلا أن أحدهم قال مصححاً كلام الأول: «لا.. الــذي يعمل في تجارة الخيوط هو ابن عمه «يقصد الرجل» إنما صاحبنا.. وأعتقــد بــأن اسمه كامل عبــد الله، يعمل في تجارة الأقمشــة، ولديه بعض الأفرع في الخياطة الرجالية الجاهــزة. لقد اشتريت من إحدى محلاته، منذ سنتين طقماً، شهادة لله، طقــم لا تجد مثله في محلات باريس أو لندن! هذا إلى جانــب الأسعار، فهي ليست عالية. هذا وقد عرف عنه القناعة بالربح.. حتــى إن كثيراً مــن التجار حاربــوه بقوة، وعندمــا لم يستطيعوا أن يؤثروا على مكانته في عالم التجارة، انسحبوا من ساحة المعركة ضــده. ثم تقربوا منه، وقدموا له اعتذارهم عما فعلوه بحقه.. طبعاً، وحسب ما نما إلي، قابلهم بشهامة ولم يحاربهم إنما علق، على أن الأرزاق بيد الله».

قال آخــر، وكان مــن الأشخاص الذين يشاركوننــا الطاولــة في بعضــ الأحيــان، خاصــة عندما تكون الحانة مزدحمة بحيث تتلاصق الطــاولات، وتستند أكتاف الزبائن إلى بعضهــا، والجميع يشربــون ويضحكون ويثرثــرون.. قال هذا معلقــاً: «أعتقد بأنك لا تعرفــه معرفة جيدة. لو كنــت تعرفه لما قدمت لنا هذه الصــورة الإنسانية الزاهية عنــه، فأنا أعرف شقيقه، وهو يعمل موظفاً لدى المؤسسة التي أعمــل فيها، ولم يقل لنا اسم المؤسسة، فسألته عنه أجاب: إنه أخي.. فهو أكبرنا بين الأخوة، ثم سألني هل تعرفه؟ فأجبتــه: أراه كل ليلة تقريباً في الحانة التي ألتقــي فيها مــع أصدقائــي. ضحك وقال معلقاً: نعم.. إنه صاحب «دمعة وكاس» منذ أكــثر من ثلاثين سنة.. لقــد كان بينه وبين المرحوم والدي مشــادات كثيرة بسبب شربه للمحــرم. أما عندما تزوج واستقل عنا فقد خفت المشادات، ولكن موقف والدي لم يتغير منــه.. حتى إنــه لم يزره في البيــت، إلا في المناسبات. كان يرسل وراء أحفاده، أن يأتوا إليه لمشاهدتهم لأنه اشتاق إليهم».

ضحكت وقلت له: «الله يعطيك العافية

علــى المعلومات الضافية التــي قدمتها لنا عنه». ضحك وقــال: «والله معك حق». ثم أضــاف موضحاً، علــى أن الصورة الزاهية التــي رسمهــا الرجل صاحبنــا عن الرجل ليست دقيقة، لقد أشيع عنه أن الرجل خرب بيوت كثير من التجار.

عندما كان صاحبنا يتحدث عن الرجل، كان آخــر ينظر إليه ساخراً. وقبل أن ينتهي صاحبنــا من كلامه قال لــه مقاطعاً: «لقد عرفــت فيك يا أبا أحمــد الخيال.. ولكنّي لم أكــن أتوقــع في يوم من الأيــام أن تشطح فيه إلى هــذا الحد». ثم تابع: «يا رجل أنت تخرف». ورفع يــده مشيراً: «انظــر إليه.. هــل تعتقد بأن مثل هذا الرجل يمكن له أن يلعب هذا الدور الذي حدثتنا عنه؟ يا رجل لا هو تاجــر ولا من يحزنــون. لقد عرفته أنا.. صحيح معرفتي لم تمتد به إلى أكثر من إلقــاء التحية، أحيانــاً، عندما نتلاقى على باب مؤسسة التأمين في أول كل شهر عندما نذهب لقبض معاشاتنا التقاعدية، إلا أنني عرفت عنه الكثير من الموظفين الذين كانوا يعملون معه في إحدى مؤسسات الدولة. لقد ذكروا لي اسمها، ولكني نسيت ولم أحفظه.. لقد كان موظفاً، رئيس قطاع، مهندس على ما أعتقد.. وقد سمعت عنه، أنه جمع مبلغاً لا بأس به من المال من خلال (الرشاوي) التي تلقاها في أثناء عمله. ولكن آخرون قالوا إنه كان مديراً عاماً للمؤسسة التي ازدهرت في عهــده ازدهاراً كبيراً. حتى إنها كانت الأولى على مستــوى الدولة بالكامــل في أرباحها، ولكــن بعضــ المتنفذين الذيــن كانوا حوله ظلــوا يحفرون تحته، كما يقــول المثل حتى أزاحــوه عن إدارة المؤسســة فقدم استقالته من الوظيفة، وافتتح مكتباً خاصاً للهندسة، وسمعت أيضاً أنه، بعــد أن شفط أموالاً لا تأكلها النــيران من وظيفته، قدم استقالته.. خاصة عندمــا سمع إشاعات على أن لجان تفتيش شكّلتها الــوزارة ستقوم بالتدقيق في أعمــال بعضــ المؤسسات والشــركات، لذا كما تــراه الآن، يصرف الأموال التي سرقها بهدوء، ومــن دون خوف من المحاسبة أو ما يحزنون!».

بعد ما سمعته أدرت رأسي باتجاه الرجل أتأملــه. كان وجهــه عفيّــاً، وبشرته بيضاء يشوبها لون وردي، أما عيناه فكانتا صافيتين وهما تنظران أمامهما بانتباه.

كان الرجــل في بعض الأحيــان يبتسم، وهو يتنــاول لقمة من طعامــه، أو يرتشف حسوة من خمرتــه البيضاء الحليبية اللون. كنت تراه، أحياناً، يرفع راحتيه إلى الأعلى، أمام وجهــه، ليتأمل أصابعه بعد أن يفردها عــن بعضها، ثــم يفرك براحتــه راحة يده الأخــرى، ثم ينزلهمــا فــوق الطاولة. كما أني رأيتــه أكثر مــن مرة يهــزُّ رأسه محيياً أحداً ما، أو ملوحاً بيــده الصغيرة الناعمة

لشخصــ آخر.. وعندما كانت تشير الساعة إلى الحاديــة عشرة، هكــذا لاحظت، فكان يقوم ليهندم نفســه، بعد أن يكون قد ذهب إلى المغاســل، غاب فيها بعضــ الوقت، ثم يعود وهــو ينفض الماء عن يديــه.. فيهرع أحــد الجراسين بتقديم المحارم الورقية له، لينشــف بها يديه. ثم يجلســ دقائق قليلة، يكون فيهــا قد أفرغ مــا كان قد تبقى من مشروبه دفعة واحدة. ثم يلقي في فمه قطعة خيار أو بندورة. وعندما ينتهي من مضغها، يمسح فمه بمحرمــة ورقية ثم يقوم ليخرج مــن الحانة قبــل أن تتخطــى الساعة كما أشرت الحادية عشرة.

إلى هنا، والأمور التي ذكرتها، عادية، لا شيء فيها يثير الانتباه، ما كان يثير الانتباه، هــو الدقائق العشرة التي تسبق خروجه من الحانة!

كان صاحبنــا كامــل عبــد الله.. هذا اسمــه، نــراه يبتسم في بعضــ المرات لهذا أو ذاك مــن الزبائن الذيــن يجلسون قريباً منه، وفي أحيــان أخرى، يلــوح بيده للذين في الصفــوف الثانية، أو الذين على مسافة عدة طاولات منه، أو يقف ويهلل بكلتا يديه لبعضــ الزبائن مرحباً بهم، رغم أنهم كانوا في الحانــة منذ عدة ساعات، ويدعوهم إلى طاولته ليشاركوه الشراب والأكل. ثم يصفق بيديه للجراسين أن يأتوا إليه، أو يصرخ بهم بصوت عال يطلــب منهم أن يأتوه بمشروب إضــافي، أو ببعضــ الصحون مــن اللحوم والخضار والفاكهة.. ولكنه، ما يلبث كعادته أن يقوم، ويذهــب إلى المغاسل ليغسل يديه، وما أن يعــود حتى يجلســ للحظات كافية لشرب مــا تبقى من مشروبه في الكأس.. ثم يقوم ويخرج من الحانة.

ولكنه، في بعضــ الأحيان، عندما يكون قد استعــد للخروج، كان يضحك وهو يغني بصوت خافــت، ولكن كان كافياً لأن يسمعه الزبائن. ثم يقــوم من وراء طاولته ليبدأ في الشد علــى أيدي أقرب زبــون إليه، يحييه ويقبلــه في وجنتيــه.. ولكنــي، عندما كان يقترب مني، وهو مازال يحتضن زبوناً ويترك آخر، كنت أنسل عن طاولتي إلى المغاسل ولا أعود حتى أطمئن إلى أن كامل عبد الله قد تخطى الطاولة التي كنت أجلس إليها.

هذا الطقســ كان يتم بين هرج الزبائن ومرجهــم، وهم يحييونه بقــوة ويطلبون له طول العمر ودوام الصحة. هذا الطقس كان يتكــرر في كل ليلة، ولكن قــد لا تصدق إن قلــت لك، رغم هذا كنــت، في اليوم التالي، مع الزبائن ننظر إليه بدهشة متسائلين: من يكون هذا الرجل؟.

الإبداع



خيبة

قصة

اسكندر نعمة ❁

في هـذه المرّة، رافقني الحظّ وهو يبتسم. فـرد لي جناحيه الزّاهيين. لم يسألنـي عن مذهبي الفنّي، ولا عن عدد المنحوتـات التي أنجزتها، ولا عن المكان الذي أمارس فيه أعمال النّحت.

لعلّـه فوجـئ بطلعتي البهيّة التي بـدت مهيبة. وترنّح أمـام انحناءاتي المهذّبة الرّقيقة، وابتساماتي التي أشاعت جوّاً من الألفة فيما بيننا.. مددت لـه يداً واثقة تحمل طلب الانتساب. قـرأ محتوياته بسرعة. نظر إليّ. وقف

● قاص سوري.

العمل الفني: الفنانة ميسون علم الدين.

وصافحنـــي، وتناثرت من بـــين شفتيه بضـــع كلمات رقيقـــة هامســـة: «جيّد.. ستكـــون عضواً في جمعيّة الفنّانين- قسم النّحت».. صافحته وانصرفت متخماً بأنفاس الفـــرح، وداعبت أعصابي بدغدغة ناعمة لذيذة ..



لم أكذب يوماً. ولم أمارس إخفاء الحقيقة إلا في هذه المرّة.. لماذا؟! لست أدري.. كانت نوازع شتّى تهرشني من الدّاخل. تدفع بي نحو المجهول: «أريـــد أن أغدو فنّانـــاً.. نحّاتاً.. شيء من هـــذا القبيل» لعـــلّ حبّ النّحت وممارسته كانا يتأصّلان في خبيئتي ويتجذّران في نبض دمي.. وجدتني مندفعاً نحو الكذب وإخفـــاء الحقيقة. على الرغم من أنّ جميـــع السّبل التي كنت أطرق بابها، كانت تنحني أمام جهودي الصّادقة..

لم تمضـــ أيّام قليلة، حتّـــى استلمت من جمعيّة الفنّانين كتاباً ممهوراً بتوقيع وخاتم رئيســـ الجمعيّة ينبئنـــي بأنّني قد أصبحت عضـــواً في جمعيّـــة النّحـــت. تأرجحت بي الخواطر كثيراً. سبحت في أعماق التّصوّرات. ورحت أرســـم التّضاريس المدهشة لخريطة حياتي الجديدة.. كان عليّ أن أشغل جلسات الأصدقـــاء وأرهـــق العارفـــين بالكثير من الأسئلة عن الأدوات والموادّ التي ستتحوّل في قابل الأيّام بـــين يديّ إلى مجسمّات وأشكال فنّيّـــة لا حصر لها.. غصت في عالم المجلات والكتـــب اللازمـــة لانتقاء أفضـــل الأزاميل والموادّ من أفضل مصادرها..

كنت على يقين مـــن أنّه من بين الملايين

الذيــن يتحرّكون في مراكز المــدن وأريافها مثل الطيــور والدّيــدان المحبوســة داخل أقفاص زجاجيّة، لا يوجد إلا القليل القليل ممّن يعرفون متعة الوقوف أمام المجسمات المنحوتة، بانتظار سريــان الرّعشة النّاعمة التي تنتقل من أديم المنحوتة مخترقة أعصاب المشاهــد بدهشة فذة، لتتحوّل عبر لحظات سريعة إلى شكل من أشكال التّحدّي لمكنونات الحياة وأسرار الطبيعة..

كان ينمــو في داخلي إحساســ بأنّ سرّ الدّهشة الممتعة في صياغة الفن يتطلّب صبراً ومجالــدة لا يتوفرّان إلا لــدى أناس قليلين مــن الذين قد تماهت أعصابهم ورؤاهم مع همسات الحياة وأسرارها الدّفينة..

جلدني خاطران كبــيران. مزّقا عنّي كلّ أحاسيس اكتناه أسرار تلك الدّهشة الممتعة: لقد كذبت وأنــا لا أملك من وسائل تحقيق تلك المتعة شيئاً.. سوى الشعور الغامر برهبة البداية التي تفوق الإحساس برهبة التوغل في البراري المكتظة بالأخطار والمفازع..

❀ ❀ ❀

أمام بنــاء يكاد يكون متــآكلاً. توقّفت. تأملت طويــلاً. أغمضت عينــين زائغتين. وجدتنــي أندفع عبر تصــوّرات وتداعيات لولبيّة. نقلتني التّداعيات إلى عوالم متداخلة من التصورات والأحلام. قفزت فوق حواجز هلاميّة. تناثرت حــولي منحوتات لا حصر لها. سبحت في بحور مــن النشوة والفرح.. نبض الفرح وحركة الشّــارع أيقظا فيّ روح الانتباه.. عــدت من تداعياتــي المتشابكة. نفضــت رأسي لأعيد إليــه حالة الصّحو.. تسلّحــت بشجاعــة فائقــة، واندفعت عبر البــاب الرّئيســ.. خضت دهاليــز عدّة.. ركام مــن الأخشاب الجافــة ذات الأشكال المختلفة. أكوام من الجبس والرّمال والبحص والسّيراميك.. أكياس مغلقة على أسرارها.. وقفت خلفه. رجل عجوز غرس في منحوتته كلّ روحــه وعينيه وأعصابــه. راعني صبره على مداعبة سطح المنحوتة، وبراعة الأزاميل تتحرك بين أنامله برشاقه عجيبة.. حاولت أن أمتحن صــبري على الانتظار. فشلت في ذلك. سألته باندفاع متوتّر: «ماذا تصنع؟».. أدار رأســه قليلاً، ثــمّ أجاب بصوت باهت: «أنحت شيئاً للفضوليين من المارّة».

لم يكــن هدفي من اللهــاث وراء النّحت، دفن رأسي في طيّات الغبار والمواد والتلاعب بالأدوات، للتّخلّص من فقاعات الملل والرّتابة التي تســود حياتي داخــل البيت وخارجه. بــل كان همّي التقصي عــن فحوى النظرة الجمالية التي تجمع بــين الإنسان وأدواته، لتحــرّك في داخلي نوازع الفــنّ الرّاكدة في قاعي..

سنوات مضت لم أحقــق خلالها شيئاً.. ولجت عشــرات المحترفــات الفنّيـــة، وأنا أشحذ النّفس لعبور بوّابة الفن. أسأل أسئلة طفليّة، وأتلقى النظرات المعرضة والإجابات المحبطــة.. وحــلّ صيف شديــد الحرارة، رسمــت في داخلي مخططات كثيرة. نبت في أعماقي خاطر حــادّ: «إبداً.. لا تلزم أمكنة تبحث فيها عن الحظّ والمصادفة»..

اكتشفــت عبر تأمّل مذهــل.. أن الحياة تنتظــر مــن يمــدّ لها يــده وتعرضــ عن الخائفــين. وأنّ عوالم الميــاه لا تختلف عن عوالم اليابسة. كلّهــا تنتظر من يلبسها رداءً جميــلاً.. صدمتني هذه الخواطر.. من أين أبــدأ؟ من أين لي بهذا الــرّداء؟ كيف لي أن أصوغ الأقنعة؟!.. هل أستطيع أن أخلع على عناصر الحياة شيئاً غير مألوف؟؟.. تسمّرت أمــام هذه التساؤلات المرّة. جرفتني تيّارات الحنــين إلى مراتــع الصبــا وأيّــام الفتوّة. تذكــرت الصّباحــات التي كنّا نلــوي فيها أعناق الأشجار اللدنة لنصنع شكلاً جديداً. التراب المعجون بالمــاء لنصنع منه سمكة أو بيتاً أو آنية جميلة.. أنعشتني تلك الذكريات. زغردت أعصابي من الدّاخل. طرحت على نفسي أسئلة متشابكة لا حصر لها. تهتُ في عالم من الإجابات المتداخلة..

عبر قليــل من الزمن. اقتحمت بتصميم كبير محترف نحّات مشهور. سرت بهدوء كبير كي لا أعكر صفو الغبار والأدوات والمعاجين المختلفة. وجدته يستلقي على أريكة عتيقة، يمدّد ساقيه ويحتضن رأسه من الخلف بين كفّيه. عرفت أنّه يستريح. اقتربت منه بهدوء واحــترام شديديــن. ألقيت عليــه التّحية. جمع ساقيه والتفت نحــوي نصف التفاتة. ردّ التحيــة بهمســ شديــد وغرســ عينيه الحادتين في وجهي وعينــيّ. سألته بصوت راجــف: «هل تقبلني متدربــاً.. إنني أعشق النّحــت».. التفت إليّ بكامل وجهه وجسده. نظر إليّ طويلاً وقــال: «وأين أزاميلك؟!»..

فاجأني الســؤال. تلجلج الجواب في حلقي. تلفّتُ حولي مراراً. ازدردت ريقي الذي غدا متخــثراً في حلقي. قلت لــه كمن يعتذر عن ذنب اقترفــه: «لا أملك أيّ إزميل أو أداة».. ضحك مــلء فمه ووجهه، وأشــار إلى يديّ الفارغتــين وقال بصوت جــاد: «وهل جئت تنحت بلسانك؟!».

صفعني هذا السّؤال الذي نخر جسدي وأحاسيسي. واستدرت بهدوء كبير، وخرجت أجرّ قدميّ بوهن وذهول..

عندما وصلــت إلى البيت، أحمل خيبتي ومفاجأتــي. ســردت على مسامــع زوجتي مــا قاله لي الفنّان الكبــير، أجابت في برود غريب: «ألم أقل ذلك مراراً.. عليك أن تمتلك الأدوات قبل كلّ شيء..».



آفاق المعرفة



إطلالة سريعة على العالَم

د. عبد الكريم الأشتر ❋

كان عـــدد الأساتـــذة والمدرّسين في قسم اللغة العربيـــة وآدابها، في كلية الآداب من جامعة دمشق، في العَقد السادس من القرن الماضي، قليلاً، لايكاد عددهم، مـــع الأساتذة المحاضريـــن المختارين من خـــارج الكلية، يزيد على العشرة، يقومون بمهام تدريس المواد كلها، في السنوات الأربع. فكان من غير المستغـــرَب أن يكلَّف الشاب القادم حديثاً إلى القســـم، بتدريس مواد كثيرة، تجمـــع بين القديم والحديـــث، في الأدب والنقد معاً. ومـــن ثَم وجد الشاب نفسه مسوقاً إلى تأليف كتب تُجمَع نصوصها المختارَة ويقدَّم لها بقواعد تعين

❋ أديب وناقد وأستاذ جامعي سوري.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

على درسها واستخلاص خصائصها الفنية وقيمها الجمالية، وهــي الكتب التي انكبّ، في البدء، على اختيار نصوصها، نثراً وشعراً، من العصر العباسي إلى العصر الحديث.

ورأى الشـــاب أن يَجمـــع، مع درس هذه النصوص، درســـاً تطبيقياً لنصوص مختارة من بعض الأجناســ الأدبية. فاختار لعزيز أباظة مسرحيته الشعرية «غروب الأندلس»، ولسعيــد العُريان قصتــه التاريخية «شجرة الدر».

وكان لابــد أن يستعــين، إلى جانبهـــا، برسالتيــه في نـــشر المهجريين مـــن أعضاء «الرابطـــة القلميـــة»، وبنصوصـــ من شعر دِعبِل بن علي الخزاعي، شاعر آل البيت في العصر العباسي.

ولكنه، مع مضيّ الساعات وجد الأستاذ الأفغـــاني، رئيس القسم، يبـــدي، في تعامله معه، مـــا يعني، في نهاية الأمـــر، أنه لم يكن راضيـــاً عن العناية بـــأدب المهجريين! فلبث حيناً إذا دخل غرفـــة القسم، ورأى الشاب، حيّاه بقوله:

– سعيدة...!

فيردّ الشاب على التحية، مبتسماً:

– سعيدة مباركة!

حتـــى إذا جاء يوم اضطـــر إلى أن يدعو فيـــه أساتذةَ القسم إلى عقد اجتماع قريب، يتدارسون فيه بعضـــ القرارات. فسأل عن الموعد الملائم، وانتهى، بعد أخذ وردّ، إلى أن يُعقَد في يوم الأحد من الأسبوع القادم، وجد الشاب الفرصة السانحة، فقال معترضاً:

– أنا لا أستطيع الحضور يوم الأحد!

فســـأل الأستاذ الأفغـــاني وهو ينظر في جدول المحاضرات، وقد نسي ما فات:

– وما المانع؟

ردّ الشاب، وهو يصطنع الجِدّ:

– عندي قدّاس!

فجاءه جوابه على الفور:

– آه.... صحيح.... لقد نسيت!

علـــى أن هذا وأشياء أخـــرى في القسم (مثل العلاقة بين الأستاذ الأفغاني والدكتور شكـــري فيصل) لم تكن تشغـــل الشاب أبداً. كانـــت الطريـــق واضحـــةً لـــه، يقطعها في ثقـــة ويُسر. وقد كسب ثقـــة طلابه وفهمَهم لوجهته في الدرســـ، على أساسٍ من الجمع بين الماضي والحاضـــر، والتطلع معهما إلى المستقبل، دون جمود، ودون تضييع وتفريط، ومـــع الاحتكام في الدرس إلى المنهج التأثري المعلَـــل، بما يجعل الحكم مقبـــولاً لمَن ينظر فيه.

ولكـــن الجـــو السياسي، يومـــذاك، كان مشحونـــاً بأحداث دخلـــت كل بيت، وشغلت الناس جميعاً في سوريـــة، وهو قيام «الثورة

القوميــة الاشتراكية» التـــي يقودها «حزب البعــث» بدعاة الانفصــال. وكان الأساتذة، في القسم، يتناقلون أخبارها حيناً، وتشغلهم أعمالهم عنها حيناً!

وسكن الشاب، منــذ رجوعه من مصر، «حــيّ المهاجريــن»، في مواجهــة الكنيسة الوحيــدة المعروفــة فيهــا. وكان لابد، في مراسلاتــه، من أن يحدد موقــع البيت من «طلعة المصطبة»، إذ كانت الطلعات في هذا الحيّ، تحدّد الأحياء بجملتها، فكان يكتب، في تحديــد موقع البيت، هاتــين الكلمتين: «أمام الكنيسة».

فوصلت إليه يوماً، من الأستاذ الهنداوي، رسالة نزل فيها بالهمزة، في العنوان، فجعلها تحـــت الألف: «إمام الكنيســة».... ووصلت الرسالــة، فكانــت، على هــذا النحو، نكتة الموسم!

علــى أنــه وجــد الراحــة في مسكنـــه الجديــد، فتيسّر له الانكبــاب على العمل، علــى مــا كان يلقى من العنــاء في تصحيح أوراق الامتحانات، لكثرتها وتعدّد المواد التي كان ينهضــ بتدريسهــا. ولا يتوانى، معها، عن الكتابة إلى مجلة (المعرفة) التي أنشأتها وزارة الثقافــة في سورية، بعد، «الانفصال» (١٩٦٢)، فينشــر فيها بحوثاً ومقابلات كان أجراها مع بعض مَــن شملتهم دراساته من قبل.

يذكــر أنه كتــب، في السنــة الثانية من عودته إلى دمشق (١٩٦٤) ينقل ما سمعه من ميخائيل نعيمــة، في إحدى زياراته الطويلة له، من حول علاقة جبران الجنسية بمَن كان يسميها «أمّه» (ماري هاسكل)، وحمّلها منه حملاً كاذباً (خارج الرحم). فكتبت الأستاذة «وداد السكاكيني» تنقد ما كتبه، فردّ عليها وردّتْ عليــه، حتى وصل الأمــر بينهما إلى حدود السجــال الحادّ، وشغــل أعداداً من (المعرفــة). فرأى الشاب أن يطلب من إدارة التحريــر أن تُقفل بــاب النقاشــ، بعد أن استوفى أغراضه.

وقد وصل إليه خبر وفاة الدكتور محمد مندور(١٩٦٥)، وهو في طريقه إلى المدرّج. في العام الثالث من عمله في الجامعة، فبلغت به صدمة النبأ أن لبث بعده عاجزاً عن التفكير في أي شيء. ولم يجــد يومها غير أن ينهض فيغــادر الجامعــة إلى البيــت، لعجزه عن متابعة العمل فيها، مع تدفق الذكريات التي غلبته على نفسه. ومَن يقرأ ما كَتَب عنه في كتبه ومقالاته في الصحف والمجلات، يدرك مبلــغ ما خلَّف فيه من أثر. ولم يزر القاهرة، من بعد، إلا كانت زيارة منزل الدكتور مندور في «الروضة»، وسلوك الطريق التي اعتادها إليه، على شاطئ النيل، أولى أمانيه.

.٢.

وقد أتيح لــه، في صيف العام نفسه زيارة روما وميونيخ وباريس وبعض مدن الأندلس، في طريقه إلى زيارة أخيه في المغرب. وامتدت الرحلــة أربعة أشهــر كاملة، زار فيها المعالم الأثرية لروما القديمة فأذكرتْه معالمَهــا في سورية، إذ لم تكن الآثــار الرومانية، في جنوبها خاصة، تقلُّ عنهــا روعة وعدداً. ولكنَّ رعايتها وإبرازها للعين كانا هناك أدقّ وأغنى.



تجــوّل في القمــم المحيطــة بروما. وزار بيــت صديقه الفنان سامي برهان، فأطلعه على بعض تقاليــد الحيــاة اليومية عنــد الإيطاليين، فوجدها قريبة من تقاليدهــا عندنا. أطلّ يوماً من شرفة البيت، فرأى الجيران يتولون عصر حبات الحصرم، بعصّارة يدوية، وهم متجمّعون مــن حولها، يرفعــون أصواتهم، ويتخاطبون، ويدفع بعضهم بعضاً، كما نفعل نحن في مثل هذه المناسبات!

وأكل البيتزا، وهــم أصحابها، فوجدها في سوريــة أقْبــلَ وألذَّ طعمــاً. ووقف أمام البنــاء الذي كان موسوليني يتولى، في بعض شرفاته، خطاب مواطنيه، في الحرب العالمية الثانية، فأحسّ بدورات التاريخ التي تعصف بالإنسان وتتركه أبداً مشدوهاً أمامها.

وفي ميونــخ لفتتْ نظــرَه نظافة المدينة نظافةً مطلقة، فقد ركزوا، في الوسّط من بعض الشــوارع، أصصاً جميلة للزهــور يرعونها على الــدوام، متفتحةً تفيضــ بالحياة ليل نهار، لم تمسسها يد. وسألوه، في المطار، عن بعض التحليلات الطبيــة، فاقترب لنجدته فتــى لا يعرفه، يتحدث الألمانية فترجم عنه بعض ما يريد أن يقول لهم. واكتشف بعدها

أن الفتــى كان طالباً من طلابــه في ثانوية المأمــون بحلب! ووجد فيه عزاءً طيباً. لقد وجد في المدينة وجــه أوروبة السافر حركةً وغنىً وقُدرة.

ولقي في باريســ أحد تلاميذه القدامى أيضاً «عصام الزعيم» وزوجته، فقضى معه أيام الزيارة كلها. وأثّرت في نفسه، وهو يزور قوس النصــر دار العرض السينمائي المهيأة على سطحه، والمفتوحة للسياح، فيلماً وثائقياً لمشاهــد من أيام الحرب العالمية الأولى، بدا فيهــا الملــك فيصــل الأول «ممتطياً» ظهر أحد الجمال، يخدّ به في الطريق، في موكبٍ ضخم، فهبت في الدار عاصفة من الضحك أحسّها الفتى تنفذ بدلالاتها في القلب!

ثم لما قطــع البحــر إلى الجانب الآخر منه، نزل طنجة، بلدة الرحّالة ابن بطوطة، فبقي فيها ساعاتٍ قضاها في زيارة أسواقها ومحالّها، قبــل أن يلحق بأخيه في «تطوان»، فيراه في حال صعبة من الإحساس بالوحدة! وكان، وهــو فيها، تتردد في سمعــه أنشودة فخري البــارودي التي يحفظهــا التلامذة الصغار في سورية، ويرددونها:

بـــلاد الـــعُـــرب أوطــــاني
مــــن الـــشــــام لــبــغــدانِ
ومـــــن نجـــدٍ إلى يمـــنٍ
إلى مــــصـــرَ، فـــتــطــوان

فيشعر معها بأنــه يقف، على نحوٍ ما، عند الخط الأخير من الوطن الواحد!

وقد حضر فيها بعض الحفلات، أُقيمت في البيوت، وغُنّيت فيها أغانٍ مغربية رافقتها الربابة والعود والــدُّفّ، أحس بما فيها من الحنــين، إذ كان معظم سكانها من المغاربة، مِــن أولاد مَن عادوا، قبــل أربعة قرون، من الأندلس، وحملوا معهم حنينهم إليها. وبعض مفاتيح بيوتهم فيها، إلى يوم العودة القريب، كما كانوا يظنون!

وتهيأ لــه أن يطــوف بأنحــاء المغرب، فيزور «الرباط» و«فاســ» و«مكناس»، ويُلمّ بالصورة الفريدة البعيدة لما خلّفته الحضارة الإسلامية من المنجزات العمرانية والمدنية. وأُعجب، وهو يطوف بالأسواق، بمصنوعاتهم الجلدية وزخارفهــا الذهبية. وما يزال بين يديه، إلى اليــوم، بعض ما اقتناه منها، مما يؤْثِر عدم التفريط به.

ورافقه أخوه، في آخــر أيام الزيارة، إلى المينــاء المغربي «سبته»، وهــي ما تزال، إلى جانــب «مليلة» في حــوزة الإسبــان، فرأى العرب يسكنون في ضواحيها، ويعيشون كما يعيشــ العمال. ورأى الإسبــان يُغطّون وجه الحيــاة، حتى لقد خالطوهم حيثما توجّهوا فيها.

ثــم ودّعه أخوه، قبــل أن يركب الباخرة

التي عبرت به بحر الزقاق إلى «جبل طارق»، فعصفت به، وهو يتأمله من قُرْب، روايات التاريخ البعيد!

مكث ليالي في أهم المدن الأندلسية: «قرطبة» و«إشبيلية» و«غرناطة»، وزار «طليطلة»، و«مُرْسية»، والعاصمة الإسبانية «مجريط – مدريد». ووقف على أهم معالمها العمرانية والأثرية. وكان، وهو يطوف بها، يكلم الأنهار والبحر والأحجار، ويستنطقها، يريد أن تبوح بما تكتم من أسرار تلك الحقبة الذهبية من تاريخ العرب والإسلام. وقف، في مدخل قرطبة، يتأمل تمثال ابن حزم عالم الأندلس وفقيهها وأديبها، في الموضع الذي حققوا مكان بيته فيه. ومشى في الطريق التي كان يقطعها، وقبقابه يخفُق على أحجارها، إلى جامعها العظيم. تأمّل المحراب المغطّى بالفسيفساء، وقد رُفعت في سقفه الصدفة الضخمة التي تعين خطوطها على توزيع صوت الإمام في أنحاء المسجد. نظر في الفتحات التي كانت الثريات تتدلّى منها، في أنحائه. دار من حول الأعمدة وتيجانها وأقواسها، قبل أن ينزوي في ركن من أركانها، وقد زحمته جماعات السياح من حولها، ووقفت ترفع أصواتها في المحراب، تختبر سريانه في أنحاء المسجد.

وانتهى، وهو يجول في أزقتها وشوارعها، إلى الساحة التي أقاموا فيها نُصُباً لشاعرهم «الإسباني الناطق بالعربية» «ابن زيدون» وحبيبته «ولاّدة بنت المستكفي»! يمثل المشهد فيه يد ابن زيدون تمتد، في حنو بالغ، لتمسك بيد ولاّدة. وعلى النصب بيتان بالعربية خاطبها فيهما، على مثال خطابه في البيتين التاليين، وتحتهما ترجمتهما بالإسبانية!

لا تحسبوا نأيَكم عنّا يغيّرنا
إذ طالما غيّر النأي المحبِّينا
والله ما طلبتْ أهواؤنا بدلاً
منكم، ولا انصرفت عنكم أمانينا

ونزل في «إشبيلية» بيتاً «عربياً» جعله أهله نُزُلاً تهيأ له فيه أن يتحرر من بعض القيود في اللباس والحركة اليومية. ورأى صاحب البيت يضع، على باب البيت، كرسياً من القش، ويقعد يتأمل الرائحين والغادين في زقاقه الضيق، كما يفعل الناس، إلى اليوم، في الأحياء الشعبية في سورية. وقد دخلتْ صاحبة البيت غرفته في الصباح، فأيقظته ودفعتْه إلى الخروج من البيت، لمشاهدة موكب ديني يدور من حول «كنيسة المدينة» (جامع إشبيلية الكبير)، فرأى عربة يجرها حصان، وفي داخلها تمثال للسيدة العذراء، في حضنها طفلها، والناس من حولها يهللون لها، ويسيرون معها، فيدورون من حول الكنيسة!

ورأى أبــواب الجامع الكبــيرة القديمة مركونة، في داخله، على حائط من حيطانه، وقرأ علــى إفريزها شعــار الأندلسيين «لا غالب إلا الله». وقــف ينظر في مياه البركة التــي تتوســط ساحتهــا، ويستعيــد صورة المقبلــين على الوضوء، مــن حولها. وصعد مئذنتها الملتفّــة، فتملّى المدينة من نوافذها المتتابعة، وأطلّ، في نهايتها، حيث كان المؤذن يقف، فرأى جرس الكنيســة الضخم يتربّع فيها، ويُقرع، باليد في أوقات الصلاة.

وجد الشاب إشبيلية مدينة مفتوحة على الأفق، طلِقة يجري فيها نهر الوادي الكبير، فأدرك الوجــه في تشبيه العرب لها بمدينة «حمص»، وتسميتها باسمها، إذ تجتمع فيها صفاتٌ قرّبتْهم منها وذكّرتْهم بها. ورآها من أجمل مدن الأندلس، قبل أن يعرف برشلونة. وليــس ينسى ملعباً حمل، على جدار دائريّ بُني فيه، صــوراً تؤرِّخ للفتــح العربي، منذ دخول العرب أرضــ الأندلس، وما واجهوا فيها، علــى مدار القــرون الثمانية، إلى أن خرجوا منها.

ونــزل فندقــاً في «غرناطــة» أطلّ، من نوافذه، علــى جبلها المكسو بالثلوج، فقضى أيامــاً زار فيها قصور سلاطين بني الأحمر في (الحمراء)، بقعةً بقعة: قاعاتها وساحاتها وبِرَكِهــا وجناتها، فرآها، مثــل الجامع في قرطبة وإشبيلية، مقصــد السياح في المدن الثلاث. وزار ما تبقى، في المدينة، من الأسواق (السوق الكبيرة) والخانات التجارية. وسهر ليلة في بيتٍ من بيوتهــا، أصبح اليوم مزاراً مــن مزارات السياح، يقــع في حي متطرفٍ قليــلاً عن وسْط المدينة، لم تبعد عنه سمات الأحيــاء العربية. وأقيمــت في ساحة الدار رقصات (الفلامينكــو) الإسبانية المشهورة، فأذكرته بعض رقصات الفتيات في الأرياف السورية.

ومشى في بساتين «مرسية»، بلدة الشاعر «أبو البقــاء الرُّندي» الذي خلّف واحدة من أقوى قصائد الرثاء العربية للمدن والممالك، تأثــيراً في النفس، رثى فيهــا الأندلس بعد سقــوط غرناطة آخر ممالكهــا، وما واجه أهلها من ألوان القتل والاغتصاب والتعذيب، أيــام تمّ طردهم منها. وكان، وهو يمشي في أرجائها، مثقــل النفس بما حملتْ معها من صور الأحــداث القريبة في وطنه، تسبح في ناظريه غمامة سوداء!

أمر واحــد راجع نفسه فيــه، بعد هذه الزيارة الطويلة، هــو الإقدام على الطواف بالبلاد، والتنقّــل بينها وحيداً يحدّث نفسه دون أن يسمعــه أحــد. وازداد إحساســاً بالوحــدة في مواقف أحسّ بالحاجة إلى مَن يسمعه فيها.

فلما عاد، إلى الأسرة في حلب، إذ كانت ما تزال تُمضي فيها عطلة الصيف، وجد فيها الأُنس بعد الوحشة الطويلة. ولكنه ما كاد يستريح فيها، حتى دُعي إلى شدّ الرحال، مع الأسرة هذه المرة، إلى زيارة بيت المقدس، وما تتاح زيارته من المدن الفلسطينية.

فلما وطئ أرض القدس، وصلت إلى سمعه بعض الأصداء البعيدة، عبّر الجدار الغليظ الذي أُقيم بين «القدس الشرقية»، حيث يقفون، و«القدس الغربية». وكانت الأسواق التي عبروها، في طريقهم إلى المسجد الأقصى، حافلة، إلى أن وقفوا أمام جدرانه، قبل أن يدخلوا ساحته الواسعة، ويصعدوا الدرج إلى قبّة الصخرة. والشاب كتلة ملتهبة، لا تكاد تملك نفسها وهي تسترجع ما كانت قرأته من أخبار صلاح الدين، حين أقبل يكشف الغطاء عن الصخرة (وكان الفرنجة غطّوها، ليحولوا بين عساكرهم واقتطاع قطع منها تمائمَ لأنفسهم)، ويغسلها وهو يبكي!

ودخل مسجد الصخرة، حيث صلى خليفة المسلمين «عمر بن الخطاب»، قبل أن يهبط الدرج ويدخل الحرَم، فيقف أمام المنبر التاريخي الذي أُلقيت خطبة الجمعة الأولى منه، بعد التحرير، بحضور صلاح الدين! ويكاد يغيب اليوم عن نفسه، وهو يستعيد صورته الجليلة ونهايته الفاجعة، فقد نهض له التاريخ كله من سُباته!

ثم زاروا بيت لحم، ودخلوا «المغارة» فتأملوا «المِزْوَد» الذي ضمّ جسد السيد المسيح. ودخلوا كنيسة القيامة، فكشف لهم أحد كهنتها غطاء القبر الفارغ. ودخلوا المسجد الذي صلى فيه عمر بن الخطاب أيضاً. ومشوا في «طريق العذاب»، إلى «الجلجلة». ثم انتهوا إلى زيارة نابلس، مدينة آل طوقان (قدري وإبراهيم وفدوى)، فطعِموا من حلاوتها، ومشَوا في شارعها الممتد إلى نهايته. وسبح الشاب مع ابنته الصغيرة، في مياه البحر الميت.

ما يزال الشاب، إلى اليوم، يتملّى صوراً يستعيدها مما خلّفتْ هذه الزيارة فيه. وصحيح أن السفر كتابٌ حي تضيء حروفه بعض عَتَمات التاريخ، وتقرؤه النفس بمجموعها حساً وفكراً وعاطفة وخيالاً. وصحيح أن بعض ما يلقاه الإنسان فيه يحيا معه، إلى نهاية العمر، شكلاً ولوناً ومعنىً تتعدّى أبعاد زمنه إلى حيث يكون الوجود كُلاً حيّاً مجتمعاً فيه.

.٣.

عاد الشاب بعد هذا الصيف الممتلئ بالأسفار، إلى دمشق ومعه الأسرة، إلى بيتهم في حي المهاجرين، والأستاذ الأفغاني ما يزال يرأس القسم. والعام (١٩٦٦) يكاد

يمضي علــى نحو ما مضت الأعوام الثلاثة السابقة، لولا خــلاف سببُه موقف للأستاذ الأفغاني وقفه من الشاب، اتهمه فيه بإخفاء بعضــ المعلومــات عنه. وتعــالى فيه صوت الشاب على نحوٍ أنكره، بعدها، على نفسه، وما يــزال ينكره إلى اليــوم، ويذكر معه أن صديقه أحمد راتب النفاخ صحبه يومها إلى منزله ليخفــف عنه بعض ما كان يعاني من حدَّة الندم. وقد بات ليله مؤرَّقاً لا يعرف ما يفعل، فقد كان يحسّ أن ما يأخذه على نفسه أضعافُ ما أخذه على أستاذه الأفغاني!

فلما أفــاق وجد نفسه، عنــد الصباح، مستريحاً لفكــرة الانتقال إلى جامعة حلب، وكانــت كلية الآداب قد أنشئت في جامعتها، ورأسهــا ابن عمته الدكتور «صبري الأشتر». ولكنــه فوجــئ برفضــ الأستــاذ الأفغاني للفكرة من أساسهــا. فلما أخذ يراجعه في الأمر ويبدي ويعيد فيه، وجده يفكر في مَن سيخلفه في رئاسة القسم، وفي مَن يقف منه، حينــذاك، موقف القادر علــى المراجعة في الأمور التي لا يصحُّ السكوت عنها!

ثــم بلــغ الشاب، بعــد أن انطــوى أمر الانتقال إلى جامعة حلب، نبأ ترشيحه، باسم جامعــة دمشق، ليشارك، في احتفال جامعة «هالــه» في ألمانية، بمرور عشر سنوات على وفاة كبير مستشرقي ألمانية «بروكلمان».

أمضى الشاب، في ألمانية الشرقية، عشرة أيام، زار خلالها برلــين «الشرقية». ووقف على الجدار الــذي يفصل بين «العاصمتين الألمانيتين» الشرقيــة والغربية. وحضر، في جامعة «هاله»، بعض دروســ العربية التي يتلقاهــا طلبة الاستشراق فيهــا. ورأى، في مدينة «دريســدن»، بعض ما خلّفت الحرب العالمية الثانية، من خراب، في بعض أبنيتها، ذكرى أليمة تظل شاخصة في عيون أهلها!

وكان، في أعضاء الوفد القادم من سورية، الأستــاذ «عمر رضا كحالــة»، ممثلاً لمجمع اللغة العربيــة في دمشق، فوجد فيه الشاب زميلاً يُفيد من معرفته الواسعة بكتب التراث في المكتبة العربية، فزار معه المكتبة العامة، وأخذ يقرأ عليه أسماء المخطوطات العربية التي تحتفظ بها في خزائنها، فوقفه، منها، عنــد كتاب «السجل المعلّــق»، ونصح له بأن يطلب صورة له (ميكروفيلم)، فطلب الشاب الصورة، بعد أن نظر في الكتاب، وقرأ بعض تعليقات بروكلمان على حواشيه.

ويعود الشاب بذاكرته اليوم إلى الساعات الغنيــة التي أمضاها في ألمانية الشرقية، في صحبة أعضاء الوفــود العربية، وكان فيهم الدكتــور «إبراهيم مدكــور» وممثلٌ لجامعة الأزهــر، لفتت عمامتــه وقفطانــه أنظار الألمان، فلاحقوه بها حيثما توجهت الوفود.

وقد دُعيتُ، يومذاك، إلى أماكن تحمل بعض ذكريات العهد النـازي، كالقاعة التي وقف هتلـر فيها خطيباً، قبـل أن يتولى النازيون الحكم.

ثـم لما عاد الشاب إلى جامعته في دمشق جـدَّ أمر آخر أثار الجدَل، له صلة بالموافقة على تعيين الدكتورة «عزيزة مريدن» العائدة مـن مصر، في القسم، بعد أن أنهت دراستها فيها، وحصلت على درجة الدكتوراه، للتدريس في القسـم. وكان الشاب لقيها في مصر، في معهـد الدراسات، وكانت تسبقه، في جامعة دمشـق، سنـة أو سنتين. قبـل أن توفَد إلى المعهـد، وتنوي أن تتابع، مـن بعد، دراستها في مصر.

يذكر الشاب أنه نقل إلى الأستاذ الأفغاني رأيه فيها، وموافقته على تعيينها حين تُعرض أوراقها في مجلـس القسم. ولكـن الأستاذ الأفغاني امتنع عن الموافقـة، ودسّ أوراقها في درج مكتبـه، إلى أن غادر القسم، وأحيل على التقاعد!

وأقبل بعدها عام جديد (١٩٦٧) استقبل فيه الشاب ولده الأول، ولكنه حمل، مع هذا الحدث السعيد، مـرارة الهزيمة التي حلت بالجيوش العربية يومذاك، واحتُلت مناطق واسعة من مصر وسورية، فضلاً على احتلال مـا تبقى من الأرض الفلسطينية، بعد وقوع التقسيم عام (١٩٤٨).

كسـرت الهزيمة إيقـاع الحياة في نفس الشاب كما كسرته في نفوس كثير من الناس، وأورثته إحساساً باختلال الأشياء من حوله. كان يؤثـر أحيانـاً أن يقطـع الطريـق إلى الجامعة ماشيـاً، ليخفف قليلاً من ضغوط إحساسـه بالفجيعة، قبـل أن يواجه طلابه بها. وكتب، في تلك الأيام، من عام (١٩٦٨) مقالتـه «المنـبر الساحر»، واستقـوى فيها، على مواقـف الضعف أمامهم، بالرجوع إلى التاريخ وهو على المنبر.

وأخذ الأستاذ الأفغاني، من ناحية أخرى، يتهيأ لإحالتـه إلى التقاعد. واختير الشاب ليأخذ مكانـه، بعـد أن تمّ ترفيعه فيه إلى مرتبة الأستاذ المساعد. وكان بعض أعضاء القسـم أُعير، من قَبْـلُ، إلى الجزائر، وتهيأ الدكتور شكري فيصل للحاق بهم.

يذكر الشـاب اليوم الساعـةَ التي أخذ فيهـا الأستاذ الأفغاني يهيـئ نفسه لمغادرة القسم، فجمعه، وقال له، فيما قال:

– قـد يأتيك كثير ممـا لا ترضى عنه. فاحرص، حين يأتيـك، على أن تفتح درج المكتـب وتودعه فيه. ثـم لا تسأل عنه، من بعد!

ذكـر الشاب هـذه الوصيـة، والأستاذ الأفغاني ما يزال بعد في القسم، فعقد جلسة بحضوره، وأخـرج أوراق الدكتـورة عزيزة

مريــدن من الــدرج وطرح مسألــة قبولها في القســم. ووافق مــن كان في المجلس، من الأعضاء، ولزم الأستــاذ الأفغاني الصمت، ممتنعاً عن التصويت!

ولكــن الشاب لم يكــن يهــوى المناصب الإدارية، يراها تحــوّل اهتمامه إلى قضايا جانبيــة لا يحــب الدخــول في سراديبهــا. وكان الدكتور «شاكر الفحام» اختير لرئاسة الجامعــة. فأخذ الشاب يــزوره في كل شهر مرة، يشكو إليه أمــره، ويسأله أن يُعفى من إدارة القسم، حتى أعجــزه وأضجره. وكان في كل مرة، يسأله الصبر.

فاستدعــاه مــرة إليه، وسألــه أن يُعفى الأستاذ «أحمد راتب النفاخ» من السهر على مكتبة القســم، في القاعة التــي خُصصت لها، وإرشاد الطلبــة إلى ما ينفعهم منها في بحوثهم الجامعية. وقال له:

– وصلت إليّ شكوى تقــول: إن الأستاذ راتــب رمى في قاعة المكتبــة أحد الأساتذة برزمــة الكتــب، في وجهــه. وأرى أن ينتقل الأستاذ راتب من قاعة المكتبة!

ولم يجــد الشاب غير أن يرجــو الأستاذ راتــب الانتقال إلى جواره، في غرفة القسم. وقال له وهو يراضيه:

– أخــي! كــن إلى جانبــي، آنــس بك، وأستشيرك في بعض ما يُعرض عليّ!

ثم وصل إلى الأستاذ راتب، ما كان وقع، علــى حقيقته. فــكان، في بعضــ الأحيان، يتطلــع في وجه الشاب، وقد نفخه الغضب، فيقول له:

– علــى يديــك، تلقيت إحــدى أخبث إهانتين في حياتي!

❁ ❁ ❁

واستجــاب رئيــس الجامعــة، الدكتور شاكــر، آخر الأمر للشــاب، فهتف إليه، في صباح أحد الأيام، من عام (١٩٦٩) يقول:

– آن لــك أن تستريح، فقد وافق مجلس الجامعــة علــى إعارتك للعمــل في جامعة وهــران بالجزائر، ابتــداء مــن أول العام الدراسي، فلك أن تنفــك عن عملك ابتداءً من هذا التاريخ!

آفاق المعرفة



العجائبية في رسالة التوابع والزوابع لابن شُهَيْد الأندلسي

د. أحمد فوزي الهيب*

ابــن شُهَيْد[1] (٣٨٢-٤٢٦)هــ =(٩٩٢-١٠٣٥) م، هو أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن شُهَيْد، ينتمي إلى بني شُهَيْد الأشجعيين الغطفانيين، كان أبــوه واليًا ذا مكانة سامية في الأندلــس، ولّاه الحاجب المنصور بن أبي عامر على شرقي الأندلس مدة طويلة.

وُلــد ابــن شُهَيْد في قرطبــة، ونشأ في بيت جاه وغنى ونفــوذ مُقرَّبًا من الحاجــب المنصور وأسرتِهِ مُدللاً مترفًا، وفضلًا عن ذلك كان جميلاً وسيمًا

* أديب وناقد سوري.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

ذكيًّا معتدًّا بنفسه، فأقبل على الأدب لأنه وجد فيه ميدانًا فسيحًا لأهوائه وميوله، فسال به لسانه شعرًا ونثرًا، اشتُهر بهما منذ يفاعته، وساعده على ذلك الفراغ والشباب والثراء وإكثاره من اللهو الذي كان شائعًا في قرطبة آنذاك، ولكن ما تقدم أيضًا منعه من أن يستمر طويلًا في منصب الوزارة وفي غيرها من الوظائف المهمة التي أُسندت إليه لأنه لم يُخلق لها، وإنما خُلِق ليكون فنّانًا شاعرًا أديبًا متحررًا من أيّة مسؤولية مهما كانت، وقد ساعده في نبوغه هذا جيناته الوراثية، فأبوه وجدُّه وجدُّ أبيه وعمُّه وأخوه شعراء، وإن كان هو أجودهم شاعرية وأخصبهم قريحة وأوسعهم شهرة.

وقد بدا ذلك واضحًا في شعره الذي أكثر فيه من الفخر ووصف الخمرة واللهو والمجون والهجاء ثم التأمل والتفكر بعدما تكاثرت عليه العلل وشارفت حياته على الغروب، كما بدا أيضًا في نثره الذي نجد فيه خيالاً عجائبيًّا وفنًّا قصصيًّا رائعًا ونقدًا لاذعًا مما يجعله واحدًا من العبقريات الفذّة على مستوى الأدب العربي والعالمي أيضًا بلا مبالغة.

بَيْدَ أن حياته هذه وما فيها من لهو وشراب وترف وما أجهد به نفسه في النظم والتأليف أثّرت على صحته تأثيرًا سلبيًّا، إذ اعتلَّ في نهاية عمره القصير بضع سنين، ثم أُصيب بالفالج وتكاثرت عليه الأوجاع حتى أوشك أن ينتحر لولا أنه تذكر قضاء الله تعالى وعدله فرضي، قال:

أنوحُ على نفسي وأندبُ نبلَها
إذا أنا في الضرّاء أزمعتُ قتلَها
رضيتُ قضاءَ الله في كل حالة
عليَّ وأحكامًا تيقَّنْتُ عدلَها

كما قال أيضًا قبيل وفاته:

تأملتُ ما أفنيتُ من طول مدّتي
فلمْ أرَهُ إلا كلمحةِ ناظرِ
وحصّلتُ ما أدركت من طول لذّتي
فلمْ ألفِهِ إلا كصفقةِ خاسرِ

ومما أوصى به أن يُكتب على قبره هذه الأبيات:

يا صاحبي قمْ فقد أطلْنا
أنحنُ طولَ المَدى هُجودُ؟
فقال لي: لن نقوم منها
ما دام من فوقنا الصعيدُ
تَذْكُرُكم ليلةً لهَوْنا
في ظلِّها والزمانُ عيدُ
وكم سرورٍ هَمى علينا
سحابةً ثرةً تجودُ
كلٌّ كأنْ لم يكن تقضَّى
وشؤمُهُ حاضرٌ عتيدُ

حـصَّـلَـهُ كـاتـبٌ حـفـيـظٌ
وضـمَّـهُ صـادقٌ شَـهـيـدُ
يـا ويـلـنـا إنْ تَـنَـكَّـبَـتْـنـا
رحـمـةُ مَـنْ بـطـشُـهُ شـديـدُ
يـا ربِّ عـفـوًا فـأنـت مـولًى
قـصَّـر في أمـرك الـعـبـيـدُ

ترك ابن شُهَيْد كثيرًا من القصائد والمقطّعات ضمّتْها كتب الأدب مثل الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ويتيمة الدهر وغيرهما، وقد جمع المستشرق (شارل بلا) أشعاره في ديوان مستقل، كما نجد له بعض الكتب الأدبية مثل (كشف الدك وإيضاح الشك) و(حانوت عطار) و(رسالة التوابع والزوابع) التي سماها أيضًا شجرة الفكاهة، والأخيرة هي موضوع بحثنا هذا.

تحدث ابن شُهَيْد في رسالة التوابع والزوابع عن رحلة عجائبية خيالية إلى بلاد الجنّ وما فيها من غرائب، وكم كنا نتمنى لو أنها قد وصلت إلينا كاملة، لَكُنّا أمام كنز عظيم من كنوز الأدب، ولكن رغم ذلك فإن ما وصل إلينا منها يدل على مكانتها الإبداعية العظيمة، وهذا الواصل منها قد ضمّه بين دفتيه، فيما ضمَّ، كتابُ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنتريني. كما طبعت دار صادر في بيروت عام ١٩٦٧ما بقي من الرسالة مستقلاً وحده بعناية بطرس البستاني وتقديمه.

ولعل من المفيد أن نعلم أن التوابع جمع تابعة، أي الجنّيّ أو الجنّيّة، وسُمّيت بذلك لأنها تتبع الإنسان أينما ذهب. والزوابع جمع زوبعة، وهو اسم لشيطان أو لرئيس من رؤساء الجنّ.

وقد قام ابن شُهَيْد برحلته العجائبية هذه مع تابعه الجني، واسمه زهير بن نُمير إلى وادي الجن بعدما تعارفا، ومن الشائع منذ الجاهلية أن لكل شاعر وأديب شيطانًا أو جنيًّا يلهمه شعره وأدبه، ثم طلب ابن شُهَيْد من تابعه أن يصحبه إلى بلاد الجن، فاستأذن الجنيُّ رئيسَه، ثم طارا معًا على ظهر جواد عجيب إلى بلاد الجن إلى توابع الشعراء، فقابلا توابع امرئ القيس وطرفة بن العبد وأبي تمّام والبحتري وأبي نواس والمتنبي وغيرهم، وسمع منهم أشعارهم وأنشدهم، فأجازوه معترفين بفضله وتفوقه عليهم، ثم انتقلا إلى توابع الأدباء، فرأيا توابع عبد الحميد الكاتب والجاحظ وبديع الزمان الهمذاني وغيرهم، ولقد اتسمت اللقاءات مع توابع الشعراء وتوابع الكتاب بشيء من الشدة والحدة في كثير من الأحيان إلا أنهم، في نهاية المطاف، اعترفوا بفضله

وسبقه لهم وأجازوه، كما شكا إلى بعضهم أمر حساده وتحاملهم عليه.

ثم انتقلا إلى مجلس أدبي للجن، تداولوا فيه أبياتًا من الشعر، منها للنابغة الذبياني، فاشترك فيه ابن شُهَيّد وأدلى بدلوه فظهر فضله وتفوقه عليهم.

وأخيرًا أراد ابن شُهَيّد أن يخفف من غلواء أجواء النقد وحدتها، فانتقل مع تابعه إلى مجلس لحمير الجن وبغالهم، وسمع لبغل عاشق ولحمار محب ما قالاه من شعر في التغزل والحب.(٢)

وهكذا ينتهي ما وصل إلينا من رسالة التوابع والزوابع، ولو وصلت إلينا كاملة لكان في ذلك خير عميم.

ولا نستطيع في هذه العجالة أن نستعرض الرسالة كاملة، لذلك سنكتفي بالوقوف على بعضها، مثل لقاء ابن شُهَيّد الأول مع الجني زهير بن نمير الذي كان بعد أن أُرتج على ابن شُهَيّد القول ولم يعد يستطيع أن يتمّ قصيدة في رثاء حبيب له أبعده عنه الموت في أثناء فتور العلاقة بينهما، ومطلعها:

تولّى الحِمَامُ بظبيٍّ الخدورِ

وفازَ الردى بالغزالِ الغريرِ



فإذا فارس بباب المجلس على فرس أدهم، قد اتكأ على رمحه، وصاح به: أعجزاً يا فتى الإنس، فقال ابن شُهَيّد: لا وأبيك، للكلام أحيان، وهذا شأن الإنسان، فقال له: قل بعده:

كمثلِ مُلالِ الفتى للنعيمِ

إذا دام فيه وحالِ السرورِ

فأثبت ابن شُهَيّد إجازته، وقال له: بأبي أنت! من أنت؟ قال: أنا زهير بن نُمير من أشجع الجن، أي أن اسم قبيلته الجنية هو نفس اسم قبيلة ابن شُهَيّد الإنسية، وكأن

ثمـة تناظرًا بين عالم الإنسـن وما فيه وعالم الجـن وموجوداتـه، فقال ابـن شُهَيْد: وما الذي حَـداك إلى التصوّر لي؟ فقال الجنّي: هوًى فيك، ورغبةٌ في اصطفائك، فقال ابن شُهَيْـد: أهلاً بك أيها الوجـه الوضاح.. ثم تحادثـا حيناً، وقبـل أن يفترقا قال الجني لابن شُهَيْد: متـى شئت استحضاري فأنشدْ هذه الأبيات:

وآلى زهيرُ الحبُّ - يا عزّ- أنّه
إذا ذكـرَتْـهُ الـذاكـراتُ أتـاهـا
إذا جـرتِ الأفـواهُ يـومًا بذكرها
يُـخـيَّـلُ لي أنّي أُقـبِّـلُ فـاهـا
فأغشى ديارَ الذاكرين وإنْ نأتْ
أجـارِعُ من داري هـوًى لِهواها

ثـم وثب بحصانـه الأدهـم نحو جدار الغرفة، فدخل فيه وغاب عن النظر.[٣]

واستمـرت الصحبـة بينهمـا وتأكّدت، وقـد وصف ذلك لصديقه أبـي بكر يحيى بن حـزم[٤] قائلًا[٥]: وكنت – أبا بكر – متى أرتج علي، أو انقطع بـي مسلك، أو خانني أسلوب، أنشد الأبيـات فيمثل لي صاحبي، فأسـير إلى ما أرغـب، وأدرك بقريحتي ما أطلـب، وتأكدت صحبتنـا، وجرت قصص لـولا أن يطول الكتاب لذكرتُ أكثرها، لكني ذاكر بعضها.

ولكن ابن شُهَيْد لم يكْفِه ذلك من الجني، وإنمـا طلب منـه أن يأخـذه في رحلة إلى بـلاد الجن ليجتمع بتوابع الشعراء والكتاب السابقـين في الزمن والأدب، فقال له: حتى أستـأذن شيخنـا، وطار عنه ثـم عاد كلمح بالبصر، وقد أُذِن لـه، فقال: حُلَّ على متن الجواد......

ولنسمعْ بعضَ أنباء هـذه الرحلة من ابـن شُهَيْـد الذي قـال[٦]: وسار بنـا (أي الجـواد) كالطائر يجتاب الجـوَّ[٧] فالجوَّ، ويقطع الدوَّ[٨] فالـدوَّ، حتى التمحتُ أرضًا لا كأرضنا، وشارفت جـوًّا لا كَجَوِّنا، متفرّع الشجر، عَطِرَ الزهر، فقال لي: حللتَ أرض الجـنّ أبا عامـر[٩]، فبمن تريـد أن نبدأ؟ قلت: الخطبـاء[١٠] أولى بالتقديم، لكنّي إلى الشعراء أشوق. قال: فمن تريد منهم؟ قلت: صاحب امرئ القيس، فأمال العنان إلى وادٍ من الأودية، ذي دوح تتكسر أشجاره، وتترنّم أطياره، فصاح: يا عُتيبة بن نوفل، بِسِقْطِ[١١] اللِوَى فَحَوْمَل، ويـومِ دارةِ جُلْجُل[١٢]، إلّا ما عرضت علينا وجهك، وأنشدتنا من شعرك، وسمعتَ من الإنسيّ، وعرَّفتنا كيف إجازتك له. فظهر لنا فارس على فرس شقراء كأنها تلتهـب، فقـال: حيّاكَ الله يـا زهير، وحيّا صاحبك، أهذا فتاهم؟ قلت : هو هذا، وأيّ جمـرةٍ يا عُتيبـة! فقـال لي: أنشد، فقلت: السيد أولى بالإنشاد، فتطامحَ طرفُه، واهتزَّ

عِطْفُــه، وقبض عنان الشقــراء[13] وضربها بالسوط، فسَمَــتْ تُحْضِرُ[14] طولاً عنّا، وكَرَّ فاستقبلنا بالصَّعدة[15] هازًّا لها، ثم ركزها[16] وجعل ينشد:

سما لك شوق بعدما كان أقصرا[17]...

حتــى أكملها، ثم قال لي: أنشد، فهممت بالحَيْصَــة[18]، ثــم اشتــدت قُــوَى نفسي وأنشدت:

شَجَتْهُ مغانٍ من سُليمى وأدؤرُ[19]...

حتى انتهيت فيها إلى قولي:

ومن قبةٍ لا يُدرك الطَّرفُ رأسَها
تَــزِلُّ بهـا ريـحُ الصَّبـا فَـتَـحَـدَّرُ
تكلفتُها والليلُ قد جاشَ بحرُهُ
وقـد جَـعـلـتْ أمــواجُــهُ تـتكسّرُ
ومن تحتِ حِضني أبيضٌ ذو سفاسقٍ
وفي الكفِّ من عسّالةِ الخَطِّ أسمرُ[20]
هما صاحبايَ منْ لَدُنْ كنتُ يافعًا
مُقيلانِ من جَدِّ[21] الفتى حينَ يَعثُرُ
فذا جدولٌ في الغمدِ تُسقى به المُنى
وذا غصنٌ في الكفِّ يُجنى فيُثمِرُ

فلمّا انتهيتُ تأمّلني عُتيبة ثم قال: اذهبْ فقد أجزتُك، وغاب عنا.

ثم قال له زهير: مــن تريد بعد؟ فقال: أريد تابــع طَرَفة بن العبد، فسارا إليه وإلى غيره من شياطين كبار الشعراء، فسمع منهم وأسمعهم.

ثم انتقل ابــن شُهَيْد وتابعه إلى شياطين الكتّاب وقد وصف لنا ذلك بقوله[22]:

قال لي زهــير: من تريد بعــده؟ فقلت: مِلْ بي إلى الخطباء، فقد قضيت وطراً من الشعراء، فركضنا حينًــا طاعنين في مطلع الشمس، ولقينا فارسًا أسرَّ إلى زهير، وانجزع عنا، فقال لي زهير: جُمِعتْ لك خطباءُ الجن بمــرج دَهمان، وبيننا وبينهم فرسخان، فقد كُفيت العناء إليهــم على انفرادهم، قلت: لِمَ ذاك؟ قال: للفَرْق بــين كلامين اختلف فيه فتيان الجــن، وانتهينا إلى المرج فــإذا بنادٍ عظيم، قــد جَمَعَ كلَّ زعيــم، فصاح زهير: الســلام على فرسان الكلام، فردوا وأشاروا بالنــزول، فأفرجوا حتــى صرنا مركز هالة مجلسهــم، والكُلُّ منهم ناظر إلى شيخ أصلع، جاحظ العــين اليمنى، علــى رأسه قلنسوة بيضاء طويلــة، فقلت سرًّا لزهير: من ذلك؟ قال: عُتبة بن أرقم صاحب الجاحظ، وكنيته أبــو عُتيبة، قلــت: بأبي هــو! ليس رغبتي ســواه، وغير صاحــب عبد الحميــد، قال لي: إنــه ذلك الشيخ الــذي إلى جنبه....... فاستدناني وأخــذ في الكلام معي، فصمت أهل المجلس، فقــال: إنك لخطيب، وحائك للــكلام مجيد، لــولا أنك مُغْــرًى بالسجع، فكلامــك نظم لا نثر، فقلت لــه: ليس هذا – أعــزك الله – مني جهلًا بأمــر السجع،

ومـــا ـ في المماثلة والمقابلـــة من فضل، ولكني عدمت ببلدي فرسان الكلام، ودُهيت بغباوة أهـــل الزمان.......... قال لي: صدقت..... فكيف كلامهم بينهم؟ قلـــت: ليس لسيبويه فيـــه عمل، ولا للفراهيـــدي إليه طريق، ولا للبيان عليه سِمَة، إنّما لُكَنَةٌ أعجمية، يؤدّون بها المعاني تأدية المجوس والنبط، فصاح: إنّا لله، ذهبت العرب وكلامهـــا! ارمِهم يا هذا بسجـــع الكهان، فعســـى أن ينفعك عندهم، ويُطير لك ذكّرًا فيهم، وما أراك مع ذلك إلا ثقيل الوطأة عليهم، كريه المجيء إليهم.

ثم تدخل تابع عبد الحميد الكاتب وكان شديدًا معه في بادئ الأمر، ولكنه بعدما سمع منه بدّل شدته لينًا وثناءً هو وتابع الجاحظ، فقالا: إن لسجعك موضعاً من القلب، ومكاناً من النفســـ، وقد أعرّتَهُ من طبعك، وحلاوة لفظك، وملاحة سوقك، ما أزالَ أفَنَهُ، ورفع غَيْنَهُ.[٢٣]

ثم تابعـــا الحوار مع غيرهما من الكتاب مثل بديـــع الزمان الهمـــذاني وغيره. وعلى الرغم من أن هذه اللقاءات كانت قد اتسمت بكثـــير من الشدة والحـــدة، كما ذكرنا، فقد نال ابن شُهَيْد في نهايـــة المطاف إعجابهم، وحظـــي بإجازاتهم وتشجيعهـــم، وكان قولُه الفصلَ في تلك المناقشات.[٢٤]

وبعد ذلك أراد ابن شُهَيْد أن يخفف من غلواء أجواء الجد الصارمة، فانتقل مع تابعه إلى مجلس لحمير الجن وبغالهم، وسمع تغزّلَ بغل عاشق وحمار مُحبّ، وحَكَمَ بينهما، ومما قاله البغل العاشق:[٢٥]

علـى كـلِّ صـبٍّ مـن هـواهُ دليـلُ
سقامٌ على حـرِّ الجـوى ونُحـولُ
ومـا زال هـذا الحـبُّ داءً مبرِّحاً
إذا مـا اعـترى بغلًا فليس يـزول
بنفسي التي أمّا مَلاحظُ طَرْفِها
فَسِـحـرٌ، وأمــا خـدُّهـا فـأسِيـلُ
تعبتُ بما حُمِّلْتُ من ثقلِ حبِّها
وإنّي لَـبـغـلٌ لـلـثـقـال حَـمـولُ
ومـا نـلـتُ منها نـائـلًا غـيرَ أنني
إذا هـي بـالـتْ بُـلْـتُ حيـثُ تبولُ

وأما ما قاله الحمار الواله، واسمه دُكين، فهذا منه[٢٦]:

دُهـيـتُ بهذا الحـبِّ منذُ هَـوِيـثُ
وراثـتْ إراداتـي فلستُ أريـثُ[٢٧]
كلفتُ بإلْفي منذ عشرين حجةً
يجول هواها في الحَشا ويَعيثُ
وما ليَ منْ بَرْحِ الصَّبابةِ مَخلصٌ
ولا ليَ من فيض السقام مُغيثُ

وبعـــدُ، نتساءل ما غاية ابـــن شُهَيْد من رسالتـــه هذه؟ فنقـــول: إنـــه أراد أن يُفحم منافسيـــه وحســـاده من الـــوزراء والشعراء والكتاب، وأن ينافح عن أدبه ويظهر محاسنه

التـــي جعلته يتفـــوق على ما قالـــه سابقوه ومعاصـــروه من شعر وأدب، وكذلك أن يؤكد علـــى سموّ منزلته ويبدو ذلـــك، فيما يبدو، في تصويره لتلك العلاقة اللافتة للنظر بينه وبين الجنّـــيّ، وكيف أحاطـــه تابعه الجني بـــكل آيات التبجيل والطاعـــة، إذ أسرع إلى تلبية رغبتـــه بزيارة توابع الشعراء والكتاب، وتجشم عنـــاء الاستئـــذان، وخاطبه بكنيته وليـــس باسمه زيادةً في تكريمـــه وتعظيمه، وفي تخيـــيره له قائلًا: بمن تريـــد أن نبدأ؟ ومن تريد منهم؟ ويبدو أيضًا في قبول الجن لابـــن شُهَيْد حَكَمًا يُحَكَّـــم في كلام بعضهم، وكذلك في إنزاله مـــع تابعه منزلًا كريمًا في أحد مجالس الجن، وكيف أحاطوه مع تابعه إحاطـــة الهالـــة بالقمر، كما يتضـــح أيضًا في تصويره لشخصية شيطان امرئ القيس عُتيبـــة بن نوفـــل، فقد جعله يتســـم بالقوة والعُجْب والكبر والخيـــلاء، ونلمح ذلك من صـــورة الفارس التي رسمها لـــه ابن شُهَيْد، ومن مخاطبتـــه[٢٨] له بالسيـــادة، وامتطائه لفرســـ تلتهب، ومن قولـــه في سؤاله لزهير بن نمير عـــن ابـــن شُهَيْد (أهـــذا فتاهم)؟ تحقيرًا له، ومن صيغة الأمر (أنشد) الدالة على الاستكبار، ومن تطامح طرفه واهتزاز عطفـــه وضربه لفرسه بالسوط وعدْوِه وكرِّه وهـــزِّه وركزه لرمحه، ومن تصوير ابن شُهَيْد لخوفه من ذلك، كلُّ ما تقدم من رسم صورة عتيبة ودقـــة تفصيلاتها كان وسيلة من ابن شُهَيْـــد يُؤكـــد بها علوَّ منزلـــة عُتيبة، وذلك لأن انتـــزاع الإعجاب والتقدير والإجازة من عظيم متكبر أفضـــل في تبيان شاعريته من أن يأخذها من متواضع مجامل.

وتأكيدًا من ابن شُهَيْد على إظهار تفوقه صـــاغ ذلك بشكل عجائبي إبداعي قصصي طريف أفاد فيه من قصة الإسراء والمعراج، إذ إن كلتيهما رحلة إلى عالم آخر غير عالم الإنس مع رفيق وعلى مخلوق يشبه الفرس إلى حدٍّ ما، فالإسراء والمعراج رحلة إلى العالم العلوي، ورفيـــق الرسول (ص) فيها كان جبريل عليه السلام، ووساطة الارتحال فيها كان البُراق، بينما كانت رسالة التوابع والزوابع رحلة إلى عالم الجن، ورفيق ابن شُهَيْد كان جنيًّا اسمه زهير بن نُمير، والوساطة كانت فرسًا عجيبة تطير كالطيور.

ولكن مع هذا التشابه الآنف الذكر أفاد ابن شُهَيْـــد أيضًا من بديع الزمان الهمذاني في (المقامة الإبليسية) [٢٩]، والتي تدور حول لقاء عيسى بن هشام، وهو أحد الشخصيات الرئيســـة المهمة في المقامـــات، نقول: تدور حول لقائه إبليس في أحد وديان الجن بعدما ضلّـــت منه إبله، فخـــرج في طلبها حتى حلَّ في وادٍ أخضـــر ذي أنهـــار وأشجار وأزهار،

فرأى شيخًا جالسًا، فسلّم عليه فردّ السلام، وطلب منه القعود فقعد، فسأله: هل تروي من أشعار العرب شيئًا؟ فقال: نعم، وأنشده بعض قصائد امرئ القيس وطرَفة ولبيد، فلم يطرب الشيخ، فطلب منه عيسى بن هشام أن ينشده من شعره، فأنشده قصيدة لجرير، مطلعها:

بَانَ الخَليطُ وَلَوْ طَوَّعْتَ ما بانا

وَقَطَّعوا مِنْ حِبالِ الوَصْلِ أَقْرانا

فعجب عيسى من انتحال الشيخ لهذه القصيدة وادعائها لنفسه. وبعد حوار قصير بينهما قال الشيخ لعيسى بن هشام: ما أحدٌ من الشعراء إلّا ومعه مُعين منا، وأنا أمليت على جرير هذه القصيدة، وأنا أبو مُرَّة، أي إبليس، واختفى ووجد عيسى بن هشام نفسه وحيدًا.

وواضح ما بين رسالة التوابع والزوابع والمقامة الإبليسية للهمذاني من تشابه، فكلتاهما تدور حول لقاء شياطين الشعراء وراء عالمنا الإنسي في عالم الجن، وقد ذكر ابن شُهَيْد في رسالته أنه التقى شيطان بديع الزمان الهمذاني، الأمر الذي يؤكد أن ابن شُهَيْد في رسالته قد أفاد من المقامة الإبليسية للهمذاني.

ولكن مع ذلك يبقى ابن شُهَيْد علمًا في صنيعه هذا، ومن ملهمي أبي العلاء المعري في كتابه العظيم (رسالة الغفران)، وذلك لأنه قد ألّفه بعد تأليف ابن شُهَيْد لرسالة التوابع والزوابع بتسعة أعوام، كما ألهم أيضًا (دانتي) الأديب الإيطالي الأشهر في كتابه (الكوميديا الإلهية).

وقد قصَّ ابن شُهَيْد ذلك كله بأسلوب قصصي جعل الخيال شبيهًا بالحقيقة، وأكد أنه فنان مبدع ذو خيال مجنّح يحسن السرد والأداء، ويجيد التصوير الفني، إذ نراه يتتبع موصوفه وتفصيلاته بدقة لافتة، فيصور ميزاته في الشكل واللون والحركة والصوت وغيرها مما يجعله ماثلًا أمامنا نكاد نلمسه ونراه على الرغم من اختلاف طبيعة الجنّ وعالمهم عما ألفناه، وقد استعان في ذلك بصور جميلة معبرة دقيقة ذات إيحاءات متنوعة ثرية، مثل (فرس شقراء كأنها تلتهب)، ويسرح بنا الخيال عند قراءتها ويجعلنا نتساءل: هل تلتهب لونًا، أو حركة ونشاطًا، أو غيرَ ذلك، أو كلَّ ذلك؟ ومثل تشبيهه نفسه على لسان تابعه بالجمرة في قوله (وأيُّ جمرة يا عتيبة؟) تلك الصورة التي زادتها صيغتها الاستفهامية الدالّة على التعظيم والتعجب التهابًا وتلألؤًا، كما اعتمد أحيانًا في تصويره لعالم الجن على أسلوب النفي الذي لفَّ صوَرَه بستائر من الغموض الجميل المثير للخيال رغم بساطته، مثل قوله

في وصف أرض الجن (حتى التمحت أرضًا ليست كأرضنا وشارفت جوًّا لا كجوِّنا) مما أطلق العنان لخيالنا لينطلق بلا قيود ولا حدود ليرسم عالم الجن كما يتخيله ويحلو له، الأمر الذي يدل على عبقرية ابن شُهَيْد في ميدان الأدب عامة، والأدب العجائبي خاصة.

وفضلاً عن ذلك عُنِي ابن شُهَيْد بأسلوبه عناية كبيرة جعلته ذا إيقاع موسيقي ثريّ، ونجد ذلك، فيما نجده، في تلك الجمل المتوازنة الحافلة بالموسيقا الثرية المتنوعة الداخلية والخارجية، مثل قوله (يجتاب الجوَّ فالجوّ، ويقطع الدوَّ فالدوّ، حتى التمحت أرضًا لا كأرضنا، وشارفت جوًّا لا كجوِّنا، متفرّع الشجر، عطر الزهر)، فكل كلمة تتوازن وتتعادل مع قرينة لها في الجملة التالية لها، وكأنما تطلبها لتعزف معها هذا العزف البديع، فلا تنتهي الأذن من ألفاظ العبارة الأولى إلا وتحس براحة إزاء كل كلمة من كلمات العبارة التالية لها، لأنها تماثل قرينة لها في العبارة السابقة لها تماثلًا إيقاعيًّا جميلًا.

وهكذا نلمح في أسلوب ابن شُهَيْد تأثيرات لطريقة الجاحظ وابن العميد وبديع الزمان الهمذاني، مما جعل أحد كبار الأدباء في عصره، وهو أبو حيان يصفه بقوله: كان ابن شُهَيْد يبلغ المعنى ولا يطيل سَفر الكلام، وإذا تأملته ولَسَنَه، وكيف يجرّ في البلاغة رسنه قلت: عبد الحميد في أوانه والجاحظ في زمانه.(٣٠)

وعلى الرغم من الشكل الأسطوري الخيالي لرسالة التوابع والزوابع فهي ذات صلة وثيقة بواقع ابن شُهَيْد الذي كان يعيش فيه ويعاصره، إذ إن غايته التي أراد الوصول إليها هي أن يُظهر قدرته الإبداعية وشاعريته بمعارضته لكبار شعراء العربية وأدبائها الذين اتفق الجميع على عظمتهم في الجاهلية والعصر الأموي والعباسي، ثم بتفوقه عليهم باعتراف شياطينهم الذين كانوا يُوحون لهم أشعارهم وآدابهم، كما أراد أيضًا أن يسخر بأسلوب فني من منافسيه وحساده وأن يظهر فضله وتفوقه عليهم، وأن يخفف من غلواء الآلام التي سببوها له، كلُّ ذلك بشكل عجائبي وبأسلوب قصصي بديع رائع.

وهكذا نستطيع أن نرى لدى ابن شُهَيْد ولدى كثيرين غيره من أعلام التراث العربي مثل ابن المقفع والجاحظ وبديع الزمان الهمذاني وغيرهم كثيرًا من عناصر الفن القصصي مما يؤكد عظمة تراثنا العربي وثرائه، ويدفعنا إلى المزيد من الاعتزاز به وإلى المزيد من الدراسات الجادة حوله مستعينين بما توصل إليه العصر الحديث من نظريات ومُثُل وقيم وآفاق.

الهوامش

١- أفدنا في كتابة ترجمته من نفح الطيب للمقري ١/ ٤٠٠ و٥٨٥ و٥٨٦، و٣/ ٢٦٠ و٢٦١، والأعلام للزركلي١/ ١٦٣، ووفيات الأعيان لابن خلكان ١/ ١١٦-١٢٠، والذخيرة لابن بسام ١/ ٢٤٥ وما بعدها، وبغية الملتمس ١٧٧-١٧٩.

٢- يُنظر الذخيرة ١/ ٢٤٥ وما بعدها، ورسالة التوابع والزوابع التي عُنِي بها بطرس البستاني.

٣- الذخيرة: ١/ ٢٤٦- ٢٤٨.

٤- شيخ من شيوخ الأدب، وهو غير سميِّه ومعاصره الإمام ابن حزم علي بن أحمد بن سعيد الفقيه الظاهري المتوفى عام ٤٥٦هـ، وكان كلاهما صديقًا لابن شُهَيْد.

٥- الذخيرة: ١/ ٢٤٨.

٦- المصدر نفسه.

٧- ما اتسع من الأرض وانخفض، أو الفضاء بين السماء والأرض.

٨- الفلاة.

٩- كنية ابن شُهَيْد.

١٠- أي الكُتّاب.

١١- الباء للقسم.

١٢- إشارة إلى قول امرئ القيس في معلقته:

قفا نبك من ذِكرى حبيب ومنزل
بسِقطِ اللِّوى بينَ الدَّخول فحَوْملِ
ألا ربَّ يومٍ لك مِنْهُنَّ صالح
ولا سيّما يومٍ بدارَةِ جُلْجُلِ.

(ديوان امرئ القيس ٢٩ و٣٢)

١٣- أي فرسه.

١٤- تثب في ركضها.

١٥- الرمح المستوي.

١٦- غرزها في الأرض.

١٧- صدر بيت لامرئ القيس، عجزه: وحلّت سُليمى بطنَ فوٍّ فعرعرا. (المصدر السابق ٩١).

١٨- الفرار.

١٩- مغان: منازل. أدؤر: جمع دار.

٢٠- الحضن: ما دون الإبط إلى الكشح. أبيض: سيف. سفاسق: فرند السيف أو طرائقه. عسالة: القناة اللينة. الخط: موضع في البحرين تُنسب إليه الرماح. أسمر: رمح.

٢١- الحظ والرزق.

٢٢- الذخيرة: ١/٢٦٧وما بعدها.
٢٣- أي ما أزال نقصه ورفع عيبه.
٢٤- الذخيرة: ١/٢٦٧ وما بعدها بتصرف.
٢٥- المصدر السابق، ١/٢٩٧.
٢٦- المصدر السابق.
٢٧- هويث: أي هويت بلغة الحمير. أريث: أُبطئ
٢٨- أي مخاطبة ابن شُهَيْد لتابع امرئ القيس عتيبة بن نوفل.
٢٩- مقامات بديع الزمان الهمذاني: ١٨١- ١٨٥.
٣٠- المصدر السابق، ١/ ١٩٢.

من أهم المصادر:

- الأعلام. الزركلي. دار العلم للملايين. بيروت ١٩٨٤.
- بغيــة الملتمس في تاريخ رجــال الأندلس. أحمد بن يحيى الضبي. عُني به صلاح الديــن الهواري. المكتبة العصرية. صيدا ٢٠٠٥.
- ديوان امرئ القيس. دار صادر. بيروت٢٠٠٧.
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. ابن بسام. تح إحسان عباس. دار الثقافة. بيروت١٩٧٩.
- رسالة التوابع والزوابع. ابن شُهَيْد. عُنِي بها بطرس البستاني. دار صادر. بيروت١٩٦٧.
- مقامات بديع الزمان الهمذاني. عُني بها الشيخ محمد عبده. المطبعة الكاثوليكية. بيروت. ط٤. ١٩٥٧.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. المقري. تح إحسان عباس. دار صادر. بيروت ٢٠٠٤.
- وفيات الأعيان. ابن خلكان. تح إحسان عباس. دار صادر. بيروت ١٩٦٨.

آفاق المعرفة



ثنائيات في أدب الأطفال

د. ملكة أبيض*

غالباً ما نُغْفل أن أدب الأطفال ليس ظاهرة طبيعية -شأنه شأن مفهوم «الطفولة» الذي حمله- ولكنه بدلاً من ذلك بناء اجتماعي، وُلِدَ مع عصر التنوير الأوروبي في القرن الثامن عشر.

بيرجيت دانكرت

استخـــدم الأطفال الكتب قبل أن يجري إنتاجها خصيصاً لهم. وهو واقع أعطى منطلقاً لمقولة مفادها: ما دامت الطفولة لم تكن تلقى اعترافاً واضحاً قبل القـــرن الثامن عشر، فكل النصوص ما قبـــل ١٧٠٠ كانت تعدّ نصوصاً للأطفال أيضاً.

* باحثة ومترجمة وأستاذة سابقة في جامعتي دمشق وصنعاء.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

كان الأطفال يحصلــون على مقتطفات من الأعمال الشهيرة، ويطلب منهم قراءتها، وحفظها، وتعلّم الكتابة بنسخها.

وفي تاريــخ أدب الأطفــال الإنجليــزي والأمريكــي، يعد «جون لوك» وكتابه «بعض الأفكار حول التربية. ١٦٩٣» المؤثر الأول في المطبوعات التربوية للأطفال.

وخلال تلك الفترة جرى استيراد قصص الجن من ألمانيا وفرنسا، فقد كانت القصص الشعبية دارجة في بلاط لويس الرابع عشر، على طراز مجموعات شارل بيرو Charles Perrault التــي تمتعــت بشعبيــة كبيرة، ومنهــا «حكايات الزمن الماضي، مع مواعظ أخلاقيــة Histoires ou contes du temps passé، avec des moralités باريــس ١٦٩٧» وتضمنــت: ذات القبعــة الحمــراء، والهر ذو الحــذاء، وسندريون أو سندريلا. ولحقت ألــف ليلة وليلة بقصص الجن عــن طريق الفرنسية أيضاً بين عامي ١٧٠٥ و١٧٠٩. وقد تبين أن لهذه القصص قدرة كامنــة ومستمرة، وأنه يجري تحويلها من أجل كل جيل.

وحــين بــدأ التأليف، شــكل «روبنسون كروزو» و«رحلات غليفــر» في مطلع القرن الثامن عشــر مثالين بارزين عن الكتب التي حصلــت على جاذبيــة كبيرة مــن مختلف الأعمــار بسبب موضوعاتهمــا وشعاراتهما الأساسية. وزادت شعبية روبنسون كروزو في رياضــ الأطفال بعد أن أشاد به «جان جاك روســو» في كتابه «إميــل ١٧٦٢- Emile» حتى أصبحت الروبنسونيات نوعاً أدبياً بحد ذاته.

ومن اللافت للنظر أنه كان هناك تقاطع بين كتــب الأطفــال وكتب الكبــار في تلك الفترة.

وفي القــرن التاسع عشر استمرت مكانة قصص الجــن، وصدرت طبعة خاصة منها حذفت فيهــا الكلمات والعبــارات المؤذية، وجرى تكييف القصص لآذان الصغار. كما ظهرت قصصــ الأخوين غــريم الألمانيين مترجمة إلى الإنجليزية عام ١٨٢٣. وقد بينت الأدلة الحديثة أنهما لم يكونا مجرد جامعين للقصص الشعبيــة، وأن إنجازهما تمثل في خلق نموذج مثالي لقصة الجن الأدبية، فقد أحدثــا تغييرات كثــيرة في القصص خلال نشرهــا، وذلك بحذف العناصــر الشهوانية والجنسيــة التــي ربمــا تزعــج أخلاقيات الطبقة المتوسطة، وإضافة تعابير ومرجعيات مسيحيــة عديدة؛ إلى جانب إبــراز الأدوار الخاصــة بكل من الأبطــال الذكور والإناث بحسب القواعد الشائعة في ذلك العصر.

ومع تقدم القــرن التاسع عشر أصبحت

قصص الجن شائعة على نطاق واسع. وبدلاً من القصص المجمّعة ظهر تقليد القصص المؤلفة من كاتب واحد مع الدنماركي «هانز اندرسن Hans Andersen» الذي ألّف أربع مجموعات طبعت بالإنجليزية عام ١٨٤٦، وهي: «قصص رائعة للأطفال»، «وقصص الجن الدنماركية وحكاياتهم»، و«كتاب القصص الدنماركية» و«البلبل وقصص أخرى».

ومنذ منتصف القرن العشرين انتشرت صناعة الأدب الشعبي مع النمو المطرد للتعليم.فقد تضخم حجم كتب الأطفال، وزاد تزيينها مع استخدام الطباعة الملوّنة. وأُنتجت كتب خاصة بالفتيات مع تناول موضوعات عائلية ودينية، وأخرى خاصة بالفتيان تربط بين المدرسة والألعاب والإمبراطورية. وكلا النموذجين متسقان أيديولوجياً، وهما يشكلان قوى للاستمرار.

وفيما يتعلق بإخراج الكتب يجب الانتظار حتى منتصف القرن العشرين حتى تظهر الرسوم الفنية المعاصرة في كتب الأطفال، ذلك أن الأطفال كان ينظر إليهم على أنهم راشدون صغار؛ وكان علم النفس، وعلى الأخص علم نفس الطفل، ما يزال في بداياته. وفي السنوات التالية تطور علم النفس، وتأسس أدب الأطفال بصورة متينة.

ثنائيات في أدب الأطفال:

إن صورة أدب الأطفال التي تبرز من خلال ثلاثمئة عام من التاريخ هي صورة منقسمة بين التربية والإمتاع، والضبط ورفع القيود، والواقعية والخيال، والعمل واللعب... واليوم أيضاً ينقسم النقاد على طول الخطوط نفسها.

لذلك كان من الضروري البحث في هذه الثنائيات، وفي الطرق التي يمكن بها قراءة الأشكال الأدبية على الصعيدين النظري والعملي.

التربية والمتعة:

التربية، بمعنى التعليم (تعليم القراءة والكتابة وغيرهما)، والتهذيب (تقويم السلوك والتثقيف)؛ كان الهدف الأول لاستخدام النصوص الأدبية والدينية، داخل المدرسة وخارجها. من هنا، جاء الاهتمام باختيار هذه النصوص وبطرائق عرضها، وشرحها، وتحليلها شكلاً ومضموناً من النواحي اللغوية والنحوية والاجتماعية والأخلاقية.. الخ، ومن ثم تأتي المطالبة بحفظها واستخدامها في أشكال التعبير اللاحقة.

وحين جرت المطالبة بضخ بعض المتعة في أدب الأطفال، لم يكن ذلك يعني إفراغ



هـذا الأدب مـن محتـواه التربـوي، بـل التأكد من تلبية الهدف الحقيقي وهو تنميـة الطفل مـن جميع النواحي، ومن شأن الأدب الممتع أن يؤدي هذه المهمة بقدر أكـبر مـن الكفاءة. ووسيلتـه إلى ذلـك تناول الموضوعات المحببة للطفل، وتزويدها بالرسوم والصور الشائقة، واستخدام الخيال والأسلوب الفكاهي.

وهكـذا راح بعض الأدبـاء والمربـين يدعون إلى استخدام أدب الأطفال في الصـف بـدلاً من كتب القراءة المتدرجة بعناية ضمن خطة واسعة. ويطلـق على هذه المبـادرة في تعليم القراءة اسـم «الكتـب المفتوحة» بدلاً مـن «الكتب المبرمجة». هـذه الكتب هي كتـب حقيقية تجعل الطفل يعيش في بيئة طبيعية ويستمتع بالهـدوء النقي والفضاء الـذي يتيح له أن يفرش جناحيه ويطلق العنان لمخيلته.

هنـاك مشكلـة في هذه المبـادرة، وهي أنهـا تتطلـب معلمين ذوي خـبرة، قادرين على وضع خطـة لاستخدام الكتاب بحسب مستوى المتعلمين واهتماماتهم. ومن الصعب أن ينجح فيهـا معلم مبتدئ تنقصه الكفاءة والخبرة، ويحتاج في الغالب إلى شيء يساعده في تسيير العملية التربوية.

والصحيح أنه يجب تبني حل وسط، كما اقـترح روبرت بروثرو: «يجـب أن يكون أي برنامج متماسـكاً يجسد نمطاً محدداً على مستوى الأطفال، ولكنه مرن إلى درجة يمكن معها تعديله في ضوء الحاجات والاهتمامات المتغـيرة»[1]. وهناك بحوث عديدة تشير إلى

قيمة القــراءة والخلفيــة الأدبية للأطفال، ولكنهــا تتفهــم المشــكلات المرتبطــة بها! فالمعلمون الذيــن يرغبون في دمج قدر أكبر مــن الأدب في برامــج القــراءة، عليهم أن يجروا تجارب على طرائــق تريحهم وتلبي التوقعات المدرسية في الوقت ذاته. وإذا كانوا يريدون المغامــرة في مقاربات جديدة، فقد يجــدون أن تلاميذهم يستمتعــون بالقراءة بقدر أكــبر، ويصبحون قراء حقيقيين، بدلاً مــن أن يكونوا أطفالاً يملكون مهارة القراءة فحسب»[٢].وتكوين حب للأدب عند الأطفال يمثل عنصراً أساسياً في العملية التربوية.

الضبط وإلغاء القيود:

إن أدب الأطفال أكثر تعرضاً للضبط من معظم الأشكال الأدبية الأخرى، وفي مراحل إنتاجــه كلها. وكما قــال آلان غارنر «هناك ثلاثة كائنات بشرية رئيسية تقف بين القصة والقــارئ الطفل: الكاتب، والناشر، والراشد الذي يوفر الكتاب للطفل. وإذا كان الراشد يملــي على الناشر، والناشــر يحكم الكاتب، فأين تقع القصة إذاً؟ وأين يقع الطفل؟».[٣]

ولكن ذلك لا يمكــن تجنبه في أي نظام أدبــي. ووضع من هذا القبيــل يحمل على التساؤل عن مدى خــبرة أولئك الأشخاص المعنيــين؛ ويثير المسألــة الشائكــة لسلطة الراشد، وضبط الراشد للطفولة.

ففــي الولايــات المتحدة، هنــاك أمثلة عديــدة علــى كتب جــرى منعها مــن قبل السلطات المحلية أو السلطة الفدرالية، وكتب جــرى إحراقها، ومعلمين وأصحاب مكتبات راحوا ضحيــة ذلك. وربما يبدو العديد من الأمثلــة سخيفاً جداً مثــل منع كتاب غارث وليامــز «عرس الأرنب» لأن الزواج كان بين أرنب أسود وأرنبة بيضــاء[٤]. من هنا يأتي الرفضــ الكامل من البعضــ للرقابة على كتــب الأطفال. هــذا الاستقطاب للمواقف يمكن تفسيره بسهولة. فأحد الطرفين يحتج بمبدأيــن أساسيــين مضمريــن: الأول، أن الأطفال يمكــن أن تجري حمايتهم، وينبغي القيــام بذلك، والثاني، أن أي فرد راشد من داخل النظام يستطيع أن يمارس قيوداً.

أما الطــرف الآخر فهو يطــرح مقولة مفادها أن أي رقابة تعد شيئاً سيئاً.

وينطلــق الطرفان من فرضية أن الكتب تمثل تأثــيراً هاماً. وأن الكتــاب أقدر على إقامة صلــة أو تبادل من غيره من الوسائل، لذلك كان تأثيره أقوى. والرسالة التي تنطوي عليهــا كتب الأطفال شديــدة الأهمية، فما من كتاب حيادي كما تقول «جيليان كلاين»، علــى أنها تؤكد أن علينا تربية القارئ الذي سيقرأ الكتب بدلاً من تغيير الكتب».[٥]

والملاحظ أن دور الكتب يتضاءل حالياً.

ذلــك أن الأطفال يتعرضون بصورة متزايدة إلى عدد كبير من مصادر المعلومات وأشكال التسلية.

٣- الواقعية والخيال:

الواقعيــة في الأدب مفهــوم مشــوِّق. والكاتــب الواقعي يحــاول أن يعكس الواقع بأمانة وشمول في حدود قدرته.

على أنه غالباً ما يُنظر إلى أدب الأطفال على أنه شكل من أشكال الخيال أو الفانتازيا، أو هروب من الواقع.

فالعديــد من الآبــاء والمعلمين يكشفون عن عدم ارتياحهم للحياة العادية، ويشعرون بأنهــم يحرمــون أطفالهــم إذا لم يسمحوا لمخيلتهم بتجاوز حدود هذا الواقع.

ولنتساءل:

كيف نقدم لهؤلاء الأطفال واقع الإنسانية الذي لا يسر النفوس؟

يقول أرديــزون: «إذا لم نلمِّــح إلى العالم القاســي، في كتب الأطفــال، فإننا لن نكون صادقين، على ما أعتقد؟».

هنــاك في الحقيقــة ســؤال آخر يجب طرحه في الوقت ذاته، وهو:

هــل نستطيع الحصول على الواقعية في الرواية؟ وفي رواية الأطفال بشكل خاص؟

ما يحتج به ضد الواقعية في الرواية، هو أن كل رواية فانتازيا. فالحياة لا تفهم إلا بلغة السرد، والأحداث لا توجد إلا في سردها أو وصفها. على أن القَصَص يزوِّر الواقع، فكل ترتيب للأحداث يزوِّرها بالضرورة.

وهكذا يتحول السؤال ويصبح على النحو التالي: هل يمكن خلق وهم مقبول؟

فالروايــة الواقعيــة تحــاول خلق وهم مقنّــع بالحياة كما نفكر فيها بشكل عادي.. وتحاول أن تنتج بعض تعقيد الحياة نفسها.. لذلك كان علينا أن نقاوم الإغراء بمناقشتها كما لو كانت حياة حقيقية.

وتصنــف الكتب الواقعيــة للأطفال في عدة فئات:

الفئــة الأولى، نادراً ما توجد خارج كتب الأطفــال. وهي كتــب أبطالهــا ليسوا من البشــر. لكن كل ما يفعلونه، والأسلوب الذي يتبعونه في حياتهم بشري.

فكتــب الأطفال التي تــدور حول الفيلة والدببــة والذئاب وغيرها مــن الحيوانات تلتف حول حدود الواقعية، وتشكّل إيحاءات بقضايا واقعية ورموزاً لها.

والفئــة الثانيــة، تثير مسألــة «أي واقع نتحــدث عنــه؟» وهناك مثــال واضح على هــذه الفئة وهــو «ذات القبعــة الحمراء»، الذي يبدو للنظرة الأولى بعيداً عن الواقعية بالتعريف المتواضع عليه، فهذا الكتاب بنص شارل بــيرو، يتكوّن من مجموعــة باردة من

الصور القاتمـــة، تمثل الفتاة الصغيرة وهي تركض عبر أزقة البلدة الضيقة، وتقابل ذئباً غير واضح المعـــالم، يسبقها إلى منزل الجدة فيفترسهـــا، ويرتدي ملابسهـــا، ويدخل في السرير.. الخ.

إنها واقعية من النوع المهلهل، تغزل قصة مخيفـــة، تجعلنا نتساءل عما إذا كان مناسباً أن تدرج في كتب الأطفال.

والحقيقة أن العديد من الأمثلة اللافتة للواقعيـــة تقـــع على الحدود بـــين الواقعية والفانتازيا، وكل من الجانبين يسهم في حياة الآخر.

على أن هنـــاك كتباً تُقـــارِب «الواقعية البيتيـــة»، وهي واقعية محدودة بما يستطيع الطفل أن يراه ويفهمه، ومثالها كتاب فيليب دوباسكييـــه «بيتنا فوق الهضبـــة»، وأخرى واقعيـــة عديمة الشفقة مثـــل كتاب جونكو موري موتو «هيروشيما بلدي».. فهذا الكتاب يظهر الأموات والمُحتضرين، وجلودهم معلّقة بـــين أصابعهم. وهناك شكـــوك كثيرة جرى التعبير عنها حول مناسبة الكِتاب للأطفال، ولا سيما الصغار منهم.(٦)

لذلك لابد من التوقف هنا عند اختيارنا ما يمكن للأطفـــال أن يعرفوه، وما لا يمكن أن يعرفـــوه، وفي أيـــة مرحلة مـــن عمرهم يمكنهم ذلك. وبصفتنا راشدين، ربما نكون قادرين على تبـــين موقف سيِّئ كالعنصرية، علـــى سبيل المثال، ولكن هل يستطيع الطفل ذلك؟ وهنـــاك العديد من أشـــكال التمييز الأخـــرى التي يمكن أن تكشـــف عنها لمحة واقعية خاطفة للعالم، والتي نراها مادة غير مناسبة لكتب الأطفال.

في هـــذه النقطـــة يمكـــن أن يقـــال إن الواقعية مسألة درجات.. مسألة أين يجري تركيز العدسة. ولكتّاب الأطفال ملء الحرية في إقامـــة المعادلة التي تناسب موضوعاتهم وجمهورهم من القراء.

العـمـل والـلـعـب - الـراشـدون والأطفال:

تعرف بعضـــ الثقافات الطفولة باللعب وعدم المسؤولية في مقابل العمل والمسؤولية. ممـــا يعنـــي أن كتـــب الأطفال غـــير معنية بالعمـــل، أو أنها-نظرياً- معنية باللعب أكثر منها بالعمل.

ولكن ذلك يثير تساؤلات، منها:

أولاً: إن العمـــل جـــزء مـــن الحيـــاة، والأطفال محاطـــون به وهم يُعدّون له. فهل يمكن تجاهل ذلك؟ وهل علينا أن نفعل؟

ثانيـاً: إن الروايـــة، بصـــورة عامـــة، لا تعـــير اهتمامـــاً للعمـــل. ففـــي كتـــاب «ثاكـــري Thakeray» «الفرجينـــي The Virginian»، يقـــول الراوي: «أظن أن أمر

المعيشة لا يمكن أن يشكّل إلا القليل من ميزانية الروائي.. وكل ما يفعله المؤلفون هو أن يصفوا رجالاً خارج عملهم»[٧] حتى إن القصة المدرسية لا تتناول العمل المدرسي في الواقع.

ينتج عن ذلك أن «العمل» كان هامشياً في الرواية بشكل عام، وفي روايات الأطفال وقصصهم بشكل خاص.

على أن هناك -لحسن الحظ- نصوصاً استثنائية تضع الأطفال في عالم أكمل. فروديارد كبلنغ R. Kipling، على سبيل المثال، يشيد بأهمية العمل والمهنة للأطفال واستمرارهما؛ ويعترف بجدارة الجهد، والاختراع، والحرفة. وفي مجموع كتبه يربط كبلنغ بين الأطفال وتراثهم، ولا سيما في سياق العمل، ومعه المهارة، وتكريس الذات، والإنجاز وهو يصف المهني باحترام وحب. وهكذا، فإن الفلاح، والحداد، والحلاب، والسائق.. وكل هؤلاء البشر العاملين يُشّعِرون بالاحترام، ويحصلون عليه.

وذلك يصدق أيضاً على «آرثر رانسوم A. Ransom» الذي يقدر فضائل العمل. ففي ألعابه المعقدة في كتاب «طيور السنونو والجنيات المحاربات» يجعل الجنيات وطيور السنونو ورفاقها تكدح أياماً في البحث عن الذهب واستخراجه وغسله. وهو ينثر ملاحظات حول الطبقتين الميسورة والعاملة. ففي أحد كتبه تلعب مجموعتان من أطفال الطبقة الميسورة في العيش في الغابات، بعيداً عن الكبار. والشخص الذي يدلُّهم على كيفية تأمين حياتهم وحماية أنفسهم هو جاكي ابن الفلاح، فالحياة بالنسبة إليه عمل.[٨]

وفي «رباعية كتاب الحجر» لآلان غارنر، يجري تصوير العلاقة بين الحرفة وصاحبها والأطفال على مدى أربعة أجيال؛ والتنبيه إلى تراجع التقاليد تدريجياً. والكتاب مملوء بصور العمل.[٩]

ومن الواضح أن الحرف القديمة تصنع قراءات أكثر إمتاعاً من المهن الحديثة كالمحاسبة، على سبيل المثال. وبعض قوة تلك الكتب مردّه الحنين إلى الإبداع القديم؛ كما أنها تظهر أن الطفولة يجب ألا تكون معزولة عن عالم الراشدين، وأن العمل يجب أن يحصل على مكانة لا تقل عن اللعب في أية قراءة كانت.

خاتمة:

الأفكار المحيطة بأدب الأطفال غنية ومعقدة. وربما كان المسح التاريخي يعطينا بعض المفاتيح عن الموضوعات الغالبة عليه، كالحنين إلى الطبيعة، والإحساس بالمكان، أو الدفء والأمان، أو الاحترام المتبادل

بــين الراشدين والصغــار، أو تقديم الخبرة والمعلومات.. أو مجرد الفانتازيا.

ويبدو أن الفانتازيا الحديثة أغنى وأكثر تنوعاً من كل الأجناس والأنواع الأدبية. وهي تقدم للأطفال أساليب مختلفة من الخبرة.

فالفانتازيــا العائلية القريبة متجذرة في عالم معروف للطفل، وينظر إليها بشكل عام على أنهــا انسحاب من الواقــع باستخدام الاستعارة أو المجاز لوصف السمات البشرية، وتبسيط مفاهيم الخير والشر، وتلبية الرغبة في التغلــب على الشر، وإصلاح العالم. وهذه تقدم للطفل قوة وراحة في آن معاً.

أما الفانتازيا البعيدة، فهي تتموضع في عالَم ثانٍ، وتقدم أفقــاً أوسع للمخيلة. وهي تنقسم إلى نوعين:

الأول، نوعٌ يؤطر فيه العالَم الواقعي عالَماً ثانياً مختلفاً، والأشخاص من عالمنا يدخلون العــالَم الثاني ويغادرونه، وهكذا يبقونه دوماً في منظورهــم. مثــل «مغامــرات أليس في أرض العجائب» و«ساحر أوز»، وهما كتابان معروفان، عرضا على شاشة التلفاز في أكثر من نسخة.

والثاني، نــوع أكثر تطرفــاً وأذى، وفيه يعتدي العالَم الثاني على العالَم الأول الواقعي ويهدده. وأكثر ما يمثله بعض قصص الجن، وعدوان الكواكب الأخرى على كوكبنا، الذي عُرض في التلفاز على الأخص.

قــد ينطوي هــذا النــوع علــى بعض الإيجابيــة بتوسيع آفاق الطفل، وتنبيهه إلى أن الحياة لا تخلو من صعوبات. وما يهم هو أن يكون الطفل قادراً على التمييز بين الواقع والخيــال، والخير والشر، والجميل والقبيح، والنافع والضار... وعلــى أدب الأطفال أن يحمل مصباحاً ينير له الطريق.

المراجع

1- Robert Protherough, Developing Response to Fiction (Milton Keynes: Open University press, 1983).
2- Ibid.
3- Alan Garner, Ouoted in Aidan Chambers, «An Interview With Alan Garner» In Nancy Cham bers (ed.) 198.
4- Edward B. Jenkinson, Censonrs in the Charsroom (New York: Avon, 1982).
5- Gillian Klein, Reading into Racism (London: Routledge, 1985).
6- Michele Landsberg, the World of Children>s books (London: Simon& Schuster, 1988).
7- Robert Westall, «How real do you want your Realism?» signal, 28, 1979.
8- Peter Hunt, An Introduction to children>s Literature, Oxford University Press, 1994.
9- Ibid.



الخطاب اللغوي في قواعد علم اللسانيات الاجتماعية

ترجمة: رافع شاهين *

لقد ظهرت اللسانيات الاجتماعية بوصفها اتجاهاً في النصف الثاني من القرن العشرين المنصرم في العالم الغربي. وقد وقف وراءها دافعاً لها ومحركاً كل من ويليام لابوف، وجون غامبرز، وديل هيمز. واستفاد هذا الاتجاه من دعم بعض تيارات علم الاجتماع، مثل التفاعلية عند إيرفين غوفمان، وعلم السلاليات المنهجية.

* مترجم سوري.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

١- اللسانيات الاجتماعية المتغيرة:

يعد ويليام لابوف المؤسس لهذا الاتجاه، ويعرف هـذا الاتجاه بوصفـه منهجاً يعتد بالتغـير اللغـوي. وإذا كان هـو ذلك، فهو يتعارض مع مقاربة تشومسكي الذي يجعل هدفه وصف كفاءة (المتكلم- السامع) المثالي في إطار جماعة متجانسة، وذلك بالاعتماد علـى الأحكام القاعدية. وبما أن اللسانيات الاجتماعيـة تهتـم باللغـة كمـا تتكلم بها جماعة لسانيـة، فإنها لا تستطيع أن تجعل البنى القاعدية مسلمة تصادق عليها. ومن هنا فإنها تهتم بكل ما يتغير في اللغة وتدرس البناء الاجتماعي لهذا التغير.

لقـد وصفـت اللسانيـات الاجتماعية التغيرية كل أشكال التغيرات التي تم التثبت منهـا، والتي لم تكن منحدرة من أصل فردي على وجه الدقـة، وبينت أنه يوجد تغير من أصل اجتماعي يتجلـى في تنفيذ اجتماعي لمتغير من المتغيرات اللسانية، وكشفت كذلك أنه يوجد متغير أسلوبي يظهر لحظة حدوث تغـيرات في مدونـات الخطاب، بـدءاً من الخطاب الشكلي وانتهاء بالخطاب المألوف، يقوم بها المتكلم نفسه. ولقد دلت اللسانيات الاجتماعية أيضاً أنه يوجد تغير محايث عند المتكلم الواحد، وهو يبدو في أسلوب ما. وقد نعلم أن هذا التغير المحايث لا يمكن اختزاله ولا رده إلى التغـير الاجتماعـي والأسلوبي، غير أنه يستنتج من التباين الداخلي للنسق.

يشـكل التغـير الاجتماعـي/ اللساني الوحـدة التحليلية للسانيـات الاجتماعية، وإنـه ليكون عنصراً لسانياً يتغير بالمصاحبة مـع متغـيرات غـير لسانية، مثـل الطبقة الاجتماعيـة، والجنـس، ومدونة الخطاب. ولكـي يتحقق من هوية متغير من المتغيرات، فإننـا ندرس مجموع المتغـيرات الذي يكون عدداً كبـيراً مـن الأشكال الممكنـة القول (الشـيء نفسه). وإذ قمنا بذلك فإننا نعمل علـى إبراز القيود غير اللسانية التي تسوس سلـوك كل متغير، ولكي يكون لنا ذلك فإننا نجري دراسة للعوامل اللسانية التي تؤثر في اختيـار هذه المتغيرات. ومن هنا فإن تحايل اللسانيات الاجتماعية لا يختزل لأنه دراسة لعوامل غير لسانية، والسبب لأن اللغة نفسها متغيرة جوهرياً، ولذلك فإن المتغير اللساني لا يدرسـ لذاتـه، ولكنـه يدرس مـن أجل المساهمة التـي يستطيع أن يحملها لدراسة بنى اللغة ولدراسة المتغيرات اللسانية.

وقد اقـترح «لابـوف» شـكلاً للقواعد المتغـيرة، وكان ذلك لكي يصـار إلى وصف البناء الاجتماعي للتباين اللساني من جهة، ولإدخـال وقائـع التغـير إلى القواعد من

جهة أخرى. فإذا كانت القواعد في النحو التقليدي، تصنيفية تبويبية، فإن القواعد المتغيرة، على العكس من ذلك، قواعد تقوم على التحديد الكمي، ولذلك فهي تسمح بتحديد السياقات البنيوية، سواء كانت لسانية أم غير لسانية، التي تساعد أو لا تساعد متغيراً من المتغيرات على الظهور. وهكذا فإن المتغير اللساني يندمج بشكلانية قواعد النحو، وإذا كان ذلك فإننا نرى أن شكل القواعد المتغيرة الذي اقترحه «لابوف» وطوره «دافيد سانكوف» يفسح مجالاً يلتمس الشخص فيه نحواً واحداً لكل الجماعة اللسانية، ويسجل في الوقت نفسه، من خلاله، إجراءات التمايز الاجتماعي والأسلوبي التي تغطي هذه المجموعة. وقد كان مفهوم القواعد المتغيرة موضوعاً لعدد من المناقشات والمجادلات، قد فقد الشك في دراسته، ولاسيما في أعمال «بيير انكروفه»، إلى البحث عن النماذج اللسانية التي تستطيع أن تكشف عن العلاقة بين البنية والمتغير من دون أن تفترض مع ذلك وجود مقاربة احتمالية لقواعد النحو.

يستند تحليل اللسانيات الاجتماعية على معطيات أكيدة تمَّ جمعها بشكل منهجي، ولما كان هذا فقد لجأت المقاربة التغيرية إلى الاستقصاء المراقب اجتماعياً، بدءاً من اختيار الموقع وبناء العينات، وانتهاء بالدراسة الكمية والكيفية للمعطيات؟ ولعله من أجل تحقيق ذلك نجد أن الاستقصاء الذي يقوم على المحادثة، يستكمل في معظم الأحيان بدراسة إتنوغرافية للجماعة اللسانية، وقد سمح علم اجتماع ظروف الاستقصاء، وكذلك التحليل الخاص بشروط الملاحظة، بتجاوز ما سماه «لابوف» بتناقض الملاحظ: كيف يمكن أن يجمع المستقصي معطيات طبيعية، بينما شرط مثل هذا الجمع يتطلب أن يدور التبادل اللساني من دون حضوره؟.. ولقد طرحت هذه القضية بشكل خاص عندما أرادت اللسانيات الاجتماعية أن تدرس اللغة المحلية، أي اللغة التي تتكلمها مجموعة من الأزواج في تفاعلها اليومي، مثل اللغة المحلية التي يتكلم بها الأمريكيون السود في هارليم. وفي الواقع فإن هذه اللغة تميل نحو التفكك بمجرد أن تخضع للملاحظة، وقد كان يتطلب من أجل تعديل هذه المشكلة، تعديل الاستقصاء وتسهيل جمع التفاعل العادي.

لقد جددت المقاربة التغيرية دراسة التغير اللساني، وطورت مناهج الاستقصاء وأدوات التحليل التي تسمح بمعالجة الحوافز الاجتماعية للتغيرات اللسانية الحالية، إلا أنه وبفضل الملاحظة المباشرة للتغيرات

اللسانيــة قد أمكــن البحث عن إشارات التغيرات اللسانية، وذلك قبــل أن تظهر في وعي المتكلمين، ويمكننـــا أن نميز ثــلاث مراحل للتبايــن اللساني والتــي تتناسب مع ثلاث مراحــل للتغير اللساني: فهناك مؤشرات غير واعية تماماً ولكنها إشــارات مبشرة بصيرورة التغــير، وهناك الواسمــات التي هي واعية، وأخيراً هناك القوالب المسكوكــة في علامات اجتماعية.



وقــد سمحــت الدراســات التي قامت بهــا اللسانيات الاجتماعية للتغيرات اللسانية بعزل المجموعات الاجتماعيــة المسؤولة عن انتشار التجديد اللساني، كما سمحت بوصف اتجاه التغير اللساني.

٢- إثنوغرافية الاتصال:

تعتــبر إثنوغرافيا الاتصــال مجالاً من مجالات البحــث التي جاءت نتيجة للتقاليد الأنتروبولوجية، والتي بدأت نقطة الانطلاق فيهــا من الدراسة المقارنــة لقضايا الكلام الخاصة بكل مجتمع مــن المجتمعات، وبكل ثقافة من الثقافــات. وإن موضوع الدراسة فيهــا هو مــا سمــاه «هيميســ» بالكفاءة الاتصاليــة، وهــي تعني مجمــوع القواعد الاجتماعية التي تسمح باستخدام القواعد استخداماً مناسباً. وقد أظهرت إثنوغرافيا الاتصال تنوع الأداء اللغوي، وتنوع الوظائف الاجتماعية للــكلام، كما أنهــا كشفت عن المعايير الاجتماعية والثقافية التي تسوسها، وكذلــك قامت بوصــف المدونــة اللسانية لأعضــاء الجماعــة، ووصفــت مميــزات الظــروف التي يمكن للاتصــال أن يتم من خلالها وينتشر.

٣- اللسانيات الاجتماعية التفاعلية (التأويلية):

تمثل هذه الدراسة امتدادا لإثنوغرافيا الاتصال، ولقد اهتمت هذه الدراسة بدمج الأبعاد المتداولة النفعية والتفاعلية في تحليل الأحداث المتعلقة بالتغيرات الاجتماعية، وذلك لأنها ترى أن التغير اللساني في التبادل الحواري، لا يشكل فقط معلماً للسلوك الاجتماعي، ولكنه يعد أيضاً مصدراً اتصالياً موضوعاً لدى المشاركين ليتصرفوا به، وإنه يساهم في تأويل ما ينتج بعد التبادل الحواري. ولقد وضعت أعمال «جون غامبيرز» الوظائف اللسانية للتغير اللساني موضع البداهة، وأظهرت هذه الأعمال أن التغيرات الاجتماعية اللسانية لا تتجلى معزولة في الخطاب، كما أظهرت أن بروز تغير ما إنما يكون مقيداً بفرز سابق لتغيرات أخرى، وهذا يعني أن مجموع هذه المتغيرات الاجتماعية اللسانية ترتبط باقتفاء المقاصد الاتصالية الخاصة، وتعمل على نحو خاص بوصفها إشارات مفهرسة تقود تأويل العبارات وتوجهها. وتهتم اللسانيات الاجتماعية التفاعلية أيضاً بوصف المعنى التداولي للتغيرات، وإنها تحلل من أجل ذلك الطريقة التي تساهم فيها بتأويل العبارات في التبادل الذي يتم أثناء المحاولة.

وإذا عدنا إلى الدراسات التي أنجزت بهذا الخصوص، فسنجد أنها قد أنصبت بشكل خاص على المعالم اللسانية، وهي عبارة عن أشكال لسانية متعددة تنتمي إلى المدونة اللسانية للمتكلمين، حيث تتدخل المعالم السياقية في وصف الافتراضات السياقية، وإنها تساهم في تعيين الطريقة التي يجب على العبارات أن تؤول فيها، ولذلك يتناسب الاستنتاج في المحادثة مع الإجراء التأويلي المحدد، فالمتحدث يعين بوساطته الهدف الذي تنقله العبارة عن محدثه، كما أنه يدل بوساطته على الجواب الذي يدلي به على التأويل الذي أعطاه للعبارة المقولة.

وتدرس اللسانيات الاجتماعية التفاعلية الإجراءات التي تصبح العبارة بوساطتها راسية في السياقات، ذلك لأن السياقات تجعل التأويل ممكنا، وهي عندما تدرس ذلك فهي تريد لنفسها أن تكون نظرية سياقية للعبارات، فهي تصف كيف يمكن أن تتكون السياقات الاجتماعية تفاعلياً بوساطة المشاركين، كما أنها تصف كيف أن هؤلاء يشاركون في ذلك عن طريق نشاطات اجتماعية لغوية وغير لغوية، وكذلك تصف كيف أن هذه المشاركات تصبح بدورها قابلة

للتأويــل عن طريق هــذه السياقات نفسها، وهكذا نجد أن هذا المنظور يرى أن السياق الاجتماعي ليس معطى، ولكنه يصبح جاهزاً بوصفه نتيجــة لأفعال مجتمعة يقوم بأدائها ممثلون متفاعلون.

إن الإجــراءات السياقيــة التي تقع في قلب أبحاث اللسانيات الاجتماعية، إنما هي إجراءات لسياقات نطقية، كالإيقاع وسرعة النطق والتنغيم وغيرهــا من أدوات النطق، خاصــة وأنهــا تصب في الوجــوه السياقية لقوالب الــكلام وللملاءمة الموضوعية، وإذا كان ثمــة إجــراءات لسياقــات غير كلامية مثل السياقات الإيمائيــة، فهناك إجراءات لسياقات لفظيــة مثل السياقــات اللفظية والسياقات المقطعيــة والسياقات التتابعية، وتظهر بشكل خاص في علاقاتها بالأجناس الاستطرادية، وقد أظهــر التحليل المفصل للتفاعلات في سياقات رسمية وبيروقراطية أن مثــل هذه الإجــراءات تقوم بــدور هام بالنسبــة إلى ســوء الفهم الإيصــالي، كما أظهر أن الفــوارق الثقافية تطرد غالباً من الاختلافات في استخدام المعالم السياقية.



الموهبة.. والأطفال الموهوبون

عبد العزيز إسماعيل أحمد *

لمحة تاريخية:

أدرك الإنســان منذ فجر الإنسانية وجود فــروق عقلية بين الأفراد قد تعلو بالإنسان فتصل به إلى مراتب الإبداع والاختراع، والحكمة، والقيادة، أو تنحدر به إلى مستوىً متدنٍّ مــن الضعف والتّخلُّف العقلي، فهناك اختلاف بــين الناس في الذكاء والقدرات العقلية كما هو الاختلاف بينهم في صفاتهم الجسدية (كالطول، والوزن، واللون، والسِّمات الشخصية الأُخرى).

وكان الاهتمــام بالموهوبين والمتفوقين قديماً قدم المعرفة الإنسانية، فقد

* محامي وباحث سوري.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

تحدّث أفلاطون عن طبقة الفلاسفة وميّزها على غيرها بالعقل والحكمة، وجعلها لذلك أهلاً لتولّي زمام القيادة في المجتمع، ويقضي أفلاطون في جمهوريته باصطفاء الأطفال الموهوبين حتى في أُسر الفلاحين والصُّناع.

وتحدّثت الكتابات الإغريقية القديمة عن العبقرية أو الموهبة ووصفتها بأنها نوع من (الجنون المقدّس) أو (الإلهام الإلهي) الذي ينتاب بعض الأفراد ويساعدهم على تصوُّر الأمور والتعبير عن الخبرات بلونٍ جديد.

ولم يكن العرب أقل من غيرهم اهتماماً بمن تظهر عليهم علامات النجابة والنبوغ من الأطفال بغض النظر عن أصولهم وبيئاتهم الاجتماعية فأفردت كتب الأدب القديمة فصولاً عن النّجباء، وما روي عنهم في صغرهم وطفولتهم من قصصٍ نادرة، وأعمال باهرة فقد عرّف أحد قادة العرب الطفل الذكي الذي يجب أن يؤهّل للقيادة والأعمال الجليلة بأنهُ:

«القويّ جسماً، الرّضيّ خلقاً، المتوقّد ذكاءً، والذي يبدي رأياً حصيفاً قبل الأوان» كما تحدّث العرب عن العبقرية ونسبوها إلى (وادي عبقر) وهو موضع يزعم البعض أنهُ كثير الجن وأنّ كل شاعر له قرينٌ من بينهم، والعبقري في اللغة العربية هو السيد الذي ليس فوقه شيء، والعبقرية هي: كل ما يُتعجّب من كماله وقوّته وحذقه.

وفي القرن الخامس عشر أسس السلطان «محمد الفاتح» مدرسةً خاصة في (السرايا).

وكان يوضع فيها الأطفال الأكثر جمالاً، وقوّةً، وذكاءً، الذين كان يجمعهم من مختلف أنحاء الإمبراطورية، وكان هدف المدرسة (أن تُنشىء أفكاراً رائعة، في أجسام مخشوشنة) ثمّ كانوا يرفعونهم بالتالي إلى أعلى المناصب، وثمّة مؤلّفون يؤكدون أنّ زيادة قوة تركيا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ازدياداً عنيفاً يدين ببعض الشيء لمبادرة محمد الفاتح وفي الولايات المتحدة استوحى أحد الرّؤساء وهو «جيفرسون» من أفكار أفلاطون عندما اقترح في ملاحظاته حول ولاية «فيرجينيا» أن تُجمع أفضل العبقريات في الولاية في مدرسةٍ خاصّة.

وفي بدايات القرن التاسع عشر اتجه الاهتمام العام صوب الأطفال المعجزة، وتحمّس عامّة النّاس والعلماء لـ «كارل ويت» الذي كانت جامعة لايبزغ قد استقبلته دكتوراً للفلسفة وهو في الرّابعة عشرة من عمره، وكذلك لـ «كريستيان هنريخ هنيكان» أعجوبة لايبزغ الذي مات في الرّابعة من عمره وكان يقرأ الألمانية، ويعرف الفرنسية،

كما يحفـظ خمسمئة حكمـة لاتينية، أو لـ «اللـورد كلفن» الفيزيائي الشهير الذي دخل جامعـة «غلاسكو» في العاشرة، وفاز بألقابه الجامعية في الثانية عشرة.

ما هي الموهبة؟ ومن هو الطفل الموهوب؟

الموهبة، هـي أقصى درجات الاستعداد والقابليـة أو القدرة مثـل «الموهبة الفنية، أو الموهبـة الموسيقية، أو الموهبة اللغوية، أو الموهبـة الحسابية، أو الموهبـة الرياضية.. إلخ» وقد اختلف مفهوم «موهوب» من باحثٍ لآخـر فقد استخدمه «تيرمان» على الأفراد ذوي الذكاء الرّفيـع، واستخدمه «جليفورد، وجاكسـون، وياماماتو» علـى الأفراد ذوي القدرات الابتكارية العالية، وعرّف جماعةٌ من المربّين الطفل الموهوب بأنّه: ذلك الطفل الذي يبدي إمكانية إبداع مستمرّة في إحدى المناشط الإنسانيّة القيّمـة، وعرّفهُ آخرون بأنّهُ: من أوتـيَ طاقةً عالية للتعلّم حتى إنّه ليستطيع أن يتعلّم أكثر من المنهج المقرر خلال الوقت المقرر، وتحت الظروف المقرّرة.

أما الأستاذ «ترومـان» فقد عرّفه بأنّه: من كان يملك محصول ذكاء أقلّهُ ١٤٪ حسب مقاييس الذّكاء المعروفة.

إنَّ الطفـل الموهوب بـلا شك هو الذي يمتـاز بموهبةٍ بـارزة في أيِّ مجال ولكن لا تتفتّح هذه الموهبة عند الطفل بالصدفة بل إنّ تفتّحهـا يخضع لتأثـيرات المحيط الذي يعيش فيـه الطفل والجهود التـي يقدّمها الأهل، والمدرسة، والمجتمع لهذا الطفل.

كيف نكتشف الموهبة؟ ونعرف الأطفال الموهوبين؟

لكـي نتوصّـل إلى الأطفـال الموهوبين ونتعرّف عليهم يجب أن نؤمن إيماناً مطلقاً بالفـروق العقلية بين الأطفـال، وأنَّ هناك أطفـالاً متفوّقـين، وموهوبـين ليس فقط في طبقـات الأغنياء بل حتـى في الأوساط الفقيرة، ويؤيّد ذلك دراسة أجراها الباحث «جانكنـز» عـام ١٩٦٤ م فوجـد أنّ هناك نسبـة لا يُستهان بها ــ على حدِّ قوله ــ مـن الموهوبين جـدّاً بين أطفـال الصّفائح في شيكاغو لذا يقـول: «فلكي تجد أطفالاً موهوبـين حسبك أن تؤمـن بذلك وترغب رغبةً حقيقيّة في البحث عنهم».

ولكي نحكم على طفل بأنّه موهوب يجب أن تتوافر فيه مجموعة من العوامل والصِّفات فالموهـوب في مـادّة الفنون مثـلاً يجب أن تتوافر فيه بعض العوامـل نذكر منها: «أن يتمتّع بقوّة الملاحظة وتمييز الألوان وسلامة الأداء التّعبيري، وأن يتضمّن عمله الفني معانٍ فنيّة كبراءة التعبـير، والانفعالات التلقائية، ومن ثمّ النّمط الفـردي الذي يعطي العمل



الفنـــي أصالتهُ ويميزهُ عن غيره من نفســ السّن، وأن تتنوّع في تعبيراته العناصر التشكيليـــة، وأن يتّســم عمله الفني بصدق التعبير عن الأحاسيســ والمشاعر والبيئة المحيطة به».

كمــا يمكــن اكتشاف ميــول ومواهـــب الأطفال **بعدّة طرُق**:

١- الملاحـظـة:
وبها نستطيع أن نكتشف وجود ميلٍ ما وفي أيِّ مجال عند الأطـفـال مـن خـلال أنشطتهم المتنوِّعة الحرّة، فلو جهّزنا مدارساً خصوصيةً فيها مراكز للنشاطات المختلفة من (رياضية، وفنية، وعلمية، وصناعية... إلخ) وأعطينا الحرية الكاملة للأطفال في زيـارة تلك المراكز سنرى أنّ بعضهم يميل للنشاطات الرياضية وبعضهم للفنية وبعضهم للصناعية وبعضهم للأدبية، وتكون عملية اكتشاف تلك الميول بدايةً أساسيّة لنا بل محوِّل رئيسي لاكتشاف مواهب هؤلاء الأطفال والتي يمكن أن تتفجّر بعطاءٍ ثرٍّ وغني عندما تتاح لها الفرصة الملائمة.

٢- الاستفتاء: وذلك بطرح أسئلة معيّنة على الأطفـــال وتحليل إجاباتهـــم المختلفة والمتنوّعة على تلك الأسئلة.

٣- القياس والاختبار: وذلك بدراسة ردود الأطفـــال علـــى أسئلة اختبـــار مقنّن لقياس الميول، ولكنّ الطريقة الأكثر دقّةً هي الاختبارات المقننة لكشف الميول.

وهناك بعضــ الدراسات اعتمدت على الذكاء العام في التعرّف على الموهوبين ومن أوّل وأهم تلــك الدّراســات دراسة «ترمان وأودن» عــام ١٩٢١م، ودراســة هولنجورث

عام ١٩٣١م، ودراسة «دنلاب» عام ١٩٤٥م، ودراسة «بالدوين» عام ١٩٦٣م، إنّ هؤلاء الباحثين اعتمدوا على الذكاء العام كمحك للتعرّف على الموهوبين إلا أنّهم اختلفوا في تحديد نسبة ذكاء الموهوب، ودرجة شيوع الموهبة بين أفراد الشعب الواحد في السّن المعيّنة، فدراسة «ترمان وأودن» اعتبرت نسبة الذكاء (١٤٠) في اختبار «ستانفورد بينيه» هي الحد الأدنى للموهبة، واعتبر هذه النسبة هي الحد الفاصل بين الموهوبين ومن هم دونهم، أما «هولنجورث» ١٩٣١ فقد اعتمدت على الذكاء العام وجعلت نسبة الذكاء (١٨٠) فأكثر في اختبار «ستانفورد بينيه» هي الموهبة أو العبقرية أو التفوق العقلي في نظرهم، وأحسَّ «دنلاب» ١٩٤٥ أنّ نسب الذكاء التي حددتها الدراسات المشار إليها فيها كثير من المُغالاة فقرر أنّ نسبة الذكاء (١٢٠) أو أكثر تعتبر أساساً معقولاً لتحديد المتفوّقين الذين ينقسمون في نظرهِ إلى ثلاث فئات: الممتازون وتتراوح نسب ذكائهم بين ١٢٠ و١٤٠، والمتفوّقون بين ١٤٠ و١٥٠، والعباقرة وتصل نسب ذكائهم ١٧٠ فأكثر، وذهب «بالدوين» ١٩٦٣، إلى أنّ نسبة الذكاء ١٣٠ تميّز المتفوّقين عن غيرهم.

ما هو دور الأسرة والمدرسة والمجتمع في رعاية الموهوبين؟

يمتلك الأطفال الموهوبون طاقةً عقليةً هائلة يجب استغلالها على أكملِ وجه، وإلا فإنَّ كُلاًّ منهم سيصاب بخيبة أمل، وربّما يصبح عبئاً على المجتمع، ويمتلئ نقمةً وحقداً وعندها يصعب علاجه وإعادة تسييره في الاتجاه الصّحيح.

إنَّ الأُسرة هي الخلية الأولى للمجتمع وفيها تبدأ عملية التنشئة الاجتماعية للطفل وهي التي تشبع حاجات الطّفل، وتكشف قدراته، وتنمّي مواهبه، واستعداداتهُ، ويكمن دور الآباء الأساسي في ملاحظة أبنائهم عن قرب لفترةٍ طويلة في مراحل نموّهم المتعددة، فعليهم أن يهيّئوا لأطفالهم الأجواء الملائمة وأن يحققوا رغباتهم التي تتماشى مع طاقاتهم

الذكائيّة، وعليهم أن يتحاشوا التّفاخُر المفرط بذكاءِ أبنائهم على مرأى ومسمعٍ منهم لئلّا يتطوّر ذلك فيصل إلى درجة التّعالي والغرور، إنّ المبالغة وعدم الموضوعية في تقدير مواهب الأبناء قد يسببان لهم مشكلات معيّنة فقد تكون إمكانيّات الأبناء العقلية ومواهبهم لا تتناسب مع طموحات الآباء وآمالهم وقد ينجم عن سوء التقدير

اختلال الاتّزان الانفعالي عند الأبناء وعجز في التوافق الاجتماعي، وقد يحدث العكس عندما لا يكترث الآباء بأطفالهم الموهوبين وذلك يؤدّي لنتائج سلبية على الموهوب وقدراته العقلية إنّ العلاقات الأسرية لها دورٌ كبير في تكوين شخصية الطفل وعقليته، فمن الأسرة يستمدّ الطّفل عاداته وتقاليده، وفلسفة مجتمعه، وتنعكس علاقات الأسرة فيما بين أفرادها على تكوين سلوك الطفل وعاداته.

إنّ تشجيع الطفل وإظهار الاحترام لرأيه، وإعطاءهُ حرية نسبية لها أثرٌ كبير في تطوّر وتنمية النشاط الإبداعي والموهبة عند ذلك الطفل.

إنَّ دور الأسرة في الرعاية هو أن توفر للأبناء الموهوبين بأساليب بسيطة وموارد مادية محدودة عنصر التشجيع في ممارسة الهوايات، وإتاحة الفرصة أمامهم للتّعرُّف على الكتب الجديدة وتشجيعهم على القراءة حتى تصبح عادة محببة إلى نفوسهم وذلك بشراء الكتب الجذّابة والشيّقة.

ويجب أن تهيئ الأسرة لأبنائها الموهوبين فرصاً لزيارة متاحف العلوم والفن، ومن المهم أن يدرك الآباء أنَّ سرعة نمو الطفل الموهوب في الجوانب الانفعالية والاجتماعية قد لا توازي سرعة نموّه العقلي، فبذلك هو أحوج ما يكون إلى الأمن والحب والتقدير وتلبية الحاجات النفسية الأخرى ليتحقّق لهُ التناسُق والتّكامل في الشخصية.

والمدرسة، هي مجتمع تربوي تعليمي يعيش فيه الطلاب ليلقنوا العلم، والمعرفة، وبيئة المدرسة أكثر اتساعاً وتعقيداً من بيئة الأسرة، وهي مؤسسة تربوية تعليمية يقضي الطلاب فيها كثيراً من الوقت يتزوّدون خلاله بالخبرات التعليمية، والاجتماعية التي تصقل مهاراتهم وخبراتهم ومعارفهم، ويبرز هنا دور المربّي والمعلم أمام مهمة تنمية القدرات الإبداعية للأطفال وكشف مواهبهم ونشاطهم الإبداعي وتطويره، وعلى المربّين أن يفسحوا أمام الطفل مجالاً ليمارس الأنواع المتعددة من النّشاط، وعليهم أن يحددوا هذه الميول وأن يدرّبوا الطفل على الأنماط والأنشطة المختلفة التي يميل إليها.

وهناك عدّة طرق تعتمدها المدرسة في تنمية ورعاية قابليّات ومواهب الأطفال الإبداعية نذكر منها:

١- تقوم المدرسة بإتاحة خبرات تربوية خاصة للأطفال من أجل تدريبهم على التفكير المبدع أو المهارة في حل المشكلات بصرف النّظر عن المواضيع المدرسيّة.

٢- توليد الروح الإبداعية لأنّ الهدف

مــن كشف الموهبة أو الموهــوب وتربيته هو جعلهُ مبدعاً، ويتم ذلك في المدرسة باللجوء إلى الطرائــق التجريبيــة والمفتوحة في كلِّ مجال.

٣- ولخلق المناخ المدرسي المناسب لخلق المواقف والقابليــة الإبداعيــة والسّموّ بها لا بدّ لنــا من ذكر اقــتراح «تورانس» الذي يتضمــن: «١ــ احترام الأسئلة غير العادية ٢ــ احــترام أفكار الأطفال غــير العادية ٣ــ أن نظهر للأطفــال بأنّ أفكارهم ذات قيمــة ٤ــ تقديم فرص للتعليــم الذّاتي» ولكي تتحمّل المدرســة مسؤوليّتها يجب أن يتلّمســ القائمون على شؤون التربية أحدث السُّبل وأنجعها لتربية الموهوبين، وهناك عدّة اتجاهات في تربية هؤلاء الأطفال، منها:

- نقل الطفل لفصــل دراسي أعلى من عمــره الزّمني، بحيث يلائــم عمرهُ العقلي وهذه الطّريقــة تقليدية ومضارّها أكثر من منافعها فالطفل يُحشر مع زمرة من الأطفال تكبره سنّاً وتختلف عنه في الميول والاتّجاهات وهذا يُسبِّب له مرارةً وانطوائيّة.

- الفصــول الخاصّــة بالنّوابــغ: ومن محاسنها أنها تجمع الطفل على صعيدٍ واحد مع من يقاربونه في الــذكاء والعمر، فيعمل باكتفاء وطمأنينة، لكنَّ هذه الطريقة تخلّف في نفوس الأطفال الغرور والتّرفُّع على الغير، فتضطرّهــم لاعتزال النّشاطــات المدرسيّة المختلفة، فيجدون أنفسهم منبوذين.

- وضــع النوابغ في الفصــول الدِّراسيّة العاديّة مــع العناية بإعــداد مناهج خاصّة إضافيّة يكلَّفون القيام بها في بيوتهم، وهذه الطريقــة هي «تقوية للمناهــج» وهنا يجد الطفل النّابغة في المناهج الخاصّة ما يتحدّى ذكاءهُ، وهذه الطريقة تجعل الطّفل الموهوب ينغمس مع المجموعة ويشارك في نشاطاتها المختلفة.

والمجتمع يمثّــل الحلقة العليا في سلسلة الأوساط التي يعيشها الطفل ليأخذ دورهُ في الحيــاة كعنصر فاعل ومنفعل، والمجتمع هو الوسط العام الذي يحيط بالموهوبين والذي يجب أن يتوفّر فيه النّجاح الملائم الذي يبرز المواهــب والقدرات ويرعــى الاستعدادات، ويتلخّــص دور الدولــة والمجتمــع بما يلي: (على الدولــة أن ترعى الموهوبــين بإنشاء المدارس والفصول الخاصّة بهم، وأن تخصّص الاعتمادات والميزانيّات الوفيرة للمكتشفات العلميــة، كما يجب أن تضع تخطيطاً علمياً للقياســ العقلــي لمستويات جميــع الأفراد والجماعات وذلك بحصر الكفايات العقلية وتوجيههــا توجيهاً هادفاً، كمــا يجب على الدولة أن توفــر البعثات والزيارات العلمية للموهوبين إلى الدول المتحضّرة التي قطعت

شوطاً كبيراً في التقدُّم العلمي والتّكنولوجي، كما يجب أن تتبنّى افتتاح المعارض للمخترعين والفنانين من الموهوبين، وتقديم نتاجهم ومبتكراتهم.

وعلى الدّولة أن ترعى أُسر الموهوبين ففي هذه الرِّعاية رعاية للموهوبين أنفسهم وذلك بأن تُيسِّر لهم حياتهم وسُبُل عيشهم وإزالة العقبات من طريقهم ليسيروا في ركب الإبداع الخلّاق الذي ينعكس إيجاباً على جميع أفراد المجتمع).

كلمة لا بُدَّ منها:

إنَّ الموهوبين والمبدعين هم ثروة الأمة وكنزها الثمين، والعمود الفقري الذي تستند إليه وهم ذخيرتها وأملها الحبيب نحو المستقبل المشرق، تتباهى بهم بين الأمم والشعوب ويرفعون قيمتها في نظر تلك الأمم، وهم معقد رجائها الذي يضعها في مصاف الأمم الرّاقية المُبدعة المتطلِّعة نحو المجد والعُلا بافتخارٍ وشمم.

فلندع مواهب أطفالنا تزدهر وتتطور فهم أملنا وهدفنا وغايتنا، وعلينا أن نترك تلك المواهب تتفتّح منذ الطفولة الباكرة لكي تترعرع على سجيتها وطبيعتها، وأن نعتني بها وننمي حب المعرفة والمطالعة لدى تلك الفئة من الأطفال، كما علينا أن نهتم بتربية الموهوبين وأن نرعاهم ونعتني بهم كما نعتني بالنّبتة الصّغيرة حتى يكبروا ويصبحوا أعضاء فاعلين في مجتمعٍ هو بحاجة ماسّة إلى أفكارهم المبدعة الخلاقة.

إنّهم ذخرُ الأمّة، وقادة المستقبل، وعلى أكتافهم تُبنى نهضات وتزدهر حضارات وواجب الأمّة أن تبحث عنهم، وأن تأخذ بيدهم وأن تربّيهم التربية الصّحيحة.

المراجع

١- مجلة العلوم الاجتماعية، الكويت، العدد الثالث، السنة ١١، أيلول ١٩٨٣م.
٢- كتاب العربي رقم ٢٣ تاريخ ١٥/٤/١٩٨٩م «الطفل العربي والمستقبل».
٣- كتاب «الموهوبون» تأليف: رومي شوفان، ترجمة: وجيه أسعد، دمشق، وزارة الثقافة ١٩٨٦م.
٤- «كيفية اكتشاف المواهب لدى الطّليعيين» و«الموهبة الفنية لدى الأطفال كيف نكشفها ونرعاها؟» كُرّاسان صادران عن منظمة الطلائع في سورية.
٥- المجلة العربية، الرياض، العدد ٢٢٠ أكتوبر ١٩٩٥ م.
٦- مجلة «صوت المعلمين» دمشق، نقابة المعلمين المركزية، العدد ١١٠.
٧- مجلة «الجُندي العربي» دمشق، العدد ٤١٠.

آفاق المعرفة



المــــرأة بـــين الكافات الثلاث والحاءات الثلاث

كمال راغب الجابي *

قـــد تكون الكافات الثـــلاث الواردة في عنوان هـــذا الحديث قد أشكلت علـــى بعض من قرأه ممن لا يعرفون اللغـــة الألمانية ولا يتتبعون تاريخ تطور الحركة النسائية العالمية.. وأما الحاءات الثلاث الواردة في العنوان نفسه فلا أظـــن أنها تسبب أي إشكال بالنسبة لنا جميعاً، الذين لا نعرف اللغة العربية فحســـب، بل نحبها إلى درجة العشـــق. ولكل من يتأمل سمات المرأة الفطرية ويتتبـــع أوضاعها وأحوالها المعاشية في مختلف مناطـــق العالم، وفي منطقتنا العربيـــة منه بالـــذات، والتي نحب فيها نساءنا أو ندعـــي ذلك. وتحبنا فيه نساؤنا أو يدعين ذلك، إلى درجة العشق أيضاً..

* باحث ومهندس زراعي سوري.

العمل الفني: الفنان جورج عشي.

ولكــي لا نستمــر في الســير في طريق الألغاز، نبــادر إلى القول بأن تعبير الكافات الثلاث مقتبسٌ من الأدبيــات الألمانية في العهد النازي، الــذي واجه في بداياته أزمة اقتصادية خانقــة، وخلال ثلاثينيات القرن العشريــن تحديداً، تجلــت في ارتفاع نسبة البطالــة. مما حدا بصانعي القرار في ذلك العهــد إلى المطالبة بعودة النساء إلى بيوتهن كــي يفسحن المجــال أمام الرجــال للعمل مكانهن. وذلك بعد أن كانت الحرب العالمية الأولى والتــي دارت خلال السنوات ١٩١٤- ١٩١٩ قد فتحت أبواب المعامل والنشاطات العامة الأخرى أمام النساء على مصراعيها بسبب انخراط الرجال في الأعمال القتالية خلالها، لافتقار الفعاليات الحياتية العادية إلى مــن يعمل بها أثناءها، إلى درجة وصلت معها أعداد النســاء العاملات في المجالات العامــة، في فــترة هذه الحــرب وما بعدها مباشرة إلى حوالي نصف الأعداد الإجمالية للعاملين فيها..

ولقــد كان لرفــع شعــارات التضامن خــلال الحرب العالميــة الأولى، والتي نادت بوحدة الصــف والمصير، واعتــبرت النساء جنــود الخطــوط الخلفية للحــرب، الأثر الكبــير لمغادرة النســاء لمنازلهن واقتحامهن معاقــل الرجال خلالها. لكــن حلول الأزمة الاقتصادية أثر نهاية هذه الحرب وتفاقمها واستفحالهــا، دفــع صاحــب القــرار إلى استبدال هذه الشعارات بأخرى تدعو المرأة إلى العــودة للحالة التــي كانت عليها قبلها، والتي عــبر عنها زعيم تلــك الفترة (هتلر) بقولــه: إن النازية لا تعرف بلاطــاً للمرأة سوى بيتها ولا تاجــاً لها سوى عملها فيه.. وسانــد هذا التوجــه حليفــه (موسوليني) زعيــم الفاشية في إيطاليــا بقوله (إن قدر المرأة طاعة الرجــل وتبعيتها له لأنها تتمتع بقــدرات تحليلية لا تركيبيــة تجعلها تعجز عــن تعلم الأمور المعقدة كالهندسة التي هي خلاصة الفنــون) داعمــاً تصريحاته بمنع المرأة من دراستها ومن دراسة بعض الفروع التخصصية الأخرى كالفلسفة معتبراً إياها حكراً علــى الرجال.. وفي هذا المناخ المشبع بروح البحث عن مخرج للأزمة، والمترع بروح التسلــط الفرديــة. أطلقــت النازية مقولة الكافات الثــلاث على لسان زعيمها (هتلر) مطالبة المرأة بالاكتفاء بها والانكفاء عليها. هذه الكافات هي كلمات تبدأ بحرف الكاف في اللغــة الألمانية وهي (kirche kinder kuche) وتعني باللغة العربية حسب ترتيب ورودهــا (المطبخ) و(الأطفــال) و(الكنيسة) معتــبرة إياها الوسط المناســب لحياة المرأة والمجال الوحيد لممارسة فعاليتها فيه..

لكن النازية الألمانية رغم عنتها وقسوتها، والفاشية الإيطالية رغم عنجهيتها وجبروتها، لم تتمكنا من إيقاف مسيرة تحرير المرأة التي حملت لواءها منظمات نسوية متخصصة منذ القرن التاسع عشر وبالتالي لم تنجحا في إعادة المرأة إلى الموقع الذي فرض عليها والتي عانت من إلزامها به والتزامها فيه قروناً عديدة ومديدة. ذلك لأن من يتذوق طعم الحرية لا يطيب له مذاقاً غيره. ومن يتحرر من الأسر ويتخلص من القهر يصعب أن يعاد فرضهما عليه أو أن يعاد سوقه إليهما.. لذلك لم تتمكن النازية ولا الفاشية من تحقيق مآربهما، بل قادتهما تلك المآرب العنصرية التي تمثلت في نظرية السلطة للقيادة، والطاعة للقاعدة، والتي كانت تنادي بالبصاق على الحريات، قادتهما كما قادت البشرية إلى حرب عالمية ثانية مدمرة. دارت رحاها بين الأعوام ١٩٣٩-١٩٤٤ كان من ضمن أسبابها رغبتهما في السيطرة على العالم، والتي ابتدأت بالسيطرة على النساء لديها. وكان من ضمن نتائجها، إتاحة تحرير كثير من دول العالم من سيطرتهما وسيطرة الاستعمار بشكل عام. وإعطاء حريات أكبر للنساء في ألمانيا وإيطاليا وفي العالم مما ساعدهن على ترسيخ مكتسباتهن وتمتين مكانتهن..

وإذا ما حاولنا بعد هذا التمهيد استعراض كل من الكافات الثلاث على حدا لتتبع مدى قدرة المفاهيم التي تشير إليها على تخصيص المرأة وحدها بالقيام بالمهام المتعلقة بها، وإبعادها عن المشاركة في المهام المجتمعية خارجها. لوجدنا بأنه بالنسبة لأول هذه الكافات وهي (kuche) أو (المطبخ) لايتوافر في تاريخ البشرية على ما نعلم، ما يشير إلى وجود نصوص مقدسة أو شبه مقدسة تلزم المرأة بالقيام بعملية الطبخ والأعمال المنزلية عموماً، وتعفي الرجل منها. ما عدا نص تلمودي ذهب فيه بعض الحاخامات اليهود إلى أنه من حق الرجل طلاق زوجته في حال عدم إعجابه بالطعام المطهو أو اللحم المشوي من قبلها.. وأباح حاخامات آخرون في تكملة هذا النص الطلاق في حال عثور الرجل على امرأة أجمل من زوجته..

ونحن لم نكن لنعير هذا النص أدنى اهتمام، ولم نكن لنستشهد به إلا لغرض أخذ فكرة عن بعض الأسس الفكرية التي يعتنقها أتباع هذه العقيدة، وخصوصاً أتباع المذهب الأرثوذكسي منها، والذي تنتمي إليه الفئة الحاكمة في إسرائيل حالياً هذا من جهة ومن جهة أخرى فإنه النص الواضح الوحيد الذي وقع تحت أيدينا من العقائد القديمة، والذي

لا يستشف منه إلزام المرأة بعملية الطبخ فحسب، بل ويحاسبها أقسى حساب في حال عدم اتقانها لهذه العملية.. وأما الشق الثاني من النص فإننا نتعمد إيراده لتوضيح نظرة أتباع هذه العقيدة للمرأة. هذه النظرة التي يعلنها الرجل اليهودي كل صباح عند صلاته بقوله: (أحمدك يا رب لأنك لم تخلقني امرأة) والتي تستسلم فيها المرأة اليهودية بقولها في صلاتها يومياً (أحمدك يارب لأنك خلقتني حسب



مشيئتك وإرادتك) كما نورده لبيان نظرة اتباع هذه العقيدة إلى الزواج والتي توضح مدى امتهانهم لهذه العلاقة واستهانتهم بها لدرجة يبيحون لأنفسهم طلاق زوجاتهم إذا رأوا من هن أجمل منهن. الأمر الذي جعل ردّ فعل النبي عيسى (عليه السلام) على هذه النظرة حدياً لدرجة منع فيها الطلاق في العقيدة المسيحية إلا بحدود ضيقة جداً حيث قال (إن موسى أذن لكم من أجل قساوة قلوبكم أن تطلقوا نساءكم. وأما أنا فأقول لكم من طلق امرأته إلا لسبب الزنى وتزوج بأخرى يزني. والذي يتزوج بمطلقة يزني)..

ولكي لا نخرج عن موضوعنا ونستطرد في هذه الأمور التي فرضتها مسيرة البحث. وفيما يتعلق بموضوع علاقة المرأة بالمطبخ الذي نحن بصدده. لم يحتو القرآن الكريم ولا السنة الشريفة على نصوص توكل إلى النساء مهمة الخدمة المنزلية أو تفرضها عليهن. لكنهما تركا الأمر للناس بجنسيهم كما تركا

الكثير من أمورهم الدنيوية الأخرى إليهم، ليعالجوها بالشكل الذي يريدون والكيفية التي يرون أنها مناسبة. وأتت الأحاديث النبوية لتنظيم هذا الموضوع بشكل عام لتقول (الرجل راع وهو مسؤول عن رعيته والمرأة راعية وهي مسؤولة عن رعيتها) حيث درج الناس على تقسيم العمل بينهما بشكل طوعي، حسب أعراف ذلك الزمان فتخصص الرجل بالعمل خارج المنزل والمرأة داخله. وسيرة الرسول الكريم(ص) تبين بأنه كان يعمل كعمل أهله حيث كان يرتق ثوبه، ويجلب شاته، ويغسل إناءه..

وتأتي في هذا المجال إجابة الخليفة الكبير (عمر بن الخطاب) على استفسار رجل جاء يشكو إليه خلق زوجته فسمع زوجة الخليفة تتطاول عليه فسأله عند مثوله بين يديه عن سبب سكوته عليها فقال الخليفة عمر: (يا أخي أحتملها لحقوق لها علي. إنها طباخة لطعامي، وخبازة لخبزي، غسالة لثيابي، ومرضعة لولدي، وليس ذلك بواجب عليها).. يأتي هذا الجواب ليؤكد على عدم وجود تعاليم تلزم المرأة بالطبخ وأعمال البيت، وتعفي الرجل منها. وإنما الأمر متروك لهما يتصرفان به حسب اتفاقهما..

ونحن لا نقصد بهذا الكلام إطلاقاً تحريض المرأة على عدم العمل في المطبخ ولا نسعى إلى تمردها على أعمال المنزل. كما لا نقصد دعوة الرجل لحلوله محلها وتبادل المواقع معها.. كل ما نريد أن نقوله أن الاتفاق بينهما هو الذي يحدد مثل هذه الأمور.. وأن مقولة (هتلر) وحليفه (موسوليني) هي مقولة مغرضة فرضتها المصلحة، وأدلجتها السلطة. وأن الأيام أثبتت خطأها بدليل أن المرأة الألمانية والإيطالية لم تعودا إلى المطبخ وتمتنعا عن العمل خارج بيوتهما من جهة، وأن أغلب الطباخين الذين يطلعون علينا كل يوم على الشاشة الصغيرة هم طباخون ذكور. فهذا من جهة الشيف رمزي، وذاك الشيف توني، وآخر الشيف مايك، والرابع الشيف يانغ. مما يسمح لنا أن نستنتج بأنه ما دام الرجال قد تمكنوا من إحراز قصب السبق في أمور المطبخ التي امتهنتها النساء على مدار القرون الطويلة الماضية فلماذا لا تقوم النساء بإحراز قصب السبق أيضاً في الأعمال العامة التي امتهنها الرجال على مدار القرون الطويلة القادمة..

وأما بالنسبة للكلمة الثانية التي تبدأ في اللغة الألمانية بحرف الكاف وهي (kinder) أي الأطفال فإنه مما لا شك فيه بأنها أكثر إلتصاقاً بالمرأة وأكثر ارتباطاً معها من المطبخ. لأن الحمل وإنجاب

الأطفال وتنشئتهم من أهم مفردات لغة الأمومة، والتي هي ليست وظيفة تتلقى فيها الأنثى بذور الحيوانات الجديدة فتحتضنها داخل جسمها ثم تطرحها خارجه فقط. بل هي ضمان تنمية هذه الحيوانات إثر إبصارها للنور وحسن إعداد المهد المناسب لتطورها والظروف الملائمة لنضجها وتوفير متطلباتها ومستلزماتها من إرضاع وعناية وتنظيف ورعاية. حتى تتمكن من الوقوف على رجليها وتأمين احتياجاتها عن طريق ساعديها..

وتنشئة الأطفال في مراحلها الأولى هي أمر يختص بالمرأة وتختص المرأة به. ولا يتمكن الرجل من مساعدتها به إلا في حدود ضيقة. فالمرأة وحدها التي تملك الأثداء التي تصلح للإرضاع والتي تعتبر أساس البناء والتكوين لهذه الحيوات. والإرضاع الطبيعي هو الأصل والصلة الفيزيولوجية والروحية بين المواليد ومحيطهم الجديد. والإرضاع الصناعي هو البديل له عند الحاجة وفي حالات الضرورة. وأما الإرضاع من امرأة غير الأم فهو البديل الآخر الذي كان منتشراً في الماضي أكثر من انتشاره في الحاضر. وكان يقصد فيه فيما يقصد تحقيق نوع من الاستقلال للمواليد الجدد عن أمهاتهم تحقيقاً لذواتهم وتنمية لإمكاناتهم، وبالشكل الذي كان يتبع سابقاً عند العرب بإرسال أبنائهم إلى البادية وإبعادهم عن أمهاتهم وإرضاعهم من غيرها. والرسول الكريم(ص) خير مثال على ذلك. وقد اتبعت بعض من الشعوب القديمة نماذج مختلفة من إبعاد الأبناء عن الآباء كان الهدف منها إعداد الأطفال باستقلالية وتنمية شخصياتهم من دون عصبية وتوحيد توجهاتهم القومية.. وعموماً إذا كانت تنشئة الأطفال في مراحل حياتهم الأولى من أهم مهام المرأة، فإن تنشئتهم في المراحل التالية ينبغي أن تكون مهمة مشتركة بين المرأة والرجل من جهة، والمجتمع الذي يضمهما من جهة أخرى وبشكل يترتب فيه عليهم جميعاً خلالها التعاون على إنجازها بشكل صحيح..

وتتبع المجتمعات المتطورة عدداً من الإجراءات التي تهدف أصلاً إلى تأمين راحة العائلة وحسن تنشئة الأطفال. وذلك بعد أن فشلت الاتجاهات النازية والفاشية ومن يدور في فلكها في إعادة المرأة إلى المنزل وإلزامها بالبقاء فيه وتوزيع وقتها بين الطبخ ومستلزماته وتنشئة الأطفال ومتطلباتها. وتماشى ذلك مع التوسع والتفنن في إقامة المؤسسات الاجتماعية الجماعية. كدور الحضانة للأطفال، وبيوت المسنين للكبار على حد سواء.. وذلك في ظل آراء متضاربة

تتــوزع بين مؤيد يعتــبر ذلك تحقيقاً لحرية الإنسان وتأكيداً على فرديته. وبين معارض يعد ذلك تصنيعاً للمشاعر الإنسانية وترقيعاً لها عن طريــق دور للحضانــة تحوي على أطفال من غير آباء، ودور للمسنين تضم آباء بــلا أولاد..وعموماً يبدو أن للتقدم ضريبته وللتحضر إيجابياته وسلبياته. وأن لكل شيء في الحياة حدين ووجهين. ولولا قبول الناس للحد القاطع والوجه القاسي منها لما وصلوا إلى ما وصلوا إليــه.. لكن الحياة رغماً عن ذلــك تدفع باستمرار نحو الأفضل والأسهل والأجمــل، والتي هي أزهى وأكمل في بعض جوانبهــا وإن لم تكــن الأمثــل في جوانبهــا الأخــرى. وهنيئــاً لمن يتمكــن أن يأخذ من التقدم وجهه الإيجابي وينبذ وجهه السلبي مهما كان إغراؤه وكانت جاذبيته..

وأما الكلمة الثالثة التي تبدأ بحرف الكاف أيضاً في اللغــة الألمانية وهي (kirche)أي الكنيسة فهــي كالعادة القنــاع الذي يلبسه (المتحكمــون) والكســاء الــذي يرتديــه (المتنفــذون) والغطاء الذي يتدثر به الأتباع والأعــوان والمنافقون عندما يريدون تسويق أي مشروع لصالحهــم وتسويغه لفائدتهم.. وهي بأشكالها المختلفة ومظاهرها المتباينة، ومــن دون الدخــول بكثير مــن التفاصيل، السلاح الذي يستخدمونــه جميعاً لممارسة الظلــم ومزاولة القهر.. ويعــد تقييد المرأة وتحديد حرياتهــا واتباعهــا لإرادة الرجل وإدارتــه الميدان الأسبــق الذي تمت تجربة هذا السلاح فيه في أثناء الانقلاب الذكوري على النظام الأموي والذي استهدف إخضاع النساء للرجال خضوعهن للإله نظراً لضعف طبيعتهــن الجسدية والعقلية على حد تعبير (توماس الاكوينــي) والذي طالب بأن يحب الأبناء آباءهم أكثر من أمهاتهم معيداً بذلك مقولة الطاعات الثلاث التي كانت سائدة في المجتمعــات الأقدم والتي كانت تفرض على المرأة الطاعة لزوجهــا ولأبيها قبله ولابنها بعد ذلك..

ولقــد ظلت مثل هــذه الأفــكار سائدة ورغــم الإصلاح الديني الــذي تمّ في القرن الخامس عشــر حتى القــرن التاسع عشر. وحاكاهــا في المجتمعــات الشرقيــة أفكار مقاربة تحــث المرأة علــى السجود لزوجها رغــم الإصلاحــات الكبيرة وغــير اليسيرة التي جــاءت بها آخــر الشرائــع السماوية والتي ركزت على تحسين العلاقة بين المرأة والرجل، وإعطاء المــرأة الكثير من حقوقها المدنيــة، وإعــادة حقوقهــا الإنسانية التي سلبتهــا لها المجتمعــات القديمة.. فمعظم المجتمعــات الغربيــة والشرقيــة القديمــة كانت تظهر امتهانهــا للمرأة بأشكال وصور

مختلفة فبعضها كانت تعتبر ولادة البنات من الإهانات. فاليهود كانوا يعتبرون الإناث من إنتاج الخصية اليسرى بينما الذكور من إنتاج اليمنى التي هي أقوى من اليسرى. كما كانوا يعتبرون المدة اللازمة لطهارة من تلد الأنثى ضعف المدة لمن تلد الذكر. والهنود كانوا يعتبرون الأولاد الذكور قادرين على تخليص آبائهم من النار بينما لا تتمكن الإناث من ذلك. والصينيون كانوا يقتلون بعض الإناث المولودات وكذلك أهل سبارطة في اليونان الذين كانوا يتخلصون من سبع إناث من كل عشر مولودات. والرومان كانوا يعبرون عن رفضهم للإناث بإدارة آبائهم لوجوههم إلى الجانب الآخر بعد ولادتهم. ويعبرون عن ترحيبهم بالذكور وعدم تخليهم عنهم برفعهم عن الأرض أثر هذه الولادة.. وكان الرجال في كثير من المجتمعات يبيعون بناتهم ونساءهم أو يأجرونهن. ويروي أن القانون الإنجليزي كان يبيح للرجل بيع زوجته حتى عام ١٨٠٥. وأنه كان يحدد ثمنها بست بنسات. وفي عام ١٩٣١ باع رجل زوجته بخمسمئة جنيه متعللاً بأن القانون كان يسمح بذلك قبل قرن من الزمان.. وجميع هذه الإجراءات كانت تتم في ظل وجود الكنيسة بأشكالها المختلفة وبتشجيع من ممثليها في كثير من الحالات. وهذا مما دفع (هتلر) و(موسوليني) إلى طلب العودة إليها لتمرير أهدافهم وتنفيذ مخططاتهم من خلالها. لكن النساء لم يرضخن إلى هذا الطلب وقاومنه. وعملن على التشبث بالمكاسب التي حصلن عليها وسعين إلى المزيد منها..

❁ ❁ ❁

نأتي بعد هذا العرض السريع للكافات الثلاث إلى الحاءات الثلاث وهي أيضاً كلمات تبدأ بحرف الحاء ولكن بلغتنا العربية الأثيرة والتي تتميز بأن لكل حرف من حروفها دلالته الرمزية. حيث يرمز حرف الحاء فيها إلى الحرارة في المعاملة والحميمية في العلاقة. وهذه الكلمات الحائية هي (الحق) و(الحب) و(الحرية) وهي تتسم بأن المرأة تملك كماً أكبر، وكيفاً أنضر، وقدراً أوفر، من المفاهيم التي تشير إليها .وأن مضامينها كفيلة بالتراحم والتلاحم والتناغم، والتي تدل جميعها على طبيعة المرأة وتبين أبعادها .وتبدو وكأنها تشكل لاءات ثلاث تتصدى لتلك الكافات وتعمل على إبطال تأثيرها وإيقاف مفعولها..

وإذا ما حاولنا بعد ذلك استعراض كل من هذه الحاءات وبعجالة مشابهة لتلك التي لجأنا مع الكافات وسعينا إلى تتبع أبعاد

المفاهيم التي تشير إليها لدى المرأة وتحري مدى قدرتها على إيجاد علاقة متوازنة بينها وبين الرجل من جهـة، وبينها وبين المجتمع الذي يضمهمـا من جهة أخـرى. وابتدأنا بكلمة (الحق) التي تأتي في مقدمتها. لوجدنا أنفسنـا نردد مع كاتبنا الكبير الأستاذ (عبد الرحمن منيف) في خماسيته الرائعة (مدن الملـح) المقولة التي تنص بأن الحق حق وأن من لا يعترف بالحق ليس له حق.. وذلك لأن الحق بأبسط تعاريفه هو المصالح الطبيعية والمنافـع الأساسية التـي يكتسبها الإنسان بجنسيه بحكم الولادة، والتي تؤمن لحياتهما استمرارها ولوجودهما معناه ومغزاه..

ويبين تاريـخ البشرية بـأن إقرار الحق ليصبح قانوناً واجب التنفيذ لا يكون إلا عن طريـق توفير القدرة علـى فرضه. والقدرة هي رديف للقـوة. وهي وحدها الكفيلة عن طريق الصراع تحريض العقل لتحويل حرية الفعـل إلى قيمة يطلق عليهـا اسم (العدل) والتـي هي روح الحق والطاقـة المحركة له ونتيجة تأثير القوة عليـه وحصيلة تفاعلها معـه.. وهذا يفسـر أسبـاب تأخر حصول المرأة علـى حقوقها من جهة، ويوضح تدرج حصولها عليها من جهة أخرى. فحق الحياة هـو من أوائل الحقوق التـي حصلت عليها بعد سلسلة من الممارسات تراوحت بين الوأد للبنت المولودة والدفن للزوجة مع زوجها بعد موته. وحق الملكية لم يجر إقراره، وخصوصاً في الدول الغربية إلا بعد الثورة الصناعية. وحقوق التعبـير والمشاركة في الأمور العامة لم يبـدأ العمـل فيها إلا في بدايـات القرن العشريـن. والحقوق الخاصة لهـا لا تزال مجـال أخذ ورد في بعضـ المجتمعات ومد وجـزر في بعضها الآخر.. وقد كان للشرائع السماويـة، ولآخرها بالـذات، الدور الأكبر في المساعدة علـى إقرار هذه الحقوق. كما كان للإصلاح الديني،ولثورة العقل، دور بارز في هـذا الإقرار، بعد أن لعبـت الممارسات العقائديـة الخاطئة والمغرضـة دوراً كبيراً آخراً في تعويـق تطبيقها وعرقلة مسيرتها. وكأنهـا وأصحابها تستقطبـان اللعنة التي أمطرهـا الرسـول الكريم عليهمـا بقوله: **(لعن الله قوماً أضاع الحق بينهم).**

وممـا لا شك فيه بـأن حماية القانون للحقـوق هدفهـا تأمـين الأمـان للإنسان وجعلـه يعيش بيسرٍ واطمئنـان. لذلك كان يطلـق على الـوزارات التي تضـم المحاكم الخاصة بتطبيق القانون في الماضي القريب اسـم وزارات (الحقانيـة) كمـا يطلق الآن علـى الكليات الجامعيـة التي تعد الطلاب للدفـاع عن القانون والقضاء به اسم كليات (الحقوق).. كما أن مما لا شك فيه أن المرأة

أقدر من الرجل علـى إحقاق الحق لكونها أميل إلى البحث عـن أساليب الأمان.وأكثر قدرة بإحساسها، أو بحاستها السادسة، على إكتشاف أساليب اللف والدوران. وباعتبار أن دوافع الحب والخير لديها أكثر من مثيلاتها لـدى الرجال ونـوازع الشر والعـدوان أقل وأضعف.. والحق أن مفهوم الحق لدى المرأة أنصع مما هو عنـد الرجل وأزهى. ويكفي أن يراقـب الإنسان تصرفـات أمه وزوجته وأخواتـه اليتلمس مدى حرصهن على عدم التفريط بحقوق أفـراد العائلة ذكوراً وإناثاً وإضفائهن لمسة من الحنان والجمال عليها.. ولعـل أجمل ما يقال في هذا المجال أن الأم تمثل بالنسبة لـكل منا نحن الرجال مفهوم الحـق وأما الأخـت فتمثل مفهـوم الخير والزوجة مفهوم الجمال.. ولقد عبر الشعب الإنجليـزي في استبيان أجـراه أحد مراكز الأبحاث عن استيائه المغلـف بالاستحسان من موقـف رئيسة وزارتـه ماجريت تاتشر خـلال حـرب فولكلانـد التـي دارت مع الأرجنتين بقوله (حسن ما قامت به لكننا لم نشعـر خلال الحرب بأنها تتصرف كأمنا أو أختنا أو زوجتنا)..

وإذا كان الأمر البديهي بأنه لا يحق لأحد أن يعارض حق كل مولود في النمو والحركة في كل الاتجاهـات فإنه لا يحق لأي كان أن يعارض حصول هذا المولود ذكراً كان أو أنثى على جميع حقوقه المشروعة.. لذلك فقد تمَّ بعـد وصول البشريـة إلى درجة مناسبة من الوعي إلى إقرار هذه الحقوق عالمياً وأطلق عليها اسم (حقوق الإنسان) والتي تعتبر من أهم أسس تقدم الجنس البشري لأنها تعمل على تحويل الإنسان من مفهوم بيولوجي إلى مفهـوم أخلاقي ولولا قيـام بعض الأنظمة الغربية باستغلال هـذه الحقوق وتجييرها لمصلحتهـا أحياناً لـكان صدورها من أهم الإنجـازات الإنسانية. وممـا لاشك فيه أن تعميم هـذه الحقوق وتأمـين الحماية لها والتصدي لمحاولات استثناء الجنس البشري من بعضها سيكون من أبـرز معالم الانتقال بالبشرية إلى مرتبة الإنسانية..

وإذا مـا انتقلنـا بعد ذلـك إلى الكلمة الثانيـة التي تبدأ بحـرف الحاء وهي كلمة (حب) وحاولنـا التعرف على نظـرة المرأة إلى المفهـوم الذي تشير إليه، وتلمس أسلوب تعاملهـا معه. لتبين لنـا أن الجذور الأولى لمفهـوم الحب بدأت تضرب في أعماق المرأة وشريكها الرجل منذ أن تعرفا معاً على نشوة عناق روحيهما، ورعشة التصاق جسديهما. لكن هذه الجـذور أخذت تتفـرع وتتشعب بشكل أكبر وأغزر لدى المرأة منذ أن أحست بانتفاخ في بطنها، وبحركة تداعب أحشاءها

وتمــوج في داخلهــا، ومنــذ أن شعرت بآلام المخاض التي تلاها انفصال جزءٍ منها خرج إلى الوجــود فاغراً فاه مطلقــاً منه صرخة استقبال الحياة.. والحمل عملية اختار الله لهــا جنس النساء، وخصصــه دون الرجال للقيام بأعبائها، وتحمل مسؤولياتها، بعد أن هيأه جسدياً ونفسيــاً لهذه العملية وحجب هذه التهيئة عن جنســ الرجال، وأشار إلى ذلك في القول الكريم (وليس الذكر كالأنثى) والــذي يتضح منــه تفضيل النســاء على الرجال وليس العكس..

ولقد أثبتت المــرأة، وعلى مدار التاريخ قدرتها علــى القيام بهــذا التكليف الإلهي النبيــل، وإقبالها على تحمــل أعبائه رغم مايعتريــه من مصاعــب، ومــا يرافقه من متاعب، حاول المنظرون مــن أحبار اليهود وضع المسوغات والمبررات لها بما يتوافق مع الأفكار التي كانت سائدة خلال فترة وضعها، والتي رافقت التحول مــن النظام الأمومي إلى النظــام الأبــوي، فأسنــدوا إلى الحية مهمة إغواء المــرأة، وإلى المرأة مهمة إغراء الرجل بالأكل مــن الثمرة المحرمة من ثمار الجنة. وجعلوا الزحف عقاباً للحية والحمل عقاباً للمرأة والعمل عقاباً للرجل على هذه المخالفــة، كما جاء في إحــدى فقرات سفر التكوين في التوراة والتي تنص (وقال الرب الإله للحية لأنك فعلت هذا ملعونة أنت من جميــع البهائم. على بطنــك تسعين وتراباً تأكلين كل أيام حياتــك. وقال للمرأة تكثيراً أكــثر أتعاب حبلك، وبالوجــع تلدين أولاداً. وقال لآدم لأنــك سمعت أقــوال امرأتك.. بعرق وجهك تأكل خبزاً، حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها، لأنــك تراب وإلى التراب تعــود). إذ تتضح من هــذه الفقرة الجذور العميقة لتقسيم العمل بــين الرجل والمرأة، وتتجلــى دوافعها التي حملــت المرأة العبء الأكــبر من الوزر واعتبرتهــا مصدراً للزلل. الأمــر الذي قامت آخــر الشرائع السماوية بتصويبه ووضعه في مساره الصحيح في الآية الكريمة التــي ورد فيها (وأزلهما الشيطان) والتي تمت مســاواة فعل المرأة بفعل الرجل كما تمّ فيها إحلال الشيطان محل الحية..

وفي جميع الأحوال فــإن عملية الحمل التــي أناطها الله بحواء هــي عملية توليد الحياة، التــي هي في الوقــت نفسه عملية توليــد الحب. فالحيــاة كالحمــل وكحواء وكالحــب جميعها تبدأ بحــرف الحاء وهو الحرف الدافئ الدافق الذي يتوسطه كلمة (الرحم) المحتــوي لبذرتهــا الأولى.. ولقد دفعــت رغبــة بعض الرجــال العاشقين في التوحد مع نسائهم حتــى في عملية الحمل إلى القــول عند مراجعتهــم معهن للطبيب

النسائي (نحن حاملان يا دكتور) حيث بدأت هذه الظاهرة في الانتشار في بعض البلدان حسب ما يفيد فيه بعض الأطباء في هذا المجال..

وحواء عند توليدها للحياة لا يفرق رحمها بين ذكر وأنثى، بل تجري عملية التخلق فيه بشكل عشوائي. فالالتقاء بين الحيوان المنوي والبويضة يتم بمحض المصادفة. وانتقال الجينات التي تحمل العوامل الوراثية لدى الأبوين تحكمه مصادفة مماثلة. لذلك فإن العوامل الخلقية لدى الجنسين متشابهة ومتماثلة، باستثناء العوامل المتعلقة بالجنس، ومن ضمنها شكل الأعضاء التناسلية والتي تحددها مورثات خاصة وتتحكم فيها إفرازات هرمونية متخصصة. وهذا يعني عدم وجود اختلافات خلقية فيما يتعلق بالبنى العقلية والقوى الفكرية والرؤى الإبداعية بين الجنسين وتتميز المرأة بزيادة القدرات العاطفية التي نطلق عليها اسم الحب وذلك بسبب احتضانها بذرة الحياة ثم رعايتها بعد انفصالها عن جسدها بالشكل الذي ترعى فيه جسدها نفسه وضمها إلى صدرها قريباً إلى قلبها خلال عملية الإرضاع. وأما الرجل فينتهي دوره بقذف الحيوانات المنوية حيث لا يقوم بتتبعها بعد انفصالها وتلقف زوجته لها..

والحب بعد ذلك يتمرد على الفروقات الناجمة عن التجنيس، والاعتبارات الناشئة عن التذكير والتأنيث وهو موقف وليس خطاباً، وأسلوب عمل وليس شعاراً، وهو نتاج الحياة ومحصلتها. يستمد مفرداته منها ويرث تقاليده عنها. ويضفي الجمال عليها. إضافة إلى كونه الحق الوحيد الذي تكفله جميع الشرائع والقوانين والنهج الذي اختارته الطبيعة للتكاثر. وهو كما الحياة أخذ وعطاء. والطرف القادر على العطاء أكثر من الأخذ هو الأكثر حباً والأشد حناناً. والمرأة هي هذا الطرف بلا منازع باعتراف كل الرجال..

وأما الكلمة الثالثة التي تبدأ بالحاء فإنها تشير إلى أنبل السمات التي فطر الله الإنسان عليها بينما درجت الطبيعة البشرية على قيام الطرف الأقوى من البشر بسلبها من الطرف الأضعف والعمل على حرمانه منها وهي كلمة (الحرية) التي لا يعلوها شيء على سلم القيم الإنسانية.. وإذا كان البشر قد عملوا في قديم الأزمان على تفريغ هذه الكلمة من محتواها بشكل فجٍّ وقاس عن طريق اتباع نظام العبودية الذي طحن كلا الجنسين برحاه فترة مديدة من الزمان. فإن هؤلاء البشر ما زالوا، مع الأسف، يعملون على هذا التفريغ ولكن

بشكل متطــور ومتحضر أضحـــى بموجبه نظام العبودية يطبــق جماعياً، بعد أن كان يطبــق بشــكلٍ إفرادي في الماضــي القريب والبعيد. وأمســى يستهدف الشعوب إضافة إلى استهدافه للأشخاص..

وإذا ما حاولنا تتبع بعض ممارسات هذا الماضي البعيــد لقابلتنا المدرســة اليونانية بفلاسفتهــا الثلاثــة البارزيــن سقــراط وأفلاطون وأرسطــو، والذين تتابعوا خلال قرن واحد قبل الميــلاد بأربعة من القرون. ولطالعتنــا نظرة أقــدم هــؤلاء الفلاسفة (سقــراط) إلى العبيــد والتــي كانت تماثل نظرتــه إلى الحيوان المنتــج حيث كان يعتبر أن الحــرب هــي وسيلة الحصــول عليهم وأنهم وسيلة الحصــول على هذا الحيوان، وكان يطالبهم بالطاعــة ويطالب أسيادهم بإطعامهم لقاءها. ولواجهتنا نظرة (أرسطو) الذي كان آخر هــؤلاء الفلاسفة والتي عبر عنها بقوله بأن العبد كالبهيمة وأنه إذا كان علــى سيــده أن يعامله معاملــة حسنة فهو لصالح السيد وليس لصالح العبد. ولفاجأتنا عدم قدرة نظرة أوسطهم (أفلاطون) المثالية في جمهوريته الفاضلة من تلطيف حدة نظرة المجتمع اليوناني إلى العبودية.

وإذا مــا انتقلنــا بعد ذلــك إلى الثقافة الرومانية لوجدنــا بأنها بنت أمجادها على سواعد العبيد وبعرقهم ودمائهم حيث تدل المعطيات التاريخيــة بأنه كان في روما قبل المسيحيــة ٤٠٠ألــف عبد لخدمــة ٢٠ألف مواطن روماني. كما تدل على أن قتل العبد من قبل سيــده كان شائعاً ومشروعاً في ظل ذلــك النظام وأنــه لم يمنع إلا بعــد انتشار المسيحية بخمسة قــرون ونيف حيث منعت الكنيسة في عام ٥١٧م قتل السيد لعبده من دون حق..

وإذا ما وصلنا إلى الماضي الأقرب لتبين لنا بأن أوروبة تبنت الرق نظاماً ومنهجاً حتى بعد عصر النهضة. وأما أمريكا التي انبثقت عن أوروبة، فقد بنت حضارتها على أكتاف العبيد، وروت ثقافتها من دمائهم. حيث كان روّادهــا الأوائل يصطادون ســكان أفريقيا اصطيادهــم للحيوانــات. ويشحنونهم إلى الأرض الجديدة شحنهم لها. مطبقين عليها عبوديــة ذلك الزمان والتي تمَّ استبدالها في هذا الزمان بأسلــوب حضاري حديث تقوم عن طريقه أمريكا باصطياد عقول وخبرات وسواعــد ليس سكان أفريقيــا فحسب، بل سكان العالم أجمــع، بتقديم المغريات المادية والمعاشية لهــم، فيها فيهاجرون طوعاً إليها حيث يقوم هذا الرقيق الجديد بالإسهام في بناء الحضارة التي قام أسلافهم من الرقيق القديم بوضع أسسها..

وكانــت المــرأة تعامل لــدى الكثير من الحضــارات القديمــة معاملــة الرقيق. أو بمعنى آخر كانت رقيقة المتعة والعمل بينهما كان العبــد من الرجال رقيــق عمل فقط.. وكان خطفهــا يعتبر معادلاً لخطف الحيوان كمــا في الوصايا التوراتيــة. وكان عليها أن تلزم بيتهــا وتصمت كما نصــت الإلياذة.. وكان يمنــع عليها لفــظ اســم زوجها كما في بــلاد الفرســ.. وكان (أرسطو) يعتبرها ذكــراً ممسوخاً ومخلوقــاً ناقصاً.. ولم تجدِ مناداة فيثاغورث قبــل الميلاد بتسعة قرون ومحــاولات أفلاطون بعــده بقرنين بتحقيق مبدأ تكافؤ الفرص. واستمرت هذه النظرة إلى مــا بعد انتشــار المسيحيــة وعبر عنها كليمانــت الإسكنــدري بقولــه (ينبغي على النساء الخجل لمجرد أنهن نساء).

وحتــى فلاسفة عصــر النهضــة ظلوا يعتــبرون المرأة رقيقاً تابعــاً ف (جان جاك روســو) كان يعتقــد بأن المــرأة لا توجد إلا من أجل سيدها. و(هيجل) اعتبرها مخلوقاً منقوصــ المثــل العليا..وغيرهــم كثيرون.. وظلت المرأة تعاني من هذه النظرة في الغرب حتــى القرن التاسع عشر حيث ابتدأت تنال حقوقها بالتدريج وتتحلل من النظرة الدونية، وتتنقــل من ممارسات العبودية السافرة إلى ممارسات العبودية المقنعة..

وأمــا في الشــرق فرغــم أن الشريعــة الإسلامية أعادت للمرأة منذ القرن السابع الميلادي، الكثير من حقوقها ومهدت الطريق لهــا للخلاص من الاسترقــاق، ونظرت إلى تحريــر الرق كأحد أوجه الــبر وأحد أوجه التكفير عــن الذنوب. وأعطــت الكثير من الحقــوق للرقيــق. كحق الــزواج والتساكن والاحتفــاظ بالأولاد، وحق ممارسة وظائف تنفيذية لا قضائية، وحــق الإمامة ما عدا يوم الجمعــة. وفرضت على مالكيهن حسن معاملتهــن، وجعلــت العتــق عقابــاً لسوء المعاملة.. لكن سوء التنفيذ أدى كالعادة إلى عدم الاعتداد بهذه التنظيمات حيث انتشر الرقيق بعد أقل من قرن من انتشار الإسلام. ولم يعــد البيت العربي عربيــاً حسب تعبير الكاتب (أحمد أمين). وازداد عدد الجواري والعبيد .وكــثر النخاسون الذين كان أكثرهم مــن اليهــود. ولا نبالــغ إذا قلنــا أن قراءة التاريــخ واستقراء أحداثــه يبينان بوضوح، بأن السبب الأرأســ لتدهور هذه الأمة بعد ازدهارها. يعود إلى استلاب الحريات العامة مــن رجالهــا واستلاب الحريــات الخاصة والعامــة من نسائهــا في آن معــاً. وبشكل أصبح معــه الاستعبــاد والاسترقــاق هما الطابــع المميز. الذي نجم عنــه عدم إيلاء العدالة الاجتماعية الأهمية التي تستحقها.

بعـد أن أغفل تطبيق مبـدأ الوسطية الذي تميزت به شريعتنا السمحة. ولم يجر تحويله إلى قانون ملزم بل ضرب به عرض الحائط رغـم أنه من تنزيل عزيز حكيم..ولا نجانب الصواب إذا قلنا أنه لا يمكن لهذه الأمة أن تستعيد صحتها إلا إذا عادت إلى هذا المبدأ وقامـت بتفعيله وسعـت إلى حسن تطبيقه بـين أفراد الجنسين على حدٍّ سواء. واضعة نصـب أعينها أن تكون حقوق المرأة كحقوق الرجل مضمونة وحريتها كحريته مصانة في تشريعاتها. معتبرة إياها رفيقة الرجل وليس رقيقتـه أو جارته أو شريكته وليست جاريته أو شركاً له..

وللحرية بعد ذلك مسؤولياتها وأعباؤها باعتبارها حـق الاختيار، وحق القول، وحق الممارسة. والحرية الحقيقية تحتمل إبداء كل رأي ونشر كل مذهب وترويج كل فكر. وهي دعوة إلى المنطق والحوار والبرهان. وتحرير للفكر مـن الأغـلال والجـور والتعصب. لكنها في الوقت نفسه كلمة خادعة ومضللة وسرابيـة لكونهـا ليسـت مطلقـة وليست مقيـدة في الوقت نفسـه. فليس هنالك من يملـك حرية كاملـة. ولا يوجد قانون يطلق حرية الإنسـان بلا قيود. وحـدود الحرية عدم تعديها على حـدود الآخرين. وكل من يتعسف باستعمـال الحرية يجرم في قانون الأرض وقانون السماء على حد سواء..

والمـرأة ينبغـي أن تحرصـ على حسن استخـدام حريتها أكثر مـن الرجل لسببين أولهمـا لكي لا تتيح له إعـادة اعتقالها في حالة سوء استخدامها لهـا، وثانيها لكونها معرضة لسوء الفهـم وسوء النية باعتبارها الجنس الأجمل والأنبل والأرهف والألطف وحرية المرأة لا ينبغي أن تنصب على الشكل وإن كان لا يجـوز لها إغفالـه بل ينبغي أن تركـز علـى المضمـون الذي لا يجـوز لها إهماله وقانـون الوسطية ينبغي أن يحكمها فلا تبـدو في الشارع كخيمـة متحركة ولا كتكورات جنسية متراقصة. وليس من العقل أن تتيح المرأة لثقافتها أن تتغلب على أنوثتها كمـا أنه ليس من الحكمة أن تسمح لأنوثتها أن تتوارى خلف ثقافتها. فالجمال هو ذكاء الجسـد. والـذكاء هو جمـال النفس. وما أسعد من تتمتع بهما معاً وما أسعد شريكها بها ومعها..

وبعد:

لعلـه تبين مـن خلال هـذا العرض أن الكافات الثـلاث لم تنجح أن تكـون كافّات للنساء عن الخـروج إلى المجتمـع لممارسة حقوقهن المشروعة في العمل.وأن مبدأ الغاية تبرر الواسطة والحاجة أم الاختراع لم يتمكنا مـن تحويل الاحتياجـات إلى أيديولوجيات

والرغبات إلى استراتيجيات. وأن المنطق وحده في عصر التقدم الفكري هو الذي يفرض المبادئ والتوجهات. وأن النازية والفاشية فشلتا فشلاً ذريعاً في محاولاتهما تحجيم دور المرأة كما فشلتا في مسعاهما إلى تعظيم دور الاستبداد والاستعباد لشعبيهما ولباقي شعوب العالم.. ولعله تبين أيضاً من مجرى الحديث بأن الحاءات الثلاث هي وحدها التي يمكنها أن تتصدى لهذه الكافات وتحد من غلوها. وإن كانت لم تنجح بشكل كافٍ حتى الآن لكي تكون حاثَّات لإقرار معالم مجتمعات صحية، سوية التطلعات، متقاربة المنطلقات، تتكافأ فيها حدود الجنسين وواجباتهما بجنسية دون تمييز..

وبمناسبة التمييز والمرتكزات التي يقوم عليها نقول: إذا كان ما يميز الرجل عن المرأة قدرته على القيام بالأعمال الجسدية بكفاءة أكبر فإن هذا التميز قد تقلص بدرجة كبيرة في الوقت الحالي بعد أن أخذت الأعمال الفكرية الآلية المبرمجة تحل محل الأعمال الجسدية وتقوم مقامها إلى حد كبير. وإذا كان ما يميزه قدرته على شن الحروب وخوض معاركها لدرجة أصبح معها القتل صناعة ذكورية متخصصة فإن هذا التميز مصيره إلى الانكماش أو الزوال بتأثير من العقول الواعية والضمائر الحية والتي أخذت تنظر إلى الحروب، باستثناء أعمال المقاومة لاستعادة الحقوق المغتصبة، كأعمال قرصنة دولية وأشكال لصوصية عالمية.. وإذا كان ما يميّز المرأة عن الرجل هو الحنان الذي يرتكز على التواصل المعبّر عن اللحمة بينها وبين الجزء الذي ينفصل عنها بعملية الولادة، فإن هذا الحنان سيبقى ما بقيت عملية الحمل والولادة. وإذا كان ما يميزها هو التناغم المجبول بالرحمة المنقولة إليها من الرحم عن طريق هذا الجزء المفصول، فإن هذه الرحمة ستستمر ما استمر وجود الرحم في أعماقها لذلك ستظل المرأة وباعتراف الرجل نفسه حصن الأمان، ومرفأ الحماية، والجزء الحارس، والسور الحاجز، والنعمة الغامرة، والنغمة الآسرة، واللمسة الدافئة، والهمسة الحانية..

لكن، وعلى الرغم عن ذلك، إذا كانت المرأة هي الحاضنة في عمليَّة الحمل، فإنَّ الرجل هو شريكها في الإخصاب ورفيقها في الإنجاب..وإذا كانت المرأة هي الوالدة التي تتحمَّل آلام الولادة، فإنَّ الرجل هو الوالد الذي يتحمَّل أعباءَها ويسهم الإسهام الأكبر في مسؤولياتها.. وإذا كانت المرأة هي المرضعة لأطفالها، فإنَّ الرجل هو مبعث إدرارها ومحرِّك مراضعها.. وإذا كانت

المرأة هي الرائدة في بدايات مرحلة تنشئة الأطفال والقائدة إلى مداخلها ومعابرها، فإنَّ الرجل هو المشارك في الإرشاد إلى مسالكها الداخليَّة والمساهم في التعريف على دهاليزها المستقبلية.. وإذا كانت المرأة هي المائدة المعنويَّة والماديَّة المفتوحة لأطفالها باستمرار، فإنَّ الرجلَ هو المائدة الماديَّة والمعنويَّة التي ترافقهم وتتابع معهم المشوار..

والإنسان، بعد ذلك أو قبله، هو رجلٌ وامرأة بالطريقة نفسها التي يتألف فيها اليوم من نهارٍ وليل.. وكما يختلف النهار والليل في وهجهما ودفئهما تبعاً لحرارة شمس أولهما ونور قمر ثانيهما، كذلك يختلف الرجل والمرأة في مشاعرهما وأحاسيسهما تبعاً لأبوة أولهما وأمومة ثانيهما.. لكن كلاً منهما يظل على الرغم من ذلك لباساً للآخر ولبوساً له.. يلج فيه كما يلج الليل في النهار، ويتكوَّر عليه كما يتكوَّر النهار على الليل.. وكما أنَّ الشمس تظلّ ضياءً وسراجاً وهاجاً وسكناً والقمر نوراً ومنازلاً كالعرجون القديم، كذلك يظل الرجل الوقود والقوة المحركة للمرأة، وتظلُّ المرأة النار المتأججة التي تتناسب حرارتها مع حرارة تقلباتها الشهرية الفيزيولوجية.. وكما أنّ لكلّ من الليل والنهار، والقمر والشمس، مداراً خاصاً به، ﴿**فلا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر، ولا الليل سابقُ للنهار، وكلٌ في فلك يسبحون**﴾.

كذلك فإنَّ لكلٍّ من الرجل والمرأة مساراً خاصاً به يحفظ له حريته ويضمن استقلاليته وتظلُّ معه الحياة مستمرة في ظلِّ توازنٍ رائع يحقِّق إبداع الخالق في المخلوق عن طريق الحق الذي هو منطلقه، والحب الذي هو مستقره، والحرِّية التي هي جناحاه، جناحٌ للرجال وجناح للنساء على حد سواء..

آفاق المعرفة



مثنى العبيدي.. وقراءة محاور الجمال

معصوم محمد خلف*

لم تـــرقَ أيّ من الحضارات بفن الكتابة وتجويده مثلما ارتقت به حضارة الإســـلام، حتى يمكـــن تصنيفها باقتدار مـــن الحضارات المكتوبـــة، أو من الحضـــارات التي اعتنـــت وسمت بهذا الضرب من الثقافـــة، وهذا الوسيط التواصلـــي بين البشر إلى الذروة، بما يخدم الدعوة، ويحفظ النصوص التي كان قد أدى التمادي في إهمالها أو تدوينها إلى تحريف الرسائل التي أتى بها أنبياء الله الذين سبقوا الرسالة المحمدية الخاتمة.

* باحث وخطاط سوري.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

حيث مازال الخــط العربي فناً تشكيلياً مستقلاً على الإبداع والتنوع، بينما استمرت باقي الخطوط في العالم تزويقاً للنص اللغوي، تحكمــت في صياغته الفرشــاة في الكتابة الصينيــة، أو الريشــة في الكتابة اللاتينية. بينمــا استمــرت القصبــة أداة يصنعهــا الخطاط، مواتية لرفــع الكتابة إلى مستوى الخط الفني، وخاصة خــط القصبة الذي يحفظ الخطاط في تجاويفه أدق أسراره.

كما إن الاستئناس بتذوق لوحات الخط العربــي ومختلف أنمــاط التعبير الحروفي ينطلــق أساساً من جماليات العمارة العربية الإسلاميّــة، باعتبار أن فن العمارة هو الفن الــذي يستجيب أكــثر لمسألة خــروج الفن إلى الشــارع بغية تهذيــب الذائقة الجمالية البصرية لــدى الجمهور الواســع، وتهذيب مختلف الفضاءات المدنية والخارجية،

فالعمــارة وعــاء حضــاري، وهي شكل الحضارة المرئي والمجسد، وهوية مدنية ما، أو مجتمع ما، تتضح من خلال شكل العمارة، فالمدينــة القديمة التي توثق التاريخ لا تزال علــى رغم هرمهــا وفقرها المــادي، أقوى وأصــدق تعبيراً عــن الشخصية الحضارية لساكنيها.

إن فلسفــة الجمال العربــي هي فلسفة روحانية وليست رياضية وتقوم على مقاييس مطلقة وليست نسبيــة، وتسعى للتعبير عن المثــل، سواء في التشكيــل أو العمارة، والفن العربــي بعد كل هذا هو فــن الحياة، ففي كل الأشيــاء والأدوات والأزياء فن، السجادة والمصبــاح والسيف والمنمنمــة والخط هي فنــون إبداعية رفيعة، ومن ثــم فإن العمل الفني وكذلك التذوق يقوم على الحدس وليس على الإدراك العقلي.

والعــالم ينظر إلينــا من خــلال فنوننا وإبداعاتنــا فبالفنــون والإبــداع تقــوم الحضارات أو تبيد، والأمّة التي لا تحتضن الثقافات والفنون ولا تؤسس مراكز للإبداع لا يمكــن أن تعتبر في المفهوم الحضاري أمة ذات وجود.

والحديث عن الخط العربي يشعر بحالة من الانسياق والخضوع في استحضار معانٍ وأبعاد تتعدى مجرد الخط وفنونه الظاهرية نحو سماوات أخرى بعيدة المنال!

فالخــط وثبــة بلــون الشفــق يعبر عن أفكارنــا وأحاسيسنا ويفتــح أمامنا المغاليق المبهمة ليمنحنا الطاقة اللازمة نحو المعرفة المقدسة.

يقــول لويــس ماسينيــون Louis Masignon لــدى بحثه عــن الفنون: (إن المسلم يبتعد عن الوقوع في فخ الفنون، فهو ينســخ من خيــوط الله، ولذلك لن تجد في

الفنون الإسلامية أيــة مأساة أو فاجعة ولا توجد فيها نواح وحشيّة).

ويسجــل آرثــر أفــام بــوب Arthur upham pope في فــن الخط قوله: (لقد جسّد الخط منذ القرون الوسطى للنقاشين والرسامين والمعماريين أهدافاً عليا ونظاماً لا يمكن الاستغنــاء عنه، وقد وجد الجانب الإبداعي خلال تأثيره العميق في التزيينات المعماريــة، ولعب دور المراقب والمشرف على بقية الفنون).

والخــط والرسم توءمــان لا ينفصلان، وقــد أصبح الخــط في كثير مــن الأحيان سيــد الرسم، فقــد تميّز بعضــ الفنانين في الرســم والخــط، بنفســ الدرجة، لكن البدايــة في تعلمهم كانــت في الخط، وفن الخط بالنسبة للمسلــم المثقف أهم وأعمق من فن الرسم، وبالنسبــة للمتصوف، تغدو الأحــداث الموضوعية التــي يضطر الرسام إلى استخدامهــا ترجمة لتجليات الجمالات الإلهية.

فالموضــوع الجمالي ينبثق من ديناميكية التفاعــل بــين النصــ والمتلقــي، فالنص الإبداعي هو من صنيع الفنان الذي يحاول بتراكيبه المتزنة تحويل الكلام المقدس من آية أو حديث أو قول مأثور إلى إنجازه بإحساس فني تهــب نفسها للوصــف والإدراك، فهو استجابة جمالية متصلة بالوعي والتفاعل، ينجزهــا مبــدع عكف على تنويــع مشاهد المتعة في الوقوف علــى مشهد متميز تكون علامة فارقة لفصل الخطاب.

فاستثمار الخــبرة الجمالية هو إيقاظ للنصوصــ مــن سباتهــا قصــد اكتشاف وميضــ وقعها،والإصغاء لصمتهــا، ورؤية غناهــا المتنوع والمتعدد والذي يحوله الفنان الخطاط من عناصر التخييل إلى جسر تنقش عليه آثــار العبور، كونه يحــوّل الصلة بين الخفي والمرئي نحو أفق من المعرفة الغائبة في مكنونات النص.

حيث يذهــب الفنان والخطــاط مثنى العبيدي في مغامرة خطية كلاسيكية صارمة تحكمهــا وتحميها رؤيــة مسبقة ومتماسكة تجاه الوجود والإبــداع كفعل جمالي يوازيه ويتشابك معه واقعاً وقيمة ومثالاً.

إن نظــرة فاحصة متأنيــة على لوحات وإبداعــات هــذا الفنان توحــي لنا كم من الوقت صرفه وكم من الجهد بذله حتى خرج لنا بهذه المقدرة المبدعــة والأحرف المنمقة والتركيب الجميل الــذي يشبه بناءً معمارياً ارتكزت أساساتــه في قاع الأرض بكل ثبات ممــا نتج عــن بعض الحــروف لتنطلق إلى الأعلى عبر حرية فضاء موزون.

كما إن البناء المعرفي للموضوع الجمالي

في لوحات مثنى العبيدي يستدعي استثمار القيم الجمالية التي ترسخت بقيم عقائدية لبعث الروح في مستويات اللوحة كافة.

إن الخطاط أو الفنان محكوم عليه بضرورة تعميق كفاية التلقي، إذ لا تكفيه المعرفة الحدسية المتفاعلة مع النص بصورة حرة وعفوية، وعليه مجانبة المعرفة الأيديولوجية المغرضة التي تستعمل النصوص قصد تكريس أهواء ومصالح المذاهب الجامدة والمؤسسات المعادية للتحرر والاختلاف.

فلابد من الارتقاء نحو معرفة تحليلية متطورة تحدد نماذج الإبداعات الملائمة جمالياً، أي المهيأة والحافزة لوظيفة التواصل الفني مع الآخرين.

والخط العربي هو عالم من الجمال الخلاب ومشهد من الجلال والسمو يتجاوز العوالم المادية إلى رحابة الصفاء والعرفان لترتسم في مخيلتنا أبجديات الإسراء والمعراج حتى هضبات سدرة المنتهى.

والخطاط والفنان مثنى عبد الحميد العبيدي يؤسس لتكوين ذاكرة جديدة يستلهم مفرداتها من الموروث الحضاري الإسلامي



مع تطوير واضح لأدوات التعبير التي يتعامل معها من خلال العمل المتواصل بالبحث والتجريب المدرك والمنفتح على كل التجارب الإنسانية.

فالخطاط الذي يتحقق في حروفه الاتزان والضبط تكون مليئة بالأحاسيس الجياشة التي تعبر عن راحة في النفس، وهذا ما نشاهده في لوحات الخطاط العبيدي، ذلك أن الاتجاه نحو تحقيق التوازن بين الحروف يؤدي بدوره في انضباط الحروف واتزانها وتنظيم عملها وكأنها كتلة متجانسة لا يمكن فصل أي جزء من أجزائها.

وقد لعب فن الخط دوراً حاسماً وكبيراً عند الخطاط مثنى العبيدي، وصلت إلى

درجة الإتقان، كما إن التركيب في لوحاته لا يعني التركيب الميكانيكي البسيط للأحرف، وإنما يعني ظهور تناسق جديد بنسب ومقاييس جديدة عند توصيل الحروف، والتركيب في فن الخط إبداع جديد وليس عملية جمعية وحسب، كما إن فكرة التركيب في خط جميل مرادفة لفكرة التشكيل.

ولهذا فإن فن الخط والعناصر والأشكال الهندسية والزخرفة النباتية، تمزج طبقاً لقواعد رياضية دقيقة، تفضي إلى إنجاز تناسق مبني على الترتيب المحكم والتغيير المضبوط، ومن ثم وضع الأشياء بجانب بعضها وهي العملية التي تضفي على فن الزخرفة في آخر المطاف سمة من الحركية والفعالية، وتؤدي المعرفة الجيدة بطرق وأسلوب خلط ومزج الألوان في الوصول إلى تناغم لوني يسهم في إغناء وتجميل العمل الزخرفي من جهة وإلى إضفاء رونق آخر للوحة من جهة أخرى.

كما إنه يجعل من شكل الدائرة مركز اهتمامه فأحال بعض النصوص الخطية إلى دوائر جميلة، تحيل على ما للدائرة من دلالة وعمق في التراث الصوفي بوصفها رمزاً للكون وللكمال وأصل كل الأشكال .

والخطاط مثنى العبيدي من مواليد الرمادي سنة ١٩٧٢ أخذ أصول الخط عن الخطاط الكبير عباس البغدادي، وهو حاصل على البكالوريوس في علوم الكيمياء، وقد نفّذ خلال عمله في ديوان الرئاسة في العراق العديد من الخطوط الكبيرة في المساجد والقصور والمباني الحكومية، وحصل خلال مسيرته الخطية على العديد من الجوائز، والذي يعاين أعماله سيدرك لا محالة أن اللوحة الخطية العربية الكلاسيكية ما زال لديها ما تقوله وتضيفه، فهو وإن كان دائرا في فلك الكلاسيكية العربية إلا أنه دائما يبحث عن مغايرة وإضافة من خلال محاولاته العديدة التي يربط مابين الدلالات البعيدة للجملة المكتوبة وإضفاء أشكال خطية جديدة للجملة تضيف لها معنى، «فالخط ليس مجرد شكل جامد بل هو قدرة على إضافة معنى للجملة وإعطائها بعداً دلالياً أكثر مما يظهر»، وذلك هو دأب العبيدي منذ أن أمسكت أصابعه المبدعة قامة القصب.

فهو ذو شخصية مميزة، مثلما هو أيضاً صاحب مدرسة متميزة في الحرف العربي، ومن السمات المعروفة في شخصيته، الصدق والجرأة والصراحة والتواضع وحسن الخلق.

إضافة إلى أنه ينهج في لوحاته منهج أستاذه الخطاط عباس البغدادي، الذي يتبع طريقة الخطاط التركي محمد شوقي منطلقاً وفناً وإبداعاً.

آفاق المعرفة



السريالية
فلسفة عالم الخيال والأحلام

محمد جدوع ❁

في الوقت الذي خلّفت فيه الحرب العالمية الأولى ١٩١٤- ١٩١٨م الملايين من القتلى والمعوّقين، وزرعت في نفوس الأجيال الشابة الخيبة واليأس، والقنوط والكآبة من الواقع الذي سيؤول إليه المصير، في هذا الوقت بالذات ولدت -في أوروبة- حركات أدبية وفنيّة بعضها مؤيد للحرب ومبرر أسبابها، وأخرى مناهضة ومستنكرة سوء فعلة دعاتها وقادتها، وهذه الأخيرة بعد أن ضاقت بالأوضاع المتردية ذرعاً، أنكرت الواقع الذي غصَّ بالموت والدمار والفناء، وتصدّت -كلٌّ على طريقتها- لتغيير معاييره وموازينه، وقيمه

❁ باحث سوري.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

الأخلاقيـة والسلوكية عـن طريق الازدراء والسخرية والاستهـزاء بالقيم والجماليات السائدة حينـاً، وبالعدمية واللامبالاة حيناً آخر.

ومن بين أبرز هذه الحـركات، وأكثرها أثراً (السريالية) التي طلّقتْ الواقع وأرست أسس دعوتها على عبادة اللا(واقع) فأخذت ¬اسمهـا منه، وبنـت عالمهـا المتخيّل فيه وسبحت بأحلامها في بحر أغواره وسراديبه، وهذا هو مبعث غرابتها، وسرّ فرادتها.

السريالية/ النشأة ودلالة المعنى:

وَلّدَتْ (السرياليـة) كمصطلح، ومفهوم، ومعنـى إشكاليات شتـى[1]، ليس فيما بين دارسيهـا ومؤرخيهـا فحسـب، وإنما بين مؤسسيها ودعاتها ورموزها، وذلك لما رافق هـذا المصطلـح -السريالية- مـن غموض وإبهام وتناقض، ولا واقعية حتى إنه أصبح مضرب مثـل للتعقيد واللا(فهـم) لدرجة وسُمت فيه كل المواقـف والآراء، والمشاريع التي لا تتسم بالعقلانية والواقعية على أنها -سريالية- لاواقعية ليس إلا.

وقبل الولوج في هـذا المعترك الإشكالي -السريالية- لا بد من المـرور العاجل على العوامل التي أنجبتها والمتمثلة في:

الحـروب وعقابيلهـا: في الحين الذي مجّد فيه (نيتشـه) الحرب -باعتبارها تعبر عن إرادة القوة- معلناً ومبشّراً بولادة الإنسان الخـارق -الخالـق لنفسـه (السوبرمان)- المخلّصـ البشرية[2] مـن الأجناس الرديئة التي تنجب الإنسـان الضعيف (السوبمان) وما إن آذنـت فوهات المدافع عـن استعار لهيب الحـرب الكونية الأولى، حتى سارعت فيه الحركتان[3] (المستقبلية) و(الانطباعية) إلى تأييدها والانخراط في صفوف مقاتليها وعبر مختلف جبهاتها مثل: الفنان -النحات الإيطـالي- المستقبلي (أمبيرتـو بوشيوني) والانطباعيـون: ميسـت- أوغسـت ستزام وفرانز مـارك الذي اعتبر أن الحرب: (هي الطريقـة المثلى لتغيير المجتمـع في أوروبة العجوز التي لا يمكـن تنظيفها بأية طريقة أخرى).

وعلى العكس من هـذا الموقف -وبينما كانـت الحرب في أوج سعيرهـا- تنادى نفر من الشعراء والأدبـاء والفنانين المناهضين للحـرب إلى الاجتمـاع في سويسرا وبمدينة (زيورخ) بالـذات باعتبارهـا الملجأ والملاذ الآمـن للهاربـين من الحـرب والمناهضين لهـا. أعلنت هذه المجموعة عن ولادة حركة (الدادا) في شباط ١٩١٦م.

حركـة الـدادا (Movement Dadaiste): في صالـة - حانة (فولتير) اجتمع حول (هيجو بول) وصديقته (إيميني

هيننــج) مجموعة من الشباب[٤] ومن مختلف الجنسيــات تزعمهــم الرومــاني (تريستان تيــزارا) معلنــاً رفضــ هــذه المجموعــة واشمئزازهــا ومناهضتهــا لهــذه الحرب والقائمين عليها تحــت اسم حركة (الدادا) بعد أن وقعت عين أحدهم -مصادفة- على هذه الكلمة من القاموس، ثم اتخذوها رمزاً ومسمّىً لحركتهم الاحتجاجية بكل ما تعنيه هــذه الكلمة من الهزء والازدراء والسخرية، وقد نالــت أهمية وتأثيراً بعــد أن انضمت إليها مجموعــة جديدة من الشعراء والأدباء والفنانين وعلــى رأسهم (أندريــه بروتون) -مؤسســ السريالية فيما بعــد- و(أراغون وسوبر ربيريه)، فتوالــت إعلانات (الدادا) عــن أهدافها، والتــي أفصحت من خلالها أنها تريد هدم خدع التفسير واكتشاف نظام لا عقلاني عــبر السخرية والحط من القيم التي أشعلت نار الحرب.

آبـاء الأدب الساخر: اعتبرت الدادائية ومن بعدهــا السرياليــة أن كل من (فولتير ولوتريامــون ورامبــو وجاي) أهــم الرموز العالمية في الأدب الساخر[٥]، ولذلك اتخذتا أسلوبهم في الهزء والسخرية وسيلة لمهاجمة قيم وسلوك مجتمعاتهما التي أيّدت الحرب ومنحتها المشروعيــة، ولهذا السبب استأجر (هيجو بول) الحانة التي تحمل اسم (فولتير هيجو) الذي فضحت كتاباته الساخرة قيم وأخلاق الطبقــات الأرستقراطية والحاكمة على حدٍ سواء وإذا كانت (الحرب والدادائية والأدب الساخــر) الأسباب القريبة المباشرة لــولادة السريالية فإن المستمــدّات البعيدة التي انطلقت منها السريالية تتمثل في:

الفلسفة الإغريقية: وأخصّ فلسفتي (هراقليطس) و(أفلاطــون) فالأول يرى أن الحياة عبث ولا طائــل من التعامل الجدي معها، والإعجاب الذي أبدته السريالية ب-(هراقليطس) وفلسفتــه لخّصها قول أحد أعلامها (شار) الذي رأى أن (هيراقليت هو مــن بين جميع الناس، الــذي إذ أبى تجزئة الســؤال وأدى به إلى أن الإنسان هو ذاته في تصرفاته وذكائه وعاداته، من دون أن يفقد هذا الإنســان توهجه أو يحد من تعقيده أو ينتهك سره...).

ومثلما احتفت السرياليــة بهراقليطس وفلسفتــه[٦]، فإنها بجّلــت رأي (أفلاطون) في الشعــر -باعتبــاره إلهامــاً- وخاصــة قوله: (الشعــراء المجيدون كلهم... ينظمون قصائدهــم الحسان لا بالصنعة ولكن لأنهم ملهمــون أو مأخوذون، فالشاعر لا يبدع إلى أن يُلَهــم، ويخــرج عن رشــده ويتخلى عن عقلــه، وإذا لم يبلغ تلــك الحالة فهو عاجز عــديم القوة قاصر عــن النطق بمعجزات



الوحي) كما تبنت السريالية أسطـورة الخلق البشري(٧) التي رواهـا (أريستوفان) ومفادها: (إن البشر سابقاً كانـوا يتألفون مـن اثنين من المخلوقـات البشرية... وكان لهم أربـع أيدٍ وأربع سيقان ووجهان وكان لهذه المخلوقات قوة كبيرة وتجبّر لا حدّ له، وأرادوا مهاجمة الآلهة ومن أجل أن يتجنب زيوس Zeus تمردهم ومن أجـل إضعافهـم قطّعهم نصفـين، فالرجل الحالي ليس سـوى نصف مخلوق ذلك هو المنبع الأول للحب، كل واحـد نصف يفتش عما فُصل منه، عن النصف الـذي ضاع منه...) لهـذا السبب مجّد السرياليون المـرأة واعتبروا أن الحياة من دونها لا معنـى لها وهي مصدر الحياة والخلق والإلهام الشعري.

- الفلسفة الصوفية: استقت السريالية من التآويـل الباطنية من مختلف الفلسفات الصوفيـة وخاصـة (الهرمسيـة والقبالا) اليهودية ومقولـة (النقطة العليا) التي هي أساس الخَلْـقْ والوجود والمتمثلـة بالذات الإلهيـة عند الحـركات الباطنيـة المؤمنة، أما السريالية فـترى أن الحقيقة الخارجية والحقيقـة الداخليـة لا يمكـن إدراكهمـا بالعقل والحواس وإنما عن طريق الأحلام والخيـال وإذا كان الإنسان يتوحد مع الإله في الصوفية فإن بديلـه المرأة في السريالية باعتبارهـا مصـدر الإلهام ومنبـع الحياة كما أسلفنا وقـد عكس هذا الموقف كل من (أراغون) في ديوانه(٨) (مجنون إلزا) بقوله:

مَزِّقوا لحمي، اقتسموا جسدي
ماذا تجدون فيه غير الجنة...... (يقصد إلزا)
تجدونها في كنشيد فجر
كل ما أراه صليبي كل ما أحب في خطر
ولولاكِ ما كنت غير الرجل الذي تتناوشه الحجارة.

أما (أندريه بروتون) فيرى في كتابه (ناديا) أن المرأة هي مصدر الإلهام وتأخذ مكانة المطلق لديه لأنها -بنظره- تفكك أسرار الحياة، وهي البديل عن كل شيء: (لقد أقمتِ مقام الأشكال التي كانت مألوفة أكثر شيء بالنسبة لي، وكذلك بالنسبة لوجوه كثيرة من تلمسات شعوري... ما من شيء يمكن أن يكون بديلاً لكِ... لستِ لغزاً بالنسبة لي أقول: إنك تحولينني للأبد عن اللغز).

الرومانسية: تعتبر هي الأخرى من أهم المصادر[٩] والعوامل المؤثرة في نشأة السريالية وخاصة عوالمها المتخيلة، وأحلامها الوردية البعيدة كل البعد عن الواقع المُعاش، والتي يصعب التمييز فيها بين الذاتي والموضوعي، وبين (الحقيقة الخارجية والحقيقة الداخلية) كما تدعي السريالية لأن الاتحاد الكامل عبر الأحلام والخيال، بين الواقع المُتمنى والواقع الراهن هو الذي يوجد الذات الخارجية مع الذات الداخلية، عبر الخيال باعتباره الوسيلة الخالقة للواقع المرتجى الذي هو في حقيقة الأمر لا واقعي، إلا أنه في الخيال يكون فيه: (الظل والفريسة قد ذابا في ومضة وحيدة) لأن الانفصال عن الواقع لا يتحقق إلا عبر الخيال في حال اليقظة، وعبر الأحلام في فترة الهلوسة والنوم، ونقطة التقاء الرومانسية والسريالية تتحدد في رؤيتهما المشتركة إلى قوة وقدرة الخيال والأحلام باعتبارهما المفتاح السحري الذي يعتق الإنسان من أغلال وأسوار العقل المحصنة بالموانع والمحظورات والزواجر الاجتماعية والتي لا يمكن تجاوزها أو تخطيها إلا عبر الأحلام والخيال. وعن مكانة الخيال في الرومانسية يقول (نوفاليس) أحد أكبر رموزها: (لا بد للعالم من العودة إلى الخيال، ففيه يكتشف معناه الأصلي ثانيةً... بإضفاء معنى سام على الأشياء العادية، وبإضفاء معنى غامض على الأشياء المألوفة).

مدارس التحليل النفسي: تأثرت السريالية بمدارس علم النفس وخاصة (الفرويدية) من خلال دراستها لمنطقة اللاشعور باعتباره مصدر هام لمعرفة سلوك وتصرفات الإنسان الواعية من خلال مُحَرِّكَات اللاشعور التي لا يمكن اكتشافها نتيجة الكبت والمحظورات الاجتماعية، إلا عبر التنويم المغناطيسي والقيام باستدعاء

الذكريات المكبوتة للمنوَّم، من هذا الأساس اعتــبرت السريالية أن منطقة اللاشعور هي المصدر الثر لمعرفــة دوافعنا ومواقفنا تجاه أنفسنا والآخرين لــذا يرى (ميشيل كاروج) أن مأثــرة السرياليــة التي تسجــل لها هي اعتمادهــا علــى المناطق الخفيــة من دنيا ما تحت الوعي... وتعتــبر الكتابة التلقائية صيغــة عليا يكشف بهــا الإنسان سر الكون والإنسان معاً.

السرياليــة / دلالــة المعنــى: مــا أن خفت بريــق الدادائية[١٠] الأولى في (زيورخ) وتفــرّق شمل مؤسسيهــا وأصبحت وحدتها كـ- (أيادي سبأ) متفرقــة الشمل والجمع، بعــد أن تشكلــت دادائيات قوميــة حسب جنسية المشاركين فيها (الدادائية الألمانية- الفرنسية والأمريكية) وبعد أن تخلى (هيجو بــول) نفسه عن الدادائية بقوله: (إن البيان الــذي تلوته أمسيــة الــدادا الأولى يخفي رفضي لأصدقائي... عندمــا تكون الأمور مرهقة فإنني لن أستطيع الاستمرار معهم) ومــع استمرارية (تريستان تــزارا) وجهوده المبذولــة في الحفاظ على استمرارية الدادا الأولى في سويســرا وعلى الرغم من إصداره مجلة (ديرزيلتونغ) بمساعدة وإشراف (والتر سيرنر) إلا أن ذلك لم يحقق لها طول البقاء، لأن الدادائيــة تحمل بذاتها مبضعها القاتل والذي يمثله قول تزارا: (الدادائي الحقيقي يجب أن يكون ضد الدادا) بمعنى آخر يناقض ويرفض كل شيء حتــى نفسه يناقضها في منطلقاتها الفكرية والرؤيوية، ولهذا السبب انفضّ عقــد الدادائية وخاصة بعدما تبنى (أندريــه بروتــون)[١١] المصطلح الذي نحته الشاعر الفرنسي (أبوللينير) من خلال دمج كلمتي (فوق+ واقعــي **sur + realisme**) ليصبح المعنى الحــرفي للمصطلح- المفهوم (مــا فــوق واقعــي) أمــا المعنــى المجازي فيشــير إلى غــير الواقعي والــلا (عقلاني) ويمت بصلة لكل ما هــو فوق إدراك العقل والحواســ، و(أبوللينير) نفســه أطلق هذا المصطلح (السريالية) على إحدى مسرحياته ذات الأجواء والشخصيات الخيالية، وما أن تبناها (بروتون) حتى أضحت دلالة لفلسفة وحركة لهــا موضوعاتها (ثيماتها) الخاصة بها وأصبحت متداولة في كل اللغات الحيّة، بعد أن خطفــت الأضواء مــن (أبو للينير) ومسرحيته التي حملت الاسم ذاته، ويعرفها (ميشيــل كاروج) على أنهــا: (ليست فلسفة بالمعنى المدرسي للكلمة وقلما يهمّها أن تقيم البرهان علــى قضايــا.... ولكنها مع ذلك فلسفة بأوســع معنى لهذه الكلمة لأنها تعبر عن تصور جديد للعالم، وتبحث عن امتلاك سر الكون...)(١٢) كما عرّفها جبرا إبراهيم

جـبرا بأنها: (مـن العجيب نشـأت.... من الجنون، من الأحـلام، من شوارد اللاوعي، ثـم تبلورت في حركة مـن أهم حركات هذا القـرن -العشرين- الفنيـة والأدبية، كانت حصيلتها وسيلة لانطلاق واستحداث الرموز والكتابـات) كما يضيـف: (ضاقت بالواقع فطلبـت مـا وراء الواقـع، وقابلـت الفناء بالسخريـة والاستهزاء) وعرّفهـا مؤسسها (بروتـون) على أنها: (ليسـت -السريالية- مدرسة مـن مدارسـ الأدب أو أسلوباً من أساليب النقد، إنهـا حالة ذهنية، فالخيال وحده في عصرنا هـذا يستطيع أن يستعيد للبشرية المهددة فكرة الحرية).

علـم الجمال السريـالي: قبل التطرق إلى القواسم المشتركـة فيما بين السرياليين والوسائـل التي تنطلق من خلالها براهينهم ونظرتهـم للحيـاة والوجـود والسبل التي تغيرهمـا، لا بد من وقفـة عجلى على علم الجمال لـدى السريالية، فهـي على عكس الفلسفات الأخرى لا ترى في الجميل جميلاً لأنه عكس القبيح، وإنما تراه -الجميل- في كل ما هـو غريب[13]، وخارج عـن المألوف والمتمثل في العجيـب لأن: (العجيب جميل دائماً وكل ما هو عجيب فهو جميل، بل إن لا جميـل في الدنيا إلا العجيب) هكذا تختزل السريالية كل المقاييس والمعايير الجمالية في الفلسفـات الأخرى، فليسـ لديها: الحَسَن والجميـل، والجليـل والعظيـم ولا كمال -حسب جماليتها- إلا في العجيب فحسب.

السرياليـة / القواسـم المشتركـة:

مـع أن السرياليين عموماً نـادراً ما يتفقون على موضوع محدد، سـوى كرههم للحرب، إلا أن لهـم مـع ذلـك مربع مـن القواسم المشتركة[14] فيما بينهم والمتمثلة في (الحرية - الشعر- الحب والمـرأة) فالحرية حسبما يعرّفها السريالي (ب.و. لابي) هي: (ليست.. إجـازة يمنحهـا المجتمع وحسـب، ولكنها ليست أيضاً إجـازة يمنحها الإنسان لذاته، إنهـا ليسـت خاضعـة لإرادة الإنسان ذاته الواعية بل تصـدر عنه) وفي ظل الضغوط التـي يواجهها الإنسان لا يـرى السرياليون -كـون أغلبهم شعراء- تحقيـق الحرية إلا مـن خلال الشعر، لأنه حسـب رأي بروتون (مـكان حريتنا ويسمـح لنا بإشبـاع شكل رغباتنـا على كل الأشياء) كما تتواشج نظرة السرياليـة مع الصوفيـة في تعريف الحب على أنه: (توحّد المُحِـبّ بالمحبوب) كما أن (لا حلّ خارج الحب) حسبما يرى (بروتون) ولأن الحـب يتعلق بالمرأة، فقد حظيت عند السرياليين بدرجـة لم تبلغها عند الفلسفات القديمة والحديثة كافة على حدٍ سواء، فهي رمز الحيـاة بأشكالها وتجلّياتها كافة، وهي

البديل عن العقل المطلق عند هيجل، ففي (فلاّح باريس) يخاطبها أراغون: (أيتها المرأة تأخذين مع هذا مكان كل شيء... وكل شيء يموت عند قدميكِ، وعلى السماء يلقى ظل عند قدميك... أنت خلاصة عالم بديع... أنتِ الأنقى والحضور).

فلسفة العالم السريالي: مع وجودية (ألبير كامو) التي ترفض هي الأخرى الواقع، إلا أن شطط السريالية جعلته يصفها بأقذع الشتائم والصفات: (هي تمرد مطلق، وعصيان كامل، وتخريب منظم، دعاية وعبادة اللامعقول، تحدّد السريالية نفسها في هدفها الأول وكأنها وضع كل شيء موضع اتهام يجب دوماً إعادته) والسريالية من خلال إشكالياتها الشتى حاولت مع ذلك بناء واقع لها بديل عن الواقع المرفوض من قبلها من خلال العوالم الثلاثة التالية[١٥]:

- عالم الأحلام: وجدت في الأحلام لذتها المنشودة، وغايتها المبتغاة، لذا قدمت مبدأ اللذة على مبدأ الواقع كما يؤكد (فردينان آلكيه) وجعلت من فتنة الأحلام التي تعلقت بها فضاء عالمها المنشود عالم العجائب والغرائب الجميل.

- عالم الخيال: نتيجة لمعاداة السريالية للعقل والواقع ساقت براهينها حول عجز العقل عن احتواء مشكلات الواقع وفهمها، فمجّدت قدرة الخيال في التخلص من الواقع البائس، معتبرة إياه أسود لا يُعاش، لذا لازم اللون الأسود أدبياتها (الدعابة السوداء- الصدفة السوداء- الواقع الأسود) كما تبنى السرياليون مقولة (نيرفال) التي تعتقد أن: (المخيلة الإنسانية لم تخترع شيئاً لم يكن حقيقياً في هذا العالم أو غيره) لذا بنوا عالمهم في مخيلتهم للخلاص من وحول واقعهم.

- عالم اللاشعور: اعتبر السرياليون أن حالة الوعي هي بداية للانحدار إلى الجحيم[١٦] بعكس حالة اللاشعور التي تعتبر -بنظرهم- مصدر الإلهام والإبداع، لذلك شدّدوا على أن حالة (الصفاء الذهني) والتركيز العقلي هما أكبر حماقة يرتكبها الإنسان بحق نفسه، من هذا المنطلق بنوا وسائلهم وطرقهم في التعبير عبر الكتابة التلقائية -الآلية- الصادرة عن تلك العوالم الثلاثة الآنفة الذكر، وعلى هذه العوالم ترتكز أسس فلسفتهم.

السريالية/وسائل التعبير: على عكس ما يبدو للوهلة الأولى من إن السريالية لا واقعية وتحاول إزالة صفة الواقع من الوجود عبر عوالمها الخاصة (الأحلام الخيال واللاشعور) صحيح أنها تفسر الواقع عبر مسالك ودروب ومسارب لا واقعية، إلا أنها

من هذه العوالم تحاول أن تغير الواقع الموحش والمقفــر البائس، إلى واقع أكثر ألقاً وجمالاً، الجميل فيــه العجيب والغريب هذا المنطلق عكسه البيان السريــالي الأول[١٧] الذي جاء فيه: (إن كلمــة السريالية تعبر في رأينا عن الرغبــة في تعميــق أسس الواقــع والرغبة في الوصــول إلى وعي باتجــاه أكثر وضوحاً من قبل... لقد حاولنــا أن نصف الحقيقة الداخليــة والحقيقة الخارجيــة كعنصرين هما في طريقهما إلى الاندماج لكي يصبحا في النهاية حقيقة واحدة) ومن أهم الوسائل والطــرق[١٨] التــي استخدمتهــا السريالية لتغيير الواقع هي، الدعابة السوداء- الكتابة التلقائية والصدفــة الموضوعية، وذلك عبر الشعــر والرســم، فالسرياليــة رغم خفوت صوتها وعقم تناسل مؤسسيها إلا أن الشعر السريالي بما أوجــده من طرائق جديدة في الصور الشعرية والانزياحات الدلالية ترك أثــراً قويــاً في الأداء الشعــري عبر مختلف أجيــال الشعــراء ومن مختلــف الجنسيات واللغــات، والأمر عينه ينطبــق على الرسم السريــالي، وخاصــة رسوم الموهبــة الفذّة (سلفادور دالي).

١- الدعابــة السـوداء: يعتقــد السرياليون[١٩] أن الطبيعة عندما تريد تغيير الواقع والانتقام منــه تطلق العجلة الكونية (الكائنــات الشَافَّة الكبرى، التي نحسّها ولا نراها) مثــل الجائحات المرضية والأعاصير والــزلازل التي تثير الدمــار وتنشر الرعب والخوف في النفوســ، أما السريالي فعندما يريــد تغيير الواقــع فإنه يطلــق (الدعابة السوداء) بما تحمله من الهزء والسخرية من كل ماهو موجود ومألوف، والدعابة السوداء في التعريــف السريــالي لهــا تختلــف عن الضحكة الصفــراء، لأن: (الدعابة السوداء إن ضحكت هي الأخرى على غير ما تشتهي فهي تبغــي أن لا يقع الأمر... وهي لا تقبل التبرير ولا التحطيم ولا يمكن سحقها مهما تبــدى من غلبــة الآلة التــي تسحق... هي ضحكــة ملؤها الشتيمة تنطلــق من أعماق الأنــا الثائرة، وتستثير الــرأي العام والقدر الكوني وتتحداهما). لذا وصفت الفن الذي يناصــر الحرب أنــه (زبــل) والأدب الذي يؤيدهــا (دجل) وقد عبر الفنــان السريالي الفرنســي (مارسيــل دوشامب) عن الحرب واستخفافه بها من خلال رسمه لـ- (مبولة الخزف) التي أطلق عليها اسم (النبع) بينما اعتبرها الناقد الأمريكــي (ر.ويلهايم) أنها تنتمي إلى ما سماه الفن الهابط (المنيمال).

٢- الكتابــة التلقائيــة: ويطلق عليها البعض الكتابة الآلية، أي التي تتم دونما وعي وتركيز في التفكير وتلخصها المقولة التالية:

(عندما أعــي لا أعي أنني أعي) أو (عندما أكتــب لا أدري ماذا أكتب) ويعرفها (ميشيل كاروج) بقولــه: (الكتابــة الآليــة السريالية ليست حديثاً داخلياً، بل هي بالأحرى حوار بــين الإنســان الواعي والحــر، المفقود من ذاتــه بشكل غامض والــذي يتصل مع ذلك في الخفاء بالكون جميعه) وورد في البيانات السرياليــة أن: (السريالية اسم مؤنث، وهي الآليــة النفسية المحضة التــي يبتغي المرء عن طريقهــا التعبير شفوياً أو كتابياً أو بأية طريقة أخرى عــن عمل الفكر الحقيقي... بعيــداً عن أية رقابة يمارسها العقل، وبعيداً عــن أي اهتمام جمــالي أو أخلاقي) ويعتبر (بروتون) أن الكتابــة التلقائية- الآلية هي الطريقــة الوحيــدة التي يمكــن: (تحديد السريالية مــن خلالها) وتستشهد السريالية بتعريــف (أفلاطون) لحالــة (المانيا) حالة الخروج عــن المألوف[٢٠] التــي يقول عنها: (المانيا مصدر لأعظم الخبرات عندما تمن به الآلهــة علينا وهو ما أدتــه بنية (دلفي) وكاهنات (دودون) لدول اليونان والأفراد... أثناء المانيا) والكتابة الآلية بعكس ما يخطر للذهن من الوهلة الأولى أنها تتم بلا نواظم أو شروط حددها السريالي (فرنسيس جيرار) بقولــه: (إن ممارسة الكتابــة الآلية تعرّض القائــم عليها لمجموعة من الأحاسيس تميز هــذه الحالة تلك عن التــي يسببها أي نوع آخــر من الكتابة...) ومن أهم هذه الشروط والأسس[٢١]:

- عدم التركيــز وتحاشي ما يُطلق عليه (بروتون) حالة (صفاء البصيرة) لأنها تفسد تلقائية الصور والخواطر المتواردة من ساحة اللاوعي.
- عــدم استحضــار الصــور البصرية للشخصيــات والمواقف التي ترد إلى الذهن أثناء حالة الاستعداد والتهيؤ للكتابة الآلية.
- الاسترخاء الكامل والاستسلام لحالة اللاوعــي التــي بدورها تصبــح المنبع الثر للكتابة الآلية.

٣- المصادفــة الموضوعية: وهي حسب التعريف المدرســي (عملية تنبؤ حدوث أمر ما من خــلال الحاسة السادسة، واللاشعور والبصــيرة دون الاستعانــة بالمــدركات العقلية).

وفي التعريف السريالي[٢٢] حسبما يسوقه (ميشيــل كاروج) أنها: (مجموعة الظاهرات التــي تبرر غزو العنصر الخــارق في الحياة اليومية، إذ يتضح بها الإنسان يسير في وهج النهار وسط شبكة من القوى الخفية يكفيه أن يكشفها ويلتقطها ليخطو باتجاه النقطة العليــا خطوات مظفرة... إنها النذر المرئية

التـــي تنبئ بالعصـــر الذهبـــي والتي يمكن التثبت من حقيقتها).

والمصادفة الموضوعية بتعريفها المبسط: (هـــي توقع حدوث فعل ما، أو لقاء ما، دون إدراك الأسبـــاب الموجبـــة لوقوع الحدث أو اللقاء) وعلى الأغلب تكـــون مصادر التوقع مرتبطة بالماضـــي أكثر من الحاضر وهو ما يُقر به السرياليون أنفسهم من أنه- الماضي: (مقـــر ومصدر المصادفـــة الموضوعية) لأن استحضـــاره بدايـــة (لاستعـــادة السلطات المفقـــودة حسب وجهة نظرهم) وأهم موالج -مداخـــل- التعـــرف على وقـــوع المصادفة الموضوعية هـــي: الانتظار والترقب وهو ما تحدث عنـــه الشاعر الألمـــاني(٢٢) (غوته) في كتابـــه (الأدب والحقيقة) ثم الآلية التي تستحضـــر فيها النفس قـــوة (البصيرة) أما الحلـــم فهو الطريق الملكي الـــذي يؤدي إلى طريـــق أبواب المصادفة الموضوعية باعتباره المجمـــع الشبكي الذي تلتقـــي فيه الخيوط السرياليـــة بجميـــع أشكالهـــا وألوانها وقد اعتـــبره الرومانسيون بمثابـــة (عالم مستقل داخل حـــدود النوم، وهـــو منطقة مفتوحة تتصل بالحياة اليومية وبعوالم ما فوق الوعي بآن معاً).

السرياليـــة السورية: مـــع أن السرياليّة كحركة شعرية انتشـــرت واشتهرت أكثر من كونها مذهب فلسفـــي، وذلك عبر علاقات (بروتون) وجماعته مع الشعراء والأدباء في معظم أنحاء العالم. ومنها مصر التي عرفت السرياليّة عـــن طريق الشاعـــر المصري[٢٣] (جورج حنين) الذي بشر بسرياليّة[٢٧] صديقه (بروتـــون) وأسس جماعـــة سريالية سميت بـ-(جماعة الفن والحرية) وأصدرت مجلة (التطور) التي جاءت افتتاحية عددها الأول بمثابة بيان يُجمل أهداف الجماعة الساعية إلى: (محاربـــة المفاهيم السلفيّة والدعوة إلى حماية حقوق الفرد وحرية المرأة، والنضال مـــن أجل الفن الحديـــث والفكر الحر)، إلا أن الخـــلاف الذي دبَّ في سرياليّة (بروتون) توسع سعيره وطال جماعـــة الفن والحرية، فتشتت شملها وتفرق جمعها.

أمـا السرياليّـة السوريـة(٢٤): التي أسسهـــا (أورخـــان ميســـر) والدكتور (علي ناصر) فقد كانت أكـــثر تأثيراً وأصلب عوداً بمـــا أثارته من حراك نقـــدي وصور شعريّة غـــير مألوفـــة، نتيجـــة للعلاقـــات الواسعة التي ربطـــت (أورخان ميسر) بأكبر القامات الفكريّة والشعريّة- آنذاك- مثل: (سلامة موســـى- مطاع صفـــدي- أدونيس- خليل حاوي- مـــارون عبود- عزيز غنام- فؤاد الشايب- ميشيل طـــراد وسلمى الخضراء الجيوسي).

وقد حدد أورخان ميسر هدف سرياليته من خلال مقدمته للديوان المشترك[٢٥] بينه وبين علي ناصر الذي حمل عنوان (سريال). نقتطف لمحاً مما جاء فيه: (إن السرياليّة مذهب يعود في نشأته إلى سنوات سبقت نشوء الحرب العالميّة الأولى وبدأ.... في محاولات تحررية في سبيل التخلص من ضغط كابوس المقاييس الفنيّة.... وصارت الفكرة الناشئة عالماً واضح الحدود مميز الأشكال سمي بالسرياليّة، وولد لهذا العالم رواده من نخبة رجال الفن في الرسم والشعر) ومع تفرق الجمع السريالي الذي انتشر في أكثر من عشرين بلداً من بلدان العالم إلا أن تأثير السرياليّة مازال سارياً وملامحه متواجدة في معظم شعر شعراء العالم ومن أهم ملامح الشعر السريالي – انزياح الدلالة عن معناها المعتاد، والصور اللامنطقيّة، إضافة لاجتياح حقل المقدس والانتقال عبر حالة تداعي الأفكار إلى الكتابة التلقائيّة وصولاً لإعادة بناء ذاكرة جديدة تطمح لخلق عالم جديد مرتجى يتحقق فيه النعيم الفردوسي الأرضي، بدل السماوي، ليعيش فيه السريالي حياته سواء في حالتي الحلم أو الهذيان أو كليهما معاً. ويعتبر (أدونيس) و(أنسي الحاج) و(خليل حاوي) من أبرز الشعراء العرب المعاصرين الذين خلقوا صوراً شعرية تمتزج فيها الشطحات الصوفيّة بالهذيانات والتداعيات اللاشعوريّة – السرياليّة.

بعد هذا المرور العاجل على السريالية نخلص إلى التساؤل التالي: هل واقعنا العربي الجمعي كواقع باقي الشعوب والأمم الأخرى؟ لماذا نعاني الفقر ونحن أغنى دول المعمورة بالثروات الأحفورية؟

لماذا نعاني من الجوع وتوجد لدينا أخصب الأراضي؟

لماذا نعاني من فقدان الأمن ونمتلك العدة والعدد والعتاد؟

لماذا يسير العالم نحو الوحدة والاتحاد، ونسير عكس ذلك، هل نحن في واقع صحي أم واقع لا واقعي سريالي؟

ترى لو قيّض لنا فنان سريالي مثل (سلفادور دالي) الذي رسم لوحتيه الشهيرتين (الذاكرة ١٩١٣) و(الحرب الأهلية الإسبانية ١٩٣٦) كيف سيرسم ذاكرتنا العربية بوجهها السلبي المتمثل في الحروب البينية (أيام العرب) داحس والغبراء ويوم حليمة، والتي ما زالت مستعرة وإن بأسماء وأدوات جديدة في (السودان– العراق– الصومال وأخيراً في اليمن) وأخيراً ألا تكفي غفوتنا السريالية التي طالت أمداً لم يعد محتملاً؟! ذلكم ما يأمله الجميع فهل من صحوة ولو بعد حين؟!.

الهوامش والمراجع

١- فلسفة السرياليّة- تأليف فردينان اَلكية- ت. وجيه العمر- وزارة الثقافة- دمشق١٩٨٧م.
٢- تاريخ الفلسفة الحديثة- تأليف مجموعة من الأساتذة السوفييت ط١- دار الجماهير- دمشق- دار - بيروت.
٣- صحيفة الفرات- العدد ١٤٣٨ تاريخ ٢٠٠٩/١١/١٧- مؤسسة الوحدة للصحافة والطباعة والنشر- دير الزور- نقلاً عن كتاب (الدادائية) تأليف ديتمار الجير- ترجمة إسماعيل كرك.
٤- المصدر السابق.
٥- ارنديه بروتون والمعطيات الأساسيّة للحركة السرياليّة- تأليف ميشيل كاروح- ترجمة إلياس بديوي- وزارة الثقافة- دمشق ١٩٧٣م.
٦- المصدر الأول - ص١٦٢ وما بعدها.
٧- المصدر السابق - ص١٢٦ وما بعدها.
٨- أراغون- تأليف سامي الجندي ط١- دار الجندي- دمشق ١٩٩٠.
٩- المصدر الأول — ص١٢٧.
١٠- المصدر السابق- ص١٧٩ وما بعدها.
١١- المصدر الثالث.
١٢- مجلة العربي- العدد ٢٩ عام ١٩٦١- وزارة الإعلام- الكويت ١٩٦١م.
١٣- المصدر السابق- ص١٢٤ وما بعد.
١٤- المصدر الخامس- ص٢٨٠ وما بعد.
١٥- المصدر الثاني عشر - ص١٢٧ وما بعد.
١٦- أراغون- برنار لوشربونيه- ترجمة ولي الدين السعيدي- وزارة الثقافة- دمشق١٩٧٩م.
١٧- المصدر الأول - ص٤٢ وما بعد.
١٨- المصدر السابق - ص١٢٥ وما بعد.
١٩- المصدر الخامس- ص١١٤ وما بعد.
٢٠- المصدر السابق- من ص١٣٣- - ص١٦٨
٢١- المصدر السابق - ص١٨٠ وما بعد.
٢٢- المذاهب الأدبية لدى الغرب- دراسة- عبد الرزاق الأخضر- منشورات اتحاد الكتاب العرب- دمشق ١٩٩٩م.
٢٣- قضايا وشهادات- كتاب دوري شهري- دراسات- ص١٥٨- عدة مؤلفين العدد الثالث- مؤسسة عيبال للدراسات والنشر ١٩٩١م.

٢٤- المصدر السابق.
٢٥- المصدر السابق- ص١٥٩ وما بعد.
٢٦- الحياة التشكيليّة- العدد الأول عام ١٩٨٠م.
٢٧- المصدر الأول - ص١٧٨.
٢٨- المصدر الخامس- ص١٣٣ وما بعد.
٢٩- المصدر الأول- من ص١٩٣- ص٢١١.
٣٠- مجلة المعرفة- العدد ٢٥٤- وزارة الثقافة- دمشق١٩٨٣م.



الأدب السرياني وأثــره في الأدب العربـــي

الأب جوزيف شابو ❊

إذا عــرف المرءُ أنَّ الخلافةَ العربيةَ الإسلاميةَ نشأت وترعرت وازدهرت في قلب العالم الآرامي السرياني، أي في قلب بلاد الشام والرافدين، واتخذت دمشــق حاضرة الآراميــين عاصمة أيّامَ بني أميّةَ وبغــدادَ أيّامَ بني العبّاسَ، فلن يكونَ من الغريبِ لديهِ أن يكونَ للأدبِ الآرامي السرياني تأثير في الأدب العربي، ولكنَّ الغريبَ المُستغــرَبَ لديهِ سيكون ألاّ يكونَ للأدبِ السرياني أثرٌ قوي في الأدب العربي.

❊ باحث ورجل دين سوري .

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

وإذا عـرفَ المـرءُ أنَّ الأدبَ فـنٌّ سداهُ ولحمتُـه اللغةُ، وأنَّ الألفـاظَ السريانيةَ في المعاجـمِ العربيةِ كثيرةٌ جـدّاً فلن يتردَّدَ في اتخاذِ هذهِ الحقيقةِ دلالةً ناصعةً على تأثيرٍ قويٍّ لـلأدبِ السريـاني في الأدبِ العربي. وللاطّـلاعِ على هذه الحقيقـة يكفي المرءَ أن يطَّلـعَ على كتـابٍ في مُجلَّديـنِ بعنوانِ «الألفـاظ السريانية في المعاجـم العربية» من تأليف عضو المجمـع العلمي في دمشق العلاّمـةُ البطريـرك أفـرام الأوّل برصوم ١٩٥٧م، الذي أحصى ودرس ثمانمئة وتسعاً وخمسينَ لفظاً سريانياً في المعاجم العربية، وعلى كتابٍ بعنـوان «البراهين الحسيّة على تقارض السريانيـة والعربية» لعضو المجمع العلمي بدمشـق البطريرك العلاّمة يعقوب الثالث ١٩٨٠م.

وإذا عرفَ المـرءُ أنَّ الأبجدية نشأت في عالم نطق بالسريانيـة قرابةَ ألفٍ وخمسمئة سنـةٍ نصفُها قبل الميلاد ونصفُها بعدهُ، وأنَّ أبجديتها أصبحتْ أبجدية اليونان واللاتين والأرمن والفرس والـترك والمغول ووجدت آثارهـا في الهند والصـين فلن يستغرب أن تكـون أبجدية العربية التي قامت دولتها في حاضرتـي العالم الناطـق بالسريانية دمشق وبغداد.

وإذا عرف المـرءُ أنَّ تنقيـطَ الأبجدية العربية والعبريةِ منقولٌ عن تنقيط وتشكيل الأبجديـة السريانيـة فسيعـرفُ أهميـة السريانية في النقـلِ الأمينِ للتراث المكتوب بالعربية جيلاً ينقلُ مشعل المعرفة إلى جيلٍ يليه.

وإذا عرفَ المرءُ أنَّ الإنسانَ دوَّن المسماريّةَ أوّلَ مرّةٍ على طـينِ هذهِ الأرض ونقشَ أوّل أبجدية على قرميدِها فكانَ التاريخُ وكانَ ما قبل التاريخ، فلن يستغـربَ أن يبدأ «عصر التدوينِ» على هذه الأرض ذاتها.

وإذا عرفَ المرءُ أنَّ السريانية في العصور الوُسطى كانت جسراً لعبور الفلسفة والعلوم والآداب اليونانيـة إلى العربيـة وأنَّ حركة الترجمة هـذه صارتْ جسـراً لعبور أوروبة إلى عصـر النهضـة فيما بعـدُ، فلن يجهل أنّ السريانية هـي الجسر الذي عبرت عليه العربيـة من لغة شعـر إلى لغة علم وفلسفة وألسنية وصيرورتها الأساس المتين للحضارة العربية الإسلامية في أوج ازدهارها. يقول محمد عطيـة الأبراشي: «إنَّ تاريخَ الفلسفةِ ليذكرُ هؤلاءِ المترجمـين (السريان) بالتجلَّةِ والتبجيـلِ لما كان منهم من دقّةٍ في الترجمة وأمانةٍ في النقلِ وما استفادتْهُ اللغةُ العربيةُ من هذه الكتبِ المترجمةِ. فقد وَثَبَتْ بفضلِ هذه الحركةِ الوثبةَ الثانيةَ بعد النهضةِ التي نهضتْها بعد نزولِ القرآن» (١) .

وأخيراً إذا عرف المرء أن النبي العربي حث كتبتَه في الحديث الشريف على تعلّم السريانية فمن السهولة أن يتبيّن دلالة هذا الحديث، وهي أهميّة هذه اللغة مفتاحاً للثقافة والحضارة وبناء الدولة، وذلكَ بغضِّ النظرِ عمّا إذا كانَ الحديث صحيحاً أم ضعيفاً أم موضوعاً.

ومن أجل اطّلاعٍ أمثلَ على أثر الأدب السرياني في الأدب العربي لا بدَّ من إلقاءِ نظرة سريعةٍ شاملةٍ على تاريخِ الأدب السرياني وأثرِهِ في الكثير من آداب الأمم إبّان نهضته وازدهاره.

نظرة سريعة في تاريخ الأدب السرياني

لم يصل إلى أيدينا من آثار الأدب السرياني قبل المسيح إلاّ شذراتٍ نادرة وأخبارٌ من المستحيل التحقّقُ منها. ومن تلك ما يذكرُ عن شاعر باسمِ وفا الآرامي ومخطوطة منقوصة كثيرة الثغرات عن قصة وأمثال أحيقار الحكيم اكتشفتْ في جزيرة الفيلة عام ١٩٠٨ ويقدِّرُ دارسُها وناشرُها ساخو أنَّ زمن كتابتها يقع بين ٥٥٠ و٤٥٠ ق.م. ولأهمية هذه القصة وانتشارها في الآداب العالمية القديمة سنتحدث عنها وعن أثرها في الأدب العربي لاحقاً.

أمّا في القرنِ الرابع الميلادي فنجد الأدبَ السرياني في أوجٍ من التوهّج والازدهار بلغة غنية ذات بريقٍ يشي بتاريخ أدبي عريق لا نعرفُ عنه إلا شذراتٍ وومضات. وهذا الانبثاق الغريبُ والتوهج المفاجئ للأدب السرياني في القرن الرابع من خلال عبقرية شعرية ولاهوتية فذّة تربعَّت على عرش العالمية وترجمت أشعارُها وآثارُها إلى كل لغات العالم المسيحي في زمن حياتِها وعُرِفَتْ باسم مار أفرام السرياني أو السوري لا يُمكنُ تفسيرُه بعاملٍ أقوى من ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة السريانية وابتداء حركة ترجمته وتنقيحه واستمرارها حتى أواخر القرن السابع.

المدارس السريانية

يقول أحمد أمين: «كان للسريان في ما بين النهرين نحو خمسينَ مدرسةً تُعلَّمُ فيها العلوم السريانية واليونانية ... وكانَ السريان نَقَلَةَ الثقافةِ اليونانية إلى الإمبراطورية الفارسية ثمَّ إلى الخلافة العباسية»[٢].

وانتشرت المدارس ومراكز العلم الملحقة بالكنائس والأديرة أو المستقلة في ربوع بلاد الشام والرافدين انتشار الخمائل وترقرقت المعرفة ترقرق الجداول. ومن أهمِّها مدارسُ نصيبين والرُّها وقنّسرين وأنطاكيا وتلعدا وحرّان وقرتمين في طورعابدين ودير زوقنين أي مدرسة مار يوحنّا قرب ديار



بكر، ومدرســة مار حنانيا قــرب ماردين، ومدرسة دير ماربرصومـا بملطية ومدرســة رأس العـين وجنديسابور ومدرسة دير مار متّى في بلاد الرافدين. وينبغــي أن نذكــر تكريت مركز المفريانية السريانية بـين ٦٢٨ والقــرن الثاني عشر التــي أضحت – كما يقــول المطــران اسحــق ســاكا «أوّل موقع سرياني انطلقت منه شرارة التأليف والتصنيف في لغة الضاد. وصارت لمــدة ثلاثة قرون مــن أوائل القــرن التاسع وحتى أوائل القرن الثاني عشر مركزاً فكريّاً عربيّاً يشار إليه بالبنان. وبرز فيها مشاهير أعلام السريان الذيــن كتبوا بالعربيّة أمثالَ الفيلسوف يحيى بنُ عدي ٩٧٤م»[٣].

تمحور النشــاط العلمي والتعليمي في هذه المدارس حــول الكتاب المقدَّس ترجمةً وتفسيراً وشرحاً. ثــم دخلت العلوم اللغوية بدراســة اليونانيــة وتقعيد قــراءة الكتابة السريانية وتطور ذلــك إلى قيام علم النحو والصــرف مع يوسف الأهــوازي (ت ٥٨٠)، واستعين بالفلسفــة اليونانية لفهم العقائد فنشأ علم اللاهوت. أمّا حركة الترجمة عن اليونانيــة فقد بدأت بترجمــة الإنجيل عن اليونانيــة إلى السريانية وترجمة التوراة عن اليونانية والعبرية منذ القرن الميلادي الأوّل أو مطلــع الثاني. منذ القــرن الرابع بدأت حركة الترجمة عــن اليونانية إلى السريانية لمؤلفــات فلسفية ولاهوتيــة كتبها فلاسفة ولاهوتيــون مــن مدرسة أنطاكيــا[٤]. وفي العصر الأموي قاد عبد الملك بن مروان حركة

التعريب على أيدي السريان من اليونانية إلى العربية فعُرِّبتِ الدواوينُ وبعضُ المؤلفات، ولكنَّ النهضة الكبرى لحركة التعريب كانت في العصر العبّاسي بقيادة المأمون الذي أنشأ دار الحكمة وكان يكافئ المترجمين السريان وغيرهم بوزن الكتاب المترجم ذهباً. فكانت قوافل الكتب اليونانية تترى من بيزنطة إلى بغداد لينكبَّ المترجمون إلى ترجمتها إلى السريانية ومنها إلى العربية. ولا تُذكر حركة التعريبِ المباركةُ هذهِ إلا يُذكرُ اسم رئيس بيت الحكمة حنين بن اسحق وابنُهُ اسحق بنُ حُنين وحُبيش بن الحسن الأعسم وأيّوب الأبرشُ الرهاوي ويحيى بن البطريق وقسطا بنُ لوقا وغيرهم كثيرون يشكلون كوكبةً من فرسان الأدب والعلم أسَّست ورسّخت الدعائم المعرفية للدولة العربية وجسراً لعصر النهضة الأوروبية.

قام هؤلاءِ بتعريب علوم الطب والفلك والرياضيات والهندسة والعمارة والفلسفة والبلاغة والنحو وغيرِ ذلك من ميادين المعرفة مما تحتاج إليه الخلافةُ العربية الواسعة لإدارة شؤونها والإمساك بزمام أمورها وعمارها وازدهارها. أخبارُ هذه الحركةِ كثيرةٌ في مصنَّفات عربية وأجنبية بلغات العالم الحيَّة. فضلاً عن أن الترجمة بحد ذاتِها علم رصينٌ وفنٌّ رفيعٌ، كان للسريان مجالٌ للإبداع في الشرح والتعليق والاختصار والإضافات. وفي هذا الصدد يقول جورج سارتون: «إن بعض المؤرّخين يصرّحونَ أنَّ العرب المسلمين نقلوا العلوم القديمة ولم يُضيفوا إليها شيئاً ما، وأن هذا الرأيَ خطأ»(٥). وإلى جانب ذلك أبدع السريان في كتابة التاريخ الكنسي والدنيوي مثل يشوع العمودي مؤلف «تاريخ وأحداث سوريا وما بين النهرين» من سنة ٤٩٥ حتى ٥٠٦. وكتاب «تاريخ الرها» من سنة ١٣١ حتى ٥٤٠م مجهول المؤلف. وتاريخ يوحنّا الأفسسي وتاريخ ميخائيل الكبير وتاريخ ديونيسيوس التلمحري وتاريخ الزمان وتاريخ مختصر الدول لابن العبري. وفي تفسير الكتاب المقدّس مؤلفات كثيرةٌ تزخر بها المكتبة السريانية حتى اليوم. وفي ميدان الشعر الروحي والإخوانيات نبغ أعلامٌ عظامٌ كمار أفرام السرياني ومار أفراهاط الملقب بالفارسي وبرديصان ونرساي ومار يعقوب السروحي ومار اسحق ومار بالاي وغيرهم. وفي الشعر الملحمي قصّة يوسف الصديق المنسوبة لمار أفرام، وهي ملحمة يشعر قارئُها أنَّه يقرأ إحدى أروع روائع شكسبير، وقصيدة الفردوس لمار أفرام أيضاً من ١٥ نشيداً، وملحمة «الفردوس المفقود» لأحد شعراء السريانية التي يرى فيها

بعضهم الأبَ الشرعي لملحمة ملتون بالعنوان ذاته. وفي مجـال القصص كتب قصاصون مجهولون قصصاً تاريخية ودينية كثيرة مثل أهـل الكهـف والإسكندر وسـيَر القدّيسين والنسّـاكِ وقصصـاً تاريخيـة مثـل قصة حيـاة قسطنطين الكبير وأولاده، وقصة عن أوسابيوس الروماني وجوفيان(٦). وترجمتهم لقصص كليلة ودمنة وقصة أحيقار الحكيم وأمثاله. وظهـر ترجمة بتصرف لخرافات إيسوب بقلم راهب سرياني من القرن العاشر أو الثاني عشر الميلادي(٧).

أثر الأدب السرياني في الأدب العربي

يجدرُ بنا الإقرارَ بـادئ ذي بدءٍ بأنَّ ما نقولُـهُ في هذا المجالِ لا يستـوفي الشروطَ الأكاديميةَ. وعذرنا في ذلكَ أنَّ هذا الموضوعَ غير مدروسٍ في أقسـام الأدبِ العربيِّ في جامعاتنـا، ولا في جامعات غيرنا في حدود علمِنـا. لذا لن يتعدّى قولُنا في هذا المجالِ سوى إشاراتٍ وومضاتٍ قد يكونُ فيها بعضُ الفائدةِ لمن يتحشّد لدراسةٍ أكاديمية لجزئية من جزئيّات هذا الموضوع.

اللغـات والآدابُ تؤثِّـر في غيرِها وتتأثَّر بغيرِهـا. والأدب السريـاني يحمـل آثـاراً وبصماتٍ من لغاتِ وآداب الشرق القديم في أكاد وآشور ونينوى والممالك الآرامية. وقد أثّـر الأدبُ السرياني في آداب العالم القديم: يكفـي أن نذكرَ أنَّ أشعار مار أفرام تُرجِمت إبّـان حياتِه إلى كل لغـات العالم في العصور الوسطى ومنها العربيـة. تقول المستشرقة الروسيـة نينا بيغوليفسكايـا: «وقد وصلنا تُـراثُ أفـرامَ ليسـ بالسريانيـة فقط، بل بترجماتِـه إلى اليونانية واللاتينية والعربية والقبطية والحبشية والأرمنية والجيورجية وغيرِها من اللغات»(٨). وعن تأثير مار أفرام تقـول المستشرقـة الروسية: «وتوجـدُ أدلَّةٌ كافيةٌ للقولِ إنَّ ترجمةَ أشعارِ مار أفرامَ من السريانيـة إلى اليونانية لعبتْ دوراً كبيراً في تطويرِ الأسلوبية الشعرية والنثرية في الكتابة اليونانية... ويكفي القـولُ بأنَّ الموضوعاتِ التي كانتْ تُشكِّلُ محورَ اهتماماتِه (الشعرية والنثرية) ظلَّتِ المادةَ الرئيسيةَ لنموِّ القصائدِ الليتورجيةِ والأساسَ المتين الذي اعتمدتْهُ التراتيـلُ والألحـانُ المسيحيـةُ في مختلفِ الطقوسِ الكنسيةِ في الشـرقِ والغربِ على مدى قـرونٍ زمنية كثـيرة»(٩). وفيما يتعلّقُ بتأثير السريانية في العربية وآدابِها، من المفيدِ أن نذكرَ قبل كلِّ شيءٍ أنَّ مملكة اللغة العربية الفصحى كما نعرفها اليوم قامت على أرض مملكـة اللغة الآرامية السريانية، ولهذا نرى أثر الآرامية واضحاً في اللهجات المحكيّة في بلاد الشـام والرافدين وفي أمثالها الشعبية أيضـاً. في كتابه «أحيقار حكيم من الشرق»

يقارن الدكتور أنيس فريحة أمثال أحيقار بالأمثال الشعبية اللبنانية التي خصص لها كتاباً مستقلا فيجد تشابها جزئياً أو كليّاً بينهما. كما يذكر في مقدمة كتابه المذكور حيثُ يتحدث عن بقاء هذه القصة في الحكايات الشعبية اللبنانية فيقول: «وتمر السنون فأجد نفسي تلميذاً في جامعة ألمانية أدرسُ على المستشرق الشهير أنّولتمان الآرامية والعربية الجنوبية. وفي ذات يوم دخل علينا وبيده نسخٌ فوتوغرافية لأوراقٍ من البردي عليها كتابة آرامية وُجِدَتْ في جزيرة الفيلة في جنوبي مصر وقال: أحبُّ أن أقرأ معكم قصّةَ أحيقار! وما إن سمعتُ كلمة أحيقارَ حتى عدتُ بالذكرى إلى أيّام العجوزِ هَلّون! إذاً قصّة أحيقارَ قديمةٌ تعودُ إلى قرونٍ قبلَ الميلاد. مَنْ أخبرها هذه القصّة؟ كيفَ تحدَّرتْ هذهِ القصّةُ من بلاد آشورَ إلى الشعوب الآرامية فالمسيحيةِ إلى هَلّون؟ مِنْ هنا كانت عنايتي بهذهِ القصّةِ التي أدهشتني طفلاً واستأثرتْ باهتمامي رجلاً»[١٠].

وفي مجالِ تأثيرِ السريانية في اللغة العربية الفصحى نذكرُ سلسلةَ مقالاتٍ نشرتها مجلّة المجمع العلمي بدمشق خلال ١٩٤٨ – ١٩٥١ لعضو المجمع البطريركَ أفرام برصوم في كتابه «الألفاظ السريانية في المعاجم العربية» يدرس ويُحصي ثمانمئة وتسعة وخمسينَ لفظاً، مثل: أَبَلَ: يعني «حزِنَ، تنسَّكَ» بالسريانية. وورد في التاج واللسان وذيل أقرب الموارد: «أَبَلَ الرجلُ أبالةً تنسَّكَ وترهَّب». أبيل: «حزين، ناسك» بالسريانية. وأمّا قولُ ابنِ دُرَيد وصاحب الجمهرة ص ٣٣٩ أنَّ الأبيلَ هو الذي يضرب بالناقوس مستشهداً بقول الأعشى:

«فإنّي وربِّ الساجدينَ عشيَّةً

وما صكَّ ناقوسَ النصارى أبيلُها.

فليس بصوابٍ وإنَّما هو الناسكُ المترهِّبُ وكانَ بعضُ هؤلاءِ يُقيمُ في البيعةِ فيتولَّى الضربَ بالناقوس»[١١]. ونضربُ صفحاً عما ذكر وأحصى البطريرك يعقوب الثالث في كتابه «البراهين الحسية». وينوِّهُ محمد عطية الأبراشي بما استفادته اللغة العربية من حركة الترجمة والتعريب عبر السريانية قائلاً: «إنَّ تاريخَ الترجمة ليذكرَ هؤلاءِ المترجمين بالتجلّة والتبجيل لما كان منهم من دقّةٍ في الترجمة وأمانةٍ في النقلِ ولما استفادته اللغة العربية من هذه الكتبِ المترجمةِ. فقد وثَبَتْ بفضلِ هذه الحركةِ الوثبةَ الثانية بعد النهضة التي نهضتها بعدَ نزول القرآن»[١٢]. ومن البدهي القول: إنَّ التأثرَ اللغوي يعكسُ تأثيراً في الأدب أيضاً.

وقد كُتِبتِ العربية أوَّلَ ما كُتِبَتْ بالخطِّ

السرياني الإسطرنجيلي. لقد «ذكر اكلمنضس هوار في كتابِهِ الآدابُ العربيةُ ص ٧ أنَّ رحّالةَ الأنبــاطِ نقلوا إلى بلاد العــربِ من سورية القلمَ السرياني الإسطرنجيليَّ فتداولتْهُ اللغةُ العربيةُ وذلك في القرنِ السادسِ الميلادي»[١٣].

وما الخــط العربي الــذي نستخدمه اليوم سوى تطويرٌ للخط السرياني. ومَنْ يُلاحظ الحــروف العربيــة التي نستخدمهــا اليوم يجــد علاقةً لها بالخــط السرياني. فالتاء والثاء لهما رسم واحــدٌ ويتميزان بالتنقيط وهذا هو الحال في الخــط السرياني أيضاً وهــي من الحروف المتبادلــة بين السريانية والعربية. والصــاد والضاد والعين والغين ذوات الرســم الواحد من الحروف المتبادلة بين العربية والسريانية. والحاء والخاء لهما رسمٌ واحدٌ بحسب اللفظ السرياني الشرقي وهمــا من الحــروفِ المتبادلة بــين العربية والسريانيــة. ولا يشذُّ عن ذلك سوى حرفِ الجيم الذي لا مقابل لــه في السريانية كما نلفظهــا اليومَ. هذه الملاحظــةُ تبعثُ على الاعتقادِ بأنَّ مبتكــرَ هذه الحروف العربية المستخدمة اليومَ هو سريانيٌّ أو عربيٌّ ضليعٌ في السريانية والعربية معاً. ونختم بالقول: إن كانت اللغاتُ الفهلوية والأرمنية والسغدية والتركية قد استخدمتْ الأبجدية السريانية للكتابةِ فليســ غريباً أن تستخدمها العربية وهــي لغة شقيقــة للسريانيــة وعاشت بعد الفتح العربي على أرض ناطقة بالسريانية. هكــذا أيضــاً فعل الأتراك بعــد احتلالهم البــلاد العربية، فقــد استخدموا الأبجدية العربيــة بدلا من الأبجديــة السريانية التي كانــوا يستخدمونها. يقول فيليب حتّي عن الأتــراك: «أخذوا أيضاً الحــروف العربية للكتابــة فظلت شائعة حتــى ١٩٢٨ بينما لم يكن للأتراك في آسية الوسطى سوى اليسير مــن الأدب المُدوَّن وكانــوا يكتبونه بالحرف السرياني الذي أدخله النصارى السوريون إلى تلــك البلاد»[١٤]. ومن الواضح أنّ المقصود بتعبير «النصــارى السوريون» هو «النصارى السريان» لأنَّ المعنى واحدٌ. وفي مجالِ تأثير السريانية على اللغة العربية ينبغي أن نشير إلى وسيط عظيم هــو القبائل العربية التي تنصَّرت منذ القرون المسيحيّة الأولى وكانت كنيستُها هــي الكنيسة السريانيــة ورعاتُها سريــان كمــار أحودامة وجرجســ أسقف العرب.

وفي مجــال الرياضيــات نذكــر ساويرا سابوخــت من القرن السابع الذي «على يده وصلت الأرقام الهندية إلى العرب»[١٥].

في مجال علم اللاهوت كانَ للسريان أثرٌ كبيرٌ في تطورِّه في لغــاتٍ أخرى. تقول نينا بيغولفسكايا: «ويجدرُ بالذكرِ أنَّ العالمَ الناطقَ

بالسريانية في ذلكَ الحينِ لعبَ دوراً جوهريّاً في هذه الحركاتِ والاتجاهاتِ الفكريّة، وفي نشرِ مختلفِ المذاهبِ والعقائدِ والأفكار»[١٦]. فهل كان لعلـم اللاهوتِ السريـاني أثرٌ في اللاهوت العربيِّ الإسلامــي. كلُّ ما يمكنُ قولُه هنا هو أنَّ تسميةَ علم اللاهوت العربي الإسلامــي بـ «علم الكلام» أمر لافتٌ لانتباهِ أيِّ مُلمٍّ باللغــة السريانية. إنَّ السريان قبل العرب المسلمين سمّوا هذا العلم بـ«مالولوتو مملـوث آلوهوثو» وهو لفـظ سرياني يعني تماماً «علم الكلام».

يوسف الأهوازي (ت ٥٨٠م)

يوســف الأهوازي هذا ترجــم بتصرّفٍ كتاب ديونيسيوس ثراكوس (التراقي) (١٦٠ – ٩٠ ق.م) المعنون بـ«فن النحو» إلى السريانية بعنوانِ «هــدف النحو». وبذلك أصبح لدى السريــان مصــدران لتأسيس علــم النحو السريــاني: كتاب الأهوازي هذا وملاحظات المُقرئــين «مقريوني» أي مــا يُعرَفُ بالعبرية ب «الماســورا» أو علم قراءة الكتب المقدّسة. يقول مركس عن هذا المصدر المزدوج للنحو السريــاني: «المصدر المــزدوج هو عبارة عن المصــدر المــادّيِّ المعتمدِ علــى ملاحظات المعلّمــين في الكتب المقدّسةِ، ومصدرٌ شكليٌّ أي اصطلاحــيٌّ وهو المُعتمــدُ على النظرية النحويــة المأخوذةِ من كتــب اليونانيين»[١٧].

نذكرُ عملَ الأهوازي هذا لأَنَّهُ كما نرى كان تمهيــداً لنشأة النحــو العربي بعد ما ينوف على قرنين من الزمان. فقد توفي الأهوازي عــام ٥٨٠ م بينمــا توفي سيبويــه صاحب «الكتاب» أي أوّل كتاب في النحو العربي عام ٧٩٦ م، وتوفي خليل الفراهيدي معلّم سيبويه قبل ذلــك عام ٧٨٦ م. وتــوفي أبو الأسود الدؤلي عــام ٦٨٨ م. ومَــنْ يتدبَّر مفاهيم ومصطلحات النحو العربي بإمكانه أن يتبيّن أثــر التعريب في الكثير منهــا عن المفاهيم والمصطلحــات النحوية السريانية، مثل اسم فاعــل واســم مفعــول وصفة واســم وفعل وحرف وجملة اسميــة وجملة فعلية، بل إن مصطلحات مرفوع ومنصوب ومخفوض هي ترجمة حرفيــة لأسماء الحركات السريانية «عصوصو، حبوصــو ربوصو» وفق ما يذكر الدكتــور أنيــس فريحة في كتابــه «تبسيط قواعد اللغة العربية». ويلاحظ أحمد أمين مجــاورة البصرة والكوفــة لمدرستي الحيرة وجنديسابور السريانيتين فيستنتج من ذلك أثرهمــا في نشأة النحــو العربي فيقول في كتابــه «فجــر الإســلام»: «وكانَ طبيعياً أنْ ينشــأ علم النحو في العــراق .. لأنَّ الآدابَ السريانيةَ كانتْ في العراق قبل الإسلام وكانَ لها قواعدُ نحوية فكانَ من السهلِ أن توضعَ قواعدُ عربيةٌ على نمطِ القواعدِ السريانيةِ

خصوصـاً واللغتانِ من أصـلٍ ساميٍّ واحدٍ لهـذا كان السابقـونَ إلى وضـعِ النحو هم البصريونَ والكوفيون»[١٨].

وقـد لاحظ وكتب بعض الكتّاب عن أثر النحـو اليوناني في النحـو العربي. ولكنهم لم يعرفـوا أن هـذا الأثر اليونـاني كانَ عن طريـق النحو السرياني. تذكر ماجدة عماد الدين سالم مدرسة السريانية في كلية الآداب بالقاهـرة أن كثيريـن قد كتبـوا حول هذا الموضـوع ومنهم الدكتور إبراهيم شعلان في كتابه «النحو بين العرب واليونان».

خاتمـــة

وختاماً أقـولُ: ينبغي أن نضيفَ حقيقة ناصعة هـي أنَّ الكنيسة السريانية ما زالت محافظةً على بقـاء اللغة السريانية الكتابية لاستخدامها في طقوسِها في الشرق والمهاجر، وما زال بعضُ الأدبـاء يكتبونَ بها وقد نبغ منهم كثيرونَ مـن أيام سفر برلك في القرن الماضي حين أسَّست الكنيسة ميتماً ومدرسة لاهوتية لهم. وهذا يعني أنَّ اللغة السريانية وآدابها وتاريخها وعلومَها مُرشَّحةٌ للازدهار متى توفَّـر لها مدارسُ ومعلِّمون. ولا يفوتنا أن نذكـرَ دورَ الموارنـة، علـى سبيل المثال السماعنة والقرداحـي وغيرُهم في تدريس السريانيـة في الغـرب في القرنـين الثامن عشـر والتاسع عشر ومـا كان لذلك من أثرٍ حاسـم في قيام وازدهـار حركة الاستشراق في الغـرب. كَما ينبغي أن نُعيدَ إلى الأذهان دورَ السريـان في ترجمة التراث اليوناني إلى العربية في قيام حركـة النهضة الأوروبية. هذه الحقائق الناصعة تقودنا إلى الاستنتاج أنَّ تأسيـس كليّـة للدراسـات السريانية في بلادنـا مُرشحَّةٌ لأنّ تنتقـلَ الحركةَ الثقافية فيها نقلة نوعيّةً تاريخيّةً فائقة.

الهوامش

١- عبد الهادي نصري، شمس آرام شمس العرب، ص ٢٧١ -٢٧٢.
٢- أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج ٢، ص ٥٩ — ٦٠.
٣- اسحق ساكا، كنيستي السريانية، دمشق: ١٩٨٥، ص ٢٠٢.
٤- ماجدة محمد أنور، فن النحو، ص١٦.
٥- قدري حافظ طوقان، العلوم عند العرب، ص٤.
٦- شمس آرام شمس العرب، ص١٦٠.
٧- رشيد يوسف عطا الله، تاريخ الأدب العربي، ج٢، عز الدين للطباعة والنشر ط١، ١٩٨٥، ص ٢٧٦.
٨- نينا بيغولفيسكايا، ثقافة السريان في العصور الوسطى، ص ١٩٣.
٩- نينا بيغوليفسكايا، ص ٢٠٥- ٢٠٦.

١٠- أنيس فريحة، أحيقار حكيم من الشرق، بيروت: منشورات كلية العلوم والآداب، ص ٨.
١١- البطريـرك أفـرام الأوَّل برصوم، الألفاظ السريانيــة في المعاجم العربية، نُشِر تباعاً في مجلّـة المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٤٨- ١٩٥١، ص١٢.
١٢- عبد الهادي نصري، شمس آرام شمس العرب، ص ٢٧٢.
١٣- أفرام برصوم، الألفاظ السريانية في المعاجم العربية، ص٦.
١٤- فيليب حتّي، تاريخ العرب، بيروت: دار الكشاف، ١٩٨٦، ص٨١١.
١٥- فيليـب طـرازي، عصر السريان الذهبي، حلب: دار مكتبة العائلة، ط ٣، ص ١٧. المشرق – مج ١٤، سنة ١٩١١، ص٢٣٩.
١٦- نينا بيغوليفسكايا، ثقافةُ السريان في العصور الوسطى، ص ١٩١.
١٧- ماجدة محمد أنور، فن النحو بين اليونانية والسريانية، المركز المصري العربي،٢٠٠١،ص ٣٣.
١٨- أحمد أمين، فجر الإسلام، ص٢٢٠.

المراجع

- البطريرك أفرام برصوم، اللؤلؤ المنثور، حلب: سلسلة التراث السرياني، ١٩٨٧.
- البطريرك أفرام برصوم، الألفاظ السريانية في المعاجم العربية، حلب: سلسلة التراث السرياني،
- البطريرك يعقوب الثالث، البراهين الحسيّة على تقارض السريانية والعربية، دمشق.
- اسحق ساكا، كنيستي السريانية، دمشق: ١٩٨٥.
- بولس بهنام، أحيقار، بغداد: منشورات مجمع اللغة السريانية، ١٩٧٦.
- فيليب طرازي، عصر السريان الذهبي، حلب: ، دار مكتبة العائلة، ط٣.
- المشرق– مج ١٤، سنة ١٩١١، ص٢٣٩).
- د.محمد خير الحلواني، المُفَصَّل في تاريخ النحو العربي قبل سيبويه، ج١، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٧٩.
- عبد الهادي نصري، شمس آرام شمس العرب، حلب.
- ماجـدة محمد أنور، فن النحو بين اليونانية والسريانية والعربيــة: ترجمة ودراسة لكتابي ديونيسيوس (١١) ثراكس ويوسف الأهوازي، القاهرة: المركز المصري العربي ٢٠٠١.
- محمـد عبـد الحميد الحمـد، إسهام السريـان في الحضـارة العربية، حلب: دار الرهـا، سلسلة الـتراث السرياني، ٢٠٠٢.
- نينا بيغوليفسكايا، ثقافة السريان في العصور الوسطى، ترجمة د. خلف الجراد، دمشق ١٩٩٠.



حوار العدد

مع حسن حميد:

(٢٦) كتاباً حتى الآن

حـــوار: عادل أبو شنب

حوار العدد



حسن حميد:
٢٦ كتاباً حتى الآن

إعداد: عادل أبو شنب*

صديق فلسطيني أحبه وأحترمه، هو الكاتب حسن حميد الذي يحار في زمان ومكان ولادته. إنه مقيم في دمشق، وقد أدركته حرفة الأدب فيها.. فطبعت له المطابع ٢٦ كتاباً، منها ١٥ مجموعة قصصية و٥ دراسات و٦ روايات، يكتب السابعة حالياً عن القدس، بشكل رسائل كلها أسئلة بلا أجوبة.

* أديب وقاص سوري.

عمـل رئيس تحرير، وهــو متفرغ حالياً للكتابة، وإذ كان أنتــج ٢٦ كتاباً وهو شاب، فيصل رصيــده إلى ١٠٠ عندما يشيخ، مد الله في عمره، وأعطانا المزيد.

إنه ليسعدني أن أحاور حسن حميد

❁ ❁ ❁

- المولد والنشأة والدراسة؟

• حيرتي في مولدي، تاريخاً ومكاناً، هي أشبه بالحيرة التي يعيشها أهلي، وقد اقتلعوا مــن أرضهم المباركــة، فلسطين، فصرنا في منفى أنثناه بذوب أرواحنا، وأحزاننا خياماً، ثم بيوتاً من طين.

كنت صغيراً حين ألحقتني أمي بالمدرسة، كان أخوالها يدرسون في المدرسة الابتدائية، وكنت أقلد تلامذة المدرسة، أذهب معهم في الصباح الباكر إلى المدرسة، هم يدخلون من بوابتهــا، وأنا أقف قــرب سياجها الشائك، لاأجــرؤ على الدخول لأن أحداً من المعلمين لا يشير إليّ منــاداة كي أدخل. أمي هي من أشارت على أخوالها أن يأخذوني إليهم، إلى المدرسة، كي أصير من القرائين وأهل الكتابة.

وهكذا كان، دخلــت إلى المدرسة الابتدائية مصادفــة، في عمــر لا أدري مقــداره، كما لاتدري أمي مقداره بالضبط. قالت ما دام حسن يرغب بالمدرســة فليذهب إليها، وقد ساعدها أخوالهــا في ذلك، فصرت تلميذاً، ولعل أخــوال أمي نجحــوني، فمضيت من صف إلى صــف دون أن ينظر إلى عمري.. بعــد فترة جــاء مديــر إلى المدرسة، فوجد أن لاقيود لي وأنــا تلميذ في الصف الرابع. انتحــى بي جانبــاً وطلب منــي أن أقرأ في القــرآن الكريم، وأن أكتــب جملاً اختارها بنفســه، فقرأت وكتبت، فسرّ مني، وسجلني رسمياً في الصف الرابع.

الدراسة أخــذت وقتاً طويلاً من عمري حتــى وصلــت إلى آخــر درجاتهــا، درجة الدكتوراة التي جزتها من الجامعة اللبنانية حــول رسالة عنوانهــا (الذهنيــة العربية) استغرقــت كتابتهــا خمس سنــوات، قراءة وكتابة، ومساهــرة، ونقداً، واصطفاء، حتى استوت بياناً.

- هل زاولت الكتابة بسبب ضيق

مالي، أو لأسباب شخصية أو لتصاعد الموهبة عندك؟

• لا أعرف سبباً مباشراً دفعني للكتابة سوى أحزان أهل المخيم حيث عشت، وحيث أعيش الآن، عندما وعتني دراستي للفلسفة أن أهل المخيم الذي يتزايدون يتناقصون أيضاً، أصابتني لوثة الخوف، رأيت الطيبين يذهبون في حالات الفقر (أسراً، شهادة، غياباً لا تعرف أسبابه) ورأيت المقبرة، مقبرة المخيم تتسع، بينما ظلت رقعة بيوت المخيم محدودة، تزايد عدد الأرامل، والأيتام، وأمهات الشهداء.. حاولت أن أكون رساماً، لكن لا قيمة للرسم في مخيم يعيش تحت سقف الموتى، حين يحضر الموت تغيب الألوان.. لذلك بدأت الكتابة شعراً، ثم تركت الشعر لقناعتي بأنني لن أكون شاعراً ذا بال، ومضيت إلى القصة التي أصبت فيها نجاحاً وتشجيعاً، ثم كتبت الرواية.

ثناء الآخرين، الموضوعات التي تخيرتها، طرائق التعبير التي مشيت بها.. كل هذا



ساعدني كي أمد ظلي نحو الصحف والمجلات، ثم نحو دور النشر فأصدرت كتابي القصصي الأول في مستهل الثمانينيات.

- مارست كقاص، في كتابة القصة القصيرة، وكروائي في كتابة الرواية، استخدمت، كونك فلسطينياً، فأي الجنسين الأدبيين استهواك أكثر، وهل هما في منزلة واحدة؟

• أنا عاشق للقصة القصيرة، حين أنجز نصاً قصصياً أصير طائراً يحوم داخل غرفة لا جدران لها. وأنا مدين للقصة القصيرة لأنها هي التي عرفت الناس كتابتي. والرواية

أمـــر على غايـــة من الأهمية، لجـــأت إليها لأنـنـــي أحسست بأن التراجيديا الفلسطينية اتسعت، وأن التعبير عنها يحتاج إلى إفاضة. لم أكتب الرواية تحـــت وقع الحديث الطيب عنهـــا، ولا كتقليد أدبي مشـــى به أهل النثر والشعر معـــاً.. إطلاقاً كتبتهـــا تحت وطأة شعـــوري بأن أموراً، وقضايـــاً، وموضوعات عـــدة لا تزال بكـــراً، أرضـــاً لم تطأها قدم، غابـــة لم ترها العين بعد، فكتبـــت عن نشأة المخيمات، وعن التاريـــخ الفلسطيني، وعن عذاب الأمهات، وزفرات الشهداء، والأرض المباركة شجراً، وحجراً، وبشراً.

الكتابة عندي هـــي الكتابة سواء أكانت قصصـــاً أو روايـــات، والأرق هـــو الأرق، والمساهرة هي المساهرة.

- كم عـدد مـؤلـفـاتـك، مـع نـبـذة صغيرة عن كل منها؟

• لي في القصـــة القصـــيرة خمسة عشر عملاً مطبوعاً، وفي الرواية ست روايات، وفي الدراسات الأدبية خمس دراسات.

لا أستطيـــع الحديث عن أعمالي، كما لا أستطيع تلخيصها ذلـــك لأنها ذات نشأة لا علاقة بالســـؤال. في كتابتي لا توجد أجوبة بالمعنـــى المتعارف عليه، وإنمـــا توجد أسئلة مثيرة للتفكـــير، محركة لمستتبـــات التاريخ، وباحثة عن معطيات المستقبل.

- أنـــت عـضـو في اتـحـــاد الـكـتـاب العرب، وصاحب مسؤولية فيه الآن، فـهـل تـعـتـقـد أن اتـحـــادات الـكـتـاب تضيف للأديب أكثر مما يضيفه هو إلى نفسه؟

• عملـــي في اتحـــاد الكتاب هـــو العمل الأقرب لمهنة الكتابـــة، والتأليف، والإبداع. اتحـــاد الكتـــاب بيت يضـــم المبدعين وأهل التعبير الكتابي، أهل السؤال، وأهل النظرات الكونيـــة والاجتماعية، أتيـــت إليه بوصفه مشغـــلاً أو مقلعاً للكتابـــة. جئت لأتعلم من أساتذتي أســـرار الكتابة، ومعانيها. فأنا ابن قضيـــة كبيرة وشائكـــة.. حاولـــت أن أكون بمستواهـــا من حيث الانشغـــال عليها وبها، لذلـــك كان لا بد من أن أتعرف إلى الآخرين ليســـ في كتبهم وحسب، وإنما في حواراتهم،

ومصادرهم الثقافية، ومرجعياتهم الاجتماعية. الاتحادات الأدبية بيت للكتابة والقراءة.. قد تضيف للكاتب الكثير من المعاني، قد توجهه الوجهة الصحيحة، وقد تجلوه مثلما تجلو أيدي الصبايا المرايا صباح مساء.. ولكن على الكاتب أن يضيف هو لتجربته، وأن يضيف هو ما يغذي موهبته باستمرار. فالأنهار تجري بقوة الينابيع. والجرار لا تصنعها سوى الأيدي الماهرة.

- ما هي مشاريعك الأدبية للمستقبل؟

• أكتب الآن رواية عن القدس، لي سنوات وأنا أعيشها كسؤال، ولي سنوات وأنا أكتبها. ولم أتجاسر على كتابتها ومواجهة الورق إلا عندما شعرت أن خاتمتها وقعت بين يدي.

الرواية مكتوبة على شكل رسائل، كلها رسائل من المبتدأ إلى المنتهى. رجل واحد يكتبها لصديق له، لكن الرسائل لا تصل، فتظل جهة الإصدار واحدة.. أي تظل أسئلة الرسائل، أما إجاباتها.. فهي محذوفة.

- ترأست تحرير مجلة (الموقف الأدبي)، ثم تركتها فهل كان هذا الترك للتفرغ إلى عمل أدبي تنجزه حالياً، أم أنك أنجزته في الماضي؟

• عملت في الصحافة الأدبية فأفادتني كثيراً، وحاولت، من خلالها، أن أفيد غيري. الصحافة الأدبية أقرب احتكاكاً بكتابتي الإبداعية. أنا شاركت مع أستاذي الروائي الكبير عبد النبي حجازي في تأسيس جريدة الأسبوع الأدبي، وعملت وإياه وحيدين في إصدارها خلال سنة أو أكثر، ثم التحق بنا الشاعر فايز خضور، ثم ما لبث أن تركها الاثنان، فبقيت فيها نحو عشرين سنة، محرراً، وأميناً للتحرير، ثم رئيساً للتحرير.. ثم أُخرجت منها. وعملت رئيساً لتحرير مجلة (الموقف الأدبي) سنة واحدة، ثم أُخرجت منها. لم أترك الصحافة الأدبية من أجل التفرغ لكتابتي الإبداعية، ويا ليت مثل هذا الأمر يحدث، أنا أعمل في الصحافة الأدبية كي أعيل نفسي وأسرتي، فلا دخل لي سوى راتبي. أعمل اليوم لآكل غداً.

- ما هو موقفك من الأدب الفلسطيني بشكل عام؟ وهل تفصل بين الأدب الفلسطيني والآداب العربية الأخرى؟

• الأدب الفلسطيني أدب معروف، له تاريخ، وأعلام، وموضوعات، وقضايا، وهموم، ومشكلات، ومنابر، وصحف، ومجلات، ودور نشر.. لكن، ولأسباب سياسية، وجغرافية.. يبدو الأدب الفلسطيني بلا بنية توحده، فأهله منقسمون بين منفى، وداخل، وبين أهل حظوة وأهل مشقة، وبين أولاد سارة وأولاد هاجر.

لكن، وعبر نظرة تاريخية موجزة، أقول الأدب الفلسطيني من حيث النشأة يشبه الأدبين السوري والمصري، التاريخ هو التاريخ، وأسباب الازدهار (الصحافة، الترجمة، الأحزاب السياسية) هي نفسها. وقد تميزت البلاد الفلسطينية، منذ مطالع القرن العشرين بحضور مراكز اللغات (الإنكليزية، الفرنسية، الروسية) بسبب وجود البعثات التبشيرية، وبسبب وجود الكنائس، والحجيج الديني إلى القدس، وكثرة التجدد في المجتمع القدسي وما يحيط به. لذلك ظهرت الصحف الكثيرة، والمسارح العامة، ومدارس الترجمة، ودور النشر، ونشطت المطابع وحركة التأليف.. فصارت فلسطين دارة للإبداع والفكر وهي الواقعة بين مكانين شديدي التأثير المكان المصري، والمكان السوري، ومناددة لعقلين موّارين بالعطاء هما العقل المصري والعقل الشامي.

وكإجابة عن السؤال، أقول، أنا أنظر إلى الأدب الفلسطيني بوصفه جزءاً من مدونة الأدب العربي، ربما يتميز بما رسّبته المأساة الفلسطينية من أحزان، وبما عمل عليه كتاب فلسطين ومبدعوها من حيث التأسيس لأدب المقاومة.

- نحن الآن نحتفل بالقدس عاصمة للثقافة العربية لعام ٢٠٠٩، فما هو إسهامك في هذا الحدث؟!

• أنجزت، ولله الحمد، رواية، كل كلمة فيها، وكل سطر يتحدث عن القدس. كما

أنجزت دراســة أدبية تدور حول القدس في الرواية والقصة والمسرحية العربية.

- هل من كلمة تود قولها لقرائك عن طريق مجلة (المعرفة)؟

• المعرفة بيت للتعلم، والثقافة، والإبداع. تربينا عليها، وعرفنا أسراراً ثقافية وإبداعية كثيرة من خلالها، وهي اليوم تواصل رسالتها الثقافية والإبداعيــة بوصفها كتاباً معرفياً نقرأ فيه شهرياً.. كي تغتني الذات، وكي ترى نفسها في مرايا الآخرين. أقول لقرائي، عبر العزيــزة (المعرفة).. الكتابة محرقة لاتطفئ نارها سوى الذوات القارئة..



متابعات

متابعات

صفحات من النشاط الثقافي

أحمد الحسين ❁

منتدى ثقافي عربي صيني في بكين:

افتتح في بكين المنتدى الثقافي العربي الصيني في دورته الثانية بحضور وزير الثقافة الصيني تساي وو ووزير الثقافة الدكتور رياض نعسان آغا رئيس الوفود العربية ورئيس مجلس وزراء الثقافة العرب وبحضور ممثلين عن ثلاث عشرة دولة عربية بينها سورية.

وأشار الدكتور نعسان آغا في كلمته خلال افتتاح المنتدى إلى تقدير العرب جميعاً لمواقف الصين من القضايا العربية العادلة ومطالبتها بإنهاء الحصار

❁ أديب وباحث في التراث العربي (سورية)

الظالم على غزة مؤكداً احترام العرب لمبادئ التعايش السلمي التي أطلقتها الصين، مرحباً بالمقترحات التي قدمها الوزير الصيني لتطوير العلاقات العربية الصينية حيث ستتم مناقشتها في الدورة القادمة لمجلس وزراء الثقافة العرب الذي سينعقد في الدوحة نهاية العام الجاري.

وأعرب عن شكره للصين على ما تقدمه من برامج تنفيذية لتطوير العلاقات الثقافية بين العرب والصين منوهاً بما حققه مهرجان الفنون العربية والمنتدى الثقافي العربي الصيني من تفاعل حضاري حيوي ينعكس على الثقافة الإنسانية ويعمق الحوار الفكري بين الأمم.

وتحدث وزير الثقافة الصيني تساي وو في كلمته عن سلسلة من المقترحات العملية لتطوير العلاقات العربية الصينية مؤكداً على الحوار وتعزيز العلاقات بين الجانبين وتشكيل لجنة مشتركة لتطوير العمل الثقافي وإقامة مراكز ثقافية عربية في الصين ومراكز ثقافية صينية في الدول العربية وعلى أن يقام مهرجان الفنون العربية بشكل دوري كل عامين لما يخدم العلاقات الثقافية بين العرب والصين.

وفي هذا الإطار شهدت بكين انطلاق فعاليات مهرجان الفنون العربية الثاني التي افتتحتها ليو يان دونغ مستشارة الدولة نائبة رئيس مجلس الوزراء الصيني والدكتور رياض نعسان آغا وزير الثقافة رئيس الوفود العربية المشاركة في المهرجان.

وتضمن الحفل الذي حضره عدد من وزراء الثقافة العرب وممثلون لثلاث عشرة دولة عربية شاركت فرقها الفنية في المهرجان عروضا فنية واستعراضية عديدة كان أهمها عرض فرقة أورنينا السورية التي قدّمت لوحات راقصة تجسد التاريخ السوري العريق.

وكان الوزير نعسان آغا افتتح المعرض الفني التشكيلي العربي بحضور جاو شاو هوا نائبة وزير الثقافة الصيني وبمشاركة وزراء الثقافة في المغرب وتونس وموريتانيا وفلسطين وعدد من معاوني وزراء الثقافة العرب.

وضم الجناح السوري المشارك في المعرض لوحات فنية تشكيلية تعبر عن المستوى الرفيع الذي حققه الفنانون التشكيليون السوريون كما ضم أجنحة للدول العربية المشاركة ضمت مئات اللوحات والمنحوتات وأعمال الفنون اليدوية، كما أقيمت ضمن فعاليات هذا المنتدى ندوة تناولت محاورها العلاقات العربية الصينية في المجال الثقافي وطرق تنويعها وتطويرها بمشاركة عدد من

وزراء الثقافة العرب ومفكرين وأكاديميين وإعلاميين من الصين والدول العربية.(١)

عفيفي مطر يترجل عن صهوة الشعر:

عن عمر ناهز الخامسة والسبعين عاماً غيب الموت الشاعر المصري الكبير محمد عفيفي مطر إثر معاناة طويلة كانت له مع المرض العضال.

وقد عاش الشاعر الراحل حياة كانت حافلة بالمواقف السياسية والخلافات الأدبية التي جرت عليه الكثير من المضايقات والمتاعب في حياته الشخصية والأدبية مما اضطره إلى اللجوء للعراق بعد معارضته اتفاقيات كامب ديفيد التي وقعها الرئيس المصري الراحل محمد أنور السادات، شأنه في ذلك شأن الكثير من المثقفين والمبدعين المصريين الذين تعرضوا للمضايقات ودفعتهم الظروف نتيجة مواقفهم الفكرية والسياسية إلى ترك مصر السادات والاستقرار في بعض البلدان العربية بينها لبنان والعراق والإمارات العربية وغيرها.

وبعد عودة عفيفي إلى مصر من جديد هجر الوظيفة الرسمية في التعليم ولجأ إلى زراعة أرضه في قريته مواصلاً نظم الشعر والنثر والترجمة. ويعتبر بعض الشعراء والنقاد الشاعر الراحل من أهم شعراء الحداثة على الساحة الأدبية العربية المعاصرة، وواحداً من الأصوات المميزة التي أثرت الحركة الشعرية العربية والمصرية على السواء.

ولد مطر في قرية رملة الأنجب في محافظة المنوفية عام ١٩٣٥ ودرس الفلسفة في كلية الآداب وعمل مدرسا في مصر ورئيس تحرير مجلة «السنابل» التي كانت مساندة للحركة الطلابية مطلع السبعينيات فقامت الدولة بإقفالها، وخلال مسيرة حياته الإبداعية حصل على الكثير من الجوائز المحلية والعربية والعالمية من أهمها جائزة العويس الإماراتية على الصعيد العربي وعلى الصعيد المحلي فاز بجائزتي الدولة التشجيعية والتقديرية إلى جانب جوائز من جامعات محلية وحاز جائزة كفافيس اليونانية إلى جانب جائزة من جامعة أركنسو الأميركية وجائزة المؤسسة العالمية للشعر في روتردام الهولندية.

من أعماله الشعرية «من دفتر الصمت» الذي صدر في دمشق العام ١٩٦٨ و«ملامح من الوجه الامبادوقليسي» (بيروت ١٩٦٩) و«الجوع والقمر» (دمشق ١٩٧٢) و«كتاب الأرض والدم» (بغداد ١٩٧٢) و«شهادة البكاء في زمن الضحك» (بيروت ١٩٧٣) و«النهر يلبس الأقنعة» (بغداد ١٩٧٥)، ومن آخر

أعماله «معلقة دخــان القصيدة» (القاهرة ٢٠٠٦) و«المنمنمــات» (القاهــرة ٢٠٠٧). كذلك صــدرت أعماله الشعرية الكاملة عن دار الشروق بالقاهرة عام ٢٠٠٣.

ولعفيفي مجموعة مــن المؤلفات النثرية والدراسات الأدبية والنقدية منها: شروخ في مرآة الأسلاف» و«محمــود سامي البارودي (دراسة ومختارات)» و«أوائل زيارات الدهشة» إلى جانب قصص للأطفال وللصبية بعنوان «مسامرات الأولاد كــي لا يناموا»، كما قام بترجمة الأعمال الكاملة للشاعرة السويدية اديــث سودر غران مع عــدد من المترجمين الآخريــن وكذلك مختارات من شعر الشاعر اليوناني ايليتيس.

يذكــر أن الشاعــر الراحــل قــد نقل إلى مستشفــى منوف العــام بمسقط رأسه بمحافظــة المنوفية في حالــة متأخرة جراء مضاعفات مرض تليف الكبد، الذي أصيب بــه منذ سنــوات، وقضى عــدة أسابيع في المستشفــى في حالة سيئة انتهت إلى إصابته بغيبوبة كبدية، دون أن يتدخل اتحاد الكتاب أو أي جهــة ثقافية لتوفير متطلبات علاجه داخل مصر أو خارجها، وذلك رغم مناشدات العديد من كبار المثقفين ومن بينهم الروائي بهاء طاهر والشاعر محمد إبراهيم أبوسنة، والناقد د.محمــد عبد المطلب وغيرهم عبر الصحــف المختلفة لــوزارة الثقافة واتحاد الكتاب التدخل لإنقاذ الشاعر الكبير والذين اعتبروا التجاهــل والإهمال الذي قوبلت به حالته الصحية طوال هذه المدة التي انتهت بوفاته وصمة في جبين الثقافة المصرية.

ويذكر بعضــ أصدقاء الراحل أنه عاش سنواته الأخيرة في تأمل معتزل طويل المدى بقريته التي أتاحت لــه أن يعمل في الأرض ويــولي رعايته لحيواناتــه ودواجنه، ويكتب الشعر بعيداً عــن أي ضجيج مستهلك. كان يزداد إيماناً بالوقــت ويقول: إنني من أشد الناس حرصاً على الوقت، وعندي إحساس بأن مسبحــة العمر تكر، حبــة حبة مع كل شيء أفعله، والعمر محسوب بالدقائق.(٢)

إصدارات جديدة للألسكو:

تسعى المنظمــة العربية للتربية والثقافة والعلــوم «الألكسو» بإشــراف مديرها العامّ الأستــاذ الدكتور محمــد العزيز ابن عاشور إلى الارتقــاء باللغــة العربيــة مثلما يتجلّى ذلك في مشــروع «النهوض باللغــة العربية للتوجّه نحو مجتمع المعرفة»،الذي يهدف إلى المحافظة على لغتنا العربية ومعالجة مسائل التنميــة البشريّة ونشر اللغة العربية وترقية استعمالهــا في المجتمــع والمحافل الإقليمية والدوليــة، كما يهدف المشــروع إلى مواجهة تحدّيات مجتمع المعرفة.

وأنجــزت «الألسكــو» في هــذه السنــة سلسلــة «العربيّة لغتي» للصــف الأوّل من التعليم الأساسي الجزء الأول والجزء الثاني وللصفّ الثاني من التعليم الأساسي وللصفّ الثالــث كما أعــدت دليل المعلّم لمــادّة اللغة العربيّة ومصفوفــة اللغة العربيّة من السنة الأولى إلى السنة التاسعة من مرحلة التعليم الأساسي.

وركزت الأجزاء الأربعة من كتاب «العربيّة لغتي» علــى المهارات الأربع هــي الاستماع والمحادثة والقــراءة والكتابة. كما ركزت في التهيئة اللغوية للاستماع على البدء بتدريس المحادثــة التي تتحوّل إلى شــكل من أشكال التعبير الشفويّ.

كما اتجهــت مجموعة أجــزاء «العربيّة لغتــي» إلى تنمية المهــارات اللغويّة للمتعلّم، استماعــا وتعبــيرا وقراءة وكتابــة. ويتمثل ذلك من خــلال تمكين المتعلم مــن القراءة والفهــم الصحيــح مع التــدرّج فيهما وفقا للنموّ الذهنــيّ للمتعلّم وكذلك التركيز على الفهم واستنتاج الأفكار الرئيسة والاستخدام الصحيح لقواعد اللغة العربية.

كما أصــدرت الألسكو دراســة «أسباب ومسبّبات تــدنّي مستوى تعليم اللغة العربيّة في الوطن العربيّ» تونس ٢٠١٠.

وبينت تلــك الدراسة أنّ اللغــة العربيّة الفصيحة تشكو ضعفــا في الاستعمال على مستوى المكتوب والمسموع مع الإشارة إلى أن هذه الشكوى لا تخلو أحيانا من مبالغة تعيق البحث عن الحلول ومواجهة التحديات.

كما أكــدت الدراسة على أنّ تعليم اللغة العربيّــة في حاجــة ماسّــة إلى جهود كبيرة ترفع من مستواه وتحقق جودته لتؤدّي اللغة العربيّة دورهــا في تجلية الطاقات الفكرية والإبداعية وفي الحفاظ على الهويّة العربيّة وفي دعم التنميــة الاقتصادية والاجتماعية والثقافيــة في الدول العربيّــة والتوجّه نحو مجتمع المعرفة.

ونحت وثيقة السياســة اللغوية القومية للغة العربيــة التي أصدرتها المنظمة «تونس ٢٠١٠» إلى منحيــين معنويين، أوّلها تدعيم اللغة العربية الفصحــى ورفع الإشكال عن الازدواج اللغوي، أمّا المنحى الثاني فيتجاوز العموميات ليكشف عما يحدق بالعربية من أخطــار ووضع آليات المواجهــة وتحدّياتها لتحصين اللغة العربية.

أما دراسة استخــدام التقانات الحديثة في تطويــر اللغة العربية فقــد أولت عناية بالمصطلحــات والترجمة الآليــة والمهارات اللغويــة والبحوث الدلاليــة وقد بنيت على هــذه الدراســة خطــة إعــداد البرمجيات الخمسة التي ستنجزها المنظمة بالتعاون مع

مركز عربي متخصص في هذا المجال.(٣)

دور إيبلا في بناء الحضارات الإنسانية:

أكد البروفيسور باولو ماتييه رئيس البعثة الأثرية الإيطالية العاملة في تل مرديخ الأثري إيبلا أهمية الدور التاريخي والحضاري لمملكة إيبلا كونها شكلت حاضرة تجارية واقتصادية تعكس الوجه الحضاري للمنطقة وأسهمت في بناء الحضارات الإنسانية نتيجة موقعها المتميز وقربها من البحر المتوسط.

وقال ماتييه: إن المكتشفات الأثرية في الموقع تعكس الفن المعماري والمهن اليدوية التي كانت سائدة والصناعات والزخارف آنذاك كالتماثيل الذهبية واللقى الفخارية والأحجار الكريمة مشيراً إلى اكتشاف ١٧ ألف رقم مسماري تضم نصوصاً اقتصادية وإدارية وأدبية، وبين أن الرقم تشكل إحدى أهم محتويات القصر الملكي الذي يعتبر من أهم المكتشفات ويعود تاريخه للعصر البرونزي القديم في الفترة ما بين ٢٣٠٠-٢٤٠٠ قبل الميلاد حيث كان يضم مركزاً إدارياً وساحة واسعة مخصصة للتبادل بين القوافل التجارية.

وأوضح ماتييه أن إيبلا مرت بثلاث حقب زمنية الأولى بين ٢٣٠٠-٢٤٠٠ والثانية ٢٠٠٠-٢٣٠٠ والثالثة ١٦٠٠-٢٠٠٠ قبل الميلاد لافتاً إلى أن إيبلا اسم عربي يعني الحجر الكلسي وسميت بهذا الاسم نسبة لطبيعة الأحجار الكلسية فيها مشيراً إلى أن مملكة إيبلا شكلت أساساً لبناء الحضارة السورية وكان لها ارتباط وثيق مع مراكز الحضارات وخاصة الحضارة الفرعونية، وأشار إلى التعاون الوثيق بين سورية وإيطاليا في مجال الحفاظ على التراث مبيناً أنه تمَّ خلال العام الماضي إطلاق مشروع إعادة تأهيل متحف إدلب الوطني الذي ينفذ بالتعاون بين الجانبين بهدف حفظ التراث الثقافي والحضاري في سورية.[٤]

الجولان أرض وجذور:

استضافت المستشارية الثقافية الإيرانية بدمشق معرضاً توثيقياً عن الجولان المحتل تحت عنوان «الجولان سوري.. أرض وجذور» ضم مجموعة من صور القرى الجولانية قبل الاحتلال وبعده إلى جانب مجموعة من الأدوات التي كان سكان الجولان يستخدمونها في حياتهم اليومية.

ومن بين المعروضات وثائق مدرسية وهويات قديمة لعدد من سكان الجولان المحتل كما احتوى المعرض صورا حديثة للجولان من الفضاء إلى جانب الصور الوثائقية لشوارع وأبنية القرى الجولانية ومدينة القنيطرة المحررة قبل الاحتلال

وبعده ومن هذه الصور ما عاد تاريخه لأكثر من تسعين عاما إلى جانب نماذج هندسية عن مدينة القنيطرة والمشفى الوطني فيها.

كما احتوى المعرض على الأدوات النحاسية والخشبية التي كان أهل الجولان يستخدمونها في حياتهم من عدة القهوة وأواني الطبخ وأدوات الزراعة ومعدات إعداد الزبدة العربية والأزياء الشعبية الشركسية والأسلحة التقليدية والحلي النسائية وغيرها من تفصيلات الحياة الجولانية المتنوعة.

وأظهر المعرض التنوع الذي تميز فيه الجولان عبر التاريخ من حيث السكان والطبيعة وطرق الحياة وبين أيضاً الألفة والتعاون بين أهله قديماً وحديثاً وقدرتهم على إظهار وطنهم بشكله الجميل من خلال هذا التعاون.

وعن فكرة المعرض قال بسام شعيب من قرية المنصورة المحتلة أحد منظمي المعرض: إن فكرة المعرض كانت موجودة لدينا منذ فترة طويلة وكنا نحاول أنا والمهندس برزخ لبسروق جمع أكبر قدر من الوثائق المتعلقة بالجولان مبيناً أن هذا العمل تطلب وقتا وجهدا كبيرين لجمع أرشيف مهم من الصور والكتب القديمة والحديثة.

وأضاف إنهما أرادا أن يظهرا جمال الجولان وطريقة حياة أهله ليؤكدا أهمية هذه المنطقة السورية وإصرار أهلها على عودتها كاملة لحضن الوطن السوري.

بدوره قال المهندس برزخ لبسروق من قرية عين زيوان المحتلة: إن عدد الصور التي عرضناها حوالي مئتي صورة تمّ اختيارها من بين ألفين وخمسمئة صورة بين قديمة وحديثة والكتب التي عرضناها جاءت من مجموعة كبيرة لدينا عن الجولان وأضاف إنه قدَّم نموذجاً مصغراً لمدينة القنيطرة أيام لالا باشا بالرجوع للمراجع والكتب القديمة والصور الوثائقية كما نفذ نموذجاً مصغراً للمشفى الوطني في القنيطرة بعد أن حولها الاحتلال الإسرائيلي لمكان للتدريب على السلاح.(٥)

أبو ظبي تساهم في حفاظ التراث غير المادي:

وقع محمد خلف المزروعي المدير العام لهيئة (أبوظبي) للثقافة والتراث وإيرينا بوكوفا المدير العام لليونسكو السبت بمقر المنظمة الدولية اتفاقاً تتبرع الإمارات بمقتضاه بمبلغ مليوني دولار لليونسكو لصون التراث العالمي غير المادي.

وقال عبدالله النعيمي المندوب الدائم للإمارات لدى اليونسكو إن هذه الاتفاقية «تأتي لدعم جهود اليونسكو للحفاظ على

التراث العالمي غير المادي بمبادرة من هيئة (أبوظبي) للثقافة والتراث ترجمة لتوجيهات القيادة السياسية في دولة الإمارات».

وأضاف إن هذه الاتفاقية «سوف تسهم في رفع وتقوية قدرات الدول النامية والفقيرة خاصة في أفريقيا في الارتقاء بخططها لرفع مستوى التعامل مع تراثها غير المادي من ناحية وتطوير كوادرها الوطنية في هذا المجال من ناحية أخرى كما ستستفيد بعض الدول العربية التي تحتاج لخبرات اليونسكو في هذا المجال من هذه الاتفاقية».

وقال إنه «تمَّ تشكيل لجنة مشتركة بين الإمارات واليونسكو لتحديد آليات صرف هذه المنحة التي تقدمها الإمارات لليونسكو لدعم نشاطها في الحفاظ على التراث العالمي غير المادي».

وأشادت ايرينا بوكوفا بمساهمة الإمارات ومساندتها لأنشطة اليونسكو في المجالات كافة خاصة في مجال الحفاظ على التراث غير المادي، وقالت «إن الإمارات تقف في طليعة الدول التي تعمل على الحفاظ على التراث غير المعنوي وذلك في إطار تعاونها الممتاز مع اليونسكو»، وأشارت إلى أن الاتفاق «سوف يساعد اليونسكو على دعم التراث غير المادي في الدول النامية التي لا تتوافر لها الإمكانيات المالية أو البشرية لصون تراثها المعنوي غير المادي».(٦)

لا خوف على الفصحى:

قلل رئيس الجمعية المغربية لحماية اللغة العربية موسى الشامي من أهمية تعالي الأصوات المنتقدة للغة العربية في المغرب والداعية إلى وضع دساتير للغة الدارجة والأمازيغية واستخدامهما بدل العربية الفصحى، ووصفهم بأنهم «أقلية فرنكفونية يعبرون عن طموحات استعمارية في المغرب لا أكثر ولا أقل».

وأكد الشامي أن اللغة العربية الفصحى محمية بغالبية المغاربة، وأنه لا خوف على هوية المغرب الإسلامية من دعوة بعض الأصوات لاستبدال الفصحى باللغة الدارجة أو الأمازيغية، وأضاف «الذين يتحدثون عن استبدال الفصحى باللهجة الدارجة هم ضعفاء في هذه البلاد، وهم صغار بكل ما تحمله الكلمة من معنى، وهذا كلام يرددونه منذ سنوات طويلة أقلية فرنكفونية درست في فرنسا وأخذت شهاداتها العلمية من جامعاتها، ثم جاؤوا إلى البلاد ودخلوا الإدارة وبدأوا ينادون ب<دسترة> اللهجة الدارجة، لكن هؤلاء لا قيمة لهم لدى المغرب الرسمي والشعبي، فالمغاربة متمسكون بلغتهم العربية

وبإسلامهم، ومساجدهم مليئة بالمصلين، وهي تتزايد يوما عن يوم».

وأشار الشامي إلى أن امتلاك المغرب أو غيره من الدول العربية الدارجة محلية يتكلمها الناس لا يتناقض مع اللغة العربية الفصحى، كما هو الشأن في مختلف اللغات العالمية، بما في ذلك الفرنسية، وقال «المشكلة ليست في اللغة العربية الفصحى ولا في الدارجة وإنما لدى هؤلاء الأقلية الذين لا يفقهون اللغة العربية ولا الدارجة، ولدى بعض غلاة الأمازيغ ممن يرتزقون بدعاويهم ويقيمون علاقات مع إسرائيل، وإلا فإنه لا مشكلة بين الدارجة والفصحى ولا بين الأمازيغ والعربية، فالجميع متعايشون في إطار دولة القانون».

وقال رشيد نيني في مقال له بعنوان «أحفاد مسيلمة الكذاب»: «ليس من قبيل الصدفة أن يتزامن النقاش الدائر حول ضرورة إقرار الدارجة في التعليم العمومي الأساسي مكان اللغة العربية مع النقاش الذي اندلع مباشرة بعد قرار الدولة طرد المبشرين المسيحيين وضرورة ترجمة القرآن إلى الدارجة».

وبعد إشارته إلى بعض الأسماء المغربية المتصلة بترجمة القرآن إلى الدارجة وإقحام الدارجة في التعليم الأساسي، قال نيني «عندما نرى كيف يدافع مثقفون غربيون وعلمانيون عن الإسلام كديانة للتسامح والتعايش، وكيف يمدحون القرآن ككتاب سماوي يستحق الاحترام، ثم نقارن ذلك بما أصبح يكتبه وينادي به بعض غلاة الأمازيغية والعلمانية والفرنكوفونية عندنا، نصاب فعلا بالصدمة، مضيفاً عندما نسمع ولي عهد بريطانيا، الأمير تشارلز، يدعو العالم في محاضرة علمية إلى الاقتداء بالتعاليم الإسلامية في مجال البيئة، قائلا بالحرف في آخر محاضرة له بمعهد أوكسفورد للدراسات الإسلامية «إنني أدعوكم كي تبينوا لنا كيف يمكننا الاستلهام من الفَهم العميق للثقافة الإسلامية إزاء عالم الطبيعة لمساعدتنا على رفع التحديات الجسيمة التي نواجهها»، نصاب حقا بالصدمة».

وتابع «عندما نرى كيف تتسابق الدول الأوروبية والغربية على إطلاق قنوات فضائية باللغة العربية، آخرها إسرائيل، للوصول إلى العالم العربي، ثم نرى كيف يطالب كل هؤلاء عندنا بالقطع مع اللغة العربية في الإعلام والتواصل والاقتصار على الدارجة والفرنسية التي تعاني من الانحسار والتراجع، نصاب فعلا بالصدمة. لكننا عندما نفهم أن كل هؤلاء الحاملين لألوية الحرب ضد اللغة العربية والقرآن

والإسلام، ليسوا في الواقع سوى بيادق تحركهم أيدٍ خارجية فوق رقعة شطرنج كبيرة تريد للمغرب أن يكون مصيره هو التقسيم اللغوي والتشرذم العرقي والتيه الثقافي، نصاب بالخوف على مصير هذا البلد».(٧)

البابطين يكرم لميعة عباس عمارة:

أعلنت مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري أسماء الفائزين بجوائز دورتها الثانية عشرة (دورة خليل مطران ومحمد علي ماك دزدار).

جاء ذلك على لسان رئيس مجلس أمناء المؤسسة الشاعر عبد العزيز سعود البابطين خلال المؤتمر الصحفي الذي عقده في مكتبة الأسد بدمشق بمناسبة قرب انعقاد الدورة الثانية عشرة التي ستقام في سراييفو في أكتوبر/تشرين الأول المقبل والإعلان عن عقد الدورة الرابعة عشرة للمؤسسة التي ستقام في العام ٢٠١٢ في دمشق برعاية الرئيس السوري بشار الأسد.

وفازت بالجائزة التكريمية في مجال الإبداع الشعري، وهي جائزة غير خاضعة للتحكيم الشاعرة العراقية لميعة عباس عمارة، فيما فاز بجائزة الإبداع في مجال نقد الشعر الدكتور صلاح رزق من مصر عن كتابه «كلاسيكيات الشعر العربي: المعلقات العشر- دراسة في التشكيل والتأويل».

وفاز الشاعر أحمد حسن محمد من مصر بجائزة أفضل ديوان عن ديوانه «مدينة شرق الوريد» كما فاز الشاعر فارس حرام من العراق بجائزة أفضل قصيدة عن قصيدته «عنه وعن أهله».

وأكد الشاعر عبد العزيز سعود البابطين أن الدورة الرابعة عشرة للمؤسسة ستقام في العام ٢٠١٢ في دمشق برعاية رئيس الجمهورية العربية السورية بشار الأسد تحت عنوان «دورة أبي تمام وعمر أبي ريشة»

وقال إن الدورة الرابعة عشرة التي ستعقد في أكتوبر/تشرين الأول ٢٠١٢ تحت رعاية الرئيس السوري، سيكون لها عظيم الأثر في مسيرة المؤسسة لما يمتلكه الرئيس الأسد من رؤية بعيدة النظر وعميقة المضمون «وهو ما نحتاج إليه اليوم في القيادات السياسية للارتقاء بمجتمعاتنا، موضحاً أن هذه الدورة ستكون بعنوان دورة أبي تمام وعمر أبي ريشة وكلاهما قامة شعرية نبتت في هذه الأرض وكلاهما شكل من رموز الشعر في عصرين مختلفين كمؤشر على تجدد نضارة الشعر العربي وتألقه، مشيراً إلى أن ما سيزيد من عوامل نجاح

هــذه الدورة انطلاقها من دمشق التي تعتبر من أهم وأقوى المحافل العربية، موضحا أن المؤسسة دأبت علــى إقامة دوراتها في شتى أنحاء العالم يقينا منها بأن النسيج الحضاري والإنســاني لا ينفصلان عن بعضهما بعضا وبأن حوار الحضارات والتعايش بين الأديان هو الذي يجب أن يحل.

وكشف البابطــين عن أن المؤسسة لديها مشاريــع مقبلــة في أوروبة وأمــيركا وآسيا وأفريقيــا مثمنا دور دمشق وحضارتها التي كانت عبر التاريخ ملتقى الأديان والحضارات والثقافــات في تعايش مميــز مستمر أنتج نموذجاً متفرداً في التعايش والوئام.(٨)

اكتشاف عاصمة الهكسوس:

أعلن المجلس الأعلى للآثار المصري عن «نجاح» البعثة الأثرية النمساوية التي تعمل في منطقة «تل الضبعة» بمحافظة الشرقية، في تحديد موقع مدينــة أثرية كبيرة، يرجح أنها كانت جزءا من مدينة أفاريس القديمة، عاصمــة الهكسوس خلال عصــر الانتقال الثاني «١٦٦٤-١٥٦٩ ق. م».

وقــال الدكتور زاهي حواســ أمين عام المجلــس الأعلــى للآثــار إنــه تم الكشف عــن المدينة خــلال أعمال الحفــر الأثري الجيوفيزيقي باستخدام الرادار، وتم التقاط الصــور لهذه المدينة التــي مازالت موجودة تحت الأرض، مشــيرا إلى أن الصور توضح أنها مدينــة كاملة بها شوارع وبيوت ومعابد ومقابــر، مما يعطــى صورة عامــة كاملة للتخطيط العمراني لتلــك المدينة، وبالتالي تحديــد كل منطقــة فيها. وأكــد «حواس» أن القيــام بهذه النوعية مــن المسح الأثري يعتبر من أهــم وأفضل السبــل التي يمكن استخدامها لمعرفة أبعاد وشكل مدينة أفاريس القديمــة، حيث إنه مــن المستحيل حفر كل هذه المساحة مرة واحدة.

وقالــت الدكتــورة إيرين مولــر، رئيسة البعثــة النمساويــة، إن الهدف مــن القيام بأعمــال المســح الأثــري الجيوفيزيقي هو تحديد أبعاد مدينة أفاريس القديمة، حيث استطاعت البعثة تحديد مجموعة كبيرة من البيوت والشوارع وميناء كانت موجودة بهذه المدينة، إضافة إلى سلسلة من الآبار مختلفة الأحجام والأشكال، كمــا استطاعت البعثة تحديد أحد روافد مجرى النيل، والذي كان يمر بهذه المدينة إضافة إلى جزيرتين.(٩)

ساراماغو.. وداعاً:

بعــد معانــاة طويلــة مع المرضــ رحل ساراماغو شاعــر العذاب الإنساني والمعاناة الإنسانية، شاعر الالتزام والمواقف الفكرية والسياسيــة حيــث عرف عنــه دفاعه عن قضايــا الإنســان والحريــة، وتضامنه مع

الفقــراء والمضطهديــن، ووقوفه إلى جانب الشعــب الفلسطينــي، وتنديــده بجرائــم إسرائيــل حيــث زار ساراماغو مخيم جنين بعد عدوان إسرائيل عليه عام ٢٠٠٢، فقال: كل ما اعتقدت أنني أملكه من معلومات عن الأوضاع في فلسطين قد تحطم، فالمعلومات والصــور شيء، والواقع شيء آخر. يجب أن تضــع قدمك على الأرضــ لتعرف حقا ما الذي جرى هنا.. يجب قــرع أجراس العالم بأســره لكي يعلم.. إن ما يحدث هنا جريمة يجــب أن تتوقف.. لا توجد أفران غاز هنا، ولكــن القتل لا يتم فقط مــن خلال أفران الغاز. هنــاك أشياء تمّ فعلهــا من الجانب الإسرائيلي تحمل أعمــال النازي أوشفيتس نفسها. إنهــا أمور لا تغتفــر يتعرض إليها الشعب الفلسطيني».

ودافــع بقوة عــن الرئيســ الفلسطيني الراحــل ياســر عرفــات أثنــاء حصاره في رام الله، وعمــل هو ومجموعــة من الكتاب العالميين علــى كسر هذا الحصار معتبراً أن ما تقوم به إسرائيل ضد الفلسطينيين يشبه مــا كان يقوم بــه النازيون ضــد اليهود في معسكــرات الاعتقال في «أوشفيتز»، دون أن يعبأ بالضجة الكبيرة التي أطلقتها إسرائيل على تصريحاته تلك.

ومنذ هذه الزيارة، عقد صداقة وطيدة مع الشاعر محمود درويش، الذي كان يعتبره بمنزلــة الشاعر التشيلي بابلو نيرودا. وكتب عنه فيما بعد قائلاً: «أن تقرأ محمود درويش -إضافــة إلى أن ذلك يمثــل تجربة جمالية من المستحيــل نسيانها- يعني القيام بجولة أليمة على خطى الظلــم والعار اللذين كان ضحيتهمــا الشعــب الفلسطينــي على يد إسرائيل، هذا الجلاد الذي قال عنه الكاتب الإسرائيلــي ديفيــد غروسمــان، في لحظة صدق، إنه لا يعرف الرحمة.

أدبيــاً، حقــق ساراماغو تلــك المعادلة الصعبة بــين الإنسان والمبــدع. لا انفصام هناك بينهما، كما نــرى عند كتاب كثيرين. التزامه كإنسان بالفكر الماركسي، لم يسقطه في فــخ ما كان يسمــى آنــذاك بـ«الواقعية الاشتراكيــة»، التي وضعــت مقاسات معينة اختنــق في دائرتهــا كتاب كثــيرون، وغلب فيها الفكر على الفــن، أو الرؤية السياسية على حرارة الإبــداع الفني الحقيقي. صهر ساراماغــو الاثنــين في بنائــه الروائي منذ روايته الأولى «بلــد الخطيئة»، ١٩٤٧، ومن هنا قوة إبداعه، التي أهلته بجدارة إلى نيل جائــزة نوبل، وســر بقاء أدبــه أيضاً، الذي بنــاه بصمت وصــدق كبيريــن، كان يؤمن، مثل همنغواي، أن علــى الكاتب أن يصمت إذا لم يكــن يملك شيئــاً مهما ليقوله. وفعلا

صمت ساراماغو لأكثر من ثماني عشرة سنة، لم ينشر خلالها سوى بعض المجموعات الشعرية العادية المستوى، مكرسا معظم وقته للصحافة. ويبدو أنه وجد ما يقوله بعد الاضطرابات السياسية في بلاده، إثر سقوط الديكتاتور أنتونيو سالازار، الذي حكم البلاد أربعين عاما، بانتفاضة عسكرية في ١٩٧٤.

دخل ساراماغو المشهد الروائي العالمي بقوة عام ١٩٨٢ بعد نشر روايته التاريخية، التي ترجمت إلى الإنجليزية بعنوان «بالتازار وبليموندا». والمحور الرئيسي في الرواية هو المحور نفسه، الذي ستدور عليه رواياته اللاحقة: محنة الفرد في مواجهة السلطة، سواء أكانت هذا السلطة مادية أو روحية، وكشف تأثيرات الاضطهاد الاجتماعي والسياسي على الكائن الإنساني الذي يسعى للحفاظ على هويته في مواجهة مجتمع يحرمه من حريته وحقوقه الأساسية، وهويته، وحتى وجوده كإنسان.

واختار ساراماغو منفاه في جزيرة صغيرة من جزر الكناري، وهي الجزيرة نفسها التي مات فيها، ابن الفلاح هذا، الذي لم يتخيل أحد حتى حين بلغ الستين من عمره، أنه سيصبح علامة كبرى في الأدب الإنساني.

يقول عن طفولته المعذبة في كتابه «ذكريات صغيرة»، الذي ترجمه إلى العربية عباس المفرجي: «لا أصدق أن القديس أنتونيوس تحمل مثل هذا الرعب الذي تحملته، خلال هذه الكوابيس التي كانت تعاودني مرارا، حيث أجد نفسي فيها حبيسا، جالسا في حجرة مثلثة بلا أثاث، ولا نوافذ ولا أبواب، وفي زاوية منها هناك «شيء»، «أدعوه بالشيء لأني أعجز عن اكتشاف ماهيته»، لا يفتأ ينمو ببطء ويغدو أكبر حجما، وثمة موسيقى تدوي وبالنغم نفسه دائماً، وهذا الشيء يتضخم ويتضخم، وأنا أتراجع إلى الزاوية الأبعد، حيث أستفيق في النهاية يملؤني الرعب، وأنا ألهث غارقا في عرقي في ظلمة وصمت الليل».(١٠)

توت عنخ آمون في عمل موسيقي:

تنوي الأوبرا المصرية تقديم أضخم وأكبر عمل مسرحي موسيقي عن الملك الفرعوني الشاب توت عنخ آمون يحمل اسم «ميوزيكال توت عنخ آمون» يشارك فيه أكثر من ١٦٠ فنانا وفنانة تحت إشراف وإنتاج الفنان النمساوي المخضرم أرنست نويشبيل رئيس أكبر مهرجان صيفي للفنون في جنوب النمسا، وذلك بعدما نجحت الأوبرا برئاسة الدكتور عبد المنعم كامل بالتعاون مع سفارة النمسا بالقاهرة في التعاقد على تقديم العرض، حيث تم الاتفاق مع منتج العرض

على تقديم هذا العمل الموسيقي الضخم من خلال ٨ حفلات تبدأ في نهاية شهر أكتوبر وتستمر حتى مطلع نوفمبر المقبل بأوبرا القاهرة والإسكندرية حتى يتمكن أكبر عدد ممكن من الجمهور المصري من مشاهدة هذا العمل الفني الضخم.

وصرح الفنان النمساوي أرنست نويشبيل أثناء زيارته القاهرة والتي وقع خلالها الاتفاق مع الأوبرا المصرية: أن هذا العمل الجديد يخطف الجمهور في رحلة موسيقية عبر مصر القديمة المليئة بالأسرار والمفاجآت والرومانسية فالمؤلف الموسيقي جراتسر استطاع من خلال العمل الموسيقي المتميز أن ينقل لنا إحساسنا اليوم بالحياة في مصر القديمة فالموسيقى تجمع بين العمل السيمفوني والألحان الغنائية الأوبرالية والألحان الشرقية التي خلق منها عالماً موسيقياً جديداً مليئاً بالمشاعر والأحاسيس جسدت ببراعة حياة توت عنخ آمون منذ طفولته المبكرة مرورا بفترة حكمه حتى اختفائه عن مسرح الأحداث وموته قبل أن يبلغ ٢٠ عاماً.

وأكد أرنست أن هذا العرض يوازي في أهميته العمل التاريخي «أوبرا عايدة» الشهيرة للفنان الإيطالي جوزيبي فردي والتي حققت نجاحا كبيرا حول العالم، والتي مازالت تسجل إعجاب الملايين من الذين يشاهدونها لأنها نابعة من الحضارة المصرية المستلهمة من التاريخ الفرعوني الذي أبهر البشرية في شتى بقاع العالم.

يذكر أن أول عروض العمل الفني الموسيقي «توت عنخ آمون» تم تقديمه للجمهور لأول مرة في يوليو ٢٠٠٨ بمدينة جوتن شتاين النمساوية من خلال مهرجانها الفني الصيفي العالمي.(١١)

إحالات

١- موقع العرب أونلاين WWW. ARABONLINE. CO.

٢- موقع البوابة WWW. ALBAWABA. COM.

٣- وكالة الأنباء التونسية WWW. AKHBAR. TN.

٤- موقع نسيج WWW. NASEEJ. COM.

٥- وكالة الأنباء العربية السورية «سانا» WWW. SANA. ORG.

٦- وكالة أنباء الإمارات . WWW. WAM. ORG. AE

٧- وكالة المغرب العربي للأنباء WWW. MAP. CO. MA.

٨- وكالة الأنباء الكويتية «كونا» WWW. KUNA. NET.

٩- وكالة أنباء الشرق الأوسط WWW. MENA. ORG. EG.

١٠- موقع القناة WWW. ALQANAT. COM.

١١- وكالة رويترز WWW. REUTERS. COM

كتاب الشهر



الفلسفة الشرقية

عرض وتقديم : محمد سليمان حسن ❁

كنّــا طلبة في قســم الفلسفة بجامعة دمشق، لمونــا، أن الفلسفة تبدأ من اليونان. وأن عصر ما قبل اليونان لا وجود للفلسفة فيه، بل هو مجموعة من التهويمات والأساطير والخرافات، والملاحم الأدبية النزعة، التقوية الفعل.

ظلّ هذا الأمر في نفسي، مع قراءات متوالية، حتى أنجزت كتابي «تيارات الفلسفــة الشرقية». والذي بحثت فيه من وجهة نظــر خاصة، خارج نطاق الصراع بين المركزيتين الأوروبيــة والشرقية، إمكانية التأسيس لفكر فلسفي شرقي.

❁ باحث سوري.

نقطة الانطلاق كانت، النظر إلى الفكر الشرقي من خــارج الرؤية الفلسفية الغربية كمنظومــة معرفيــة، ومــن داخلهــا كأداة منهجية للبحث، وتوصلت إلى الرؤية التالية: إن الابستمولوجيــة المعرفية الشرقية تنتظم وفق أنساق معرفية ثلاثة: النسق الميثولوجي الأسطــوري، والنســق الثيولوجي العقيدي، والنســق التأملي الفلسفي. وهــذه الأنساق الثلاثة، لا تنفصــل عن بعضها البعض، بل متداخلــة في المفهوم الكلــي، ومنفصلة في الجزئيات.

هــذا الكتاب مثــار التقــديم «الفلسفة الشرقية» يعمل ضمن هــذه الرؤية بحدود، وهــو من تأليــف فيلسوف شرقــي بامتياز «تشاكــرا فارّتي. براساد». قام بترجمته إلى اللغــة العربية عن الإنكليزيــة «وفيق فائق كريشات» وصدر عن الهيئة العامة السورية للكتاب للعــام /٢٠١٠/ وبحــدود /٢٧٠/ صفحة من القطع الكبير.

في عجالتنــا هذه نحــاول تقديم عرض للكتاب، بما يتسق والمعطيــات المعرفية له، مبتعدين قدر الإمكان عن وعورة الاستخدام اللغــوي والاصطلاحــي الموجــود، نظــراً لخصوصية الكتاب وأهميته. ودعوة للقارئ للعودة والاستزادة.

❁ ❁ ❁

المسائل القصوى وأجوبتها

ماذا نقصد بالمسائل القصوى وأجوبتها؟ إنها المسائل التي وصل من خلالها الفلاسفة إلى حدودهــم القصوى من الفهم والتفسير، فلا أصــول وراء ذلك. وأجوبة تلك المسائل، هي من الكلية بمكان، أنها إجابة وافية على كل ما يطرح من قضايا. والفلسفة الصينية من الفلسفات التــي تهتم بالمسائل القصوى لكنها لا تشغل نفسها بالواقع الأقصى. ومن المتيقن أن المسائــل القصوى التي تطرحها المدارس الفلسفية البراهمانية أو الهندوسية هــي مسائل ميتافيزيقية، وتســاؤل البوذية عن الغايــة القصوى هو ميتافيزيقي أيضاً. ربما الفلسفة الصينية القديمة هي وحدها كانت خــارج الميتافيزيقــا، وبالتالي، خارج المسائل القصوى. إن الفكر الصيني مؤسس علــى (الميتا أخلاق). وهــي دراسة مفاهيم القضايا الأخلاقية ومناهجها وافتراضاتها، ومن ذلك طبيعة الخير وعمل الصواب. فإذا كانت الفلسفة الهندية تسأل «ما الذي يوجد» فإن الفلسفة الصينية تسأل «ما الذي ينبغي فعله». فالشأن الأكبر في التراث الصيني هو الافتراضــ أن قدرة الفلسفــة على التفسير يستنفدها البحث عن كيفية الفعل في العالم الذي نحن فيه. والتحدي الأعظم هو معرفة كيف يُفعل.

❁ ❁ ❁

الذات

الـذات موضـوع شائق وشائـك في آن. ألسنا نعـرف ذواتنا؟ ولكن، هل نعرف ذاتنا في كليّاتهـا؟ إن معرفة الذات قضية تضرب عميقاً في تربة الثقافة الفكرية، ولها علاقة قويـة وثيقـة الصلة بكثير ممـا تختص به تلك الثقافة من أفـكار ومواقف. إن الفرق بـين الأساليـب الفلسفية المتبعـة في الهند والصـين الكلاسيكيين للنظـر في الذات لا يضاهيه البتة فرق آخر من الفروق الثقافية مـن معاني الذات «النفسـ» وهي كيان واع لا مـادي يسكن البـدن الفيزيائـي للكائن البشري، وهي أصـدق هوية له، تجعله حياً مـن بدء أمره، وهي غـير مائتة، تستمر في الوجود بعد موته فيزيائياً، ومن معاني الذات «الشخصـ» وهو الكائن الفرد الذي تجتمع فيه جملة التاريخ الفيزيائي والنفسي الذي مـن المعهود أن يصحب البدن من مولده إلى موتـه. فهو الكائن الذي يعقد صلات مع ما حوله من العالم ومع الذات أيضاً. والنفس في خاتمة المطاف هي «فاعل» الوعي. فالظاهر أنـه كلما نشأت حال مـن الوعي، فإن كائناً بعينه هو الـذي يخبرها. وفاعل الوعي هو الذي يحصل له الوعي، وبإزائه يقوم مفعول الوعي وهـو عليه يقع فعـل فاعل الوعي. والوعـي يحتـاج إلى فاعل، بـل إن تعريف الوعي هو أن يكون الشـيء واعياً فيه شبه من شيء ما.

❁ ❁ ❁

خير الخارج

تنقسم الخيرات في الفلسفة إلى قسمين: خـير الخارج/ وهو كل مـا يحيط بالإنسان وخير الداخل وهو خير الإنسان. إن خيرات الخـارج التـي تنشدهـا الفلسفـة تتحقق في العـالم الذي يعيش فيه المفكـر، أي عالم البشر. ويهتم الفلاسفة بما يقوم بين الناس من المعاملة. وهـم، يعتبرون البشر من جهة علاقتهم ببعضهم والنظام الذي تقوم عليه تلـك العلاقة، والمسائل التـي تختص بخير الخارج كثيرة، منها: ما بين البشر من فروق في السلطة والمكانـة وميدان العمل، وكيفية تحديد هويات المرء من جهة الآخرين، ودور المنظمات الكبرى في الأفراد وواجباتهم.

لقـد عرفت الفلسفة الخير بأنه: الدافع للفلسفة. وخير الخارج هو ما ينشد في العالم المشترك من أجل أن يصبح عالماً أحسن.

❁ ❁ ❁

خير الداخل

خـير الداخل هو ما ينشد المرء الوصول إليه من حال وجود أو سياق صيرورة. ويُنشد

خير كهــذا بما في طبيعة المــرء من حدس، ويستحق بحـدوث التغيير في المــرء نفسه، ويُستمد الغرضــ الأقصى لعمل الفيلسوف ممــا للوصــول إلى هــذا الخير مــن قيمة واضحة.

تتكون الذاتية من جملة عوامل، كالأفكار والعواطـف والذكريات والإحساسات ومعها العلاقات والأدوار، وتمتد من الانطواء نحو أعمــق أعماق الوعــي إلى الجهر بمخالطة العالم، ومن ثــم يُعسر البرهــان على الفرق بين الخيرين اللذين ينشدان داخلاً وخارجاً، وهي حال مفاهيم الشخص عند الصينيين، وتصــدق على مفهــوم الشخص في الأفكار الهندية، الهندوسية والبوذية. فالشخص في الهند والصين هو مقوّلة تتكون بالتأليف بين ما تعطيه الطبيعة وما يعلمه المجتمع. الفرق بــين خيري الداخــل والخــارج في الفلسفة الصينية أداة لتحليــل مختلف الغايات التي تنشد. أما في البوذيــة الهندية، فإن بينهما قدراً من التوتــر. وفي الهندوسية، نزوع إلى اعتبار خير الخارج فرعاً من خير الداخل.

❁ ❁ ❁

اللغة

إن قــراءة أوليــة في منظومــة اللغــات الآسيويــة، يضعنا أمــام طريقين في وظيفة



اللغة وأهميتها. الطريقة الأولى ترى أن اللغة مثال في شعورنا للعــالم وأشيائه. وهي بهذا المعنى، تصور بناء العــالم، بالتقاط أشيائه، وتفعل ذلك طلبــاً للتعبير عن حقيقة الأمر، وفيه ترجــع اللغة إلى العــالم. ونخص هذا الــرأي في اللغة باســم اللغة من جهة ماهي مرجع.

أمــا الطريقة الأخرى فترى اللغة وسيلة نسلك بهــا سبيلنا في العــالم. فالغرض من اللغة هنا ليس إدراك العالم، بل إدراك كيف نفعــل فيه. فاللغة واسطــة أو سبيل للتعبير عن العمل البشري لا تبليغ للحقائق.

تــكاد الفلسفــة الصينية تفــرّغ همها لفعاليــة اللغة في تنظيــم المجتمع البشري، وصبغــه بصبغة الاعتــدال. أمــا الفلسفة

الهندية فهـي تقبل بالكلية على البحث عن الحقيقة المعنوية، باعتبارها وسيلة للتعبير.

إن حدود اللغة دائمة الحضور في أفعالها. توافق ما التزمته ميتافيزيقياً وروحانياً.

❁ ❁ ❁

المعرفة

إن المعرفة هي جوهرية إن لم يكن ماهية كل فلسفة. فكل تفكير منهجي في قضايا الوجود البشري يتطلب المعرفة. بينما تتحدد وظيفة المعرفة في معرفة الأشياء بوصفها الظواهر. ومعرفة كيفية العمل الواجب. أي قيمية معيارية.

من المعهود أن يشتمل أول مفهومي المعرفة، أي المعرفة بالأشياء، على المعرفة بأن الأشياء هي كما هي: من جهة بدن الإنسان أو عقله والموضوعات الفيزيائية والرياضية. والأمر يدور حول حيازة العلم بما هو عليه. أما اكتسابه فيكون بطريقة منهجية. ويحتاج المرء أن يميز ويستعمل أدوات اكتساب المعرفة ووسائلها.

إن أكثر ما يعني الفلسفة الهندية هو المعرفة الحقائقية، بالبعد قدر الإمكان عن البراغماتية. أما الفلسفة الصينية فتعترف بأن المعرفة تحليلية.

❁ ❁ ❁

المنطق

المنطق هو دراسة نماذج التفكير التي تنسب النتيجة إلى مقدماتها الأولية. والمنطق على وجهين. المنطق العام المستخدم من قبل كل الناس والمقرون بعناصر شتى من مثل: الواو والفاء وكل وبعض وليس. وقد قدمت النصوص الفلسفية الكلاسيكية الصينية شواهد على التفكير المنطقي القائم على الانتقال من المقدمات إلى النتائج. أما في التراث الهندي فهذه المسألة أقل أهمية وبالتالي نتساءل: هل المنطق جزء من المنظومة الفلسفية الشرقية؟ في الفلسفة الهندية نعم. في هيئة جدال على وجه العموم. كما أن منطق المفكرين البوذيين يشتمل على قراءة منطقية ولكنه صبغ بصبغة دينية. أما في الفلسفة الصينية فالمنطق ضئيل. فمقام المنطق في الفلسفة الشرقية يقوم على أفكار الناس وإدراكاتهم وكيفية استعمالها في طلب المعرفة لدى الهنود. أما في الصين فأشد تسلطاً على المشاغل البراغماتية.

❁ ❁ ❁

مدخل تساؤلي:

ما اعتبره مهماً في هذا المدخل يتمظهر في التالي:

١- إن عنوان الكتاب هو «الفلسفة

الشرقيـــة» ولا خـــلاف في ذلـــك في مقابـــل الفلسفة الغربية لكن المشكلة هو أن الفلسفة الشرقية لا تقــف عند حــدود الفلسفتين: الهندية والصينية. فالمنظومة الأنطولوجية المعرفية للشرق تتجــاوز ذلك نحو فلسفات أخرى من مثل الزرادشتية والفلسفة السورية في بلاد الشام. وهــو مالم نجده في الكتاب. فكان من الأجدر إعطاء تعريف فرعي آخر للكتاب.

٢- إن الكتاب مترجم من اللغة الإنكليزية إلى اللغــة العربيــة. وهو ما يضعنــا أمام صعوبة العبور من اللغتين الهندية والصينية إلى اللغــة الإنكليزية ومن ثــم إلى العربية. وكان الأجدى أن يترجم من اللغة الأم.

٣- هنــاك إهمــال لبعضــ الأوجــه المعرفيــة. فالفلسفــة تتمثــل موضوعاتياً بالتالي: الميتافيزيقــا والفيزيقا، والإنسان، والمعرفة، والمنطــق، والأخلاق، وعلم النفس وعلم الاجتمــاع والسياسة، بحسب التقسيم الأرسطــي القديم. وهو مــالم نجده في هذا الكتاب.



الموسيقا الشعبية؟!

رئيس التحرير

أكثر من مرة كتبت عن ضرورة العمل لتطوير موسيقانا الشعبية، هذه الموسيقا التي هي حصيلة تراث ضخم وغني من الألحان التي تطوّرت خلال عملية النقل السماعي، وتستمد عناصرها وجوهرها من حياة الناس البسطاء، وتعتبر ثروة ضخمة ظلت لسنوات طويلة مهملة لم تمتد إليها يد التطوير..

في دول الغرب وجدت الموسيقا الشعبية منذ سنوات طويلة من يأخذ بيدها ويطورها وينهل من معينها، فأخضعوها للقوالب الموسيقية في

أوبراتهم وسيمفونياتهم وأغنياتهم الجديدة وفق الأساليب الفنية الحديثة، وكانت تجارب عديدة ناجحة تم من خلالها التجديد والتطوير في الموسيقا الشعبية مع الحفاظ على طابعها الأصيل المميز، وإن كان قد سار جدل حول مشكلة إبداع الموسيقا الشعبية؟ هل هي في الأصل من إبداع جماعة؟ أو من إبداع فرد، فقد أثبتت الدراسات الحديثة بصفة قاطعة أن دور الجماعة، ليس إبداع أغنية، بل هو إعادة لهذا الإبداع، وقد يصيب الأغنية بعض التعديل من فرد إلى آخر، وبمرور الأيام والسنوات تلحق بالأغنية تغييرات كثيرة وربما اعتبرت أغنية جديدة، لا تمت بأي صلة للأُغنية الأصيلة.

في منتصف قرننا الحالي، انتعشت الموسيقا الشعبية في كثير من بلدان العالم المتقدّم، فتركت بصماتها الواضحة على نتاجات أعمال لكبار الملحنين، واللافت للنظر أن هذه الأعمال حافظت على سمة المرونة التي تتسم بها الأغنية الشعبية، والتي ساعدتها في الماضي على أن تظل محفورة في ذاكرة الناس حتى لو تعدلت تبعاً للأنماط الجديدة في التعبير.

وخير تجربة يمكن الاستفادة منها في تطوير موسيقانا الشعبية، تجربة الموسيقار المجري بيلا بارتوك (١٨٨١-١٩٤٥). الذي ارتبط عاطفياً وفنياً بالموسيقا الشعبية المجرية، وكان يؤلف موسيقاه المؤسسة على هذه الموسيقا الشعبية بالأساليب الحديثة، فيلتزم في بعض مؤلفاته بما يسمى بالمقامية، وأخرى باللا مقامية، وقد عرض تجاربه الناجحة في العديد من دول العالم وحضر اجتماعات مؤتمر الموسيقا العربي الأول الذي عقد في القاهرة عام /١٩٣٢/.

لقد درس «بيلا بارتوك» في بداية حياته الموسيقا الكلاسيكية، وألّف بعض أعمالها، ولكنه بعد فترة بدأ يكتشف الموسيقا الريفية المجرية الأصيلة التي كانت مجهولة أو تكاد للموسيقيين، فوجد فيها الأساس التعبيري لأسلوب الموسيقا القومي الذي يطمح إلى تحقيقه، وكانت بداية عملية جمع الموسيقا الشعبية

والعمل على نشرها، وأدت دراساته مع صديقه «زولتان كوداي» إلى جمع وتصنيف أكثر من /٦٠٠٠/ أغنية أخذها من أفواه المغنين الشعبيين المجريين والرومانيين والسلوفاكيين، ثم اتسع بحثه حتى شمل الموسيقا العربية في شمال أفريقيا، وظهرت أهم أعماله عام ١٩٢٤، وهي الموسيقا المجرية الشعبية، وكان يهتم أيضاً بالآلات الشعبية وألحانها فأرّخ لها وكتب عنها دراسات غاية في الأهمية.

وفي وطننا العربي تجارب يمكن أن تحتذى، تأثر أصحابها بالموسيقا الشعبية مثل: عاصي ومنصور الرحباني من لبنان، وأبو بكر خيرت ورفعت جرانه، وجمال عبد الرحيم، وعبد الحليم نويرة وعلي إسماعيل من مصر، وصالح المهدي من تونس.. والأعمال التي قدّمها هؤلاء نجحت نجاحاً كبيراً، وحافظت على روح موسيقانا الشعبية لحناً ومقاماً وإيقاعاً، مع استنباط عناصر تعدد الألحان، فكانت الطريق نحو آفاق موسيقية عربية جديدة أثمرت نتاجات ترقى إلى العالمية.

إن دور هذه الموسيقا الشعبية في حياة الأمم والشعوب، ليست مجرد صيحات من الغناء والأنغام التي تردد في المواكب والاحتفالات والأعياد والمناسبات الشعبية، ولكنها نبضات روح الأمم، وقلوب شعوبها، تصوّر أحلام الأجيال وتطلعاتها وآمالها وعاداتها وتقاليدها، وتطويرها يتطلب منّا الإيمان بأهميتها وقيمتها وأصالتها، والعمل على إظهارها وتقديمها بلبوس عصري منفتح على الثقافات العالمية، ورؤية نابعة عن وعي متزايد بروح هذه الموسيقا، وعناصر قوتها وتجددها، وخلودها..